طبع على نفقة مارى ابنة سينا لذوى المرون الطبية ولمنفعته

الجزء الثاني

تراث الإسلام

تأليف جمهرة من المستشرقين

بإشراف السر توماس ارنولد

عربه وعلق حواشيه

جرجيس فتح الله

المحامي

المطبعة العصرية

١٩٥٤ - الموصل

obeikandl.com

الحروب الصليبية

THE CRUSADES

بقلم

PROF. ERNEST PARKER البروفسر ارنست باركر

استاذ العلوم السياسية في جامعة كمبردج

obeikandl.com

obeikandl.com

يفكر الجنس البشري كثيراً فيما يصح نعته بالحواسم التاريخية . ويعد الصدام بين الشرق والغرب من جملة المواقف الحاسمة. بدأ هيرودتس[1] تاريخه بتسائله «علام كان هذا الصدام؟» وما زال شعراؤنا حتى يومنا هذا يذكرون بزراية الاحتقار الصامت العميق الذي يستشعره الشرق للجحافل الغربية المغيرة الجامحة، أو يشيدون بذكرى ذلك النزاع المستعر الاوار الذي يباعد فيما بين هذين العالمين حتى قيام الساعة. ان حروب طروادة والفرس الاولى[2] ومعارك كراسوس[3] وهرقل[4] في سوريا والحروب الصليبية والفتوحات العثمانية كلها تبدو وكأنها تضرب على وتر واحد وتوحي بتكرار تلكم الاحداث في فترات رتيبة. ولكن تعبير (الصدام بين الشرق والغرب) يقصد به التبسيط الجغرافي لسلسلة معقدة من الاحداث التاريخية . والتاريخ سجل لما هو اكثر من نضال للاستيلاء على رقعة ارض . ويزداد الامر وضوحا بله عمقا حين يصبح الكفاح الظاهر بين الشرق والغرب قاصراً على مناوشات حقيقية بين ديانات وجنسيات ومدنيات يختلف طابعها جيلا عن جيل . ومما لا نزاع فيه ان ساحل البحر المتوسط الشرقي الممتد من القسطنطينية حتى الاسكندرية كان — لاسباب جغرافية عديدة — منطقة للنزاع التاريخي من اقدم الازمان التاريخية . ففيه كانت اوربا على تماس تجاري او روحي مع آسيا ، سواء أتم عن طريق البحر

---

١) *Herodotus* (٤٨٤ – ٤٢٥ ق.م) أول المورخين من الاغريق ويعرف بأبي التاريخ .

٢) افتتحت بغارات عسكرية من طروادة في سورية في القرن الثاني عشر قبل الميلاد .

٣) *Crassus* (١١٥ – ٥٣ ق.م) احد قناصل رومة اشتبك في حرب طاحنة طويلة الامد مع البارثيين .

٤) *Heraclius* (٥٧٥ – ٦٤٢ م) امبراطور الدولة البيزنطية اشتبك في حرب مع كورش الثاني انتهت سنة ٦٢٨ بعد ان دامت ثماني عشرة سنة ، اي قبل اندحار هرقل في اليرموك سنة ٦٣٦م .

الاسود أو الاحمر ببيروت أو عبر الصحراء . في هذه البقاع (اعني مصر أو كريت أو أورشليم أو اثينا) وجدت الحضارات والاديان ومدارس الفلسفة مهدها ومرتعها . فلم يكن هناك مفر من وقوع صدام مرير دائم في هذه المنطقة : بعضها اقتصادي وبعضها ديني وبعضها سياسي وبعضها عنصري واغلبها مزيج من هذه العوامل . ويحسن فهم كل صراع منها اذا ما درس بدقائقه .

والاصطدام الذي حصل بين كنيسة الغرب المسيحية وشعوبه ومدنيته هو من اعظمها واكبرها خطراً وربما جاز لنا القول انه بدأ بهزيمة هرقل (اول الصليبيين) في موقعة اليرموك سنة ٦٣٦م امام قوات الخليفة عمر ولكن من يدلنا على تاريخ نهاية ذلك الصدام ؟. كان في وقت من الاوقات دينيا بالدرجة الاولى وفي وقت آخر ذا مسحة سياسية غالبة ، كان نضالا بين شعوب مختلفة نخص منها بالذكر الرومان والسلاف من جهة والعرب والترك من جهة ، ولكنه بقي على الدوام صراعا مختلطا اشتركت فيه حضارتان بصورة رئيسية .

وكانت الحروب الصليبية صفحة من صفحات ذلك النزاع بدأت ١٠٩٦ وانتهت ١٢٩٠م اذا ما جددنا ختامها بفقدان الصليبيين آخر معقل مسيحي في ارض سوريا . أما اذا نظرنا الى الآثار المتخلفة عن بواعث الحروب الصليبية فقد يصح لنا القول انها استمرت حتى ظهور الملاحة البرتغالية واكتشاف كولمبس العالم الجديد .

للحروب الصليبية وجهان هما في الحقيقة باعثاها الاصليين (وان داخلتها في البداية بعض البواعث الاخرى) فهي اولا حركة روحية افصحت عن نفسها بنظام روحي. هي حرب مقدسة ، حرب عادلة عند رجال الدين من الوجهة النظرية ، فضلا عن انها مباركة يصح ان يقف الناس مصائرهم عليها ، حرب اعلنت في سبيل القضية النصرانية res Christiana وحدت مصدر قوى المسيحية كلها في اطار من عداء جمعي ضد خصمها الالد في الدين ولكن الحروب الصليبية كانت تستهدف استنقاذ الارض المقدسة ، كانت عبارة عن محاولة تفوق الغرب المسيحي على الشرق الاسلامي آضت اساسا للدولة المسيحية المسماة (المملكة اللاتينية في أورشليم) التي ترامت

على سواحل لبنان وأطلت على تخوم بغداد والموصل شرقا وامتدت حتى القاهرة في مصر غرباً . والوجه الاول هو الاكبر و أما الثاني فله اهميته الخاصة وآثاره . لقد كان للحروب الصليبية في مملكة القدس اللاتينية طابع خاص ونتائج خاصة منها ، قيام العهد الفروسي وانشاء البنادقة والجنويين مؤسسات تجارية في الثغور السورية ونمو الروابط التجارية والتبشيرية في قلب اسيا . في هذه البقعة ايضاً كما في (اسبانيا) كان الصدام والاحتكاك الوثيق بين النصرانية والاسلام مستمراً لكنه في اسبانيا يختلف بانه لم يسترع اهتمام اوربا قاطبة كما استرعاه هنا ، ونحن نتبين حين نسرح ابصارنا في مملكة اللاتين — الجذور العامة : الجذور الجغرافية لحوض البحر المتوسط والجذور التاريخية للقرون الاولى . وهي عبارة عن اخذ وردٍ وجزرٍ ومدٍ بين قوى الاسلام والنصرانية في حوض ذلك البحر ، ويستعدي بصرنا هذه الجذور العامة فيستشف الجبال القاصية الواقعة خلف المناظر المترامية امامنا .

يصح لنا القول جغرافيا أن ثم بحرين متوسطين هما البحر المتوسط العربي يتاخمه من جهة الشرق ايطاليا وصقلية وممر بحري عرضه مئة ميل يقع بين رأس سوريللو (Sorello) في جنوب غربي صقلية وبين رأس بون (Bon) في الشمال الشرقي من تونس . وهناك البحر المتوسط الشرقي يمتد من سواحل صقلية الشرقية التي كانت بين آن وآخر وفي مختلف عصور التاريخ ميدان قتال ونقطة التقاء البحرين حتى سواحل آسيا الصغرى وسوريا . هذا نصفا البحر الواحد ، أعني النصفين الشرقي والغربي من البحر المتوسط الذي كان في فجر التاريخ وعصوره السحيقة موطن حضارتين . وبناء على هذا ولما عقد لواء النصر للمسيحية ظهرت الكنيسة الرومانية والامبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب . وكان الشرق مثوى الحضارة الهيلينية وفيه ظهرت الكنيسة الارثوذكسية اليونانية والامبراطورية البيزنطية . ومن بين هذه التجزئة نبغ الاسلام في بداية القرن السابع وسرعان ما امتد التيار الكهربائي من مكة ينبوع قوته بسرعة . فلمع كالبرق الخاطف في سوريا وتعداها الى شمالي افريقيا ثم نط الى اسبانيا من مضيق جبل طارق حتى وصل سفوح جبال البرانس وفي اوائل العصور الوسيطة افلح في تثبيت قدمه في

كلا البحرين بالسواحل الجنوبية والغربية من بلاد الغرب ، والسواحل الجنوبية والشرقية من بلاد الشرق . وفي نصفي حوض المتوسط دخلت المسيحية في اصطدامات معه . هذه الاصطدامات كانت تحمل طابعا صليبيا قبل ان تبتدي. الحروب الصليبية فعلا ولكن هدف الحروب الصليبية عندما سلكت مجراها في نهاية القرن الحادي عشر هي زحف نصرانية الغرب اللاتينية على الشرق وكانت قبله لا ترتبط بعلاقة معه وانها هنا احتكت به من جهة عن طريق الكنيسة الارثدكسية والامبراطورية البيزنطية كحليفين لها وبادأت المسلمين في الشرق بعدوانها من الجهة الاخرى وربما كان العنصر الرئيسي المشمر أكثر من غيره في الحروب الصليبية هو هذه الحقيقة البسيطة ، أعني غزوة الغرب للشرق . ومع ذلك فهذا العامل البسيط له شؤونه البالغة من التعقيد . وعلته أن الشرق الذى اجتاحه الغرب كان يمور بالمشاكل والامور المعقدة . ولم تكن مهمة النصرانية اللاتينية قاصرة على تسرية خلافها وتجديد علاقتها بالكنيسة الارثدكسية البيزنطية فقد كان المسلمون منقسمين احزابا وشيعا فالاتراك بمذهبهم السني وطدوا دعائم حكمهم في غربي آسيا الصغرى من البحر الاسود شمالا حتى البحر الأحمر جنوبا يصاولهم في ارض سوريا (ميدان الكر والفر وساحة المعارك العتيدة) المصريون بمذهبهم الشيعي وعلى رأسهم الاسرة الفاطمية . وكان على الغرب الصليبي أن يتبين وان يعمل لاجتناء اعظم الفوائد من هذا النزاع الاسلامي وان لم يكن ليدركه الا بمشقة[٥] .

٥) كانت الحالة سنة ١٠٩٦ شبيهة نوعاً ما بحالة سنة ٢٠١ ق.م . حيث اصطدم الرومان حين بدأوا بنشاطهم في الشرق بقوى ثلاث : مملكة مقدونيا التي كانت تسيطر على اليونان وشمال الارخبيل حتى البسفور . ثم مملكة السلوقيين في آسيا الصغرى . ثم أسرة البطالسة حاكمة مصر . على ان ثم اختلافات جوهرية بين الحالين فقد عم الرومان شطر الشرق تحدوهم الرغبة في التعليم ويدفعهم الاعجاب بكل ما هو ثمرة للثقافة الهيلينية . اما المسيحيون اللاتين فقد كانوا يتمتعون فى نهاية القرن الحادى عشر بحضارة خاصة متقدمة حيث سنحت لهم الفرصة بالاخذ من علم المسلمين اكثر ما استطاعوا وهم فى أوطانهم جاثمون . زد على ذلك ان الرومان جاؤوا عالما يختلف عن عالمهم . اما فرنجة القرن الحادي عشر فقد وجدوا في الامبراطورية البيزنطية ما ينسجم ويتصل بعاداتهم وحضارتهم وان كان ملكه يختلف عما هو لديهم وربما كان ما تعلموه من البيزنطيين يفوق ما تعلموه من سوريا ومصر كما سنرى في هذا البحث (المؤلف) .

ان عبور المسيحية اللاتينية البحر لمنازلة الاسلام يمكن اعتباره تأريخياً، أعلى قمة وصلت اليها الاعمال العدوانية بين عالم الاسلام والنصرانية في شرق البحر المتوسط . وهذا ميدان رحيب من الاصل التاريخي الذي ينبغي لنا ان نضع في مجاله الحروب الصليبية . لقد تم للعرب في نهاية القرن السابع الميلادي اخضاع سكان أفريقيا من البربر . وتعاون العرب والبربر معا على فتح بلاد اسبانيا حتى جبال البرانس (٧١١ — ٧١٨ م) وبسقوط سيراقوز في غضون القرن التاسع ٨٢٧ — ٨٧٨ تم للاغالبة القيراونيين سكان شمالي افريقيا فتح جزيرة صقلية وصاروا يهددون كامپانا وأبروزّي الواقعتين الى الشمال من ايطاليا ، وذلك عن طريق القيام بغارات متقطعة ثم اقامة دويلات يترأسها مغامرون افاقون . أما مسلمو اسبانيا فقد شنوا الغارة على بلاد البروفنس وعلى شمال ايطاليا حتى سويسرا وكانت سردينية وكورسيكة هدفا دائما لغارات قرصانهم. ووصلت حضارتهم الى درجة من السمو في اسبانيا وصقلية لا بل تسامت الى الجوزاء . حتى انتقل تأثيرها منها الى فرنسا وايطاليا . وامتدت فلسفة قرطبة وعلى رأسها معلمها الاعظم (ابن رشد) حتى دخلت جامعة باريس وازّينت بالرمو بمغاني عربية وحفلت بجغرافيين وشعراء عرب إبان حكم ملوكها النورمان وخليفتهم فردريك الثاني ، فصدق القائل ان ثمار الثقافة التي منحتها العناصر الاسلامية الموقوتة للغرب كانت على الاقل — تعادل باهميتها التأثير الذي خلفه الشرق في الغرب اثناء الحروب الصليبية[٦] لكن مهما كانت المكاسب التي جناها الغرب فانها لم تغير من حقيقة كراهة الغرب أن يحتل اراضي النصارى اتباعُ دين آخر . وشاهد القرن الحادي عشر تقلصا تدريجياً في نفوذ المسلمين العسكري ازاء تقدم المسيحية على طول ساحل البحر الابيض المتوسط الغربي فبعد وفاة الخليفة العظيم « المنصور » ١٠٠٢ م اخذت بعض دويلات اسبانيا الشمالية (ليون وكاستيل واراغون ونافار) تدخل في فترة توسع وفتوح فسقطت طليطلة ١٠٨٥ م بيد الفونسو السادس القسطلي[٧] واستولت اراغون على سراقسطة ١١١٨م.

٦) الاستاذ بيكر *Prof. Baker* في « تاريخ كمبردج عن العصور الوسطى » ج٢ ص ٣٩٠ (المؤلف).

٧) اصيب تقدمه بنكسة وتقهقر خطير في غزوة دولة المرابطين سنة ١٠٨٦ ولكن تبين فيما بعد ان

اما شمال ايطاليا الذي مزقه النزاع بين الحكام البيزنطيين والمغيرين العرب فقد سقط في ايدي النورمان خلال النصف الاول من القرن الحادي عشر . وكر هؤلاء كذلك على صقلية فيما بين ١٠٦٠ـ١٠٩٠م وفتحوها . ودفع البابا بندكتس الثامن[٨] البيزيين الى احتلال سردينية حوالي ١٠١٦م وبظهور الجنويين والبنادقة خضدت شوكة القراصنة العرب فلم يعودوا رمزاً للرعب في بحر المتوسط . وفي نهاية القرن الحادي عشر لم يعد في قبضة العرب غير القسم الجنوبي من اسبانيا وشمال افريقيا . وفي غضون القرن الثاني عشر صاروا هدفاً لهجمات النورمان من صقلية ثم نوزلوا حتى في معاقلهم الافريقية ذاتها . وهكذا بدأ الغرب الذي اشتد ساعده وتنامى جسمه يجعل من نفسه سيداً ورباً لبيته .

هذا ما كانت عليه الحال في الغرب حينما تناهى الى السمع نداء من الشرق يدعو الى الحروب الصليبية . كانت دعوة مزدوجة وان رمت الى غاية واحدة . فقد أدى ضغط الاتراك السلاجقة — الذين بدأوا جنودا مرتزقة وانتهوا في الواقع الى صيرورتهم سادة لخلفاء بغداد الى فوزهم في سورية بالقدس من الفاطميين المتراخين سنة ١٠٧٠ هذا من جهة ومن جهة اخرى تمخض ذلك الضغط بهزيمة ساحقة للبيزنطيين عام ١٠٧١ في وقعة مَنازِجرد وكانت حاجة كل من القدس والبيزنطيين تستصرخ الغرب باجهر الاصوات فكانت الحرب الصليبية الاولى (١٠٩٦ — ١٠٩٩) تلبية لهذا النداء المزدوج .

تعاونت تقاليد الدين والتقدم الاجتماعي في اوربا الغربية على تجهيز هذه النجدة . كان الحج الى بيت المقدس للاستغفار والتكفير عن الزلات من اقدم العادات في بلاد الغرب ، والقدس هي اقدس مكان لذلك ، وابعدها مزارا عن اوربا في الوقت نفسه . فالوصول اليها واللوذ بحماها ينطوي على بركة مزدوجة . وهي في الواقع ومنذ زمن سحيق قبلة هؤلاء الحجاج . هذه القبلة يحيق

هذا التفهقر وقتي (المؤلف) . عرف الفونسو السادس وهو من ملوك ليون وكستيل (١٠٦٥-١١٠٩) بانه زعيم المقاومة الغربية المنظمة للعرب في اسبانيا .

٨) كان بابا لرومة مابين ١٠١٢ - ١٠٢٤ وعرف بتعصبه الشديد في مقاومة النفوذ الاسلامي .

بها الآن خطر عظيم ، وازالة هذا الخطر أمر لا بد منه . وهكذا كانت الحرب الصليبية الاولى عبارة عن قافلة حجيج شاكية السلاح تستهدف تطهير طريق الحج وتحرير محطر حل القادمين منهم . فكان الفرسان الحجاج هم الذين خلقوا مملكة بيت المقدس ، وهم الذين تواردوا سنة بعد اخرى لاحتلال تلك المملكة وحكمها .

ان التقدم الاجتماعي في نظام الاقطاع بتأثير الكنيسة كان سبباً مباشرا آخر للحروب الصليبية . فعاطفة الجماعات العسكرية المستوفزة لاثارة حروب موضعية (Geurra) ، جلبت انتباه البابوات والمجامع الكنسية في بداية القرن الحادي عشر . فحاولوا اول الامر ان يكبحوا جماح هذه العاطفة بتأليف جمعيات السلام (Pax) وسلام الله (Treuga Dei) ثم عمدوا أخيرا الى ارخاء العنان لها في « حروب عادلة » او « مقدسة » أما على شكل تقديس شكة الفارس الحربية في حفلة انتمائه الى طبقة الفرسان للدفاع عن العدل ومحاربة الظلم (فاعانت بذلك على خلق طبقة جديدة من الفرسان) واما بقلب هذه الحروب والمنازعات الاخوية الخاصة الى حرب عامة مقدسة ضد الكفرة كما طلب البابا أوربان الثاني [9] بدعوته الى الحروب الصليبية في كليرمونت عام ١٠٩٥ . وهكذا ارتبطت قضية السلام الداخلي بقضية الحرب المقدسة وكانت المجامع الكنسية المتتالية تلهج بذكر (سلام الله) وتشيد بالحروب الصليبية .

الى هنا كان للحروب الصليبية طابع مزدوج : سفرات حج ، وحرب مقدسة . على انها كانت ايضا شيئاً اكثر من هذا واقل ، كانت بالدرجة الاولى حلا لمشكلة السكان الذين اكتظ عصر الاقطاع بعددهم المتكاثر . كما وان صغار نبلاء الاقطاع ما عادوا واجدين لهم أي مطمح في بلادهم . وقد كان الدهر سيغني على كثير اخبار لعدد من افراد سلالة (تنكريد هوتفيل) [10] لو لم تنشأ مملكة النورمان في صقلية ، ومملكة اللاتين في القدس

---

٩) بابا رومة (١٠٨٨ - ١٠٩٩) الذي بشر بالحروب الصليبية في انحاء اوربا .

١٠) رافق هذا النبيل الفرنسي المغامر اول حرب صليبية سنة ١٠٩٦ وفتح طرسوس وحده ، ثم استقل بانطاكية سنة ١١٠٤ ، ثم تفرقت اسرته فكان منهم روجر الاول والثاني وتنكريد الثاني ، ملوك

مثلا . امثال هذه الممالك كانت عبارة عن مستعمرات اقطاعية استوعبت مهاجري الاقطاع . وقد اوجدت الحروب الصليبية بالدرجة الثانية اسواقا تجارية ارضا . لمطـامع الموانيء الايطالية المتعاظمة القوة . وأنشأت مؤسسات ومصالح للبيزيين والجنويين والبنادقة على سيف سوريا ، استخدمت بمثابة مستودعات لممالك التجارة الاسوية العظيمة . ولم يكن هذا الحدث عاملا صغير الشأن لاستقرار اللاتين في تلك البقاع بعد فتحهم لها . ولقد كانت السفن الايطالية تساهم في نقل المغيرين في اول الحروب الصليبية . وصارت مدن ايطاليا خير معوان في حرب الحصار التي مدت في عمر مملكة القدس وأقتها . وهكذا اخذت السفن الايطالية تنقل الحجاج المتدفقين سنة بعد سنة ، ولسنا ندري أحسن الحظ أم سوئه أن يقترن سبب الحروب الصليبية الروحي بسبب جديد آخر هو العامل التجاري .

يضاف الى هذه الاسباب المختلفة فرصة نادرة سنحت بظهور بعض التفكك في تماسك عرى الحكم الاسلامي ، كل هذه الاسباب اجتمعت فاعانت بلدوين الاول والثاني على تأسيس وتوطيد دعائم مملكة القدس ما بين ١١٠٠ — ١١٣١ ولكن ما كادت هذه الدولة تشب عن الطوق وتتحامل على قدميها حتى هددت بالانتقاض . فقد ولّد الضغط المسيحي رد فعل في المسلمين وكان مركز الثقل مدينة الموصل ، فقد برزت منها حوالي سنة ١١٢٧ شخصية أتابك زنكي [١١] على طول امبراطورية السلاجقة التي تناثر حطامها قطعا واشلاء صغيرة قبيل بدء اول الحرب الصليبية . ظهر هذا (الاتابك) على سائر اقرانه وبسط عليهم سلطانه واستخلص مدينة الرها من اللاتين سنة ١١٤٤ . فكان اول نكسة خطيرة حلت بهؤلاء .

وعرف خلفه نورالدين زنكي (١١٤٦ — ١١٧٤) بحميته الدينية وبجهاده الصادق ضد الصليبيين . واستطاع قائداه شيركوه الكردي وابن أخيه صلاح الدين أن يضما — أثناء

صفحة « النورمان » .

١١) لفظة اتابك ، كردية الاصل ، وهي مؤلفة من « اتا » ومعناها « انت » ومن « بك » وهو لقب للتعظيم أطلق هذا اللقب على افراد الاسرة الاتابكية التي حكمت شمال جزيرة العرب حتى مصر وكانت حاضرتها الموصل .

حكمه – القطر المصري برمته الى مملكته . فاعتمت مملكة اللاتين وقد هددت بالموصل من جانب، وبالقاهرة من جانب. وابتليت بالحماسة الجديدة للجهاد لمبارعة الجهاد الصليبي، ما عتمت أن خرت على ركبتيها واسلمت روحها بسرعة ، اذ منيت بهزيمة (حطين) الفاصلة في تموز سنة ١١٨٧ وطردت من اورشليم في شهر تشرين الثاني من العام نفسه . وبلغ صلاح الدين اقصى منيته بتحرير المسجد الاقصى الذي اسرى الله اليه بعبده محمد ليلا .

وعجزت الحروب الصليبية أن تنال قيد شعرة مما بناه صلاح الدين الايوبي ، على أن اللاتين ظلوا محتفظين بولايتي انطاكية وطرابلس في شمالي سوريا مدة من الزمن وافلح الامبراطور فردريك الثاني فى استعادة القدس بطريق المفاوضات السياسية لا بطريق الحرب وبقيت فى حوزته برهة (١٢٢٧–١٢٤٤) . على أن مملكة بيت المقدس كان الدهر قد جرّ عليها ذيول النسيان تماما . واكتظ القرن الثالث عشر بالحملات الصليبية . وأصاب كبد الحقيقة من قال « كانت الحرب مستعرة الاوار في كل بقعة عدا فلسطين . وهي الغرض الرئيسي الاول والاخير ». لم يكن لتلك الحملات هدف معين كانت ترمي على وجهها ، صائلة جائلة، كارة فارة ، من القسطنطينية(١٢٠٢ – ١٢٠٤) الى مصر (١٢١٨ – ١٢٢١) و (١٤٤٩ – ١٢٥٠)، الى تونس (١٢٧٠) وفي الحقيقة لم تفلح اكثر الحملات الصليبية توفيقا ، الا في الاستيلاء على القسطنطينية البلد المسيحي ، وفي تقسيم الامبراطورية البيزنطية زها. سبع وخمسين سنة (١٢٠٤– ١٢٦١) بين الفرنسيين والبنادقة . وان كانت هذه الامبراطورية قد تحاملت على نفسها وعاشت بانفاس ثقيلة متقطعة (١٢٦١ – ١٤٥٣) فقد تم لها ذلك بعد أن تخلت للفرنسيين عن شبه جزيرة المورة ، وللبنادقة عن كريت ، وجزر ارخبيل اليونان . كانت اول حرب صليبية عبارة عن حلف جرى بين الاقطاع الفرنسي وبين المدن الايطالية ذوات القوى البحرية. وبمجيء القرن الثالث عشر انتقل الاقطاع الفرنسي الى اليونان . وشرع الجنويون والبنادقة ينشئون قواعد تجارية للتبادل الاقتصادي مع الشرق فى كل من شبه جزيرة القرم وبحر آزوف . حتى لكأن فلسطين هجرت تماماً ، وحول مركز الثقل الى بقايا اطلال الامبراطورية البيزنطية الشرقية .

ولكن املا جديداً تبلج قبيل منتصف القرن الثالث عشر. فقد أهلّ على الغرب بشير يعلن حدوث تبدل جديد في الاوضاع الآسيوية مؤذن بتبدل الاحوال. فقد اقام (جنكيز خان) امبراطورية عظيمة لا هي اسلامية ولا هي مسيحية. امتدت من پكين شرقاً حتى الدنيپر والفرات غرباً. وكانت (الخانات) الاربعة التي انقسمت اليها تلك الامبرطورية كل واحدة منها تؤلف امبراطورية قائمة بحد ذاتها. نخص منها بالذكر القسم الفارسي وكانت عاصمته تبريز قريبة من البحر المتوسط بدرجة اخذت تتدخل في شؤونه.

كان المغول متسامحين. لذلك نبه شأن النساطرة المسيحيين في آسيا اثناء حكمهم، فلم لا يُهدي هؤلاء الى دين المسيح؟ ولمَ لا تتحقق الغاية الأساسية المنشودة من الحروب الصليبية على نطاق جد واسع ما كان متصوراً؟ صارت الرسل تذهب غادية رائحة. وبعث البابا انوسنت[١٢] الرابع جون دي پيان كارپيني رحلة كبيرة سنة ١٢٤٥ وبعث القديس لويس[١٣] سنة ١٢٥٠ وليام الروبرُوكسي في رحلة اخرى. ونشطت البعوث التبشيرية وشيدت الكنائس حتى في بقاع الصين. كان كل ذلك اشبه بالخيال أو الحلم. ولم يعد يصل فلسطين أي عون أو مدد. وتنوسيت امور انطاكية وطرابلس وقتاً ما مع بعض المحميات التي تخلفت للاتين على ساحل مملكة بيت المقدس. ووقع الشقاق والخصام بين خلفاء صلاح الدين. فانتعش اللاتين بفضل تلك الخلافات ولكن العسكرية الاسلامية الجديدة برزت بظهور سلاطين المماليك المصريين الذين استولوا على عرش القاهرة سنة ١٢٥٠م وقد سحق اعظم سلاطينهم (بيبرس) محاولة وحيدة لخانات المغول الفارسيين لوضع قدم لهم في سوريا، ثم انه جعل دمشق مقره سنة ١٢٦٠ وسحق امارة انطاكية وضمها الى ملكه عام ١٢٦٨ وفتح خلفه السلطان قلاوون مدينة طرابلس عام ١٢٨٩

---

١٢) كان انوسنت الرابع « ١٢٤٣ - ١٢٥٤ » شغوفاً بنشر الديانة المسيحية، وقد وجد متسعاً له لذلك رغم الخلاف الذي نشب بينه وبين فردريك الثاني وانتهى بانتهاء حياته.

١٣) يقصد به لويس التاسع ملك فرنسا « ١٢١٤ - ١٢٧٠ » الملقب بالقديس الذى قاد حملتين صليبيتين الاولى الى مصر حيث أخذ أسيرا وأفتدي، والثانية سنة ١٢٧٠ حيث توفي في تونس.

وضمها الى ملكه ايضاً . اما خلفه وابنه « خليل » فقد استولى على مدينة عكا آخر معقل للاتين على ساحل سوريا عام ١٢٩١ . وما أن شارفت شمس القرن الثالث عشر على الأفول الا وكانت المسيحية اللاتينية قد طردت تماما من اراضي آسيا الرئيسة .

على انها استمرت باقية في الجزر ، وآضت جزيرة قبرص التي انتزعها ريتشارد الاول من اليونان في الحرب الصليبية الثالثة ، تحت حكم ملوك اسرة لوسينيان [١٤] الذين هاجروا من الاقطاعات الفلسطينية . وهنا استمرت مبادىء الحكم الديني الاقطاعي الأسيزي Assizes للقدس تتارس وتقنن وبقيت مملكة قبرص تحيا كدولة مستقلة حتى عام ١٤٨٨ انتقلت بعدها الى ايدي البنادقة [١٥] وبالطريقة نفسها احتل فرسان الاسبتارية [١٦] جزيرة رودس سنة ١٣٠٩ بعد أن خسروا عكا نهائيا وظلوا حكاما على الجزيرة حتى عام ١٥٢٣ ثم نزحوا بعدها الى جهة الغرب والى مالطا . هذا وان آثار اللاتين الرائعة الناطقة بحكومتهم في شرق البحر المتوسط خلال العصور الوسيطة ما زالت باقية الى الآن . وفي الوقت الذي كان نبلاء الاقطاع يشيدون صرح حكمهم في قبرص ورودس استولى البنادقة على كريت وعلى عدد من جزر الشمال مما تخلف عن الحرب الصليبية الرابعة . اما الجنويون الذين اعانوا باليولوكس [١٧] على استعادة عرش القسطنطينية سنة ١٢٦١ فقد كوفئوا بضاحية بيرا Pera فضلاً عن اطلاق يدهم في

---

١٤) *lusignan* اسرة فرنسية مشهورة حكم احد فروعها القدس واورشليم وثم بلدة في فرنسا لا تزال تحمل اسم الاسرة منذ القرن الحادي عشر .

١٥) راجع محاضرتي ستوبز *stubbs* عن قبرص ومحاضراته في تاريخ العصور الوسطى والحديثة (المؤلف) .

١٦) معنى هذا الاصطلاح اللاتيني : « ضيف *hospes* وهي اسماء اخويات خيرية وجدت في مختلف العصور والبلاد ، كانت مهمة اعضائها في القرن الحادي عشر رعاية الحجاج المسيحيين في زياراتهم للقدس وحمايتهم . بلغت تنظيماتهم الحربية درجة لا مزيد عليها من الاتقان واحتلوا في القرن الرابع عشر جزيرة « رودس » وبقيت في يدهم حتى ١٥٢٣ حيث انتزعها الاتراك منهم ثم انقلبت الى منظمات دينية بحتة وانتقل مركزها الى روما سنة ١٨٧٩ . واصبح (فارسها) لقباً من القاب الشرف يمنح من البابا .

١٧) *Palaeologe* . ميخائيل باليولوكسي : ملك بيزنطة منذ ١٢٦١ م بقيت سلالته التي عرفت بهذا الاسم تحكم حتى سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ .

جزيرتي ليسبوس Lesbos وكيوس Chios وعلى هذا الوضع بقيت المسيحية اللاتينية مستحوذة على شرق البحر المتوسط حتى نهاية العصور الوسيطة وان كانت قد انحصرت في الجزر . ومع أن أغلب ممتلكاتها هي من بقايا الامبراطورية البيزنطية ومن بعض فتوحات ومغانم اسلامية ، فقد استمرت تشن الحرب على الاسلام من قواعدها المتناثرة ولم تنكص عن النضال حتى جعلت انتصارات العثمانيين شرقي البحر المتوسط بحراً مسدوداً Mare chusum ولم تفقد البندقية في الحقيقة آخر معقل عظيم لها في شرق البحر المتوسط الا بسقوط كانديه Candia عام ١٦٦٨ .

الفصل الثاني

ماذا كانت نتائج المغامرة الطويلة التي لعبتها المسيحية الغربية في شرق البحر المتوسط؟ ماذا كانت نتائج احتكاكها الطويل بمسلمي الشرق ؟ انه والحق يقال سؤال ذو شقين ، أولاً عن مدى تأثير الحروب الصليبية باعتبارها محض شكل من اشكال الاحتكاك ما بين الشرق والغرب ، أعني مسألة تأثير العوامل والاختبارات التي نالها الغرب من الشرق ، وثانياً عن تأثير تلك الحروب بوصفها حركة ايجابية فعالة في مجالات المجتمع الغربي . مسألة تأثير ذلك المجتمع من حركة انبثقت منه وارتدت اليه في الوقت نفسه خلفت فيه اقوى التأثير . ولقد تخبط المؤرخون في هذين المشكلين كثيرا وضربوا في ارجائها على غير هدى فنجم عن هذا التخبط أمور مبالغ فيها كثيراً كان بالامكان اجتنابها لو عمدوا على فصلها . وبامكاننا ان نستشهد — كمثل لهذه المبالغات — بفقرة من كتاب «تاريخ الحضارة الالمانية» لهيم ان راين Hemme - an Rhyn بخصوص الحروب الصليبية [١٨] . اننا نجدها تعزي فضل جميع التقدم الذي نهضت به العصور الوسيطة الى الحروب الصليبية فقد عملت في ناحية الدين على محو نفوذ البابوية ونالت

١٨) المجلد الثالث – الكتاب السابع : اقرأ بصورة خاصة ص ٤٩٨ – ٥٠٠ من كتاب *Kulturgeschichte das Mittelalters* . (المؤلف)

من قوة الرهبانية واصابتها بطعنة في الصميم ، وساعدت على قيام الهراطقة والالحاد . اما من الناحية الاجتماعية والاقتصادية فقد أدت الى تقليل الفروق بين الطبقات ونمو المساواة . وقيام طبقة الفلاحين الحرة وطوائف الحرفيين وتقدم الصناعة والتجارة، اما في الناحية السياسية فقد تمخضت بقيام نظام الاقطاعات والدويلات وبنمو المركزية الحكومية وظهور القوانين المسطورة، والادارة القضائية المنتظمة . أما في عالم الثقافة الوسيع فقد دفعت الفلسفة باعظم مفكريها عقيب الحروب الصليبية وبعيد التماس مع العرب الذين جيء بهم من بلادهم ، حتى التصوف فقد اصطبغ بصبغة العلم . واتسع نطاق دراسة الفلسفات القديمة وخصبت تربتها ودب في علمي التاريخ الجغرافي والجغرافية الوصفية نشاط جديد . وظهر الشعر المتسم بالطابع المحلي واحتلت الهندسة المعمارية القوطية Cothic مكان العمارة الرومانسية[١٩] Romanesque واستجدت اذواق سليمة في فني النحت والرسم . ويظهر شيء شبيه بهذه المغالطة المنطقية « بجعل ما سبق علة حتمية لما لحق Post hoc ergo propter hoc » في كتاب ككتاب هانز بروتز[٢٠] Hans Prutz الجليل العلمي الطابع المسمى «تاريخ الحروب الصليبية Kulturgeschichte de kreuzzuge » وهو ينم عن سعة اطلاع واحاطة غزيرة لكنه لا يميل من بعض النواحي الى التمحيص والاستخلاص الدقيق . كان (بروتز) يكتب اولا كمن يريد أن يجعل الحروب

---

١٩) العمارة الرومانسية طرز من البناء انتشر في اوروبا الغربية بعد اختيار روما وظل حتى ظهور الطاق المدبب الرأس في القرن الحادي عشر . وتمتاز هذه العمارة باقواسها نصف الدائرية مربوطة باعمدة ثلاثية الاضلع او مفردة وبعقود نصف كروية وخير مثال له كنيسة « سان مينياتو » في فلورنسا و « سان امبروجيو » في ميلان . وفي أواخر القرن الثاني عشر ، بطلت الموضة الرومانسية وراجت العمارة القوطية بأقواسها المدببة العالية وابراجه المقرنصة الشبيهة بالمنائر المزخرفة من كل جوانبها ، وباتساع الابواب وقد اضمحل هذا النمط في أواخر عصر النهضة في القرن الخامس عشر وخير مثال لذلك كاتدرائية نوتردام دي باريس ، و « سان بورغوز » باسبانيا و « سالزبوري » ببريطانيا .

٢٠) ط برلين ١٨٨٣ في ٥ اجزاء منها الرابع (في التراث الاقتصادي) والخامس (في تأثير الحروب الصليبية على تاريخ الثقافة) فهما يستاهلان اهتماما خاصا . (المؤلف)

الصليبية العامل الاوحد في تطـور اوربا خلال القرنين الثاني عشـر والثالث عشر (١١٠٠ – ١٣٠٠) وكما لو كانت جميع العلل الفعالة causae causantes لهذه السنين المئتين اسبابا ساعدت على خلق اوربا الجديدة في عصر الميلاد الجديد (الرينسانس) واظهار عهد الاكتشاف، وعهد الاصلاح الديني كنتيجة لهذا العامل الاوحد . على انها في الواقع كانت عاملا واحدا من بين عدة عوامل مختلفة واننا لنضيف مغالطة (العلة الوحيدة) الى مغالطة (جعل ما سبق علة حتمية لما لحق من تفاعلات) عندما نعتبر الحروب الصليبية التفسير الوحيد المفرد. وبروتز من الناحية الثانية وإن أقر بأن اسبانيا وصقلية هما (مركبتان) انتقل بهما التأثير العربي الى اوربا فقد وجد نفسه بالأخير ناسيا اقراره هذا اذا راح يجعل من فلسطين (المركبة) الكبرى بل كاد يجعلها المركبة الوحيدة فقد كتب ما يأتي :

« في اغلب نواحي التطور الثقافي نجد التماس القوي الاول الحاصل بين العناصر الشرقية والغربية تم على يد افرنج فلسطين وان هذا التمازج والاختلاط يجب اعتباره اولى الصلات المستديمة بين الشرق والغرب[٢١] . وهنا كذلك لا غلك الا ان نلاحظ مغالطة ما يدعى (بالعلة المفردة) . وتبدو لنا المغالطة اعظم حين نعيد الى اذهاننا ان العلة الاخرى (أي امتزاج العنصرين الشرقي والغربي في صقلية واسبانيا) كانت اشد اثراً وأعظم خطراً . ونحن في النهـاية لا يسعنا عند قراءة كتاب (بروتز) الا ان نشعر بتقليله من شأن الحضارة اللاتينية الغربيـة في مستهل ١١٠٠م والارتفاع بحضارة الشرق العربي الى الرساكين في الوقت نفسه متوخيـاً بذلك تقليد الحروب الصليبية فضل التأثير الاعظم وتجريد اسواق الغرب وجعلها أخوى مما تبسـطه امامنا الروايات التاريخية الموثوقة . كانت اوربا الغربية تكاد تستبق العصر الغريغوري المجيـد . كانت تشهد نهضة فكرية وصلت منتهاها بظهور فيلسوفها « ابيلار[٢٢] » وقيام الامارات الفرنسية ونشاط

٢١) ص ٤٥٢ من الكتاب السالف . والانصاف يحملنا على ان نزيد قائلين ان بروتز يعترف بوجود عامل آخر يختلف عن ذلك اختلافاً جوهرياً في ميدان الحياة العملية الحقة . (المؤلف)

٢٢) *P. Abelard* (١٠٧٩ – ١١٤٢) فيلسوف ولاهوتي فرنسي اضطهدتـه الكنيسة البابوية بسبب آرائه التقدمية التي ضمنها كتابه (مقدمة في اللاهوت) .

المدينة النورمانية والعمار النورماني واندلاع الثورتين الصناعية والتجارية اللتين يمكننا تحسسها في نهاية القرن الحادي عشر . هـذا كله لم يكن لوحاً خالياً tabula rase لا ولم تكن الثقافة العربية في الشرق ١١٠٠ في يومها الاغر ، بل على الضد كما سنرى ، فعنـدما بدأت الحروب الصليبية كانت شمس تلك الثقافة على شفا الأفول . وبقدر ما يهم التاريخ من أمر ، علينا أن نذكر دوماً أن ثمّ غربا جديداً متحفزاً دهم شرقاً عتيقا دهمته يدالخراب.

الحروب الصليبية ، كلمة سـحرية . والكلمات السحرية قد تكون مغانط تتجذب قطعاً كبيرة غريبة عنها الى دائرة تأثيرها الجذبي . فليس كل ما حصل في اوربا الغربيـة خلال الحروب الصليبية يصح نسبته اليها وربطه بها ، وجعله من جملة افضالها ، حتى وان لم تقـع الحروب الصليبية فربما كان غرب اوربا — الذي اخذت حياته المدنية والتجارية تسير في مضمار التقدم السريع ما بعد ١٠٥٠ — يستطيع ان يدفع بتجارته الى شرق البحر المتوسط ، ربما كان يحاول تثبيت نفسه في نهايات مسالك قوافل الشرق — شمال ساحل البحر الاسـود — حيث يمكنه أن يمس الطريق المتجه الى شمال بحر قزوين وغرب بحر آرال حتى بخارى وسمرقند ، او ان ينثني الى موانئ سورية ليصل منها الى بلاد فارس وخليج فارس وبهذا يلمس الطريق البحرية المؤدية الى الهند ثم يعبرها الى الصين . وكل ما فعلتـه الحروب الصليبية هو انها انشأت دولة سورية الاقطاعية — يحتل جانباً من اراضيها بعض افراد اقطاعيين وجانباً آخر فرسان الدوية[٢٣] والاسبتارية Hospitallers وهما جمعيتان تمتازان بطابع اقطاعي ايضاً. كانت صفة التجارة هي الغالبة في هذه الدولة — لوقت ما عـلى الاخص ، ووجد فيها عدة مناطق سكنها البنـادقة والجنويون والبيزيون مبثوثة في الموانئ الواقعة على طول الساحل . وعلينا ان نذكر بان هذا

٢٣) *templars* اخوية عسكرية دينية . أشتق اسمها من (هيكل *temple*) وعرفوا ايضا باسم «اخوة الهيكل» او «جنود الهيكل او جنود المسيح» . اسسها تسعة من الفرسان الفرنسيين سنة ١١١٨ وعلى رأسهم هوج دي بين . واعظام صفة الشرعية القديس برنار . وكان هدفهم تطهير طريق الحج الى بيت المقدس . وكان الاسم الاول الذى عرفوا به (الجنود الفقراء) ولا تزال اخـويات كاثوليكية في انحـاء اوربا تحمل رسالتهم وتعاليمهم حتى الآن .

الميل التجاري لم يكن محصوراً في المناطق السورية مطلقاً فقد تعداها الاحتكاك ووصل حتى القسطنطينيه والبحر الاسود . هذه الصلات صارت اوسع وانشط مما كانت عليه بعيد الحرب الصليبية الرابعة وفي غضون القرن الثالث عشر . مجمل القول، كانت سوريا اثناء القرن الثاني عشر — مابين الحربين الاولى والثانية الصليبيتين، مركز الثقل الرئيسي للعلاقات المسيحية الاسلامية في البحر المتوسط الشرقي . هنا افلح الاسلام اولا في أن يخلف تأثيره على الغرب المسيحي بضغطه على دول الاقطاع وبما كان يحدثه هذا الضغط من آثار على الغرب . وثانيا بشدة وطأته على طول الطرق التجارية ، هذا العامل يقتضينا ان نوليه حقه من الدرس.

لكن علينا أن نذكر ونعيد القول بأن الاسلام قد سبق فثبتت اصوله في الغرب واستطاع أن يخلف آثاره في اسبانية وصقلية . كان ثم صراع بين قوى متناثرة هذه القوى التي وان عجزنا عن تحديد مداها بالضبط كلاً على حدة — فني امكاننا أن نرى تأثير الاسلام في الغرب المسيحي كان على أشده في قاعدتيه صقلية واسبانيا مما هو في مراكزه (الموصل وبغداد والقاهرة). هناك سببان يدعمان هذا الغرض اولهما انه لم نر في سوريا ذلك التأثير الناجم عن امتزاج الثقافات كما نراه في صقلية ابان حكم روجر الثاني وفردريك الثاني . وثانيهما هو أن لاتين سوريا عجزوا تماما عن التشرب بثقافة الاسلام الغنية ؛ وهي بعد ثقافة اجنبية ولكنها قريبة في متناول ايديهم لا كما افلح مسيحيو غرب البحر المتوسط في الاستفادة من ينابيع ثقافة قرطبة واسبانيا المسلمتين .

ان انعدام الامتزاج الثقافي او بالاحرى عدم وجود أي مستوى من الثقافة مهما كان شكله في مملكة اللاتين باروشليم ، لامرٌ يدعو الى العجب حقا . فالخليط الجنسي المتكون من شعب النورمان والاغريق واللومبارد في صقلية جبلت بامتزاجه بالعنصر العربي البربري — حضارة مختلطة عظيمة الشأن. فني بلاط ملوك النورمان كنا نجد الجغرافيين والشعراء العرب يلقون حفاوة وتشجيعا . كما نجد فضلا عن ذلك كاتم سر وليم الاول يترجم له محاورتي افلاطون فيدو Phaedo ومينو وجانبا من كتاب ارسطو (في الآثار العلوية) وكتابات

ديجينس ايرتيوس Degenes Laertuis [٢٤] وكان بلاط فردريك الثاني اعظم شأناً من سلفه . فهنا كما نوه دانتي في كتابه لغة العامة [٢٥] de vulgai eloquio خطا الشعر الايطالي اولى خطواته . كان الملك يثير او تثار له مسائل عسيرة في تفسير الفلسفة الارسطية مما دعي فيما بعد بالمسائل الصقلية questiones sicilianae وقد حفظت لنا بشكل مخطوط عربي في المكتبة البودلية وكانت المملكة اللاتينية في اورشليم عبارة عن معسكر حربي خشن لا روح فيه ، او بكلمة اخرى معسكر لا وقت كاف لديه للمساهمة في بناء الحضارة . كانت جحافل اجنبية تعسكر في الحصون والقلاع لا تكلف نفسها عبء انشاء صلة وثيقة بمزارعي حقول القرى السورية ولا بالصناع المهنيين الذين كانوا في المدن مشغولين كما هم الآن بنسج السجاجيد وصنع اوعية الفخار وصياغة الذهب . وكان اللاتين قد انتشروا على امتداد الساحل بخط رفيع ضيق ، فوجب عليهم الدفاع عنه بوجه عالم اسلامي واسع الجنبات بهيم . ومهما كان شعورهم اللذيذ بدفء اورشليم مشعل ايمانهم وموقده ومركز الارض المستديرة umbilicus terra ، فهم على كل حال يحسون بانهم قد انتزعوا من احضان المراكز العظيمة لمدينة العصور الوسيطة كباريس وروما .

حتى اذا كان لديهم استعداد للتشرب بشيء من مدنية الاسلام — على قصر مدة مكوثهم التي ما كانت لتسمح لهم بذلك ، وطبيعة دور احتلالهم القلق المحفوف بالاخطار أفكان هناك حضارة اسلامية مجاورة يستمدون منها ؟ كانت الثقافة العربية في اسبانيا على قيد ابصار من غرب البحر المتوسط . فثمّ ابن رشد القاضي والطبيب والفيلسوف يعلم حتى نهاية القرن الثاني عشر . هناك احتك اليهود بالفلسفة العربية حتى حاول اتباع موسى بن ميمون ، بتأثير منها التوفيق بين التوراة وفلسفة ارسطو . هناك استفادت المسيحية اللاتينية (١٢٠٠

---

٢٤) ربما كان المقصود هو الفيلسوف اللاتيني الشهير ديوجينيس « ٤١٢ – ٣٢٣ ق . م » صاحب الاسكندر المقدوني .

٢٥) رسالة دانتي كتبها في مفتتح حياته ولم يتمها .

تقريباً) من التعمق في معرفة الفلسفة الارسطية الى درجة فاقت ما وصلت عندما كانت تعتمد على ترجمة (بويوس) الوحيدة لمنطق ارسطو وآضت المكتبة المشهورة في مسجد طليطلة التي ضبطها الاسبان عند احتلالهم المدينة ، كعبة الباحثين والعلماء . وكان ارسطو (العربي الاسباني) احد مصادر البحث في القرن الثالث عشر [٢٦] وليس هذا كل شيء . فان معارك الحدود التي نشبت جنوب جبال البرانس ، صارت موضوعات لمنظومات شعرية . وكما تمخضت حرب الحدود بين انكلترا واسكتلندا بملاحم الحدود الشعرية Bords Ballads وانتج الصراع بين اليونان والاتراك في طوروس الاغاني البيزنطية الشبيهة (باغاني المجد Chanson de geset[٢٧] ، كذلك معارك المسيحيين والمسلمين « الكفرة Paymine[٢٨] » فقد صارت موضوعا لأغنية رولاند[٢٩] ولاسطورة السيد القمبياطور Cid Compeador[٣٠] وكانت الحالة

---

٢٦) قارن كتاب « ت . ج دي بوير *T . J . de Boer* » المسمى تاريخ فلسفة الاسلام *geschichte der philosophie im islam* بكتاب رينان الموسوم « ابن رشد والرواشد » *averrous et averroism* (المؤلف) .

٢٧) اسم اطلق على ملحمة شعرية طويلة الفها شعراء التروفير من شمال فرنسا خلال اربعة قرون (١١٠٠ – ١٥٠٠) يشيدون فيها بتاريخ ملوك فرنسا وابطالها ، ثم صار يطلق على اغلب الملاحم الشعرية الوطنية على سبيل المجاز .

٢٨) كان الاسبان الكاثوليك يطلقون على مسلمي اسبانيا والبربر اسم *Poymine* ومعناها بلغتهم (الكفرة) .

٢٩) اغنية رولاند هي مقطوعة من ملحمة « اغاني المجد » السالف ذكرها . ربما كان تأليفها ١٠٦٦ – ١٠٩٥ واقدم نسخة لها محفوظة في المكتبة البودلية بانكلترا . وتدور الملحمة حول البطل رولاند ابن اخ الملك شارلمان الذي حاصره الملك (مرسايل) العربي مع اثنين من رفاقه وبعد دفاع مجيد قضى عليه . وقبل ان يسلم روحه نفخ في صوره فسمعه شارلمان وكان على بعد ثلاثين فرسخاً منه ، وفي الحال خف اليه وانتقم له من قاتليه .

٣٠) لم ينسج من الاساطير والقصص والشعر كما نسج حول شخصية « السيد » ولولا استطراد في كتاب عربي لابن علي الطيب المراكشي ، اكتشف مؤخرا لبقيت هذه الشخصية خيالية . من هذا الاستطراد نفهم ان « السيد » مواطن اسباني ظهر حوالي ١٠٤٠ وصار يبيع سيفه وشجاعته الفائقة لامراء العرب والاسبان . وتاريخ اسبانيا الحديثة ينظر اليه كبطل وطني . وقد احصي اكثر من مائتي ملحمة شعرية وكتاب يشيد

في الشرق تختلف عن ذلك . فقد دخلت الفلسفة دور الاضمحلال منذ ابتداء الحرب الاولى الصليبية ونضب معين الشعر المحلي بتأثير معارك الحدود خلال القرن الثاني عشر وكان ابن سينا العظيم قد قضى نحبه في همدان ١٠٣٧م . اما الغزالي الشاكّ الذي اتهم بهدم فلسفة بَشّر بها هو نفسه ؛ فقد توفي في خراسان ١١١١م كما كان خليفة بغداد يلقم المكتبة الفلسفية فم النار ، ومن محتوياتها مؤلفات ابن سينا نفسه . في ايام كهذه كان من الصعب جداً أن يتتلمذ لاتين الشرق على المسلمين او أن تحملهم شؤون الحياة الجديدة التي يعيشون فيها الى ابداع أي شيء . فلم يظهر شعر وفن جديدان في الارض المقدسة . وكان المغنون الذين أرّخوا ملاحم الحروب الصليبية ، من الغرب . وإن كان علم التاريخ الجغرافي قد ازدهر بمجيء فولكر الشارتري Fulcher of Chartes أو وليم الصوري Wiliam of Tyre واذا كانت كتب القانون قد أُلفت بفضل حنا الابلبني John of Ablin او فليب النافاري Philip of Navar فهذا كل ما يجدر ذكره من المآثر وليس ثمّ غير ذلك .

لذلك لم يتعلم لاتين مملكة اورشليم في ميدان الحضارة ، الا القليل من مدنية الاسلام أما ما كان لديهم فلم يتقدموا به الى درجة عرف بها الغرب ، والواقع أن الخدمة الكبرى التي اسدتها الحروب الصليبية لتطور مدنية الغرب لم يكن سببها احتكاك المسيحية اللاتينية بمسلمي الشرق ، بقدر ما كانت اهمية انشائها علاقات مع امبراطورية بيزنطية ومسيحيي اليونان. كان الانفصال التام تاماً بين الكنيسة والامبراطورية الغربيين وبين الكنيسة والامبراطورية الشرقيتين ببرزخ من النسيان قبيل الحروب الصليبية . وحدث احيانا أن رحل رجال امثال لوتبراند القرموني Liutprand of Cremona في سفارة شهيرة لأوتو الاول[٣١] الى القسطنطينية سنة ٩٦٨م أو شوهد رسل (ليون التاسع)[٣٢] في شوارع القسطنطينية سنة ١٠٥٤م ولكن العلاقات

بأثر هذا البطل ، وثم بقية من اغنية اسبانية شائعة اسمها (السيد *elcid*) يظن انها مقطوعة من ملحمة تبلغ اربعة آلاف بيت شعر .

٣١) ويلقب بالاكبر ٩١٣ - ٩٧٣ : امبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

٣٢) البابا ليون التاسع ١٠٤٩ - ١٠٥٤ .

بين الغرب والشرق ظلت منسية نادرة عدة قرون، وأضحى لاسرة كومنيني بعد سنة ١٠٩٦ [٣٣] علاقات دائمة بالدول الغربية واستقر اللاتين عقيب سنة ١٢٠٤ في الامبراطورية الشرقية . واننا لنجد في القرن الثالث عشر وليم الموربيكي William of Moerbeke— اسقف كورنث الفلمنكي يترجم مع وصيفه هنري البرابنتي كتابي : (السياسة والاخلاق) لأرسطو بمعونة القديس توما ؛ ففتحوا بذلك للغرب طريقاً اخرى الى الفلسفة اليونانية غير طريق اسبانيا . وفي نهاية القرن الرابع عشر وخلال القرن الخامس عشر حمل علماء بيزنطية الى ايطاليا تراث العلم اليوناني بكامل ثروته . فزودا عصر النهضة الايطالية بموادها الاولية ولم تكن القسطنطينية واقعة على طريق الصليبيين الرئيسي ، على أن الصليبيين كانوا يبعثون الى الغرب من القسطنطينية باوقر السفن التجارية بضائع وسلعاً .

الا أن الصليبيين كان عندهم سبل أخرى للتأثير في تطور اوربا الغربية نجمت عن توجه اهتمامهم الى سورية وأعانهم على ذلك دولة اللاتين الوقتية التي اسسوها هنـاك . وبامكاننا الرجوع بادي، ذي بدء الى الشواهد اللغوية . اعني الكلمات الغربية التي تسربت الى لغة العرب والكلمات العربية التي دخلت لغات اوربا . ويورد (بروتز) نماذج على ذلك منها (انبرور impera-tor [٣٤] و (قسـطل Castellum و (برج Burgus و (قرش Grossus) اما الكلمات العربية التي دخلت اللغات الغربية فأكثر بكثير وليس علينا الآن الا أن نتـأمل (Syrup , Jar, Dragoman, Caravan) [٣٥] في لغتنا الخاصة . أما اذا جئنا اللغات الاوربية ذات الاصل الروماني التي استمدت من لغة العرب رأساً (حال اننا استمددنا اكثر كلماتنا عن طريق هذه اللغات) فسنجد قائمة طويلة جداً من المصطلحات العربية التي دخلت على الغرب واليك طائفة

---

٣٣) كان موسس هذه الاسرة المالكة على امبراطورية الشرق هو الامبراطور اسحق الاول (١٠٥٧ – ١٠٥٩) الملقب كومنينس (*Comnenus*) ومنه اشتق اسم الاسرة .

٣٤) كلمة لاتينية معناها الحـاكم القاسي ، ومنها اشتق لفظ الامبراطور (*emperor*) قس عليها الكلمات الاخرى فهي لاتينية الاصل ايضا .

٣٥) اصلها العربي بالترتيب : كروان (من كرى ومكار) وترجمان ، وجرة ، ومشروب .

من الشواهد : (gabella , felucca , chebec , dousnce)[٣٦] وكثيراً مثلها . ولكن تعرض لنا صعوبات فيلولوجية واضحة في رد هـذه المدخولات الى الامكنة التي تسربت منها الينا . لم تكن فلسطين المكان الوحيد ولم تكن الحروب الصليبية العصر الوحيد الذي تم فيه ذلك ومن المحتمل أن تكون صقلية واسبانيا مكانين آخرين جرى فيهما هذا الاستمداد اللغوي كما ان اتصال الغرب الدائم خلال اجيال سحيقة بالعالم الناطق باللغة العربية من جهتي السويس الشرقية والغربية عن طريق التجارة والقرصنة كانت ايضا ظروفا زمانية ومكانية محتملة لهذه الاستعارة . الحق يقال أن الغـرب ما زال يستخدم مصطلحات عربية في عالم التجارة أمثـال (dinar . tariff , zechin , bazaar)[٣٧] وكذلك ثبتت مصطلحات بحرية ملاحية أمثال admiral , arsenal [٣٨] وبقيت مصطلحات منزلية مثل (sofa , mattress arafe alcove)[٣٩] كذلك هذه المصطلحات (amulte , elxer , julep , talisman)[٤٠] وثمة بعض اسماء لآلات الموسيقى (lute , nakar)[٤١] هـذه الكلمات ما زالت تستعمل او انها كانت دارجة الاستعمال فيما مضى . ولكن قبل أن نعزي ظفرتا بهذه المصطلحات الى الحرب الصليبية ، علينا أن نتثبت من زمان ومكان دخول هذه التعابير ونتحراها بكل دقة ، كانت

---

٣٦) اصولها العربية بالترتيب : دبوان وشبك وفلكة وجملة (وهي الحصة ويراد بهذه اللفظة في اللغات الغربية ضريبة حكومية معينة) .

٣٧) الاصل فارسي اكثر مما هو عربي (المؤلف) تقول البزار – السوق – كما هو في لغة العامة عندنا . – والبزار في اللغة هو باذر البذور او التوابل – وربما كان الاشتقاق من المفهوم العربي لا كما ذهب اليه المؤلف . زكين تاجر القطن ، تعرف . دينار .

٣٨) اصلها العربي امير الماء ، ودار الصناع او « الصناعة .

٣٩) اصلها العربي صفة بتشديد الضاء وبضم الصاد ـ اي الدكة او التخت ـ مطرح ، غرافة ـ من فعل غرف ـ القبة : قبة الحجرة وسقفها العالي .

٤٠) وأصلها بالترتيب : الملاءة ، الاكسير ، جلاب ـ فارسية مؤلفة من كلمتين جل : ورد وآب : ماء ـ طلسم ـ فارسية : طلسمان ـ

٤١) عود ، نقارة .

الحروب الصليبية سلسلة حروب . حروب وجهت الى اعداء جديدين باسلحة جديدة وبخطط عسكرية جديدة احياناً . لذلك يحق لنا أن نجد لهذه الحروب بعض الاثر في تطور فنون الحرب في الغرب. ويعتقد بعض الكتاب ان بناء القلعة الملمومة (concentric castle)[٤٢] الذي شاع في انكلترا اثناء حكم الملك ادورد الاول[٤٣] ما هو الا نموذج مأخوذ من فن العمار العسكري للمملكة اللاتينية في بيت المقدس . وهؤلاء بدورهم قد ساروا في عمارتهم على نهج التعديلات التي ادخلتها العرب على القلاع البيزنطية فقد عرفوها ووجدوها في سوريا . وباتباع هذا النسق من التحليل يرى بروتز انه « في الوقت الذي سار الاسلوب العام للدفاع الحربي في فلسطين على نهج الدفاع والتحصينات النورمانية (كتلك التي نراها مثلا في اراضي المستنقعات بوياز وجنوبي وياز) فان التأثير العربي يمكن اقتفاء خطاه في اشكال الاقسام المختلفة للقلاع الضخمة مع زيادة اقسام ما كان يعرفها الغرب من قبل في العمار الحربي القديم وفي عدد من انظمة وقواعد جديدة دفاعية استلزمها فن حركات الحصار العسكرية الذي تقدم في الشرق كثيراً[٤٤] وتبعاً لذلك يعزي بروتز الى المصادر العربية استخدام الحيطان المزدوجة (وهو اساس طراز القطعة الملمومة) وتشييد برج اضافي او نقطة حصينة بين الجدارين المزدوجين[٤٥] ويرى ايضاً في قصر گيار الشهير (chateau gaillard) الذي بناه ريتشارد الاول في فكسن

٤٢) هو طراز من القلاع العسكرية متحد المركز ، توءدي جميع ابراجها الفرعية وابهائها الدفاعية الى نقطة في وسط القلعة ، سميكة الجدران جدا لا منافذ فيها الا شقوق ضيقة ليتسرب اليها الهواء وبعض النور ويكون مدخلها من الاسفل احيانا .

٤٣) كان ادورد الاول ملك انكلترا ـ ولد سنة ١٢٣٩ وتوفي سنة ١٣٢٧ ـ احد الملوك المسيحيين الذين ساهموا في الحروب الصليبية .

٤٤) راجع ص١٩٤ من كتاب بروتز السالف ذكره . (المؤلف)

٤٥) والبرج المتقدم من هذا النوع على الاخص اذا كان مشيدا فوق المدخل او الباب يعرف باسم الباربيكان *(barbican)* وقيل ان هذه الكلمه قد تكون مشتقة من كلمات عربيه او فارسيه ، ومعناها : بيت على جوار او غرفة المدخل ـ استخرج هذه الكلمه من اي قاموس انكليزى جديد ، وتأملها .
(المؤلف)

(vexin) بعض دلائل ومعمات لا جدال فيها تشير الى تأثير الشرق . راح المؤرخون – من جهة اخرى – يؤكدون بان القلعة الملمومة قضت فترة تطورها في الغرب ونقلها الصليبيون الى الشرق . ومما لا نزاع فيه ان المهارة الهندسية التي اظهرها مغامرو النورمان والتي تجلت في اوربا الغربية قبل أن تتجلى في فلسطين ، كانت قمينة ببلوغها هذا الشأو من التقدم . في منابعها الخاصة دونما تأثير خارجي ولنا ان نؤكد بكثير من الاطمئنان ان الحروب الصليبية قد ساعدت على انماء حركات الحصار العسكري ، واستخدام طريقة اللغم ، وحفر الخنادق الكاذبة واستخدام آليات المهداد كالمنجنيق والكباش وربما استخدام مختلف اشكال النيران وآلات قذف اللهب . ومع ذلك فربما كان الاصل هنا بيزنطياً أكثر مما هو عربي . وربما لم يكن المهندس الألمعي الذي استقدمه فردريك الاول من الارض المقدسة إبان حصار كريما Crema سنة ١١٥٩ من تلامذة العرب بل من تلاميذ اليونان . وقيل أن القوس المصلبة cross bow جاءت من الشرق ، وعزي استخدام الدرع لحماية الفارس وجواده الى تأثير الحروب الصليبية . وعزي كذلك استخدام بعض الوسائد والثياب القطنية الواقية تحت الزرد . وعلى كل حال فان الفارس الفرنكي تعلم اثناء حربه في فلسطين . استعمال الكوفية العربية وقاءً لرأسه وعنقه من حرور شمس الشرق . واستخدام الحمام الزاجل لنقل المعلومات العسكرية انما هو اختراع عسكري أُخذَ عن العرب ويحق علينا القول باننا كثيراً ما عثرنا على تنويهات بهذا في اخبار صقلية النورمانية ومن المحتمل أيضاً إنّ عادة الاحتفال بالانتصارات العسكرية بطريق التنويرات ونشر السجاجيد الملونة على الجدران والنوافذ (وان كانت عادة طبيعية ملازمة لما جبلت عليه تربة البشر من نوازع وعواطف) فربما كانت من جملة ما اسقيناه من المصدر نفسه . ومناورات الكر والفر والطعان والضرب والمشابهة لالعاب (الجريد)[٤٦] ربما تم نقلها بواسطة الصليبيين. ويمكن أن يعزي كثرة استعمال البيارق والرنوك الى الاحتكاك بالقبائل العربية في سورية. وقد ثبت انهم استعملوا بعض اشكال من الرايات الحربية كالنسر

٤٦) الجريد « جمع الجريدة » وهي قضبان النخل المجردة من خوصها وللعرب فيها العاب كثيرة .

ذي الرأسين وزهر الزنبق والمفتاحين (شكل ١) وكثير من رسوم الرايات فضلا عن تسميات لبعض الرايات لا يمكن تجاهلها مثل (الآزور azure) وربما (گوليس[٤٧] gules) اذ يبدو انها استمدت من المصدر نفسه. ويبدو أن توحيد شارات الدروع في اوربا سببه الحروب الصليبية. كذلك رسوم الرايات الخاصة ورموزها وانظمتها المتشابهة في جميع دول اوربا.

اما التجارة فقد امتدت على آثار الحروب اثناء الحروب الصليبية. اذ سرعان ما احتث التاجر الايطالي خطاه في اعقاب الفارس الفرنجي. ولم يقتصر امر التجارة على محاصيل سوريا وسلعها بل تعداها الى سلع الهند والصين وجزر البهار ومنتجاتها. والحق يقال ان هذه التجارة الشرقية لم يكن بد من ظهورها واتيان ثمارها — على نحو ما المعنا اليه — حتى وان لم تنشب الحروب الصليبية. وعلينا ألا نغفل بأن البندقية كانت اسبق الى شق طريقها للاسواق الشرقية عن طريق بيزنطة قبيل اندلاع الحروب الصليبية بعدة سنين. لذلك ليس لنا أن نعزي الى الحروب الصليبية وحدها (لا يمكننا ان نعزي اليها وحدها على كل) فضل تزويد اوربا بكل السلع التي وردتها خلال القرون الوسيطة أو أن نقلدها فضل ازدهار الاسواق وطرق التجارة الغابرة الذي عقب ذلك التموين السلعي. ولا يمكننا في الوقت نفسه ان ننكر مطلقا الحافز التجاري العظيم الذي تسبب عن استقرار اللاتين في سوريا والمعرفة بكل منتجاتها وصناعتها المحلية، وبالاقتراب (الذي اعقب هذا الاستقرار) من اسواق دمشق واسواق بغداد عن طريق الرقة والفرات. بهذه الوسيلة نستطيع ان نفسر انتقال نباتات وحبوب واشجار شرق البحر المتوسط الى اصقاعه الغربية. كالسمسم والخرنوب والذرة والأرز والليمون والبطيخ والمشمش والثوم shallot[٤٨] وبالطريقة عينها يمكننا ان نفسر انتشار الازياء والصناعات الجديدة في الغرب. أو على الاقل الطراز المتقدم للثياب والازياء القديمة كالملابس القطنية وانواع الموسلين

٤٧) «آزور» مأخوذة من لازورد، وكابس مأخوذة من لفظة «كل» الفارسية ومعناها الوردة او الزهرة.

٤٨) الثوم بالفرنسية *echalot* هو باللاتينية *alluim ascalonicum* ومعناه البصل العسقلاني (المؤلف).

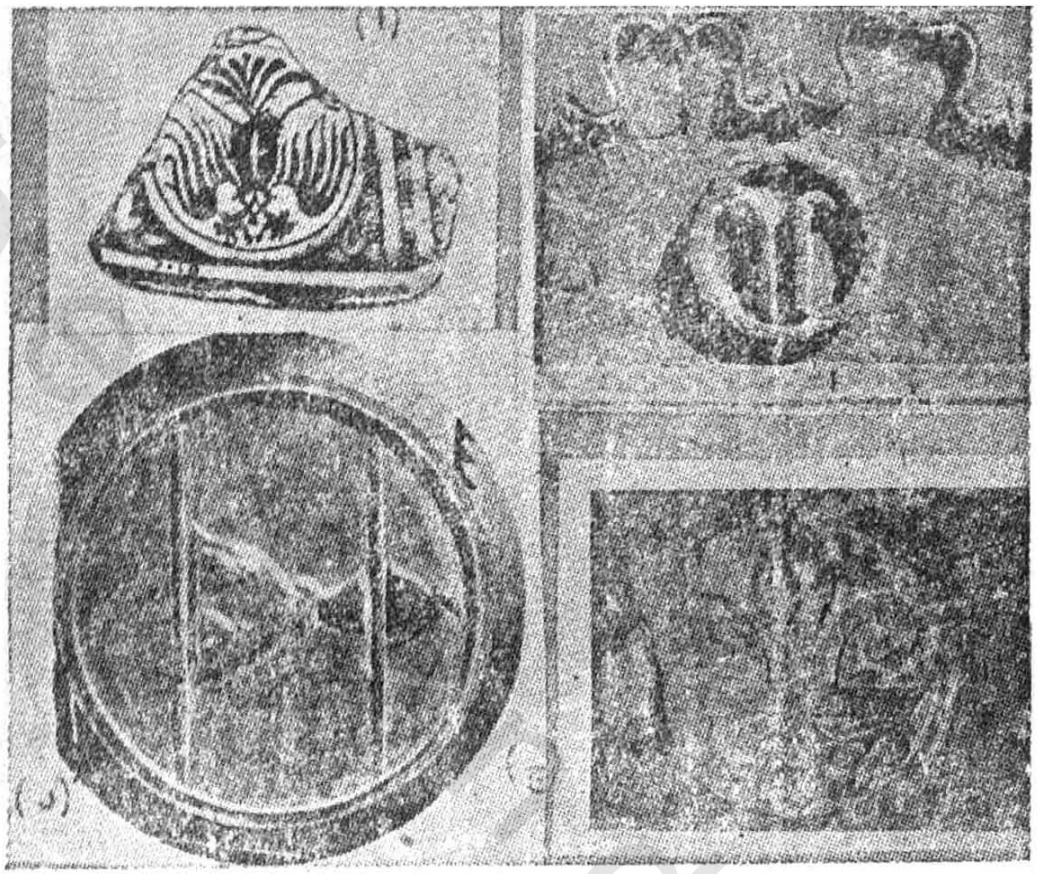

(شكل ١)

شعارات حربيـة

أ ـ نسر ذو رأسين . ب ـ صوالج .

ج ـ زهرة الزنبق . د ـ كؤوس .

الوارد من الموصل . والبلد كان الوارد من بغداد . والدمقس والدمشقيات الواردة من دمشق والسميتي samite والدمياطي dimities والديابر diapere[٤٩] من بيزنطية والاطلس atlas العربي — وهو نوع من الحرير الساتان يصنع في الشرق — والسجاد والبسط والبطاطين من الشرق الادنى واواسط آسيا وادهان الصقل والوان جديدة كالقرمز والليلق lilac , carmine(وهما عربيتان كما يدل اللفظ) والاصباغ والادوية والتوابل والعطور كالشب والعود والقرنفل واللبان والنيل وخشب الصندل وبعض الازياء من الثياب والالبسة امثال الكاملت camelt والجوب jupe (من الجبة العربية) والمساحيق ومرايا الزجاج والاواني الخزفية الدقيقة الصنع والزجاج والذهب والفضة وشغل المينا حتى السبحة نفسها التي قيل بأن مصدرها البوذيون وانها وصلت عن طريق سوريا الى اوربا الغربية .

هذه التجارة الشرقية التي نشطتها الحروب الصليبية — ان لم نقل اوجدتها — والتي اضحت مركزة بالدرجة الاولى في سوريا خلال القرن الثاني عشر لم يكن تأثيرها قليلا على تقدم مسالك التجارة وظهور وسائل جديدة للتبادل المالي والشؤون المصرفية . ولقد تغذى بهذه التجارة الشرقية الطريق التجاري الاوربي العظيم في العصور الوسطى — المبتديء بالبندقية والممتد عبر ممر برنر ثم كولمبيا ومنها يتفرع فيعرج فرع على لوبيك lubeck الواقعة على البلطيق وينتهي فرعه الثاني ببروگس bruges الواقعة على بحر الشمال وكان هذا الطريق مزدحماً — على طوله — بمدن القرون الوسيطة واتحاداتها الصناعية ولومبارد على امتداد نهر الراين والفلاندرز وشمال فرنسا . وفي الوقت نفسه كان ثمّ خط ملاحة ثابت منتظم عبر البحر المتوسط لشحن البضاعة

---

٤٩) « الكاملت » نوع من اللباس يتخذ من وبر الجمال كما ينم عنه اسمه ، او ربما كان من الحملة او المخمل . و « الدايبتي » نسيج يوناني كما ينم عنه اسمه الاغريقي ومعناه النسيج ذو الخيط المضاعف ويستعمل للستائر والاغطية . وعن الخطط للمقريزي : « الدمياطي هو الاقمشة الحريرية والكتانية المقصبة » و « الديابر » هو نسيج ذو زخارف منثورية ومعينية ومصدره بيزنطه . و « الساميت » نسيج حريري اغريقي كما ينم عنه اسمه .

أو لنقل الحجاج. واضحت البندقية ومارسيليا مركزين لادارة هذا الخط الملاحي وانضمت الجماعات العسكرية الى اصحاب السفن من المدنيين وشركات النقل البحري لتشغيل هذا الخط. واستدعت الحاجات المالية لتجارة الشرق البعيد وتنقلات الفرسان المبحرين منهم والمقيمين في سوريا الى ايجاد نظام اوراق الائتمان والتحاويل المالية ونشأت المصارف والبيوت المالية (في جنوة وبيزا وسينا) وامتدت فروع لها والقت اعمالها على طول ساحل الشام وقد صارت الجمعيات العسكرية وخصوصاً جماعة التمبلارية الدوّية) بمثابة مصارف للايداع والتسليف. ومن النتائج النقدية العجيبة التي تخضت بها الحروب الصليبية في شؤون التجارة الشرقية التي شجعتها ؛ هي أن سك البادقة في الارض المقدسة عملة نقدية اسموها (بيزنطيني ساراسيناتي byzantini saracenati) وهي سكة ذهبية (ربما كانت اقدم ما ضرب اللاتين من مسكوكات ثمة) وذلك لتعامل بها مع الاقطار الاسلامية الداخلية وظلت هذه المسكوكات محلاة بزخارف عربية وبآيات قرآنية قصيرة واشارات الى النبي (ص)وتاريخ هجري حتى سنة ١٢٤٩م(وبعدها اعترض عليها البابا انوسنت الرابع) واننا لنستطيع الوقوف على مسكوكات من الشكل نفسه حتى في جنوبي فرنسا يرجع بها العهد الى اواخر القرن الثالث عشر .

اما عن البناء والفنون والصناعات اليدوية وعن شؤون الحياة اليومية والفضاء المنزلي بصورة عامة، فبوسعنا أن نتأثر خطى بعض الآثار التي انتقلت من الشرق الى الغرب خلال القرنين اللذين تصرما بالحروب الصليبية . وربما لم نجد حقاً – الا القليل من الاسباب التي تجعلنا نظن بأن الحروب الصليبية كانت ذات تأثير كبير في تطور بناء القلعة الملمومة بصورة عامة في بلاد الغرب . ليس ثمّ طابع معين يميز العمارة العربية عن غيرها فهي تختلف باختلاف البلاد نظرا الى طرز الابنية المحلية التي يجدها العرب الفاتحون في البلاد المحتلة . اما التائل المشترك الوحيد في الابنية فهو وجود الزخارف والنقوش . استعمل العرب شكلا من القوس العماري المدبب لكنه كان يختلف عن القوس الذي نجده في العمار القوطي واستخدموا زخارف هندسية لأن دينهم كان يمنعهم من نقش اشكال الحيوانات على انه لا يوجد دليل بأن زخارفهم هذه كانت

ذات تأثير على ما يدعي بالتريفول والسنكفويل cinquefoil , trefoil [٥٠] في العمار القوطي اثناء مرحلته الهندسية[٥١] وتكاد تكون بقايا العمار الكنسي في الارض المقدسة غريبة الاسلوب مجتة . شيدت وفق قواعد البناء الغربي وعلى غراره . وغاية ما يمكن قوله ان عوامل محلية أدت الى تزويقات وتحليات محلية . كأن أدى عدم وجود الخشب في فلسطين مثلا — الى بناء الكنائس بسقوف مسطحة او كأن يدخل البناؤن والمعمارون — خاضعين طبعاً لتأثير التقاليد الشرقية — تحريفاً أو تغييراً طفيفاً في بناء شيد وفقاً للذوق الغربي بصورة عامة[٥٢] . اما الزخرفة العربية على الجدران فهي مغربية لا تمت إلى الشرق بصلة . وان كانت الحروب الصليبية قد ادخلت عناصر جديدة في فنون النحت الغربية فهي بيزنطية لا عربية بالاحرى . أما الرسم فليس فناً عربيا اما الفسيفساء (الوزاييك) في كنائس الارض المقدسة فقد كان مستمداً من البيزنطيين . واننا لنستطيع اقتفاء آثار التأثير العربي في مجالات اضيق مما ذكرناه سابقاً أعني في دائرة الفنون المنزلية والصناعات اليدوية ، فهنا يتضح التأثير العربي اكثر من أي مكان آخر ، ففي مملكة اورشليم نفسها كانت بيوت الاقطاب والزعماء تبنى على الانماط العربية فيما يختص بباحة الدار والدكاك . والفسقية وفي خريرا لياه الجارية . وسارت الزخرفة الداخلية وتوزيع الاثاث في الدار على هذا المنوال ، وعلى الاخص في البندقية . وربما كان لقطع العاج والمينا والسجاد والبسط الشرقية التأثير نفسه في الغرب بصورة عامة . وقد نتحدث فيما بيننا عما يدعى بالنمط العربي arabasq , rebesk في العصور الوسيطة — باللهجة والنغمة التي نتحدث عن النمط الصيني chinoiserie (وذلك عن

٥٠) التريفويل *trefoil* مصطلح يطلق على الاوراق النباتية الثلثة في الغصن الواحد ، والسنكفويل *cinquefoil* على المخمسة منها .

٥١) يقول ابروتز (ص ٤١٩ من كتابه السالف لكنه يقر بأن قوله لا يعدو الظن) أن التأثير العربي قد يكون له الفضل في كسب الغرب القوس المعماري الشبيه بحدوة الحصان او القوس نصف الدائرى المركب من عدة اقواس صغيرة . وهكذا كانت ممهدة لابتداع (السنكفويل) والاشكال المختلفه من الزخرفة الهندسية . (المؤلف)

٥٢) ان الكنائس ذوات الهياكل المستديرة (ما يزال في انكلترا اربع منها ويمكن ترسم آثارها في

ورق تزيين الجدران ودهان الاخشاب اللماع lacquers[٥٣] والاثاث) في القرن الثامن عشر وربما حدث فاشترى الحجاج صناديق وعلباً عربية لحفظ التذكارات المسيحية والعود بها الى اوطانهم وربما آبوا الى بلادهم مرتدين الاحزمة الشرقية ذات الصور والجيوب كيما يقلدونها في مدينة باريس ولعلهم نقلوا الى الغرب (التنير) المصنوع من قرن الحيوان الذي رددت اجواء سوريا صداه فى زمن ما .

ولقد كان عرب اسبانيا بالاحرى، لا عرب الشرق هم الذين اهدوا الى الغرب اللاتيني هباتهم النفيسة في ميادين العلم والفلسفة على أن الشيء الذي لا يمكن نكرانه مجال ان بعض المعلومات الرياضية انتقل من الشرق فأثر عن ادلارد الباثي الذي درس فلك العرب وهندستهم، انه سافر الى مصر وآسيا الصغرى فضلا عن اسبانيا في غضون النصف الاول من القرن الثاني عشر . وأثر عن (ليوناردو فيبوناشي) اول عالم جبري بين النصارى، المعاصر لفردريك الثاني الذى قدم له هذا العالم رسالته الجبرية فى الاعداد التربيعية (Square Numbers) بأنه زار مصر وسوريا كذلك . ربما كان الفضل فى انتشار الارقام العربية والحساب العربي الى نشاط التجارة ما بين سوريا والمرافىء الايطالية . وكان الطب كالرياضيات من مفاخر العلوم العربية وار كانه الوطيدة . على ان موطن المفاخر العلمية العربية ومصدر اشراقها كان اسبانيا اكثر من سوريا . وغاية مايمكن أن نجيزه فى موضوع تأثير سوريا هو أن نقلدها فضل قيام مدرسة الطب في مونپلييه بسبب التجارة التي كانت جارية آنذاك بين فرنسا وساحل سوريا .

ان الفلسفة المدرسية التي ظهرت فى القرن الثالث عشر كما وجدنا — لا تدين بشيء مباشر الى فلاسفة العرب الشرقيين . فما اتخذته من مواد الدرس هو مواد

فرنسا واسبانيا) انما هي تقليد دقيق (لكنيسة القبر) والمعبد في القدس . كما نجده ايضا في الدهاليز labrinths أو (ممالك القدس) عند بعض الكنائس الغربية ، أو في الاورشليمات لدى بعض مدن الدير التيوتوني في بروسيا . (المؤلف)

٥٣) والعامة عندنا يسمونه (كوملكه) وهو الدهان الشائع في تلميع الخشب وصبغه . والمعلوم انه

« ارسطية العرب الاسبان » او « المعرفة بارسطو » التي وردت مباشرة من بيزنطية[٥٤] دعك من المؤثرات المسيحية وتعاليم القسس التي دخلتها . ولعل تأثير الحروب الصليبية في الفنون وأدب الكتابة كان اعمق نفوذاً وابعد غوراً . فمن احدى نتائجها المباشرة ، قيام دراسة اللغات الشرقية . ونستدرك فنقول ان فضل هذه الظاهرة على كل حال لم يكن راجعاً الى الحروب الصليبية نفسها بقدر ما كان راجعاً الى البعثة الآسيوية التي وردت على اعقاب تلكم الحروب واستهدفت هداية المغول الى دين النصرانية . وكان رايموندس للوس Rymondus Lullus القطلاني اول من حاول ان يرقى بسير الدراسات الشرقية لجعلها اداة حرب صليبية سلمية تستخدم فيها اسلحة روحية فقط . لذلك فانه انشأ عام ١٢٧٦ معهداً رهبانيا لدراسة اللغة العربية في مدينة ميرمار . وفي سنة ١٣١١ قرر مجلس فينا ربما بايعاز من رايموندس — ان ينشيء في جامعات (باريس ولوفان وسلامنكا) كراسي استاذية للغات الشرقية (العربية والتترية) ولكن روحه الوثابة التي لا تعرف الكلل دفعته الى الاستشهاد في تونس عام ١٣١٤ ولما تتمخض مجهوداته بالقليل . وظلت رسالة الشرق الذي حمل رايتها وناضل عنها نضالا عنيدا باقية . لكنها خلفت — كما سنرى — نتائج في نمو الدراسات الشرقية اقل مما خلفته في تقدم المعلومات الجغرافية[٥٥] وقدمت الحروب الصليبية في ميدان الادب تراثا عظيما . كانت هي بحد ذاتها قصيدة رائعة تغنى بها كثير من شعراء الغرب . ومن بين مؤرخي الحروب الصليبية الغربيين يأتي ذلك النورماندي الفخور الذي ألف كتاب (تاريخ الفرنجة Gesta Francorum ووصف

عبارة عن قشور شفافة مأخوذة من الشجرة المعروفة باسم (لاكبه) هذه القشور قابلة للذوبان بالكحول وهو صناعة صينية بالاصل .

٥٤) يرى البروفسر سي . اج . هاسكنز C . H . Haskins في مقال له عن (العلوم العربية في اوربا العربية) نشر بمجلة (ايزيس) مجلد ٧ ص ٣ : ان الحروب الصليبية على أهميتها ، كان نصيبها في نقل العلوم العربية الى اوربا المسيحية تافهاً بشكل عجيب . (المؤلف)

٥٥) ان الاستاذ هاسكنز المشار اليه معتمدا في ملاحظاته على كتاب رايت G . K . Wright الموسوم بـ « المعلومات الجغرافية في عهد الحروب الصليبية » ، يرى انه اذا كانت الحروب الصليبية قد وسعت

الحروب الصليبية الاولى، ثم يليه فولكر الشارتري [٥٦] الذي وصف في كتابه « تاريخ الحج « Historia Heirosolymitana » الحرب الصليبية الاولى فضلا عن تاريخ مملكة اللاتين حتى وصل بحوادث كتابه الى عام ١١٢٧ . ويبذ سائرهم في هذا المضمار وليم الصوري رئيس اساقفة صور الذي صار كتابه « تاريخ ما تم من حوادث في بلاد ما وراء البحار » ذو الثلاثة والعشرين جزءا التي تصل بالاحداث الى ١١٨٣ وبترجمته الفرنسية — من اعظم الكتب المعروفة في العصور الوسيطة ومن اهم مصادر قصة الحروب الصليبية . ولم يقتصر وليام الصوري [٥٧] على تدوين اعمال اللاتين وحدها بل تعداها الى تآليف اخرى عن « امراء المسلمين منذ ظهور النبي » ومع أن كتابه هذا الاخير مفقود وقد وصلنا منه نتف ومقاطيع بفضل كتاب وليم الطرابلسي « ابحاث في احوال العرب tractatraus de status saracenorum » الذي الفه عام ١٢٧٣ . كل هذا ارانا مدى معرفة المؤلف بالعالم العربي ونفاذ بصيرته في طباع المسلمين وعاداتهم . ومن بين المصادر العربية الموثوق بها ترجمة حياة « اسامة بن منقذ » احد امراء شمالي سوريا ، استعرض بها تاريخ القرن الثاني عشر . وثم ايضا (تاريخ الاتابكة) لابن الاثير (وحياة صلاح الدين الايوبي) لبهاء الدين . على كل حال فان قصة الحروب الصليبية ما عتمت في الغرب أن تحولت من تاريخ الى جملة اساطير . وقد سبق لنا فاوضحنا ذلك في كلامنا عن « نشيد رولاند » الذي كان ثمرة لمسرحية ذات خيال شعري وصفت الحياة العسكرية لحروب الحدود بين المسلمين والنصارى شمال اسبانيا في اوائل الحروب الصليبية (ربما خلال الحروب الصليبية الاولى). هذه المسرحية الخيالية خلقت اسطورة سارت مع التاريخ جنباً لجنب لكن وقائعها ناقضت وقائعه على خط

المعلومات الجغرافية عند اوربا المسيحية ، فقد تم لها ذلك عن طريق التجارب العملية والممارسة اكثر مما تم عن طريق وقوفها على كتابات جغرافيي العرب الذين جهلهم الغرب خلال العصور الوسيطة (المؤلف) .

٥٦) *Fulcher of Chartres* (١٠٥٩ - ١١٣٠) احد مؤرخي الحروب الصليبية ممن رافقوا الحملة الاولى .

٥٧) كان وليم الصوري (١١٣٠ - ١١٩٠) احد كبار الشخصيات الدينية اللاتينية في الشرق ومن مؤرخي الحروب الصليبية .

مستقيم ، تعود لتظهر مرة اخرى سنة ١١٣٠ في «نشيد الضعفاء chanson de chitife» وفي « نشيد انطاكية chanson de antioch » سنة ١١٨٠ مشيدة ببطرس الناسك وبكودفري البُوْيوني « Godfrey of Boullion » كما اشاد نشيد رولاند ببطله « رولاند واوليفر ». والدور الذي لعبته هذه الاناشيد اثناء الحروب الصليبية هودورتسرية وتسلية . كما انها نشرت ضوءها الباهر مرة هنا ، ومرة هناك ، فخلقت احدوثة تاريخية شهيرة ظلت تحتل مكان الحقيقة قروناً عدة ، عبرت الازمان مع التاريخ حتى وصلت « تاسو »[٥٨] فألبسها البطولة المأثورة عن القرن السادس عشر في ملحمته الشعرية « اورشليم المحررة » Gerusalimme liberate وليس ثمّ خير منها في تعريفنا بالمدى الذي وصل اليه مفهوم الحروب الصليبية البعيد عن الحقيقة في حبّة فؤاد اوربا . . كان« تاسو » كما يقول دي سانكتز de sanctis يريد ان ينظم ملحمة تذكي بطولتها الحارة نار الحماسة الدينية . فما هذا الذي جاءنا به ؟ جاءنا بعالم يعج بالفرسان والخيال والرومنتية ، بجو يسوده مختلف النوازع وضروب الشهوات[٥٩] » لم تصر الحروب الصليبية في الواقع من المواضيع العظيمة التي تناولها الشعر في القرون الوسيطة كموضوع« شارلمان» او « موضوع بريطانيا والمائدة المستديرة[٦٠] ». ان الحروب الصليبية قد اثرت حقا في هذين الموضوعين فجعل شارلمان مجاهداً صليبيا قام بعدة رحلات الى القسطنطينية وانه وصل حتى اورشليم . اما شعراء المدرسة الآرثرية[٦١] فقد عرفوا كيف يكسون قصتهم مسحة صليبية .

---

٥٨) *Torgato Tasso* (١٥٤٤ – ١٥٩٥) من شعراء النهضة الايطالية .

٥٩) ج ٢ ص ١٦١ و ١٦٨ من كتاب دي سانكتز « قصة الادب الايطالي » *Storia della letterature italiana* (المؤلف) .

٦٠) يرى بروتز (ص ٤٩٤) من كتابه الانف الذكر ، ان كتاب اعمال الفرنجة الذى الف فى مفتتح الحروب الصليبية والذي اثار في حينه اهتماما وحماسة عظيمين ، فقد هذا الاهتمام في ختام الحروب الصليبية . اما « جمس الفيتري » – ت ١٢٤٠م مؤلف مجموعة قصص وامثال ، فكان يرى ان « كل شيء » هو قمين بالاهتمام عدا ما يت الى الحروب الصليبية . (المؤلف)

٦١) ظهرت قصص بطولة هذه الشخصية في المصادر الغالية البريطونية والسكسونية وفي اشعار بلاد ويلز

وما كانت قصيدة موت آرثر Mort de Arthur لتتبوأ مكانتها الادبية لو لم تشغل الحروب الصليبية حياة القرون الوسيطة . ولكن ليس ثمة شيء مستمد من الاسلام يحمل هذا الطابع والتأثير . فالموضوع ببسط عبارة هو قتال المؤمنين الكفرة خير ما يمكن القتال في عصر قتال . هذا المبدأ عتيق يرجع الى فترة الحروب التي نشبت بين بلاد الفرس وبلاد طوران . والاسلام نفسه لم يضف الا القليل الى منظومات الشعر في القرون الوسيطة باعتباره شيئاً تقمص الكفر فيه . ولعل مؤلف القصة الشعرية « اوكاسين(القاسم) ونيقوليت [٦٢] Aucassin and Nicollette » كان قد استعار شيئاً من المصادر العربية . فان كان قد فعل ذلك فلا علاقة لاستعارته هذه بالحروب الصليبية[٦٣] كذلك ان كان ثمّ ظل من الحقيقة في النظرية العربية التي تنسب الى الشرق اصل الموشحة الغنائية المسماة [٦٤]« sonnate »فضلا عن الشعر الغنائي الموزون المقفى lyric فلا علاقة للحروب الصليبية بهذا ايضا . انما هو جزء من التاريخ الصقلي حتى ليكاد يخيل لنا ان قصة طروادة ووقائع الاسكندر امدتا شعراء القرون الوسيطة بصورتهم عن الشرق اكثر مما امدتهم بها الحروب الصليبية . والمرء هنا ليتعجل في القول مجازفا ان الحروب الصليبية لم تصر المادة الحقيقة للرواية الغربية الا في ايام وقائع قصتي « الكونت روبرت اوف باريس

وانحدرت الى القرون الوسطى فكتبت عنها القصص والملاحم والقصائد المشيدة بالنخوة والشجاعة والاخلاص بحق ذلك الملك الخرافي واجملها قصة موته ومائدته المستديرة التي يجتمع حولها فرسانه بأقلام ما لا يحصى من الشعراء والكتاب الاوربيين لم ينقطع سيلهم حتى القرن التاسع عشر .

٦٢) قصة كتبت في القرون الوسطى عن حبيبين هما اكسين « القاسم » ابن الكونت بوكير ونيقوليت حبيبته بنت ملك قرطاجنة حيث كانت سبيت وهي صغيرة . وبعد فراق ومشاق يلتقي الحبيبان ويتزوجان . ويقول مؤرخو الادب ان اصل القصة عربي .

٦٣) يخيل لبروتز « ص ٤٥٠ » ان مجموعة الحكايات الهندية (كليلة ودمنة) قد نقلتها الحروب الصليبية الى اوربا الغربية . ويضيف الى هذا ان شعراء التروفير في شمال فرنسا طعموا اشعارهم بعناصر عربية وكانوا بمثابة جسور عبرت عليها حكايات الشرق واساطيره الى بوكاتشو وقصصيي ايطاليا . (المؤلف)

٦٤) ربما يجمل ان نضيف بأن موسيقى الغرب قد تأثرت الى حد ضئيل بموسيقى الشرق اثناء الحروب الصليبية . (المؤلف)

والطلسمان[٦٥] ولقد صارت الوقائع المستقاة من تلك الحروب(هذا ان لم تكن الحروب نفسها هي المواضيع) جزءاً من التقاليد القصصية للقرون الوسيطة . فهنالك مثلا واقعة الفارس الذي سجن في ارض العرب ، وتم انقاذه على يد اميرة عربية احبته . انك لتجد فيها الحبكة الفنية لزوج قطعت أملها بعودة رجلها الفارس الصليبي بعد طول حزن عليه . فهمت بزيجة اخرى فاذابها تفاجأ بعودته وحده او بصحبة سيدة عربية . لكن هذا كله ، خيال روائي منمق لا يمس جوهر الحروب الصليبية ولا يمت الى حقيقتها بصلة .

الفصل الثالث

ألا دعنا من موضوع الأثر الذي احدثه الشرق الاسلامي في غربي اوربا عن طريق الحروب الصليبية أو من مساريب مملكة اورشليم (ان كان مسموحا لنا ان نطلق عليها هذا الاسم) فما زال ثمّ القضية الكبرى ، وهي تأثير الحروب الصليبية العمومي (باعتبارها حركة واسعة لاوربا الغربية) في موطنها الاصلي ومراكز نشوئها . هذه القضية تخرج عن موضوعنا . ولكن ربما ساغ لنا بأن نضيف بعض الملحوظات القليلة كملحق او كخاتمة . على الخصوص لتثير الاهتمام بهذه النتائج العامة للحروب الصليبية التي أثرت في العلاقات بين الشرق والغرب .

أثرت الحروب الصليبية في مجتمع اوربا الغربية المسيحي بطرق أربع تقريبا : فبالدرجة الاولى أثرت في الكنيسة في البابوية على الاخص . وأثرت بالدرجة الثانية في الحياة الداخلية والاقتصادية لكل من تلك الدول المتعددة ، ويمكننا أن نقتفي قسما من هذا الأثر (كما يكشف عن نفسه) في عمل الحكومة (الدول الحقيقية ذات الكيان) وقسما يتجلى في وضعية الطبقتين المدنيتين — طبقة الاشراف وطبقة العامة (طبقة العامة في المدن على الاقل) وبالدرجة الثالثة اثرت في العلاقات الخارجية بين مختلف الدول ؛ ويمكن تتبع هذا الاثر في تغييرات توازن القوى فيما بينها ، واهمية تلك العلاقات ، والتطور العام لمظاهر النظام والحكم لمجموعة دول اوربا . بالاخير

٦٥) روايتان للسير ولترسكوت الفهما على التوالي في ١٨٣٢ و ١٨٢٥ عن وقائع الحروب الصليبية .

أثرت الحروب الصليبية في العلاقات الاوربية مع قارة آسيا ، في اتساع دائرة المكتشفات وارتياد المجهول من البقاع منذ القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر وربما كان علينا ان نقتفي خطى هذه المراحل المتعاقبة بحركة كانت الحروب الصليبية اول من اطلقتها في حلبة السباق .

الكنيسة والبابوية

كان الاكليروس (رجال الدين) طبقة دولية . والبابا الذي يقوم على رأسهم ، هو شخصية اوربية ذات خطر . فمشروع دولي اوربي كالحروب الصليبية ، كان مقدرا له بحكم الواقع أن يقع تحت الاشراف البابوي — الاكليروسي — وذلك لتثبيت الاتجاهات الثيوقراطية[٦٦] التي استبطنتها الحركة الغريغورية وقد ارتأى البابا اوربان الثاني ان وظيفة البابا هي القيادة العليا للحرب المقدسة . لذلك وجب ان تكون الحروب الصليبية بمثابة سياسة البابوية الخارجية . فهي التي تديرها وهي التي تحرك دفتها ؛ والنائب الرسولي يجب أن يرافق عسكر الله ويسوسه . ولكن هذا المطمح الرئيسي كان ابعد مما يمكن التوصل اليه كما حصل ذلك فعلا . فقد كانت مطامع الامراء المدنيين واضحة تطغي على طبيعة الحروب الصليبية الاولى فعلا . وليس ادل على ذلك من انشاء مملكة اورشليم الدنيوية عام ١١٠٠ بدلا من انشاء ثيوقراطية اكليروسية ؛ الحلم الذي يبدو انه كان يراود بعضهم . وفي الحروب الصليبية الثانية والثالثة لعب امبراطور الغرب وملوكه الذين لم يشاركوا في الحروب الاولى — دوراً عظيما . وستتاح لنا الفرص فيما يلي لنذكر كيف ان (دولة الارض) هذه كانت تمارس نظام ضرائبها الخاص لتوطيد حكم اورشليم . ومهما يكن من امر ومع وجود هذه الجهة الدنيوية والانتقال الدنيوي (ولم يكن

٦٦) الثيوقراطية كلمة يونانية معناها « حكومة بواسطة الله » وهو تعبير اطلق على شكل الحكومة الاسرائيلية التي أسسها « موسى » ثم سار على نهجه خلفاءوه من بعده . ورئيس الحكومة « قد يكون ملكا او رجلا دينيا » يقوم في الحكومة الثيوقراطية بمهمة الوسيط بين الله وشعبه .

اوضح منها كما ظهرا اثناء الحرب الصليبية الرابعة) فقد بقي جوهر الحروب الصليبية موصولا بمجال البابوية . فالباباوات هم الذين نظموا تلك الحروب ودعوا لها . والباباوات هم الذين وجهوها لا على مسلمي الشرق وحدهم بل على الالبيجيين[٦٧] الهراطقة في الغرب ذاته . حتى جاء الوقت (في حكم فردريك الثاني) لتوجيهها ضد امبراطور مخطيء . انها لم تكن سلاحا لتنفيذ السياسة البابوية ليس غير . بل كانت كذلك جزءاً من الموارد المالية للبابوية . فاذا كانت الحكومة الدنيوية قد فرضت (عشر صلاح الدين) فقد كان من حق البابوية أن تفرض ضريبة خاصة بها . وقد فرضت الاكليروس عشرات من الضرائب الكنسية بسبب الحروب الصليبية بشكل منتظم عقيب بداية القرن الثالث عشر ، أول الامر عن طريق اصدار مراسيم المجامع الكنسية واخيراً بموجب السلطة البابوية . هذه الضرائب ظلت سارية المفعول في انكلترا ابان عهد الاصلاح الديني وكما اكسبت الحروب الصليبية ضرائب جديدة للكنيسة فقد خلقت فيها طرقاً دينية واخويات تعبدية جديدة . ففرسان الاسبتارية والتمبلارية (الدوّية) بتطبيقها قواعد مستمدة من القوانين الوضعية ، اعطت اوربا شكلا جديداً ، شكل القس المحارب الذي يجمع في شخصه قوانين التنسك في الاديرة ، وحياة الجندي المحترف في الوقت نفسه .

ان الاوصاف المختلطة لانواع المراتب والصنوف العسكرية لوّنت الصفات المختلفة للحروب الصليبية تلوينا رائعاً ، فجعلت تلك الحروب — بابوية أم غير بابوية ، أكليروسية أم لا اكليروسية — دعامة تسند السلطان الكنسي وانما موضوعا تحت اساسه في الوقت نفسه . وان لم تكن الحروب الصليبية قد ازالت تماما التمييز الواضح السابق بين ماهو مقدس وما هو وثني ، بين ما هو روحاني مخلد وبين ما هو جثماني زائل ، فهي على كل حال قد اضعفته . لقد كانت بركة لرجال

---

٦٧) الالبيجيون — هم سكان مقاطعة لانجدوك في شمال اسبانيا وجنوب فرنسا ظهروا في القرن الحادي عشر وعقيدتهم غنوصية هرطقية مخالفة لتعاليم الكنيسة الغربية . حكم بهرطقتهم مجمع اللاتيران المنعقد سنة ١١٧٩م وأمر البابا انوسنت الثالث بشن حرب عليهم وافنائهم وقد قاد الحرب عليهم سيمون دي مونتفورد سنة ١٢٠٨م ودامت سجالا عشرين سنة وتمت باخضاعهم .

الدنيا المحاربين ومغفرة . وبطريق سيرها ادت الى تحرير رجال الدنيا . ان رجال الدنيا في الحروب الصليبية قد يستحيلون الى اشباه قسيسين وانه لتستطيع بعض الحكومات الدنيوية ان تنقلب الى حكومات مقدسة مباركة نوعا ما عن طريق المساهمة في تلك الحروب . تلكم هي حركة انبثقت من خلق مغاير لكل ما عرف من خلق ولد في عصر يميل الى الثيوقراطية . فكانت الحروب الصليبية على كل ؛ قوة مساعدة لنمو الروح الدنيوية والسلطان الزمني . فالتماس اليومي مع مسلمي الشرق ، التماس الذي ادى الى الائتلاف الاجتماعي — والتسامح الذي نجم عن ذلك الائتلاف ؛ اضعف عداء الايمان الغابر للكفر ، كما اضعفت الحروب الصليبية التمايز بين ما هو ديني وما هو دنيوي ضمن نطاق العقيدة الدينية . ولم يكن جميع رجال القرن الثالث عشر في حدة وعناد فردريك الثاني الذي حارب البابا بجيش عربي وانشأ مراسلات مع علماء العرب وفاوض حكامهم حتى في الوقت الذي كانت اورشليم محور النزاع . ومهما يكن فقد ابدى العلماء انفسهم استعدادهم للاستعارة من فلاسفة العرب . وقد بدأ بعضهم يدرس اللسان العربي وظهرت روح تفاهم جديدة . كان ثمّ فرق بين القديس لويس[٦٨] الذي تمثل فيه عقلية عصر غابر ممن لا يرى جدوى في التعامل مع الكفار الا باغماد ذبابة سيفه في احشائهم . وبين موقف جامعة باريس التي كانت تعتمد على كتاب ارسطو « في الطبيعة وما وراء الطبيعة fisica et metafisica » من مصدره اسبانيا العربية . وظهرت روح الاستقصاء العلمية وامتدت مبادئها في نجوة عن الحروب الصليبية . ولكن الحروب الصليبية لم تستطع أن تفعل شيئاً لخلق تلك الروح العلمية وتحاول اداء مهمتها العظمى وهي المُلائمة بين حكمة ارسطو الدنيوية وبين التعليم والقواعد المنزلة في الكتب المقدسة والكنيسة — الا في العصر الجديد للتفاهم بين الجانبين .

---

٦٨) لويس التاسع ملك فرنسا ولد سنة ١٢١٤ وارتقى العرش وهو ابن احد عشر سنة وقاد حربا صليبية سنة ١٢٤٩ فهزم في مصر وأسر ثم افتدي وذهب الى فلسطين حيث بقي حتى سنة ١٢٥٢ حيث عاد الى فرنسا وفي سنة ١٢٧٠ قاد حملة صليبية ثانية الى شمال افريقا ولكنه توفي في تونس في السنة نفسها .

من ابسط واوضح نتائج الحروب الصليبية على الحياة الداخلية لدول الغرب هوظهور انواع جديدة من الضرائب . كان فرض الضرائب الى ذلك الحين مقصوراً على الارض فقط ، فما أن جاءت الحروب الصليبية حتى صرنا نرى بداية فرض ضرائب على الدخل الفرديّ . وكان لويس السابع[٦٩] اول من فرض « ضريبة اعانة الارض المقدسة propter sustentationem terrae hierosolymitana » وذلك عام ١١٤٦ ثم انه عاد ففرضها سنة ١١٦٥ واخذها ابنه هنري الثاني ملك انكلترا سنة ١١٦٦ ففرض پنسين على كل باون من الدخل في تلك السنة ؛ وبنساً واحداً على كل باون في السنوات الاربع التالية على كل فرد في البلاد بدون استثناء وجعلها منصبة على « الملكية العقارية والدخل الفرديّ Cataile et Bedditus » وفي عام ١١٨٤ اتفق فيليب الثاني اغسطس[٧٠] وهنري الثاني على فرض ضريبة شبيهة بتلك للسنوات الثلاث التالية على سائر الاقطار التي يحكمانها . (ولو كان يبدو هذا الاتفاق لم يدخل حيز التنفيذ) وفي سنة ١١٨٨ – بعد سقوط بيت المقدس فرض كلا الملكين الضريبة المسماة « عشر صلاح الدين ». ولم يقف سريان هذه السابقة في انكلترا . ففي القرن الثالث عشر صارت ضريبة الدخل والعقار ، الطابع المأمون للنظام الوطني المالي — حتى قيل « تنشأ الضرائب الجديدة من حاجات الارض المقدسة »

ان آثار الحروب الصليبية في الممتلكات الدنيوية لدول الغرب أقلّ وضوحا وثبوتا . ولقد قيل أن الحروب الصليبية اعانت على انحلال نظام الاقطاع وخضد شوكة (البارونيات) . ومن المحقق انها جذبت الى الشرق انفسا قلقة غير مستقرة تبحث لها عن عقارات وضياع جديدة

٦٩) لويس السابع ويلقب بالصغير « ١١١٩م » قاد الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٧ وقد دام حكمه حتى ١١٨٠ .

٧٠) اشترك فيليب الثاني اغسطس ملك فرنسا « ١١٨٠ – ١٢٢٣ » في الحرب الصليبية الثالثة سنة ١١٩١ وشارك ايضا في قيادة الحرب الصليبية ضد الهراطقة الالبيجيين فكسب منهم اراضي ضمها الى فرنسا .

في ارض سوريا او لتنضوي تحت عضوية تلك الجمعيات العسكرية . وربما نجم عن هذه الحروب أيضاً بيع بعض الممتلكات العقارية وبعض اختلال في شرعية القاب النبل المتوارثة . ولكن البارونية الاقطاعية ظلت قادرة على اظهار نفسها كقوة مؤثرة مهابة الجانب حتى نهاية القرن الخامس عشر . وربما بدا تأثير الحروب الصليبية على هذه الجماعة اقل بروزاً في تسبب أي تزعزع ما في مكانتها وسلطانها مما هو في اساليب الحرب الحديثة التي استمدوها من شيوع العاب الفروسية واستخدام الرايات والرنوك مما تكلمنا عنه فيما سبق . وكثيراً ما عزي الى الحروب الصليبية — بالطريق نفسها — قيام الادارة البلدية والبلديات . واستقلالها عن السياسة الادارية . ولقد عزي منح البراءات الرسمية بانشاء البلديات الى حاجة نبلاء الصليبيين للمال العاجل . وهنا ايضاً يغلب الحدس والتخمين على الثابت الاكيد . ومن الأسلم لنا أن نقول هذا فقط . اذ ما دامت الحروب الصليبية قد ساعدت على نمو التجارة ومبادلة البضائع فالنتيجة المحتمة لذلك انها ساعدت على نمو المدن . ومن المحقق أن الثغور الايطالية الكبيرة كانت مدينةً بالكثير من رقيها وازدهارها الغابرين الى الحروب الصليبية وان طريق التجارة الداخلي الذي كان تنتقل عبره البضائع البندقية الى حوض الراين ثم مجرى البلطيق والشمال هو الآخر — كما رأينا — السبيل بل البؤرة التي انبثق منها نمو المدن الحرة ، واتحادات الصناع الحرة .

العلاقات الخارجية للدول والنظام الاوربي

لقد اثرت الحروب الصليبية في نظام اوربا لا بطريق تأثيرها على الكنيسة وعلى وضعها العام وحدهما بل بايجادها رابطة جديدة لوحدة اوربا السياسية وربما جاز لنا القول بأن فكرة وحدة غربي اوربا بعد سنة ١٠٩٦ لم تتمثل نظريا في نظام الامبراطورية الرومانية المقدسة وحدها بل تمثلت ايضا في الواقع العلمي للحروب الصليبية مجتمعة . والحق يقال أن حكام الدول الاوربية لم يأتلفوا في حروب صليبية ما الا ليختلفوا ، ولم يلتقوا الا ليختصموا . والثابت أيضا أن الفروق الجنسية الوطنية اخذت تزداد خطراً وتعظم بالمنافسة الوطنية التي رافقتها كما حصل

مثلا في الحرب الصليبية الثالثة . ومع ذلك فان الشعور بوجود وحدة مصالح وقضية عامة يشارك الكل فيها لم يمح قط . لم يكن ثمّ توجيه عام من بغداد ولا نداء من خليفة المسلمين من شأنه التوحيد ما بين مسلمي الشرق. فغاية ما كان موجـوداً اذ ذاك السلطان الفعلي الذي تتمتع به مدينة الموصل . وتعصب نورالدين « البيوريتاني[٧١] » وشهامة صلاح الدين وحميته على الدين. ولقد كان لنصرانية الغرب بابويتها ولقد كان كذلك التوجيه البابوى للحروب الصليبية فاتخذت شكلا دوليا واتحدت بنظام شامل منطقه الهجوم على العدو » . ان فكرة الاتحـاد الدولي الأوربيّ أو إيجاد مملكة مسيحية عموميـة respublica christiana تعمل لقضية مسيحية خالصة وهي شن هجوم على الاتراك او التزام وضـع الدفاع تجاههم ظلت تنبض بالحياة خلال العصور التالية . وكتب باحث هولندي اسمه ترمولر Ter Meuler كتابا عنوانه derGedanke der internationalen Organisation : فكرة ايجاد منظمة دولية » اقتفى فيه آثار مختلف الخطط التي رسمت لايجاد نظام يوحد ما بين اوربا أو يعمل على تكوين « عصبة امم » منها منذ ايام دبوا dubios سنة ١٣٠٠[٧٢] حتى ايام القس دي سان بيير[٧٣] Abbe de Saint Pierre سنة ١٨٠٠ وكانت . وتكاد تكون مجمل القواعد المقترحة ضرورية تدفعها الحاجة الى القيام

---

٧١) البيوريتان *Puritans* او المتطهرون هم فرقة من المسيحيين ظهروا في انكلترا ايام الملكة اليزابث وأوائل حكم آل ستيوارت . وكانت مبادئها ترمي الى تطهير الكنيسة الانكليزية من الادران التي لحقت بها وقد استعرت الحرب بينها وبين السلطات وظلت صامدة للاضطهاد والتشرد والنفي وهي الان شيع ومذاهب كثيرة .

٧٢) بيير دابوا « حوالي ١٢٥٠ – ١٣١٢ » كاتب ومؤرخ ومحام وسياسي فرنسي عاش أيام حكم فيليب الطيب وخدمه وألف عدة كتب عن السياسة وفي التاريخ منها كتابه عن الحروب الصليبية المسمى « استعادة الاراضي المقدسة » *de recuperatione terrae sanctae* .

٧٣) القس دى سان بيير « ١٦٥٨ – ١٧٤٣ » كاتب واقتصادي وسياسى كبير اختير عضوا في الاكاديمية الفرنسية سنة ١٦٩٥ . كانت آراءوه في السياسة والاجتماع والاقتصاد ذات أثر عظيم فى ارتقاء الافكار . وعلى الاخص ما يبحث في التطور فكرة حفظ سلام عالمي وقـد أثرت ايضا على روسو وغيره من الكتاب الاجتماعيين .

بعمل اجماعي ضد الاتراك كما كنا نجد فكرة الحروب الصليبيـة متجسمة في كل ما نتتبعـه من آثار.

في الوقت نفسه وخلال استمرار الحروب الصليبية اخذ التوازن الاوربي يختـل حيث لم تعد الامبراطورية البيزنطية تعدل في وزنها الامبراطورية الغربية فقد سقطت اولاهما سنة ١٢٠٤ . وان حدث فوجد في القرن الثالث عشر امبراطوريات يونانية مركزها القسطنطينية وطرابزون فما كانت الا مجرد ظلال لأسم عظيم غابر . هكذا قدر لرجحان الميزان الاوربي أن ينتقل الى الغرب . وكانت فرنسا السباقة الى الطليعة من بين الدول الاوربية ولقد لعبت الحروب الصليبية دورها في هذا السبق : بُشر بها في ارض فرنسا وقام فرسانها بتحمل اعبائها . وفرنسا هي التي انجبت — في شخص القديس لويس — مثال المجاهد الصليبي الكامل ، والمستعمرون الفرنسيون هم الذين استقروا في مملكة اورشليم ثم ثبتوا اقدامهم في قبرص عنـدما ضاعت من ايديهم . واستقروا كذلك في المورة وفي دوقية اثينا . ولقد قال كاتب فرنسي من كتاب القرن الرابع عشر « ان أشرف فرسان العالم هم فرسان المورة . حيث كانت الفرنسية الفصحى يُتكلم بها كما يتكلم اهالي باريس » . ولم تكن لغة فرنسا ga franca الشـائعة على السن سكان ساحل سوريا من جيد الفرنسية . اذ ما دامت هذه اللغة ذات اصول لاتينية فقـد اشتقت تلك الاصول ولا غرو من التجار الايطاليين والجنويين والبنـادقة ولكن ان لم تعش اللغة الفرنسية في شرق البحر المتوسط فالتقاليد الفرنسية لن يعف عليها قط . ان حق حمـاية الارض المقدسة الذي مارسه شارلمان ، ادعى به وبرره فرنسوا الاول في القرن السادس عشر وان عقد المعاهدات اعطي اللاتين حق الاستيطان والاستيلاء على محل ولادة المسيح والقبر المقدس في اورشليم ، تلك الشروط والاتفاقات ظلت سارية المفعول حتى كانت — في القرن التاسـع عشر — احدى اسباب اندلاع حرب القرم . وبامكاننا الآن أن نعزي انتـداب فرنسا على سوريا الى آثار الحروب الصليبية .

علاقات اوربا بآسيا

بقي علينا اخيراً أن نتكلم عن نظام العلاقات الجديد بين اوربا وقارة آسيا الذي بدأته الحروب الصليبية . ان اوربا فضلا عن وجدانها في الحروب الصليبية شكلا جديداً للوحدة الداخلية . ومؤثرا جديدا على حياتها الداخلية نفسها ، فانها صارت تنظر الى العالم اثناء دوران رحى تلك الحروب نظرة جديدة واسعة . كانت هذه النظرة الواسعة مع نمو حركة الاستكشاف والمعلومات الجغرافية التي رافقتها ، آخر واعظم نتائج للحروب الصليبية بما خلفته من آثار جسام . كانت الجغرافية سابقاً (اي خلال القرن الثاني عشر) من اغزر العلوم وانفعها لادلاء الحجاج[٧٤] بضبطها أوصاف مسالك الاماكن المقدسة والسبل المؤدية اليها ، ولغرض السوق العسكري وميادين التعبئة (على الاخص المنطقة الواقعة بين فلسطين ومصر) . تلك المسالك التي تم مسحها ومعرفتها في ذلك الحين كانت تمس حدود آسيا وسواحلها القريبة . ولكن حركة الاستكشاف والمسح الجغرافي اتجهت في القرن الثالث عشر — كما سنحت لنا الفرصة بذكره — فشملت الجزء الاقصى من آسيا بأسره . وان العصر العظيم للاكتشافات الآسيوية الموازية — ان لم نقل المساوية لعصر الاستكشاف الامريكي في القرن السادس عشر ابتدأ حوالي سنة ١٢٤٠ وانتهى بعد قرن من هذا التاريخ[٧٥]

كانت آسيا خلال ذلك القرن مرتبطة ارتباطا غير محكم بعجلة امبراطورية المغول التي كانت تمتد من القرم وتبريز حتى بخارى وسمرقند حتى كمبالوك (بكين) وكنساى (هنكاو) ولقد بقي المغول متمسكين بدينهم (الشامانى) ؛ على انهم كانوا متسامحين مع اصحاب العقائد

---

٧٤) انظر كتاب بروتر بخصوص مناسك الحج وامكنته « الذي سبق لنا وذكرناه . صحائف ٤٧٠ وما يليها » مثلا في جميعات اصدار الكتب الدينية اللاتينية *Itinera Hicrosolymitana* ومطبوعات جمعية اصدار كراسات الحج الى فلسطين . (المؤلف)

٧٥) انظر الفصل المعنون « افتتاح الطرق البرية الى الصين » في من كتاب ايلين باور الموسوم « رحلات ورواد العصور الوسطى » الذى راجعه الاستاذ ا . ب . نيوتن *A. P. Newton* (المؤلف)

الاخرى . انهم لم يكونوا مسيحيين ولكنهم آووا طوائف مسيحية في امبراطوريتهم . كانت الحماسة المسيحية تأمل أن تهديهم . أما النشاط التجاري فقد كان يبحث له عن طريق الى رؤوس الينابيع التجارية في الشرق من بين ممتلكات المغول . وكانت اغراض البعثات الى المغول مبنية على الامل الاعظم وهو انجاز الرسالة التي استمرت الحروب الصليبية لاجلها ، أعني هداية هؤلاء الوثنيين الى النصرانية واستخلاص الاراضي المقدسة نهائيا من يد اولئك الذين استحوذوا عليها . ولكن قدر لهذه البعثات — مع انها لم تفقد ارتباطها مع الحروب الصليبية — أن تبتعد عن محورها ومركز ارتباطها . وكان ثمّ امثال « ريموند لل » الذي اعتقد بوجوب وقف الحروب الصليبية والاستعاضة عن الحملات العسكرية بالتبشير السلمي . وبهذه الامور صارت هداية آسيا الى المسيحية هدفاً مستقلا قائماً بذاته — هدفاً يرمي الى نشر المعرفة الالهية على الارض كما تنساح المياه على وجه البحار . قطعت هذه البعثات في مهمتها شوطا بعيدا واعانها على ذلك تسامح المغول الديني ووجود طائفة النساطرة المسيحيين في آسيا . وفي مطلع القرن الرابع عشر سيم « جون المونتكورفيوني »john of monte carvio منشي. الكنيسة اللاتينية في الصين — رئيساً لاساقفة كمبالوك « بكين » مع ثلاثة من الاساقفة الفرنشكان مرتبطين به .

ورافق تلك البعثات التاجر الايطالي كما رافق الحملات الصليبية الاولى ملاحو الثغور الايطالية . ولم ينفرد « آل بولو » بالرحلات العظيمة ، فقد مخرت شركة جنوية مياه بحر قزوين واستقر قنصل بندقي في تبريز (وهذا دليل على استقرار موطد). ولكن قضي على كل أمل منشود في تحقيق المطمح الاكبر . أما المشروع الذي كان يهدف الى تنصير اجماعي عظيم للمغول ومن شأنه ان يجعل الدين الاسلامي ديناً قليل الاتباع ويحصره في رقعة صغيرة من أرض أسبانيا وزاوية في ساحل البحر المتوسط الشرقي — فقد لفه النسيان وصار أثرا بعدعين . ولكن خانات ايران اعتنقوا الاسلام سنة ١٣١٦ وحوالي منتصف القرن الرابع عشر سارت اواسط آسيا على النهج نفسه وصارت مسلمة واقفلت اسرة (منج) الوطنية الحاكمة على عرش الصين ابواب البلاد

البلاد في اوجه الاجانب سنة ١٣٦٨ – ١٣٧٠ وكانت النهاية ، قطع سبيل التقدم على المسيحية وفتحه على رحبه في وجه الاسلام فسار بعيداً ووصل شأواً لايدانى بازدياد شوكة الاتراك العثمانيين ولكن فجراً جديداً لاح للغرب الذي لا يقهر . هذا الفجر أول الامل الجديد كان مقدراً له أن يتمخض باحدى ثورات التاريخ الكبرى . ان كانت تلك البقاع اوصدت ابوابها في وجه المسيحية فماذا يمنعها من اتخاذ البحر سبيلا ؟ لم لا تنفذ ملاحتها الى الشرق وتهاجم الاسلام من المؤخرة وتستولى على اورشليم من الخلف tergo ؟ كانت هذه فكرة الملاحين العظام الذين نقشوا رسم الصليب على صدورهم وآمنوا بصدق الغاية التي يجاهدون فى سبيلها . الا وهي استنقاذ بيت المقدس . واذا كان كولمبس قد وجد نفسه فى الجزر الكاريبية بدلا من أن يصل الى الصين كما تكهن – فلا يسعنا على كل حال الا أن نعترف بأن الاسبان الذين اقتفوه ، غنموا للمسيحية قارة وان الغرب جعل في الاخير كفة الميزان ترجح الى جانبه بشكل ما كان يحلم به .

* * * *

لو فكرنا فى الحروب الصليبية من اوسع نواحيها وتدبرنا ما تم على يدها من فتح آفاق جديدة نتيجة للدافع الاصلي الذي انجبها فلن نجدها عملا فاشلا . انها لم تحقق تاما حتى في تحقيق بواعثها الاصلية (اعني الدفاع عن النصرانية باسرها ضد الخطر الاسلامي في شرق البحر المتوسط). ويحق لنا القول بأن الحروب الصليبية بدأت حركاتها الحربية مع الاتراك السلاجقة المعسكرين في بقية ارجاء آسيا . وختمت بالاتراك العثمانيين الذين عسكروا في اوربا نفسها على ضفاف الدانوب . ويحق لنا القول أيضاً من الناحية الاخرى – بأنه لم تمر خمسمائة سنة حتى كان كل شيء قد انتهى مثلما ابتدأ أعني بحماية فرنسية على الاماكن المقدسة في اصقاع يحكمها الاسلام . الا ان الاصقاع ليست كل شيء ، فان لم تكسب الحروب الصليبية أو تستول على ما يمكن قياسه بخريطة ، فقد ظفرت باشياء اخرى معنوية لا تقل عن مساحات الاراضي قيمة انها دافعت عن نصرانية الغرب خلال الفترة الحرجة المهمة جداً لنمو الحضارة الغربية في غضون القرون

الوسيطة وبذلك انقذتها من الانطواء على نفسها والانحصار في بقعة ضيقة . لقد اعطتها مجالا حيويا ومطمحا « والشعب الذي لا مطمح له محكوم عليه بالفناء » . وانه وان كانت الحروب الصليبية مطمحاً قلّ أن شعر به سكان اوربا بصورة استمرارية (ربما لم يشعروا به مطلقا) فقد كان في الواقع وعلى كل حال مثلا أعلى عمل على انقاذهم مما هم فيه .

ارنست بار كر

اسبانيا والبرتغال

SPAIN & PORTUGAL

بقلم

J. B. TREND جي . بي . ترند

obeikandl.com

ان المدرسة الحديثة الاسبانية للمؤرخين العلميين الجدد لا تقر البتة بفضل التراث الاسلام. منذ مئة سنة خلت ، كانت اهمية العرب في اسبانيا ، محل اسراف مبالغ فيه كثيرا . ولكن الموضوع صار اليوم غير ذي اهمية في عيون بعض الباحثين لا بل صاريرمقه أذكياء القارئين والمتتبعين بعين الاحتقار. ربما يكون هذا الموقف مؤسفاً باعثاً للأسى . الا أن ثم عوامل تبرر وجوده ليس كلها معقولا . فسوء التحقيق في كتاب كونديه conde [1] الموسوم تاريخ حكم العرب في اسبانيا » والنتائج الخاطئة المؤسفة التي تورط فيها « دوزي Dozy» [2] عن السيد cid تلك النتائج التي اثبتت الابحاث الاخيرة انها وهم في وهم . زد على ذلك الميل الشديد لنسبة كل ما يمكن نسبته الى اصول لاتينية (بتأثير جامعات فرنسا وامريكا) . كان من شأنه أن يؤدي برواد تاريخ اسبانيا Hispantists الى أن يدفعوا بالدراسات الشرقية الى وهدة من التشكك وعدم الثقة ، لم تفلح فى انتشالها الابحاث القيمة التي كتبها رجال مشهود لهم بالكفاءة امثال « آسين وربيرا »

وكان ثمّ تأثيرات اخرى تعمل عملها كنتيجة لاحوال اسبانيا الاجتماعية والسياسية الحديثة . وبرزت فكرة لاقت تحبيذاً واسعاً مؤداها : أن الدراسات الشرقية والحلول الاسلامية لمشاكل التاريخ الاسباني وعلم اصول اللغة والفن الاسبانيين قامت كلها على الفكرة التقليدية

---

١) جوزيه انطونيو كونديه ١٧٦٦-١٨٢٠ مستشرق اسباني ولد في بيرانجيا ، وكتابه هذا *Historia de la Deminacion los Arabes en Espana* طبع سنة ١٨٢١ ونقل الى الالمانية والفرنسية والانكليزية .

٢) رينهارت بيتر آن دوزي ١٨٢٠-١٨٨٣ امام المستشرقين الهولنديين في الامور العربية ، عرف بكتابه « تاريخ المسلمين لاسبانيا حتى فتح المرابطين لاندلوسيا ٧١٦-١١١٠ » ابحاثه ألقت على تاريخ المغاربة نورا ساطعاً وأوضحت نقاطاً غامضة .

الحيالية المشؤومة التي انتهت في القرن التاسع عشر بالصدام الاسباني الاميركي عام ١٨٩٨ بعد غزوات وحروب اهلية وقلاقل . بدأت حركة الازدهار والاصلاح بظهور جيل سنة ١٨٩٨ . وشجعتها والهمتها التعاليم المستقاة من حياة فرنشسكو جنير Francisco Giner[٣] النقية الخالصة أدى هذا الى نمو ذلك الاتجاه العلمي الدقيق الذي يفصح عن نفسه بكل جلاء في آثار الاستاذ منيديث بيدال Menedez Pidal[٤] القلمية على الاخص . ولكن من المؤسف كثيراً أن بيدال هذا يجدأني توجه بناظريه (من الملاحم الغابرة) الى اشعار «السيد» الى اصول اللغة الاسبانية) فروضاً واهية الأسس تتعلق بوجود جذور عربية فيها : أوهاما رأى الواجب يقضي عليه بتقويضها وازاحتها عن السبيل قبل أن يحقق لآرائه شيئاً من النجاح . كان « منيديث » يبذ كل قرنائه ومعاصريه عدة وتمرينا . حتى ساد يقين بأن عالما لغويا رومانسياً لهو أهل للثقة والاعتماد في اسبانيا اكثر من أي مستشرق . وان ايضاحا رومانسيا لأي ظاهرة في اللغة الاسبانية أو الفن الاسباني لهو أحسن وقعاً من حاول تستند الى دراسات شرقية . ومهما يكن فبيدال نفسه لم يكن قد داخله اي شك في جدوى دراسة الجذور اللغوية للعربية والاسبانية وضرورتها . فقد كان المقال الافتتاحي لأول عدد من مجلة « فقه اللغة الاسبانية » التي اسسها عام ١٩١٤ بقلم الاستاذ ميكيل آسين[٥]

أثر الاسلام في التاريخ الاسباني والاوقيانوسي

هناك سبيل آخر لنكران الاسبان تراث الاسلام وهو أن المسلمين كانوا العلة المباشرة

---

٣) فرانشسكو جنير دي لوس ريوس ١٨٤٠-١٩١٥ قانوني وباحث اسباني ولد في رندة وتعلم في غرناطة ، عرف بشدة اهتمامه بالثقافة الاسبانية والدراسات الفلسفية وتطبيقها على اساليب التعليم الحديث .

٤) سيرد ذكر هذا الكاتب الاسباني في المتون والحواشي القادمة .

٥) *Prof. Miguel Asin Palacios* مستشرق اسباني في الامور العربية نشر وأحيا كتبا عربية في غاية النفاسة منها كتاب « المدخل الى صناعة المنطق لابن طلموس » ومنها رسالات ابن باجة (الوداع ، في النبات ، اتصال العقل بالانسان) فضلا عن القاموس النفيس الذي نشره في مجلة الاندلس ج ٩ سنة ١٩٤٤ في الكلمات العربية الدخيلة على اللغة الاسبانية الحديثة .

او غير المباشرة لكل النكبات التي انصبت على رأس البلاد فيما بعد . وقد كتب واحد من خيرة المؤرخين الاسبان الشباب للقرون الوسيطة مانصه « لولا الاسلام لسلكت اسبانيا الطريق الذي اختارته فرنسا والمانيا وايطاليا وانكلترا. ولو اننا اخذنا بنظر الاعتبار ما تم فعلا خلال القرون المتعاقبة فاربما كنا نجد اسبانيا في طليعة تلك البلاد . ولكن ذلك لم يكن مقدراً لها فقد استولى الاسلام على شبه الجزيرة بأجمعها وبدل مصير ايبريا وكتب لها على لوحة القدر نصيباً مختلفاً من المأساة الهزلية في التاريخ . كتب لها دور التضحية واليقظة، دور الحارس والمعلم ، دوراً عظيم الخطر في حياة اوربا ولكنه — كما اتضح بعدئذ — كلف اسبانيا افدح الاثمان »[٦] .

وكانت اولى نتائج الفتح الاسلامي عام ٧١١م هو أن العنصرية الايبرية انتفضت فجأة وعادت تفيض بالحياة. فعلى طول سلاسل الجبال التي تحد اسبانيا الشمالية ؛ من المحيط الاطلنطي حتى البحر المتوسط ؛ ندّت بؤرات مقاومة للغزاة المسلمين . هذه البؤرات تخضت على مر الزمن بممالك استرياز[٧] (اشتورية) والنافار والبروفانس في البرانس . بقيت هذه الممالك الجديدة تعيش في نجوة بعضها عن بعض زهاء ثمانية قرون لايربطها الا الدين ورابطة اخرى وهي أن اللهجات المختلفة التي يتكلم بها سكانها كانت يوماً ما شكلا من اشكال اللاتينية العامية . بدأت هذه الدول وهي عبارة عن مراكز مقاومة للمسيحيين كدول البلقان — وظلت كذلك وبعد أن مر زمن طويل بدأ الوهن يدب في صفوف الاسلام فلم يعد ذلك الجار المرهب الجانب، اتخذت كل دولة من هذه الدويلات المسيحية ترسل انظارها المنهومة الى جهة من الجهات وصارت تطاحن بعضها بعضا في حروب سجال مرة بعد اخرى. وخلقت كل واحدة منها — ايام عزتها —

٦) سي . سانشيز البورنوث *C. Sonchez Albornoy* من مقاله « اسبانيا والاسلام » مجلة الغرب مجلد (٧) عدد (٧٠) ص (١٤) نيسان ١٩٢٩ . ان الاصل العربي في اسم اسرة الكاتب (البورنوث — البرنسي : الرجل ذو البرنس) لا تخطئه الملاحظة . (المؤلف)

٧) استرياز مقاطعة في اسبانيا الشمالية اوجدها « حنا الاول » ملك ليون وكاستيل عام ١٣٨٨ وأعطاها لابنه الاكبر هنري عندما تزوج بابنة الدوق لانكاستر الانكليزية .

تقاليد متباينة ولهجات متغايرة . وكانت مملكة كاستيل (قشتالة) اعظم هـذه الممالك وانشطها طراً . على انهـا بقيت – مع ذلك – متخلفة زهاء ثلاثة قرون عن ركاب التقدم الذي حصل في الانظمة التي دفعت باوربا القرون الوسطى الى الامام بسبب صـلتها الطويلة بالاسلام . وفي الوقت نفسه اخذت حركة استرداد الاقطار المحتلة تمتد الى الجنـوب . وزادت موارد الملوك النصارى باحتلالهم بقاعا مترامية الاطراف يقطنها مزارعون مسلمون . بينما صـار رعاياهم النصارى طبقة كادت تكون مهنتها الحروب فقط . كانت النتائج الاقتصادية التي تمخضت بها عملية استرداد الاقطار الاسبانية تبعث على اليأس . وهذا لا يعني ان اثر الاسلام كان ضاراً بصورة مباشرة . لكن من الثابت انه عرقل التقدم الاقتصادي للدول النصرانية . بقيت اسبانيا النصرانية تدور طوال خمسة قرون على المحور الاقتصادي للجنوب المسلم . كان المسلمون واليهود محتكري التجارة . وظلت ممالك المسيحية في اسـبانيا زهاء اربعـة قرون يتداول سكانها عملة عربية أو فرنسية . وامتد الاجل بملوك كاستيل مئتي سـنة اخرى ولا عملة ذهبية مضروبة باسمائهم . ولم يكن لدى « المسيحيين الاولين » اي ميـل الى النشاط الاقتصادي لأن استعادة الاراضي المفتوحة (سواء أهو هدف وجداني أم غير وجداني) أدت الى تجنيد كل الرجال القادرين على حمل السلاح وتعبئتهم لهذه المظاهرة العسكرية . وعندما توقفت عملية الاسترداد الحربي فعلا فيما بين منتصف القرن الثالث عشر والخامس عشـر ، أدت روح الطموح بارغونة aragon الى التماس سبيل السيطرة في ايطاليا وفي الشرق . ودفعت بالبرتغال الى ارتياد مجاهل افريقيا والاطلنطي . بينما حصرت دولة كاستيل جميع ضروب نشاطها في نزاع أسري داخلي وحروب (بارونية) . اذ لم يكن لديها منفذ بحـري يدفع بنشاطها الى الخارج

أدى اتحاد دواتي اراغون وكاستيل بشخصي فرديناد وايزابللا الى استسلام غرناطة عام ١٤٩٢ ونهاية حرب الاستعادة . الحدث الذي صاحبه اكتشاف امريكا . وبهـذا الكشف الجغرافي انصرفت انظار أنشط فئة من سكان اسبانيا الى القيام بأعظم مغامرة في التاريخ .

ولم تكن عملية تصفية اليهود واخراجهم في السنة نفسها أمراً مكروهاً في عيون « المسيحيين الاولين » . ولكن طرد الموريسكيين (وهم الاسلام المسلمون الذين تنصروا لعدة اسباب) لم يكن له الوقع الحسن في نفوس غالبية السكان المسيحيين . اذ وجدت البلاد نفسها فجأة في مفتتح القرن السابع عشر مجردة تماماً من جميع صناعها الماهرين وبضع مئين الالوف من المزارعين لهذا السبب صار الانهيار الاسباني محتوماً .

ومع ذلك فالعيش في تاس مستمر بالشعب الاسلامي كان يستبطن على الاقل فائدة واحدة . فقد خلق في اقلية ذات قسط ضئيل من الثقافة — تقطن الممالك المسيحية — روحا من التسامح عزّ مثلها في اوربا القرون الوسطى. فالصليبيون الفرنسيون الذين اعانوا الفونسو الثامن[٨] على كسب معركة « لاس نافاس دي طولوزا las Navas de Tolosa » عام ١٢١٢ تولوا عنه ساخطين لما رأوا من مبلغ لينه وتسامحه في معاملة المسلمين المغلوبين . بينما مات بدور الثاني[٩] ملك ارغونة وهو يحارب في صفوف الالبيجيين الهراطقة . واحاط عدة ملوك من كاستيل وارغون انفسهم بعلماء مسلمين ويهود واستخدموا معمارين مسلمين واستمعوا الى موسيقيين مسلمين وتمتعوا ببدائع ما انتجته الثقافة الاسلامية . على أن وجود الحرب المقدسة المتواصلة ضد المسلمين في الوقت نفسه — ولدت على ممر الزمن مرارة وقسوة في العاطفة الدينية . ولم يبلغ اكليروس اسبانيا من القوة والسؤدد حتى قدر لهذه البلاد أن تحكمها اقلية اكليروسية كانت مصالح اسبانيا الحقيقة لديهم تحتل المنزلة الثانية . حتى قيل « ضحت اسبانيا بحريتها الروحية وعظمتها كوطن على مذبح الكاثوليكية » .

٨) ملك كاستيل الملقب بالطيب (١١٥٨-١٢١٤) ورئيس الاتحاد المسيحي الذي كسر شوكة المغاربة .

٩) احد ابطال معركة لاس نافازدي تولوزا التي تعتبر بحق اعظم المعارك الحاسمة بين الموحدين وبين الاتحاد الحربي المسيحي المقدس الذي أعلنه البابا انوسنت الثاني على الكفار ومنهم ملك النافار وانضم اليهم بعض الاخويات العسكرية من الاسبتارية والتمبلارية ووقعت المعركة في سهل طولوزا وكان النصر فيها للموحدين اول الامر ثم انتهت بنصر حاسم للممالك المسيحية جعلتها مسيطرة على شبه الجزيرة ، ومات بدرو الثاني في الحرب الالبيجية .

كان القضاء على الاسلام في الاندلس قد انتهى بتسميم اسبانيا وما لبث أن ذهب ضحيته فرديناند وايزابللا اللذان مزجا جرعة السم لمملكتيهما بايدٍ طاهرة نقية . لقد نبذا بالدرجة الاولى روح التسامح الدينية التقليدية في اسرتي كاستيل واراغون وسمحا لنفسيهما أن يخضعا لارا. وروحية الاقلية الاكليروسية وحاولا تحقيق صهر مملكتيهما المفككتي العرى بقالب الوحدة الوطنية وجعلها وحدة طابعها ديني اكثر مما هو سياسي . سار فيليب الثاني قدما تحدوه الآراء التي ركزتها الاقلية الكنسية في ذهنه . واشتط الى درجة التعصب والرقاعة منحرفاً عن طبيعة السياسة التي التزمها فرديناند وايزابللا . وانتهج خلفاء فيليب هذا السبيل فما مرت بضع سلالات بشرية حتى قضى القضاء المبرم على تلك الزهرة الفينانة للفكر الاسباني. وهو التراث الجيد الوحيد الذي تركه العرب في اسبانيا[10] .

الاجناس واللغات في اسبانيا الحديثة

هذه هي شكوى مؤرخي الاسبان في العصر الحديث . ومع ذلك فالشيء الذي لا يمكن نكرانه هو ان عرب اسبانيا خلقوا مدينة زاهرة واتقنوا تنظيم الحياة الاقتصادية في الوقت الذي كانت تنوء اغلب اصقاع اوربا تحت نير الشقاء والاغلال مادية كانت أم روحية . اجل فقد لعب عرب اسبانيا دورا خطيراً في تقدم الفن والفلسفة والشعر حتى ارتفع تأثيرها الى اعلى قنن الفكر المسيحي في القرن الثالث عشر بظهور توما الاكويني ودانتي .

هكذا كانت اسبانيا — و إن لآخر مرة — نبراسا لاوربا ومشعلا . ولكن من هم اولاء حاملو المشعل ؟ كانت الألسن قد درجت على تسميتهم (بالمغاربة Moors) أو العرب. لكن هذه التسمية جوازية الى حد جدّ كبير . « فطارق » قائد اول حملة ناجحة في اسبانيا لم يكن عربيا بل من بلاد البربر . كذلك كان القسم الكبير من رجاله الغزاة . والارقام الحقيقية تظهر لنا ان العرب منهم لا يزيدون على الثلاثمائة . اما البربر فاكثر من سبعة آلاف.

10) مجلة المغرب : ج٧ عدد ٧٠ ص ٢٨ نيسان ١٩٢٩ . (المؤلف)

اما القوات التي نزلت في السنة التالية (٧١٢م) بقيادة موسى بن نصير فقد كانت خليطا من عرب مختلف انحاء شبه جزيرة العرب ، من سوريين واقباط وبربر . واننا لنتوصل بدراسة الوثائق التاريخية العتيقة واسماء الجديد من الامكنة في اسبانيا (على الاخص ما هو في مملكة بلنسية) الى توزيع القبائل العربية في اسبانيا عقيب الغزو المباشر ثم بعد ذلك بصورة تقريبية. وقد نقل الغزاة معهم خصوماتهم القبلية فضلا عن كُنى قبائلهم وصاروا يختصمون بسببها في اسبانيا بأشد وأعنف مما كانوا يختصمون وهم في موطنهم الاصلي . ودخل حضيرة الدين الاسلامي كثير من الأسر المسيحية ، وترك اكثرها — مع بعض من بقي على دينه — اسماءها المسيحية واتخذ اسماء عربية مع نسبتها العائلية « بنو . . . أو بني ال . . » وحصل تزاوج كثير جدا بين المسلمين والنصارى كأن بنيَ أبنُ موسى بن نصير وغيره من قادة الحملة ؛ بنساء من اسرة وِتزا[11] آخر ملوك اسبانيا الفيزغوطية[12] واصبحت جميع امهات الجيل التالي — مسلمات ام مسيحيات اسبانيات في جميع انحاء البلاد . أما مسلمو الجيل التالي ، فقد فضلوا أن تكون امهات ؟ اولادهن من اولئك الشقراوات الاماء اللاتي يبتعن من شمالي اسبانيا من أن يكنَ بنات جلدتهن ، فضلا عن اقترانهن بغربيات في الوقت نفسه . وقد درس الاستاذ ريبرا[13] سجلات سوق النخاسة القرطبي لفترات زمنية مختلفة فتوصل الى أن ابتياع الرقيق لم يكن كما يبدو بالصفقة البسيطة ، اذ كان يجب ان تعقد بحضور الكاتب العدل . ويؤخذ بنظر الاعتبار بكل دقة الاغراض التي تستوجب شراء الجارية و ملكاتها ومواهبها واسلوب المعاملة الذي يجب اتباعه معها . وقد

---

١١) لم تكن اسرة الفيزقوط آخر من حكم اسبانيا فقوضها العرب حيث ان وتزا وهو آخر ملك منهم اسقطه (رودريك : لذريق) عن العرش . فما كان من الملك المعزول الا ان تحالف مع العرب ضد خصمه . ان ابنة وتزا التي تزوجها عبد العزيز بن موسى بن نصير كانت تعرف (بام عاصم) .

١٢) الفيزقوط *Visigoth* هم قبيلة من قبائل القوط . استوطنوا شمال الدانوب ثم عندما هاجمتهم قبائل الهون البرابرة دخلوا التخوم الرومانية وعبروا الالب واستوطنوا فرنسا واسبانيا .

١٣) خوليان ريبرا في كتابه *Disertadionesy Opuscals* مجلد ١ ص ١٧ - ٢٥ مدريد ١٩٢٨ (المؤلف) توفي هذا المستشرق سنة ١٩٣٤ ، وكان استاذا للعربية في سيراقوزة .

تمتعت النساء بحرية ورعاية في حكم امويي اسبانيا تفوق ما كان يتمتع به مثيلاتهن في حكم « عباسي بغداد » وكما يظهر كذلك انه كان من المناسب جداً لاولئك اللاتي قدر لهن ان يصرن امهات لاطفال اسر عريقة ، أن يكن بيضاوات البشرة وان امكن فمن الغاليسيات (الجليقيات)[١٤] فكانت النتيجة ان صار الدم العربي يتناقص في عروق السكان باطراد تمازجه المتتابع على دوام تقادم الاجيال البشرية . وان ظلت أنسأل العرب عربية تحمل اسماء اسلافهم من جهة الذكور ، فكلما زاد عدد الاسماء العربية اللاصقة باسم الرجل كلما قلت نسبة الدم العربي الذي يجري في عروقه تبعاً لذلك . فمن الخطأ اذن القول بأن كل مسلمي اسبانيا هم عرب ، وان كل النصارى هم رومانيون أو قوطيون ، وان كل هؤلاء الاخيرين لجأوا الى الشماليين هربا من الفتح الاسلامي . ومن الخطأ القول ان حرب الاستعادة التي استعرت طوال قرون ثمانية قد نشبت بين القوط اللاتين في الشمال وبين عرب الاندلس في الجنوب .

صار اغلب المسلمين الاسبان يتكلمون بلغتين منذ ولادة الجيل الثالث أو الرابع بعد الفتح . سواء في هذا ذوو الاصل العربي الخالص (وكانوا اقلية ضئيلة آنذاك) او ذوو الاصل المسيحي الاسباني . واستخدموا — فضلا عن اللغة العربية (الرسمية) ، اللغة الرومانسية الدارجة التي كان يتكلمها المستعربون المسيحيون الذين بقوا يعيشون في ظل الحكم العربي) ويفصل لنا (الخُشني Aljoxani) في « كتاب القضاة بقرطبة »[١٥] بكل وضوح انتشار اللهجة الرومانسية ومبلغ جريها على الالسن في جميع الطبقات بقرطبة كما يبدو . حتى في ساحات القضاء وفي بلاط الملك . والواقع انه كان يوجد اربع لغات دَرج مسلمو اسبانيا على التكلم بها :

١ — العربية الفصحى وهي لغة المتأدبين والبلغاء .

---

١٤) مقاطعة فرنسية تقع على حدود اسبانيا في الزاوية الشمالية الغربية منها .

١٥) « كتاب القضاة بقرطبة » للخشني . (الاصل والترجمة مع مقدمة) وقف على طبعه (خوليان ريبرا) ـ مدريد سنة ١٩٢٨ . والخشني هو الحافظ العالم ابو عبد الله محمد بن حارث الخشني القروي الاندلسي (ياقوت) صاحب التواريخ ذكره (الحميدي) قال هو اعلم العلم والفضل ففيه محدث ، مات في حدود ٣٣٠هـ = ٩٤١م . طبع كتابه المذكور بالخط المغربي في مدريد سنة ١٩١٤ .

٢ – العربية الدارجة وهي لغة دواوين الحكومة والادارة المدنية .

٣ – اللاتينية وهي اللغة التي تستخدمها الكنيسة . محض لغة التراتيل الدينية يرافقها شكل خاص من الصلوات .

٤ – لهجة رومانسية ؛ واكثرها مشتق من اللاتينية المنحطة لكن قدر لها فيما بعد أن تكون ما يدعي (بالرومانسية – القشتالية أو بالاسبانية) احدى اللغات العالمية التي تقف في مستوى الانكليزية والعربية .

كان أول الامر – يصعب على الاميين من السكان الذين انحدروا بالاصل من شبه الجزيرة ان يتدربوا على الافصاح عما يريدون باللغة العربية – بأي شكل كان . وفي القرون الاولى التي عقبت الفتح وجد ثم الكثير ممن ارتضوا الاسلام دينا . يجهلون العربية جهلا تاما بحيث تعذر تلقينهم فرائض الدين الاسلامي الاساسية . ولم يكن ليدهشنا ان نرى حتى الى زمن متأخر – امرءاً لا يعرف شيئاً من العربية ويعين قاضيا . وكان عبدالرحمن الثالث ورجال الحاشية يتندرون ويرسلون الملح والفكاهات عن اللفظ المحرّف للكلمات العربية والرطانة الدارجة في لغة السكان[١٦] وقد روى الحشني بأنه كان يوجد في قرطبة أيامه رجل مسن يدعى يانير أوهاينز Giner , yanir (اسم لا يسمعه مُلمّ بتطور اللغة الاسبانية الحديثة الا ادركه الحنين العاطفة). كان هذا الرجل المسن لا يتكلم بغير الرومانسية (العجمية) ولكنه مشهور بالفضل لنبله وصدقه حتى ان شهادته كانت مقبولة دون تزكية في المرافعات الشرعية والقضائية . كان محبوبا للغاية في قرطبة لمناقبه الحسنة ولفرط تمسكه بالدين الاسلامي الذي يعتنقه . دعاه صاحب الشرطة يوماً ليدلي بشهادته في قضية ضد احد القضاة فأجاب الشيخ باللغة العجمية « انني لا اعرفه ولكن سمعت الناس يقولون عنه بأنه . . . » واستخدم تصغيرا للكلمة العجمية التي نطقها وفق قاعدة التصغير العربية . فلما نقل الكلام الى الامير – رحمة الله عليه – سرّ كثيراً وقال « لا تصدر مثل هذه الكلمة عن هذا الرجل الصالح الا والوثوق بصدقها واجب »

١٦) منبديث بيدال (اصل الاسبانية) ص٤٤٢ ط مدريد ١٩٢٦ . (المؤلف)

وأمر بعزل القاضي في الحال[١٧] .

المستعربة والثقافة الاسلامية

كان تراث الاسلام يتقدم في اسبانيا باطراد مع وجود الحقيقة التي لا تنكر وهي ان كثيراً من المسلمين في اسبانيا من اصل اسباني وان اللغة العربية لم تكن اللغة التي يتفاهم بها العامة او التي يمكن اتقان التحدث بها (حتى ان « المقدسي » السائح القادم من الشرق في القرن التاسع وصف اللغة العربية في اسبانيا فقال انها مستغلقة على الافهام) . فاذا كانت المستعربة المثقفة تتكلم بلغتين، فان غالبية السكان من جهة اخرى ، أميون والقليل الذي يعرف القراءة والكتابة منهم كان يفضل التفاهم بالعربية على اللاتينية . وكانت اللاتينية لغة بربرية غليظة الكتبة اذا قيست بالعربية وكل ما كان ميسوراً من ادبياتها فهو تافه قليل الاهمية . لذلك وجدنا اسقفاً في قرطبة لا يشتط كثيراً في لوم رعاياه لقلة ايمانهم ، بقدر ما يشتط في تأنيبهم لتفضيلهم الشعر والنثر العربيين على قصص ابائهم الدينية . كذلك ادخل المسلمون الكاغد فصارت الكتب العربية تفوق اللاتينية برخص الثمن وسرعة الانتشار .

ان قرطبة التي فاقت كل حواضر اوربا مدنية اذا . القرن العاشر كانت في الحقيقة محط اعجاب العالم ودهشته ، كمدنية فينسيا في اعين دول البلقان . وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بشيء اشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدنية التي تحوي سبعين مكتبة وتسعمائة حمام عمومي . فاذا ادركت الحاجة حكام ليون او النافار او برشلونة الى جراحي او مهندس معماري أو خائط ثياب أو موسيقي فلايتوجهون بطلبتهم إلا الى قرطبة. ونذكر على سبيل المثال ان (توتة tota) ملكة النافار جاءت بابنها (سانشو السمين) لمعالجته فيها من مرض السمنة ، فاشير عليها بمراجعة طبيب يهودي مشهور . وكان العلاج ناجعاً حتى ان الحكومة انتدبت هذا الطبيب ليتوسط لها في مفاوضة تلك الملكة وعقد معاهدة هامة .

ولكن الشيء الذي يذهل خاطر الرحالة هو الروايات والاخبار المأثورة عن مقر مدينة

---

١٧) خوليان ريبرا المصدر السابق ص ١١٨ والاصل العربي ص ٩٧ . (المؤلف)

الزهراء الصيفي الذي يقع على بعد ثلاثة اميال من قرطبة تقريباً ، تلك الاخبار التي تطالعنا حتى على صفحات المقري[18] الرزينة التي كتبت بعد ذلك الزمن بوقت طويل . ترينا القصر فهو اشبه بالقصور الخيالية (في حكايات الف ليلة وليلة) لا كمجموعة من ابنية . لم يعثر منقبو العصر على شيء منها اللهم الا مجاري المياه[19] .

حاق الدمار بمدينة الزهراء بعد خمسين عاماً من بنائها . لكن سقوط الخلافة كان يعني أن ثقافتها أو بعض ثقافتها ، صارت ميسورة للفاتحين او لملوك الطوائف (بالاسبانية Reyes de taifas) ومع ان اشبيلية لم تكن — وهي تحت حكم بني عباد ومنهم المعتمد الشاعر باقل ازدهارا وعظمة من قرطبة كما كانت حالها قبل ذلك بقرن ، فان الدول الاسلامية اصبحت الان اكثر اقترابا من مسيحيي الشمال ، وقد انتشر نفوذهم الثقافي في الوقت الذي كان سلطانهم السياسي يضمحل. أن توسع الثقافة الاسلامية الى الشمال زاد في تشجيعها هجرة المستعربة خلال فترة الاضطهاد التي حدثت ايام حكم البربر والمرابطين والموحدين ، وعلى الاخص بين سني ١٠٩٠ و ١١٤٦ . ولاول مرة يظهر التعصب الاسباني على مسرح التاريخ الاسباني ولكن من العجيب أن يظهر هذا التعصب لدى كلا المعسكرين في وقت واحد تقريباً حمل لواءه في الجنوب البربر المتزمتون وفي الشمال الرهبان الكاونياكيين (رهبانية متزمتة cluniac) ، ولقد وجد مستعربة بلنسية ان العيش تحت حكم المرابطين محال عندما تركت (جينة) المدينة بعد موت السيد سنة ١١٠٢ نزح جميع المستعربة الى قشتالة . هذا النزوح الاجماعي تبعه عدة هجرات ولقد ساءت حالة المستعربة تحت حكم المرابطين سنة ١١٤٣ فقد أمر عبدالمؤمن بطرد جميع المسيحيين

---

١٨) المقري ت ١٠٤١هـ = ١٦٣١م هو ابو العباس احمد بن محمد بن احمد المقري المولود في تلمسان مؤلفه « نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب » أتى فيه الى وصف الاندلس بدقة وهو يقع باربعة أجزاء ط مصر سنة ١٢٧٩هـ . ونشر في لندن بمجلدين ١٨٤٠ - ١٨٤٣ .

١٩) فلاثكيث بوسكو *Velazquez Bosco* في « مدينتا الزهراء والمارية » ط مدريد ١٩١٢ . (المؤلف)

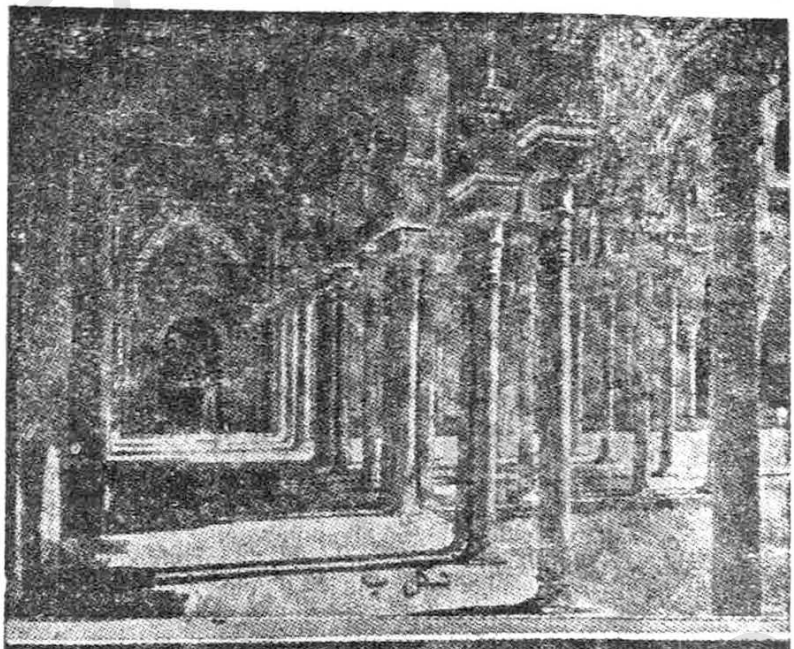

شكل (ب) الحمراء رواق في بهو السباع — تصوير اركسيف ماس .

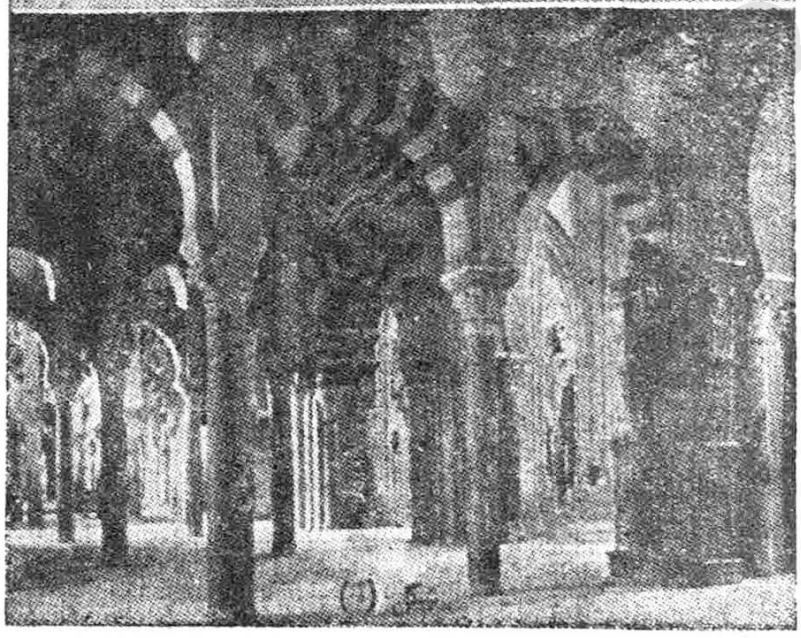

شكل (آ) داخل المسجد الجامع في قرطبة . (يراجع أيضاً بوصفه شكل ٣ في فصل العمارة .

واليهود الذين يرفضون ان يصيروا مسلمين . ومع ذلك فمن العجيب اننا نجد في هذه الفترة من حكم العرب باسبانيا (من ١٠٥٦ – ١٢٦٩ على وجه التقريب) اسماء عظمى تسطع في سماء الثقافه الاسبانيه المسلمة كالبكري ، والادريسي الجغرافيين ، وابن زهر الجراحي الذي عاش في عصر المرابطين. ونبغ في عصر الدولة التي اعقبتها ، الفلاسفة ابن باجه وابن رشد وابن الطفيل وابن عربي المرسي الصوفي . واليهودي ابن ميمون الحكيم. وابن جبير السائح .

كان المستعربة المهاجرون قد نقلوا اساليب معمارية وانماطا من الثياب . وبعض العادات الاسلامية وجملة تعابير مثل quem Deus salvet,cui sit beata requies Dios mantenga « من يخلصه الله ، كانت له الراحة السعيدة ، وهو الذي يحفظه الله[٢٠] » ولكن ، مثلما نشأ تراث الحضارة الاسلامية العلمية في اسبانيا فقد تم نشره في ارجاء اسبانيا كلها على يد الفتح المسيحي – بتوسط اليهود – في النصف الاول من القرن الثالث عشر ؛ هذا الفتح الذي كان السبب في دخول عدد كبير من مهرة الصناع المسلمين تحت الحكم المسيحي وفتح طريق المدارسات الاسلامية على رحبه لكل اوربا ؛ فقد اخذ التأثير ينتشر بسرعة عقيب فتح طليطلة عام ١٠٨٥ وسقوط قرطبة عام ١٢٣٦ والاستيلاء على اشبيلية عام١٢٤٨. وبعد الظفر بغرناطة عام ١٤٩٢ ، ربما صح القول ان تراث الاسلام وصل خاتمة المطاف خلا ما يتعلق بصناعة الاواني الخزفية وبعض الصناعات الفنية الصغيرة .

ان النهضة العلمية العربية المسبوقة بنهضة علمية فرنسية اعقبتها حركة احياء العلوم الايطالية وبهذا انتهت فترة التأثير العربي .

الهندسة المعمارية المستعربة والمدجنون

في فصل آخر من هذا الكتاب بحث عن الهندسة المعمارية الاسلامية . فليراجع .

ان عهدي الخلافة والامارة يمثلها المسجد الجامع بقرطبة[٢١] (شكل ـأـ) اما مايذكرنا

٢٠) منيديث بيدال : المصدر المذكور آنفاً . (المؤلف)

٢١) عن نفح الطيب باختصار : كان كنيسة قبل الفتح العربي وشاطرهم عليها المسلمون عند الفتح وبدأوا

بعصر ملوك الطوائف (وهو واحد من عدد قليل) فهو الآثار الباقية من الجفرية Aljaferia في سرقسطة . اما عصر الموحدين فيمثله برج جيرالدا ، واعتق قسم من بناية القصر [٢٢] في اشبيلية (Alcazar patio del yeso بينما يمثل فن اسرة بني نصر في غرناطة «قصر الحمراء» [٢٣] Alhambra (شكل ـ ب ـ) وواجهة قصر جنة العريف Generalife ». وعلى كل حال فثم اساوبان آخران جديران بالتأمل كلاهما اسباني الطابع وهما (العمار المستعربي . والعمار المدجني) فالعمار المستعربي هو من بعض النواحي عبارة عن رد فعل اسلامي . لكنه خضع مضطراً لمؤثرات جاره الجنوبي الاقوى والاكثر مدنية . ولما كانت اصوله ترجع الى الاسلوب الذي ساد اسبانيا قبيل غزو سنة ٧١١ ، فقد صار الاسلوب العملي المفضل لممالك الشمال المسيحية خلال تلك الفترة حتى دخول الطرز الرومانسي وكالطلعة البعيدة عن القسم الاكبر من الفن البيزنطي . فهذا الاسلوب يميط اللثام عن مظاهر معينة تبدو ايضا في فن العمارة الاسلامية . كالنوافذ المزدوجة (الثماس Ajimas) والطاق الشبيه بحدوة الحصان . وان تاريخ هذا الطاق العربي هو بحد ذاته قضية طريفة . اذ لم تنفرد مباني المسلمين باستعماله ولكنه وجد في كنائس المستعربة ايضاً وقد زعموا ان المسيحيين الذين هاجروا من قرطبة ، على الاخص الرهبان منهم حملوا معهم نظريات لثقافة اعلى مما عرف في الشمال باسره ، منها اساليب جديدة في البناء . ان الكنائس البسيطة التصميم التي يعود تاريخ بنائها الى تلك الحقبة ، تفصح عن تأثير قرطبة في شكل بناء الطاق وفي نظام حفر السراديب وان كان طابعها العام ما يرجع اصله الى الفن البيزنطي . مثال ذلك كنيسة القديس (ميكيل داسكالادا) التي بناها الرهبان المطرودون من الحاضرة الاسلامية عام ٩١٣ . وقد عرفت قرطبة المسيحيين والمسلمين على حد سواء بالطاق العربي . لكن الفضل

بتوسيعه . وقد تحول الى كنيسة بعد رجوع الاسبان . ومازال قائماً حتى الآن بنقوشه وزخارفه الاسلامية وكتاباته العربية .

٢٢) ويدعى بالقصر الكبير ، شرع ببنائه عبد الرحمن الناصر في أواسط القرن الثاني وأتمه خلفاؤه وهو مؤلف في « ٤٣٠ » دارا . « نفح الطيب »

٢٣) بناه ابن الاحمر في أواسط القرن الثامن الهجرى .

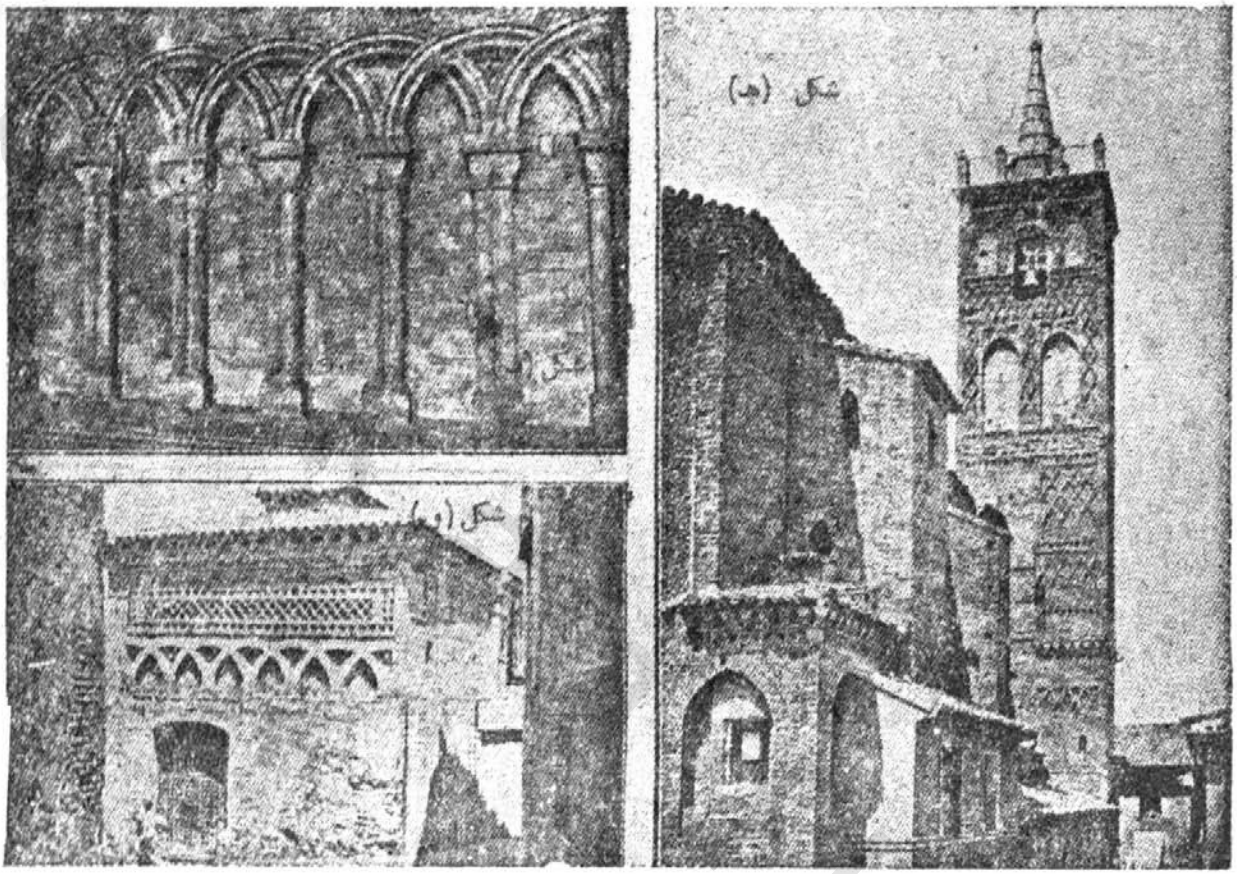

شكل (د) : بواكي مسدودة ذات أقواس متعارضة – كنيسة دورهام .

شكل (هـ) : البناء بالآجر عند المدجنين – برج Torre de San Gil

شكل (ج) : كريستو دي لا لوز – طليطلة Cristo de la Luz .

في ابتكاره لا يعود لها . فلقد كان موجوداً بكل تأكيد في اسبانيا قبل الغزو العربي وكان ظاهراً أيضاً حتى في احجار القبور الرومانية في عصور متأخرة . وعلى كل حال فأن المعماريين الاسبان سرعان ما ادركوا مزاياه البنائية والفنية فتبنوه وشاع عندهم استعماله ، مع فارق بسيط هو توسيعهم طرفي كاشة الطاق ، وتضييقهم فتحة الطاق من الوسط في الوقت نفسه . ان تأثير قرطبة المعماري « منه الطاق (العقادة) الشبيه بحدوة الحصان » يمكن أن نراه في مخطوطات المستعربين المزخرفة بالرسوم الهندسية كشروح بيتس ليبانا Beatus Liebana . كما عرف ايضاً غيرذلك من المخطوطات اللاتينية وفيها فعلا هوامش وملحوظات بالعربية تفسر معاني البصمات العربية . ولكن اهم ما قدمته قرطبة من مبتكراتها الاصيلة المعمارية هو طريقة عمل السراديب ذات السقوف المعقودة المرتكزة على اسلوب العقادات المتقاطعة والاضلاع الظاهرة المتشابكة . وهذا اسلوب يعالج مشكلة العمار من الصميم اعني تسقيف الفسحة بالنظام الذي جرى عليه التسقيف القوطي . هذا النظام الذي اصاب نجاحا وشاع استعماله بعد ذلك بقرنين من الزمن . نقلت اغاط العمارة المتقدمة من قرطبة الى طليطلة وسرقسطة وتجلت روعتها ورواءوها في ابنية من القرميد . ان الكنيسة الرائعة المسماة « كريستا دي لالوز Crista de la luz في طليطلة (شكل ـ جـ) كانت بالاصل كنيسة فيزقوطية ثم حولت الى مسجد ايام الاحتلال الاسلامي ورممها معماريّ مسلم سنة ٩٨٠ كما ذكر في كتابة محفورة على واجهة البناية . نجد الحيطان من داخلها قد ازينت بصفوف من البواكي المتشابكة المسدودة : صفوف من العقادات الجامدة التي لا تنتهي بشي . ولقد قيل ان ذلك الزمن هو اول استعمال لها . اما النموذج الثاني فيتجلى في كاتدرائيتي دورهام durham ١٠٩٣ ونورويج norwitch ١١١٩ (شكل ـ د ـ) ولقد صارت الاطواق الزخرفية المتشابكة بدعة محببة عند البنائين المسلمين بعد ان خضعوا لتأثير المسيحيين .

اما الفئة المعروفة باسم « المدجنين » فهم موجدو الطرز الوطني الاسباني الذى ربما كان اهم ميزاته هو ظهور الطابع الاسباني فيه على الفن الاوزبي . وماخلفوه من آثار يمكن رؤيته في

مختلف انحاء اسبانيا . على أن موطن تلكم الآثار الحقيقي هو طليطلة فهنالك نجد تلك الابراج الكنسية الجميلة المصنوعة من القرميد على اشكال مختلفة من العقادات المسدودة . اما زخرفتها الرئيسية فهي عبارة عن عدة طبقات من هذه العقادات مرتبة احداها فوق الاخرى صفاً صفاً . ويختلف شكل نوافذ كل طابق عن زميله (شكل ـ هـ) والابراج ذات النمط المدجني في اراغون منفصلة عن الكنائس كالمآذن . وهي احيانا مزينة زخارف على شكل مربعات (قاشانية) ذات الوان لآلاءة صارخة . فضلا عن صناعة التكفيت بالقرميد . ولقد بني على قارعة الطريق اربعة ابراج في مدينة ترويل terule بشكل يدع وسائط النقل تمر من خلال طاق من الاسفل . اما في قلعة ايوب Cataloyud فالابراج مثمنة الاوجه[٢٤] . وتعد كذلك المنحنيات القرميدية لكنائس المدجنين في طليطلة مثال النماذج الجميلة لعمارة القرميد . بينما يسفر الجدار الشمالي لاقدم كاندرائيتين بسرقسطة عن اروع مثل لهذا الطراز من الزخرف. كان البناؤن المدجنون يستدعون في مختلف انحاء اسبانيا ليقوموا بعمل الزخارف الكنسية والبيوت الخصوصية، مثال ذلك البهو الرائع لقصر ايفانتادا ifantada في مدينة وادي الحجارة Gandalagara

كانت الحاجة الى فنهم عظيمة وعلى الاخص لنحت شواهد القبور ولبناء كنائس اليهود كما هو مشاهد في المباني الطليطلية المعروفة الآن بـ « التراسيتو el - trasito والقديسة مارية البيضاء santa maria la blanks أما « القصر في اشبيلية فقد شاده البناؤون المدجنون للملك بدرو القاسي[٢٥] على طرز اسلامي خالص وما زال احد القصور التي كان يؤمها الملك الاسباني[٢٦] .

---

٢٤) برنارد بيفان *Bernard Bevan* كتابه : ابراج المدجنين في أراغون (مصور) مجلة ابولو (السنة ٩١ العدد ٥٣ أيار سنة ١٩٢٩) . (المؤلف)

٢٥) صاحب كاستيل وليون ١٣٣٤ - ١٣٩٩ .

٢٦) حولته الجمهورية الملغة في اسبانيا سنة ١٩٣١ الى متحف .

النجاريات ، الخزفيات ، الرقش ، الموسيقى

مهر المدجنون في الصنائع اليدوية (المنزلية) وبرعوا في النجارة وعمل الفخار والنسيج أكثر من أي شيء آخر . فالسقوف الاسبانية المقفصة بالواح الخشب artesonada يرز نظيرها في اوربا . اللهم اذا استثنينا سقف كنيسة پالاتينا Capella Palatina في مدينة پالرمو ، وهي من عمل المسلمين ايضاً فالواحها المطعمة والمكفتة لا تقل عن اختها الاسبانية جمالا وروعة. وما زالت مصطلحات اسبانيا النجارية حتى هذا اليوم عربية . كذلك مختلف انواع المربعات الفسيفسائية الملونة أثوليخوس azulojos المألوفة كثيراً في اسبانيا والبرتغال فهي من آثار المسلمين كما يظهر من اسمها (اجدول الكلمات) وبعد حرب الاستعادة حلت الرسوم والمناظر (حتى الصورة الكبيرة المرسومة على الحيطان بطريق التطعيم بقطع القرميد الملون) (شكل ـ و ـ) محل الرسوم الهندسية والنقوش واستعمل القاشاني (الكاشي) في اشبيلية لوصف المذبح الكنسي والدرابزينات الحجرية والنافورات (حيث نظم تدفق الماء بحيث ينساح على مهل فوق حوافي الحوض ليبقى القاشاني المرصوف تحت النافورة نديا صقيلا) كذلك استخدم في الحديقة العامة المجانية (بدعة انفردت بها اسبانيا) واستعمل القاشاني والصور المكفتة بالقاشاني في البرتغال بنطاق اوسع . فثم في اوفيرا (oviera) كنيسة غطيت كل جدرانها الداخلية بالكاشي الابيض والازرق .

ووصلت صناعة الفخار البراق العربي — الاسباني . اعلى قمة الفن عند المدجنين . هذا الفخار يلي بالنفاسة الفخار (البورسلان) الصيني عند الهواة جمّاعيه . واول ما ورد ذكره في القرن الحادي عشر (طليطلة عام ١٠٦٦ وقرطبه عام ١٠٦٨) كما وصف لنا (الادريسي) طريقة صنعه في قلعة ايرب سنة ١١٥٤ .

وثمّ مكانان آخران متباعدان في اسبانيا نالا شهرة في هذه الصنعة اولهما و أشهرهما (منيس Manises) في مملكة بلنسية وثانيهما مدينة (مالقة) . واقدم ما بقي من آثاره حتى

الآن يرجع بنا الى القرن الرابع عشر وان كان قد عثر على قطع أثرية او لُقى تعود الى ما قبل ذلك باربعمائة سنة فى تنقيبات (مدينة الزهراء) . والنموذج الاصيل للخزف العربي — الاسباني له بريق معدني ذهبي اللون لألاء ، وتختلف الوانه بين الياقوتي وعرق اللؤلؤ الاصيل والاخضر المائل للاصفرار . واعتق انماط الزخرفة هي بيزنطية لكن سرعان ما دخلت الاحرف الكوفية المربعة في صلب الزخرفة . ثم استعمل نقش محبب هو كلمة (العافية) بالاسبانية alafia ومعناها بهذه اللغة كمعناها بالعربية (الرخاء . النعمة . طيب العيش) . والظن السائد ان هذا التعبير اختاره الفخارون ليحل محل لفظ الجلالة (الله) ، حتى اذا انكسر الوعاء والاسم عليها ، لا يبقى مجال لموت صاحبها من جراء هذا الانكسار . لقد وجدت كلمة (العافية) منقوشة على قناني الدواء اكثر من غيرها . ومهما يكن فقد ابتدع فخارو بلنسية نقوشاً مختلفة اخرى شكلها مأخوذ من النبات البري الذي يعرف بالعربية (الغالبة) وبالاسبانية (algalaba) وهو نبات معروف في تلك الجهة . واستعملت كذلك اوراق العنب . واخيراً اشكال البيارق والرايات (شكل — س —) وقد ثبت من كل هذا ان صناعة الفخار العربية — الاسبانية كانت وقفاً على الباباوات والكرادلة وزهرة الاسر العريقة الاسبانية والبرتغالية والايطالية والفرنسية[٢٧] ولقد نوه الكردينال جينيز — ximinus باولئك الهراطقة الصناع قائلا : « ينقصهم ايماننا لكن تنقصنا صناعتهم » .

وما كان الطلب على الحرير العربي — الاسباني باقل من الرغبة في خزفياته . كان مستودعه البيع المسيحية على الاخص حتى تبين ان جملة الاكياس الحريرية الصغيرة التي عثر عليها في كاتدرائية « كانتربري » والتي كانت بمثابة محافظ اختام الوثائق ، مما يرجع تاريخه من ١٢٦٤ حتى ١٣٦٦ ، انما هي مصنوعة من وصلات الحرير الاسباني العتيق . هذه النماذج التي لا يمكن أن يتطرق الشك في تفردها عن غيرها بجمال نسجها وصنعتها التي لا تضارع وفي مبلغ دقتها وتعقيدها .

---

٢٧) س . فان در بولت S. Van der Boult من مقاله « الفن العربي الاسباني » بمجلة « برلنكتن مونوكراف » ١٩٢٧ ، وبعض الدراسات الاخرى . (المؤلف)

وربما عاد اقدم ما وصلنا من هذه الخرق الحريرية – الى نهاية القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر . ويجيء القرن الرابع عشر ، ظهرت نماذج حريرية جديدة فاقت الاولى في دقة صنعها وزخرفتها . ظلت هذه الصيغة قائمة الى ما بعد ذهاب الحكم الاسلامي عن اسبانيا ، وهي تمثل مظهراً آخر لفن المدجنين في القرنين : السادس عشر والخامس عشر .

وطار صيت قرطبة بسبب الجلود التي تنتجها والذى عرف باسم « القرطبي Cardovan أو Cardwan » . وقد تعتبر « شركة القرطبيين Cardwaners Co » أو اسمها هذا على الاقل ، جزءاً من تراث الامة العربية بما تبع ذلك من زمن الجز فيه مجلدو الكتب المدجنون ادق الاعمال واروعها . واصاب الصاغة المسلمون الاسبان ، شهرة ايضاً . أما صناع المعادن الاخرى فلم تكن جهودهم المبذولة بأقل من جهود من ذكرناهم ومن سبقوهم في انواع معينة من الصنعة كنقش قبضات السيوف وتطعيمها بالمينا ، وكبعض الحاجات والادوات المستعملة في الحياة اليومية مثل المفاتيح الحديدية التي اشبهت السنتها المسننة هيئة الاحرف والكلمات المكتوبة بالخط العربي الكوفي المتداخل ، واما التقليد فقد جاء آية في الابداع .

من العسير علينا أن نزجي الى الفنون الصناعية لاسبانيا المسلمة ما تستأهله من ثناء وحمد . على أن الامر بعكس ذلك في موضوع الموسيقي ، فربما كان يوجد بعض المبالغة في تقدير اثرها . انّ المماثلة الظاهرة بين الموسيقى الشعبية التي كانت تسمع في جنوب اسبانيا وبين الموسيقى التي سمعت في مراكش وغيرها من الاقطار الاسلامية ، جعلت بعض الناقدين يهبطون خبط عشواء . وانه وان كان يوجد بدون شكّ علاقة بين الرقصات والاغاني الراقصة الاسبانية الحديثة وبين نظيراتها في مراكش الحديثة ، ومع أن بعض المقامات التي يعتزّ بها موسيقارو « فاس » قد قيل انها من مخلفات غرناطة ، فالتشابه في اشكال الموسيقي الاخرى ملحوظ في اسلوب الاداء اكثر مما هو ملحوظ في فن الايقاع ، ظاهر في الانماط لا في الموسيقى نفسها . ومما لا شكّ فيه ان قصور ملوك القرون الوسيطة بـ « كاستيل واراغون » لم تكن خالية من الموسيقيين المسلمين الذين وصلت الينا اسماؤهم كما وصلت الينا اسماء زملاء لهم من انكلترا

واسكتلندا ، واسماء غيرهم من ارجاء اوربا ، ولكن فيما تأخر من القرون الوسيطة (اعني في عهد كاهن هيتا الكبير) . وكثيراً ما وصف المغربيون بانهم راقصون اكثر مما هم ضاربون على الالات الموسيقية ، وان كان المسلمون هم الذين ادخلوا تلكم الالات – في مناسبات كثيرة – الى اسبانيا ، ومنها الى اوربا – كالعود والقيثارة ، والرباب (وهي الالة المحببة عند شوسر[٢٨] chaucer) ؛ بالعربية رباب وبالاسبانية ربيل reblel وبالبرتغالية ريبكا rebeca (وهذا الاخير هو المصطلح الشائع الذي ما زال يستخدمه البرتغاليون للدلالة على الكمنجة) .

وفي جزيرة ايبريا ، آلات اسماؤها مشتقة من العربية مثل : البندير العربي (التامبورين tambourin بالاسبانية بندير Pandera وبندير اتا panderata) وعرفت الصنوج التي تحف باطاره باسم « صُنجاس sonjas جمعُها بالعربية : صنوج ؛ وبالفارسية صَنج » . أما البوق الاسباني القديم المسمى (انافيل anafil) فهو النفير العربي ، بينما القطعة الموسيقية المسماة «فانفير fanfare » والتي تُؤدي بعدة ابواق اشتق اسمها كما يقول الدكتور فارمر[٢٩] – من صيغة الجمع للنفير=أنفار . أما القِرَب الموسيقية الاسبانية المسماة (كيتا gaita)، فهي الالة الموسيقية العربية المسماة (الغيطة hausboy) المعروفة فى غرب افريقيا باسم : الليكاتور Alligator وهي اقرب كلمة انكليزية للنطق العربي العامي بها . وثمّ ايضاً الالة الاسبانية العتيقة المعروفة باسمي : اللوق allogue واللوقون allogon ، واصلها العربي «البوق » وباللاتينية luiccinum بقيت هذه الآلة زمناً طويلا سِراً مستغلقاً على الباحثين حتى وُصفت مؤخراً وصار بالامكان

---

٢٨) جيوفري شوسر (حوالي ١٣٤٠ – ١٤٠٠) احد أساطين الادب الانكليزى الكلاسي عرفه الادب الانكليزى « بحكايات كنتربرى » والفكرة التي بنيت عليها تتلخص : أن جماعة من الحجاج المتواردين من مختلف أنحاء انكلترا للحج الى قبر القديس توما في كنتربري التأم شملهم في احدى الخانات « التابارد » فقابلهم المؤلف مع صاحب الخانة واقترحا عليهم ان يقص كل واحد منهم ترجمة لساعات الفراغ – قصتين واحدة في طريق الذهاب وأخرى في الاياب ومن تحرز قصته أكبر الاعجاب يدعى مجانا للعشاء في الخانة .

٢٩) دكتور فارمر : راجع « مختصر تاريخ الموسيقى العربية » .

رسم شكل لها باعتبارها من الآلات الشائعة في اقليم الباسك الى الآن [٣٠] . واخيراً تأتي كلمة طروبادور، وطروبار troubabour , trobar (كما المعنا اليه في باب آخر من ابواب هذا الكتاب) فهما كلمتان من اصل عربي لا شائبة فيه فقد اشتقتا من فعل (طرّب) أي غنى ، أو من فعل التأدية الموسيقية .

وفي إبان اضطهاد العرب وطردهم التدريجي خلال القرن السادس عشر اخذ معشر الغجر (الكاولية) الذي حطوا رحالهم اول ما حطوا — في برشلونة عام ١٤٤٢ وصاروا — كما معروف عنهم — يتسربون ويحتلون مكان العرب (الموريسكيين) حتى أن بعضهم استقر في الاحياء المهجورة من غرناطة تاركين عيشة البداوة ، وعادة الارتحال ، وهم — وان امتهن بعضهم النحاسة والبيطرة — لم يحققوا أيّ بروز في فنّ أو صنعة خاصة . فكانوا بذلك شرّ خلف للموريسكيين . على انهم صاروا مغنين شعبيين بالتدريج ؛ يرددون الموسيقي التي التقطتها اسماعهم اثناء تجوالهم يرددونها بحماسة واندفاع اشبه بشعلة نار ، وندر أن بذهم في ذلك احد. اما طريقة الاداء المعروفة عند المبتدئين زمبرا zambra فعربيتها (زمر) فضلا عن سلوك السامعين ومقاطعتهم المغني بهتافات (اولي .. اولي ! olé olé) ومعناها (والله والله) فقد بقيت لتذكيرها بما كان في عهود المسلمين . يبدأ عازف القيثار بتوقيع انغامه وحده بوصلة افتتاحية تمهيدية طويلة ، فاذا تهيأت النفوس السامعين وطربوا وانسجم خيال العازفين الاخرين واندمجوا تماماً في الجو الموسيقي المتبع ، دخل المغني او المغنية وشرع أو شرعت بغناء صوت طويل النفس هو عبارة عن مقطع (آي أو آه ay) لتجربة صوته ولاكمال تهيئة الجو أيضاً . وقد يبدأ بنواح مرتفع الطبقة مؤلف من مقطعين هما (ليلي .. ليلي leli leli بقي ترديدها شائعاً حتى سنة ١٩٢٢ ، وهو أثر من آثار العقيدة الاسلامية او ربما كان اصله النداء العربي « ياليلي ياليلي »

على أنّ ثمّ احتمالا مهما وهو انّ نظرية الموسيقى في اوربا ، فقد تأثرت بالكتاب

---

٣٠) انظر « رودني كالوب *Rodney Gallop* » في « كتاب عن الباسك » ص ١٨٣ طبع سنة ١٩٣٠ . (المؤلف)

المسلمين [٣١] شأنها في ذلك شأن كلّ فرع من فروع الدراسات السائدة في القرون الوسطى . ففي موضوع الموسيقى ، ترجمت ما بين القرنين الثامن والحادي عشر الميلادي عدة رسائل يونانية الى اللغة العربية ، والفّ باللغة العربية نفسها رسائل موسيقية أصيلة عظيمة الخطر ، دبجتها أقلام الكندي والفارابي وابن باجة وابن سينا وغيرهم . وعندما بدأ طلاب العلم يفدون من من الشمال الى طليطلة ، انتشرت هذه الكتب العربية بالتدريج في اوربا بتراجم لاتينية . ومن عجيب الصدف ان نجد هذه الفترة (اول نصف من القرن الثاني عشر) قد اقترنت بظهور مبدأ جديد في موسيقي الشمال هو ايجاد قيم زمنية محدودة في الغناء [٣٢] البسيط . وابتكار هذه الموسيقى المقننة يعزى احيانا الى « فرانكو الكولوني » على انه هو نفسه كان يتكلم عن الموسيقى المقننة كشيء سبق وجوده والظاهر انه كان معروفاً عند « الخليل » قبل القرن الثامن فضلا عن الفارابي (من القرن العاشر) الذي ترجمت آثاره الى اللاتينية تحت اسم « الفاربيوس » فاقبل موسيقيو الشمال عليها وعلى مدارستها بنهم وتوقان . اشاد (والتر أزكتون) اعظم موسيقي القرن الثالث عشر معجباً باساتذة الفنّ العرب . وثمّ موسيقى انكليزي آخر من ابناء ذلك العصر كتب في نظرية الموسيقى ، بلغ انه صار يطلق على القيم الجديدة للعلامات الموسيقية اسماء عربية ، فهو يتكلم عن الموحيم elmuahym والمريفة [٣٣] . elmourifa

لقد عرف من نظرية موسيقى القرون الوسطى وقواعدها الشيء الكثير الآن ، ولكن لم يزح الستر بعد الا عن النزر اليسير من فنها العملي ويفتح لنا فصل «الميزات الاجتماعية للموسيقي

---

٣١) هنري جورج فارمر (انظر اعلاه) في « الادلة على تأثير الموسيقى العربية في النظرية الاوربية » وهو بحث منشور في المجلة الآسيوية ، كانون الثاني ١٩٢٥ ص ٦١ - ٨٠ . (المؤلف)

٣٢) انظر (كروف *Grove*) في (معجم الموسيقى والموسيقيين) الطبعة الثالثة - ١٩٢٧ مادة فرانكو (المؤلف)

٣٣) كوسميكر *Coussemaker* المجلد الاول ص ٣٣٠ من كتابه (كتابات عن موسيقى القرون الوسيطة *Scpriptores de Musica Medin*) . (المؤلف)

في القرون الوسيطة » من المجلد الاول التمهيدي لتاريخ اكسفورد ، آفاقاً جديدة . ومع ذلك فقد كانت القيمة العملية لنظام الموسيقى المقننة — جليلة الشأن لانها جعلت الموسيقى فنّا يمكن التأليف والكتابة فيه بشكل يسهل لعدة اصوات منطلقة في الغناء. معا ان تؤديه موسيقي كهذه لم تكن معروفة عند الفارابي وغيره من نظريي الموسيقى المسلمين ولعلهم كانوا يجهلون ان موسيقيي الشمال صاروا يطبقون مبدأ كانوا هم ، اول المبشرين به وان الاغنية المسماة « الصيف قادم[٣٤] sumer is icumen in » وهو الدور العظيم الذي تنشده ستة اصوات ومن وضع احد رهبان ريدنك reading حوالي عام ١٢٤٠ قد بذ كلّ الموسيقى المعاصرة سموّ أو رفعة انما هو من طينة وعالم يختلف تمام الاختلاف عن اغاني الطروبادور واناشيد الملك الاسباني الفونسو الحكيم الموضوعة حوالي ١٢٨٣ وهي التي ربما دان ظهورها الى تأثير المسلمين المباشر

الكلمات العربية في اللغتين

الاسبانية والبرتغالية

ليس ثمّ شاهد على مقدار ما تدين به اسبانيا للاسلام اعظم واقوى من اللغة الاسبانية نفسها ، لكن علينا ان نحذر المبالغة في هذه النقطة بالذات ، علينا ان نعدد مقدار هذا الدين بدقة وأمانة قدر الامكان . ففي ايام الفتح الاسلامي (٧١١) كان ثمّ لهجة رومانسية في اسبانيا تسلك سبيلها الى التكوين . أخذت هذه اللغة من اللاتينية المنحطة التي كانت هي الغالبة على ألسن سكان شبه الجزيرة لفترة من الزمن ولقد اثر عنها شيوعها على افواه المسيحيين الذين ظلوا

---

٣٤) ان هذه المنظومة اخذت اسمها من مطلعها (الصيف قادم) وهي بالانكليزية الانيزابيقية كما يدل عنوانها . ويظن انها أول ما استحدث من الشعر الغنائي الانكليزي ، وناظمها غير معروف أما موسيقاها فباقية حتى الآن ، ويتم غناؤها بان ينقسم المغنون الستة الى فريقين متساويين تبدأ الاصوات الثلاثة الاولى بترديد المقطع الاول فما تنتهي منه حتى تتلقفه الفئة الثانية بينما تكون الفئة الاولى قد بدأت بترديد مقطع ثان جديد ، فاذا انتهت الفئة الثانية من المقطع الاول وتلقفت المقطع الثاني تقوم الفئة الاولى بترديد المقطع الاول في الوقت نفسه ، ثم تنتقل الى الثالث وهكذا حتى تنتهي المقطوعة باصوات متشابكة منسجمة .

في حكم المسلمين كما سبق فرأينا ، وتخاطب بها بعض المسلمين انفسهم بعد زمن ، وبذلك شقّ عدد كبير من الكلمات العربيه طريقاً له الى هذه اللغة الرومانسية. والداعي الى ذلك هو الاستعارة المباشرة من اللغة العربية ، ووجود اللهجات الاسبانية في حالة من التذبذب وعدم الاستقرار في وقت كانت لغة العرب قد شاعت في الجزيرة .

والكلمات العربية الدخيلة اكثرها من فصيلة الاسماء ، اي من مختلف انواع الاشياء والعواطف والرغبات التي كان — وبعضها ما زال يوجد لها اسماء عربية في اللغة الاسبانية الحالية مثال ذلك .

طاحونة : tahona ، فندق : fonda تعريف أو تعريفة : tarifa . وقد تبين على كل حال – ان الكلمة العربية تأخذها اللغة الاسبانية هي وأداة تعريفها المتصلة بها ومثال ذلك : الحاجة : الجوهرة[٣٥] = (لا الهاجه la alhaja) الرز = (الـ . . . . أرز elarroz) الساقية (مدلولها اللغوي بالاسبانية : القنال أو الترعة) = (لا أساقية la aclquia) القنال (مدلولها اللغوي بالاسبانية : صبي الحباز =(الاناقالو el anacalo). وربما لا حاجة لنا الى القول ان هذه الكلمات الاسبانية لم تكن مشتقة من الادب والكتابة العربية بل من عاميتها الدارجة في جنوب اسبانيا ، وللام في (أل التعريف) كانت في حالات معينة تدغم اثناء النطق بالحرف الصامت الذي يليه فى الكلمة نفسها : النقال (أن . . . نقال an - naqqual) الرز (أر . . . رز ar - ruzz) الساقية (أس . . . ساقية as-saquia) الا في كلمتي الحاجة al haja وكلمة القبة alqubba وما جرى مجراها .

واستعمل بدرو دي الكالا وهو المبشر الذي نشر سنة ١٥٠٥ كتابين يعالجان موضوع اللغة العربية الدارجة في غرناطة ، كلمة (أدار adar) قاصداً بها (الدار)وكلمة (كزمس a xems) قاصداً بها (الشمس) ، وكلمة (أسلطان a coltan) قاصداً بها (السلطان) وغير ذلك. ولكن يجب الآ نستنتج بأنّ كلّ كلمة اسبانية غير مألوفة ، هي ذات اصل عربي

٣٥) كان الشكل المألوف لهذه الكلمة في القرن السادس عشر (*el alhaja*) . (المؤلف)

اذا ما ابتدأت بالالف واللام . فالكلمات الاتية تقوم حول اصلها اللاتيني الشك مع انها تبتدي بالالف واللام :

«شارع : alameda» و « لوز almendra » و«وجبة غذاء almuerzo »و« السلك alambre » بينما نجد الكلمات التالية «مشمش : apricot او alboricoque او abbechigo (وهذا احد انواع لا تحصى من ثمر الخوخ) لهي كلمات لاتينية الاصل مرت خلال اللغة اليونانية ثم العربية قبل أن تستقر في اللغة الاسبانية . وعلى كل فالحقيقة هي هي ، وهي ان الكلمات الاسبانية المستمدة من العربية تتضمن امورا هي من لزم الاشياء للحياة اليومية :

zaguan : زكوان عربيتها اسطوان : وهو المدخل الى البيت .

azotea : أزوطية « سطح : وتصغيرها سطيحة وهو السقف المسطح .

toldo : طلدو « ظلة : أي اريكة ، (والكلمة بالاسبانية تعني خيمة)

alcoba : الكوبة « القبة : وهي غرفة النوم .

alacena : الأسينة « الخزانة : وهي قطر الثياب .

anaguel : الناكل « النقال : وهو الرف .

tarima : ترمة « طريحة : وهي المخدة أو المسند (مجلس القدمين) .

tabique : طبيق « طبق : ومعناها بالاسبانية (تقسيم) او تجزئة .

alfombra : القمرة « الخمرة : وهو بساط منسوج من سعف النخل ويعني بالاسبانية (حصيرا)

almohada : المهادة « المخدة : (وكذلك معناها بالاسبانية)[٣٦] .

alfilar : الفلار « الخلال : وهو بالعربية والاسبانية الدبوس (أو الشيء الرفيع المتخلل) .

gaban : كبان « قبا . : وهو بالاسبانية المعطف .

---

٣٦) ويمكن ان تكون المادة أو المهاد وهو الفراش ، ونراها أقرب .

albanil : البنيل عربيتها البناء : وهو كذلك بالاسبانية .

andamio : اندامیو « الدعائم : وهي السقيفة بالاسبانية .

almacen : المسن « المخزن : وهو مستودع البيت بالاسبانية .

adoquin : الدكين « الدكان : ومعناها بالاسبانية المقعد الحجري .

alquitran : القطران « القطران : وهو كذلك بالاسبانية .

alquiler : الكلر « الكراء : وهو بالاسبانية الايجار .

aviria : افيريا « عوار : وهو بالاسبانية عيب أو ضرر .

alcanzar : الكنزار « الكنز : ومعناها بالاسبانية حيازة الشيء والظفر به .

baden : بادن « باطن : وومعناها بالاسبانية حفرة في الطريق .

adwana : ادواتا « الديوان : ومعناها بالاسبانية دار الكمرك .

taquille : طاقية « طاقية : (طاقة) ومعناها بالاسبانية المحل الذي يقطع منه تذاكر .

albacea : البصي « الوصي : ومعناها بالاسبانية المنفذ أو المشرف .

alcalde : الكلدي « القاضي : ومعناها بالاسبانية العمدة أو الحاكم .

albaran : البران « البراءة : (أي كتاب البراءة) ومعناها بالاسبانية انذار أو مذكرة .

fulano : فلانو « فلان !! : ومعناها بالاسبانية : ما اسمه ؟

hasta : حستا « حتى : وهي كذلك بالاسبانية .

هذه الكلمات معروفة كثيرة الاستعمال في الحياة اليومية ولو شئنا التنقيب اكثر من هذا فقد تطول بنا القائمة . ولنا أن نذكر ان كثيراً من الضواحي والقرى والمزارع وما يلحق بها هي ذات اسماء عربية . فالفلاح يكيل بذوره بما يسمى : (الفنيقة fanega) وتساوي بوشلا ونصف بوشل — والفنيقة بالعربية هو الكيس الواسع . ثم أن الفلاح يقسم الفنيقة الى

اثني عشر « ثليمين » celemine . (بالعربية الفصحى ، ثماني وبالعامية :زماني) كل ثليمين يعادل غالونا . ولدى الفلاح الاسباني ايضاً مقياس آخر وهو (الروبة arroba) وعربيها «الربعة» وهو ربع القنطار الانكليزي hundredwieght للاوزان الصلبة أواربعة غالونات للسوائل . كما أن جميع مصطلحاته الخاصة بالري انما هي عربية . وكذلك قل عن اسماء مختلف الازهار والثمار والفاكهة والاشجار والشجيرات. وقد دخلت كلمة « السكر » azucar الى الاسبانية والبرتغالية وغيرها من اللغات الاوربية وهي بالاصل عربية (سكر ثم ، شكر بالفارسية)ولم تؤخذ من الكلمة اللاتينية saccharum كما يحلو الادعاء للكثير من الاسبان . فالكلمتان العربية منها واللاتينية مأخوذتان على وجه التحقيق من الكلمة السنسكريتية الدالة على هذه المادة وان اختلفت سبل الاشتقاق . كذلك كلمة (جارابي jarabe) التي كثيراً ما يجدها السائح في جنوب اسبانيا في ثنايا الاعلانات التجارية وهي بالانكليزية (سيروب syrup) كذلك شربت sherbet وكلمة شراب الروم shrub هي الاخرى مشتقة من كلمة (شراب) العربية . كانت التهجئة السابقة لكلمة جارابي jarabe هو (كزارابي xarabe) —حيث كان حرف X الاسباني يلفظ (شينا sh) حتى القرن السابع عشر : وهو ما زال يلفظ كذلك عند القطلانيين والبرتغاليين. وقد تدرك الدهشة لو علمت أن الناطقين بالاسبانية ما زالوا يستعملون العبارة العربية (انشاءالله) . وهذا هو التفسير الاوحد للتعبير الاسباني المعروف (jale) والذي كانت تهجئته (oxala) ثم صار يلفظ حرف X فيه كما يلفظ حرف ألـ sh .

ان الكلمات الاخرى المأخوذة من العربية[٣٧] التي بقيت حية في لغة الاب الاسبانية

---

٣٧) راجع دوزي *R. Dozy* ودبليو . اچ . انكلمان *W. H. Engelman* في معجم الكلمات الاسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية طبعة ثانية : ليدن سنة ١٨٦٩ . وراجع د . ل . دي اكويلاث *D.L. de Eguilaz* في المعجم اللغوي للمفردات الاسبانية التي هي من اصل شرقي . طبع غرناطة سنة ١٨٨٦ . راجع : معجم اللغة الاسبانية وهو من منشورات المجمع العلمي الاسباني . الطبعة الخامسة عشرة ـ مدريد سنة ١٩٢٥ . كذلك راجع ك . لوكوتش *K. Lokotsch* في «المعجم اللغوي للكلمات الاوربية ذات الاصول الشرقية » طبعة هيدلبرغ سنة ١٩٢٧ . (المؤلف)

صارت تهجر شيئاً فشيئاً بتأثير الصحافة . فالصحافة الاسبانية وبالاخص الصحافة الاسبانية في في اميركا تأثرت بباريس اعظم تأثير ، وانّ ما يدعى بالصحافة اللاتينية prensa latina ما كانت تميل الى الكلمات التي لا يمكن التوصل الى معرفة معناها رأساً في أي دولة من الدول اللاتينية أما اشهر استثنا. حديث العهد لهذه القاعدة فيقوم في شخص جوزيه مارتينز - jose mar tinoz ruiz الذي كان يكتب دوما تحت التوقيع المستعار (ازورين Azorin) ليس في اسبانيا كلها متفرنس مثال في فرنسيته مثله ومع ذلك ، فانّ حبّه لكتاب اسبانيا الاوائل ، وتعلقه بمسقط رأسه الاول (هو يلنسي كالاستاذ ريبرا ، واقليم يلنسية ملي. بالمنشآت المغربية ، ذات الاسماء العربية ، تشيع في جوه الالفاظ العربية) مما أدى به الى استعمال لغة جزلة رشيقة لا يعدلها اسلوب آخر ، بينما حبّه لداخلية بلاده ودقته واسهابه في وصف الاشيا. العادية وفرط سروره باسمائها جعل من اولى مقالاته صكا تضمن اعترافه الجليل القيمة بفضل التراث العربي على اسبانيا الحديثة .

ان الاسباني الجيد الثقافة ما زال حتى الان يطرب لدن يسمع الكلمات ذات الاصل الذى امتزج فيه اللسانان العربي والاسباني ، طربا لا يقل عما يشعر به لدن يسمع الكلمات التي اختلط جذراها اللاتيني والاسباني مما يمكن ارجاعه الى عصور المستعربة . وأنشد المغنون الجوالون شعر سيدي ma cid والاغاني التي سبقته كقصائد كونزالو دي بركيو Gonzalo de Berceo وانانشيد عظيم كهان هيثا ، وكنتري الفونسو الحكيم والدون جوان مانويل ، كلّ ذلك صور من « صفحة بغر عكرة قشتالية » والتي صارت – باصولها اللاتينية العامية وبالاستعارات العربية – ملكا للشعب الاسباني يتجلى فيه طابعه الخاص. ومجمل القول ان تأثير العقول التي لا ترى الحسن فيما لا يكون مصدره باريس ، يؤدي الى احلال الاتجاه الفاليسي محل الاتجاه العربي . وربما لن تجد رجلا اسبانيا دون الاربعين يسره أن يفسر لاجنبي حقيقة اصل صناعة تجليد الكتب المعروفة حتى الان باسمها البربري (تفليتي taftlete) أو يسمون الضرائب الخاصة بزوجات صيادي السمك في مدينة (كورونا) المفروضة على امتعة

المسافرين القادمين من امريكا ، باسمها المعروف «المشاريفازكو almojarifazgo» وجبايتها من ضمن واجبات الكمرك (المقطع العربي من الكلمة هو – المشرف – يضاف اليها المقطع الرومانسي وهو – آزكو – الذي انحدر من الاصل اللاتيني aticum .

وما قيل عن الاثار التخريبية التي تخلفها الصحافة اللاتينية العالمية ، ينطبق على الصحافة البرتغالية تماماً فقد اوغل عدد من الكلمات الشرقية في تلك اللغة [٣٨] وكان مجيئها من المستعمرات البرتغالية في الهند وسبب دخولها الاحتلال الاسلامي للبرتغال . على أن الغريب جداً هو وجداننا بعض الكلمات العربية التي بقيت منذ ذلك الحين في هذه اللغة ، امّا انها اندثرت في اسبانيا او انها لم تندمج ، وتتمثل اقليميا هناك على ما يبدو . ويوجد كثير من جذور الكلمات الاسبانية السالفة في اللغة البرتغالية بصيغ وصيغ . مثال ذلك (حتى) واسبانيتها (حستا hasta) فهي بالبرتغالية (اتي ate) كذلك (مخزن) : واسبانيتها (ألماسن almacen) فهي بالبرتغالية (ارمازم armazim) وغيرها .

والكلمات التالية هي كلمات برتغالية على كلّ – غير مستعملة اللغة الاسبانية الحديثة :

alcatifa عربيتها : القطيفة (ومعناها بالبرتغالية : السجادة) .

alfaite » : الخياط (» » : الخياط) .

alfandega » : الفندق (» » : دار الكمرك)

algiberra » : الجيب (» » : الجيب).

al - jabira » : الجبيرة (عادت الى العربية من البرتغالية).

alzinkage » : الزنقة (ومعناها بالبرتغالية : المشى الضيق) .

safara » : صحراء (ومعناها بالبرتغالية : الارض القفراء) .

safea-ceifa-aceifa » : اصفر أو الصيف (ومعناها بالبرتغالية تضخ الزرع بأن اصفر).

alface » : الخس (ومعناها بالبرتغالية : الخس) .

---

٣٨) س ر . دالكودو « معجم الكلمات الشرقية» . مجلدان طبع كويمبرا سنة ١٩١٩-١٩٢١ .

arratel عربيتها : الرطل (ومعناها بالبرتغالية : رطل) .

والظاهر أن كلمة (باروك baroque) انما هي من اصل عربي وهي (البرجة) أي الارض المتموجة ، وصلت الى اوربا عن طريق كلمة barroco وهي تعبير خاص يستعمله صيادو اللؤلؤ البرتغاليون ومتعاطو التجارة به .

أسماء الاماكن بالعربية

في كل من اسبانيا والبرتغال

بقيت اسماء الاماكن غير متأثرة بالصحافه . والطالب العربي يجد في تقري خريطة اسبانيا والبرتغال لذة واهتماما لا يعدلها لذة واهتمام وانه وان كانت تلك الاسماء خليطاً معرباً عن اللغتين الايبيرية والفينيقية القديمتين وكثير منها ذات أصل واضح المعالم في خليط من العربية والرومانسية فاجتماع هذه الامور كلها في صعيد واحد يؤلف مجموعة عجيبة للأثر الذي خلفته الشعوب الاسلامية في شبه الجزيرة . فثمّ الجبال والتلول والرؤوس والجزر والسواحل الرملية ، والانهار ، والبحيرات ، والينابيع الحارة ، والسهول والحقول والغابات ، والحدائق والاشجار والازهار ، والكهوف ، والمقالع الحجرية ، ومختلف الالوان ، والاعمال البشرية في الطبيعة كالمزارع والقرى والمدن والاسواق والمساجد والطرق المعبدة والجسور والقلاع والطواحين والابراج كلها صارت اسماء اعلام جغرافية ، وعليه فلفظة (جبل jabal) تظهر في الاسماء التالية : «مونت جبل كوز monte jabalcuz ، جبل كون jabalcon جبالويس Jabaloyos ، جبالو كوينتو jabalquinto ، جفليون javaleon وقة وسلسلة جبال جفلمبر pico & sierra de javalambro وسلسلة جبرلبين gibralbin وجبراليون gibraleon وجبر الفارو (جبل الفارة) gibralfaro بينما نعت جبل طارق gibraltar باسم القائد البربري « طارق » قائد اولى الحملات العربية المظفرة فى اسبانيا . وتظهر لفظة (الكدية Al Kudya (أي التل) في في تسعة أو عشرة اماكن ، لا تراها تخلو من هذا المقطع alcudia ، كما في « كديا كيادا » اي التل المحروق

gudia cremada الواقع فى جزيرة منيورقة . ونجد أيضاً (القور : جمعها القـرى وهي التلول الصغيرة) في كلمتي alcor , alcora – ونجد كلمة المدور : من فعل دار) فى اسم المدينتين القائمتين على نشز من الارض وهما المديفر دل ريو Almodivar del Rio ، المديفر دل كامبو Almodivar del Campo » وغيرهما . واخذ اسم مرفأ (المرية : almeria) من لفظ المرية وهو برج المراقبة . ومن المنارة اشتق اسم المرتفعات المسماة «سيرو دي لا المنارة cerro de la almanara » وسييرا دى المنارة sierra de almenara .

اما الكلمة الاسبانية almena (المينة) ومعناها التحكيم والاستحكام ، فلم تأت من الكلمة العربية (المنعة) بل من اللفظ اللاتيني (minae) الذي ادخل عليه اداة التعريف العربية . بينما كلمة (المنهر almener) تتعلق بامور الزراعة . ودخلت كلمة (طرف) على اسم (طرافكار trafalgar : طرف الغار أي رأس الكهف) ووردت كلمة (الجزيرة) في لفظتي (السيرة alcira والجسيراس algeciras) . ووردت (مرسـي القلعة – من كلمة القلعة) بشكل مستقل كما فى كلمة (كالا cala : بمعنى ساحل) وبشكل غير مستقل كما في (كالا cala) و (باركا barca) و (كالا بلانكا cala blanka) و (كالادي سان فسنتو cala de san vicento) و (وكالا سانتوني cala santony) و (وبونتا دي لا كالا punta de la cala) (وتوري دي لا كالا هوندا torre de la cala honda و (لا كاليتا la caleta هذا وان الشواطي الرملية على مصب نهر الابرو المعروفة باسم (لوزا الفاكس los alfaques) وما جاءت من الكلمة العربية (الفكّ) ويذكرنا لفظ (رملة ramla) وهو قاع النهـر الرملي باصل اسم (لارمبلا la rambla) وهو الشارع الرئيسي فى برشاونة . ولكن الكلمة العربية الاكثر شيوعا من غيرها في الاسبانية مما يمت بصلة الى النهر ؛ هي (الوادي) وينطقها الاسبانيون هكذا : (كواد guad) مع أنها ما زالت في كثير من الاحيان تبتدي، بحرف الواو ، وعليه نجد (كواد الكيفير guadalguivir : وادي الكبير) و وكواد الجـارا guadaljara : وادى الحجارة) و (كواد الكزار guadalcazar : وادي القصـر) و (وكواد الكطن

guadalcoton : وادي القطن) و (وادي المدينة guadmadina وادي المدينة) و (كواد الراما guadarrama وادي الرملة) و (وكوارمان guarroman وادي الرمان) وثم اماكن اخرى اتخذت اسماً قديماً لكنه تخفى تحت ثوب عربي ؛ ومثل ذلك كواديانا guadiana : وادي أنس) وكواديكس guadix : وادي اكسي) وكواد اللوب guadalupe : وادي اللب يعني « نهر الذئب » من حيث أن لفظة lupes هي لاتينية .

وفي اللغة البرتغالية صارت كلمة « الوادي » هكذا : اودي odi أو أودي ode ، مثال ذلك : odivellas , odiana , odeleites ribira de odeloua وان البحيرات والبرك الكبيرة في اسبانيا والبرتغال ظلّ اغلبها حافظاً اسمه العربي (اعني البحيرة) فنجد مثلا البفيري albufiere البويرة albuera البهيرة albuhera بنا البوفار banalbufar والكلمات : البركة alberca والفركة : alverca ومثيلاتها تتعلقان باسماء البرك وخزانات الماء والاحواض . اما الكلمة العربية (الجبّ) فرتبطة بالآبار والصهاريج مثل مثل اسم « الجبي algibe ». أما القنوات التي تدل عليها كلمة (الساقية) العربية . فتراها في لفظة (اساكية acequia) وكلّ هذه الكلمات اسماء جغرافة شائعة مألوفة في اسبانيا . وكلمة (الخندق) الفارسية يمكن ان يربطها الفكر بامثال الكلمات « لاكونا دلا جوندا laguna de la junda » و « جندولا jandula » و« جندوليلا jondulilla »وفي المكان الذي يطلق عليه اول هذه الاسماء الثلاثة هلك القسم الاعظم من الجيش الفيزيقوطي في النصر الحاسم الذي ناله « طارق بن زياد » ٧١١م. وهنالك مكان معروف لنبع مياه حارة اسمه « الهما alhama » وهو من الحمي العربية .

ان الغابات والاحراش نجد فيها مقطع (الكاب algab) وهي من كلمة (الغاب) العربية . كذلك (الغيد algaida) من (الغيطة) . اما المروج فقد ظلت محتفظة باللفظ العربي : المرج . وذلك في كلمة (المرجم almargem ، وهي لشبونية) و (المرجن almargen : وهي ما لقية) و(المرشا almarcha : وهي لا مكنية) . وتذكرنا الحدائق باصل اسمائها العربي (جنة العريف — generalife ومعناها حديقة المهندس او المراقب) . وتركيب (المينا

دي دونا almina de dona فيه كلمة (المينة) وهوسوق الحديقة . أماحقرل الشعير (القصيل) فقد اشتق منه اسم (الكاصر داسال) في البرتغال . أما زهر دوار الشمس (العصفر) فقد دخل على اسم (فنتادي الا زوريس venta de los alozores). واشتق من زهر اغصان الطرفاء اسم (طرفة tarfa) وقد ورد عن الزنبق البري (الزُنج) كلمات مثل (زمبوجيرا و ازمبوجا) وهما برتغاليتان. و (ازمبق) و (بيوترا دل ازمبج) وهو مكان في زفرا zafra. وهناك مصطلح جغرافي كثير الشيوع اخذ من اسم لون هو (البيدا : albaida — البيضاء). أما القصر الذي كان يعيش فيه ملك بني الاحمر ، فهو (الهمبرا) .

وثم اسماء جغرافية شائعة اشتقت من كلمة (المعدن) بهذا الشكل almaden . ومن الحقل (القرية) جاء اسم (الكريه دي كون alcaria de cune) . وفي البرتغال يوجد (الكريه رويفي) وفي اسبانيا عدة اماكن يطلق عليها اسم (القورية @lgueria) . واصبحت كلمة القرية (بمعنى الضيعة) alcidia شائعة في شبه الجزيرة باسرها . ومن التعابير التالية يظهر نصفها العربي (اي المدينة) بكل وضوح :

مادينادل كامبتو ، مادينادي ريوتيكو ، مادينادي پومار ، مادينادي سيدونيا ، مادينا سيلي لاكويا دي مارينا .

ويظهر لفظ المسجد (المكسيدو mezquito) في عدة تراكيب ، كما أن لفظة (السوق) وان كان [٣٩] يعرف رسمياً بالمركادو elmercado فهو ما زال شائعاً على السنة سكان الريف بهذا الشكل : (ال ازوك el ozogue) مثل « بورت ازوك » وقد ظل موجوداً الى الان في مثل شهير كما بقي في اسماء الاعلام ايضاً ، وازوكسادي هينارس . وازوكودفر الطليطلي (وهو سوق الدواب في تلك المدينة المعروف في العصور الوسطى باسم : سوق الحيوان

---

(٣٩) *En el Axogue Qnim mal dice Malaye* ومعناها : « من يتكلم في السوق شرا يسمع شرا » . هذا وان المعنى العربي المألوف لكلمة (ازوك *azogue*) هي الزئبق (الفضة الرجراجة) وعربيتها (الزاووق او الزوقة) . (المؤلف)

zoco de las bestias) وخرج من الاسماء العربية للقلاع والحصون اسمـاء جغرافية عديدة في اسبانيا ، فمن لفظ « القلعة » جاءنا ما يأتي :

الكالادي هينارس ، الكالادي جسبرت ، الكالادي كاديرا وغيرها من الاسماء .

ومن هذه الكلمة نفسها – بعد حذف اداة تعريفها العربية – صدر : قلعة ايوب ، وكالاستوراو ، كالاتروفي » كالاتانزور ، كالاتورارو . ومن تصغيرها (قليعة) ، جاءتنا (الكليئة alcolea) وعلى هذا المنوال جاءنا من (كلمة – القصر العربية : باللاتينية : كاستروم castrum) اسماء جميع الامكنة الاسبانية المتضمنة مقطع (الكزار alcacar) بينما جاء من تصغيرها (القصير) : لفظة (الكوزير alcocer) وفي كلمة القصبة ، تظهر جليا الكلمة الاسبانية (الكزبة والكلمة البرتغالية (الكاسوفاز). وبالطريقة نفسها اطلق لفظة (القنطرة العربية ، الاغريقية الاصل – على كثير من النقط الجغرافية الاسبانية المعروفة باسم «الكنطرة alcontara ». انها اطلقت على كل مكان وجد الفاتحون المسلمون جسراً رومانياً . وصار لفظ «الطليعة» العربي – وهو برج المراقبة – لفظاً اسبانيا « أتالية atalaya » ولصق بامكنة عدة من جملتها « اتاليا دي الكالا » وورد من غير اداة التعريف العربية هكذا « تاليور ، تالايولا ، وتالايولس» وان الطرق المعبدة او المرصوفة التي ربما كانت رومانية الاصل اطلق عليها الفاتحون المسلمون اسم الرصيف ، ومنها جاءت كلمة « الرصيف arracife » و«الرزافة » و«رزافة » ومن كلمة الضواحي «الربض» اشتق اسم اسباني شائع هو « الربل arrabel » . وان لفظ « الرابطة » من الناحية الثانية يدل على الحجرة او الصومعة التي يتوقع المرء أن يجدفيها حارسا ربما كان شاكي السلاح «مرابطا» اما « الصومعة » فهي دار مبنية بالحجر تحفرها حامية يقظة قوية وهذا اللفظ ينم عن « الرابدة » الرابيدة ، الرابدي ، الرابتة » الان . وتعرف ضواحي المدينة باسمي « البرا والبلد» ولها مشابه باسماء عديدة منها « البلات والبلاتي والبلوت » واحيانا تعرف الابراج الواقعة خارج الاسوار باسماء منها : تروّ « البرج البراني terres albarranas » بينما يعي اسم «البراسين albarracin ذكر الحقيقة القائلة ان القبلية البربرية المسماة « بني «رزين » من التي خلعت اسمها على ذلك المكان

الذي نزلت فيه ، فبقي يحمل اسمها حتى الان . أما الاسماء التي تبدأ باحرف « بنا bena وبني bini وبيني beni » فهى كثيرة وشائعة جداً على الاخص في اقليم بلنسية وجزر البليار من امثال من امثال :

بناداليد ، بنالكسبون ، بنالوكسيل ، بنا جرافي ، بنا ميجي ، بناوجان ، بنارّابا ، بناو دلاّ ، بني أجان ، بني كارلو ، بني كاسم ، بني فياد ، بني جينم ، بني ما مت ، بني سيد ، بني سالم ، بنى أدريس ، بني خلف ، بني ميموت ، (ميمون) بني صفوا (صفوة) ، بني جرنس : وكلمات اخرى غيرها لا حصر لها .

ترينا اسماء الامكنة والالفاظ الشائعة التي بقيت في اللغة الاسبانية حتى الآن مدى تأثيرها باللغة العربية في خير اوقات نموها . اذ ما اهلّ القرن العاشر ، حتى كانت بسائط الحياة الاسبانية قد تأثرت بالاسلام اعمق تأثير . هذا التأثير امتد بسقوط طليطلة – فشمل سائر انحاء اوربا . ومنذ أن خرب البربر قرطبة في مفتتح القرن الحادي عشر ، صارت طليطلة تتسنم بالتدريج مركز الصدارة في العلوم الاسلامية باسبانيا . وبقيت محتفظة بهذا المركز الى ما بعد الفتح المسيحي ١٠٨٥ م.

ثمّ وان كان بلاط الملك الفونسو بلاطا مسيحيا بالاسم « كما تأثر خطاه في هذا المضمار بلاط فردريك الثاني بالرمو بعد ذلك الزمن بمائتي عام تقريباً » فقد كانت مسحة المدنية الاسلامية تغلب عليه . ولقد اعلن الملك الفونسو عن نفسه قائلا : انه ملك الديانتين .

كانت مدارس طليطلة تجتذب طلاب العلم من جميع انحاء اوربا . وبضمنها انكلترا ، ونبغ من تلامذتها الاوربيين روبرت انكليكوس Robertus Anglicus اول من ترجم القرآن الكريم . ودانييل مورلي Daniel Morly وميخائيل سكوت ، وادلارد الباثي وهؤلاء وُصفوا في جزء آخر من هذه السلسلة[٤٠] بدقة وتفصيل انباء مغامراتهم وجهودهم وحيلهم وتدابيرهم التي كانوا يحكمون نسجها للظفر بمترجمات لاتينية لآثار ارسطو واقليدس وغيرها من الكتب

٤٠) راجع كتاب تراث اسرائيل : ص ٢٠٤ وما بعدها . (المؤلف)

التي لم تكن مبسورة الاّ بالعربية . فلا حاجة لتكرار ذلك ها هنا .

واعظم هبة قدمها المسلمون الاسبان للفكر الاوربي ، هي آثار الفلاسفة الغابرين (كما كنا قد اوضحنا في فصل آخر من الكتاب » وانهم ولو كانوا قد تبنوا الالهيات الاسلامية الأكثر تعصباً والأضيق فضاء ، فقد اطلقوا الفكر حرأيجوس في التيارات الفلسفية والفكرية . وانه ولو كان حكام البربر من مرابطين وموحدين قد اتصفوا بشدة وغيرة على الدين ، فانهم تسامحوا في امور التفكير الفلسفيّ الحر لا بل شجعوا الفلاسفة على ذلك ببعض تحفظ وبذلك ترك الفلاسفة احرارا لا يحد من عملهم الثقافي عائق ، شريطة الا تذاع هذه التعاليم على الدهماء او تنشر بين العامة .

ان اعظم مفكري الاسلام في اسبانيا هم ليسوا من ابناء عصر الخلافة اللامع في قرطبة. فقد نبغوا في عصر التفكك والانهيار التي تلته . هؤلاء الفلاسفة احيوا فلسفة اليونان ومزقوا عنها أكفانها وبالاخص آثار ارسطو . والظاهر أن مؤرخي اليونان وكتابهم المسرحيين كانوا غير معروفين عند هؤلاء الفلاسفة العرب ، ولكنهم قدموا للغرب ارسطو قبل انتعاش حركة احياء الدراسات الاغريقية بعدة قرون ، تلك الحركة التي جاءت على اعقابها مباشرة حركة احياء العلوم ، التي كانت احدى الاسباب المباشرة لحركة الاصلاح الديني . هؤلاء الفلاسفة كما يظهر — لم يعرفوا او يكادوا — النصوص الاغريقية ولم يترجموا من هذا الاصل ، مباشرة فقد كانوا — كقاعدة ثابتة — يترجمون عن منقولات سريانية وسيطة بين الاصل الاغريقي وبين الترجمة العربية . فاذا رغب الطالب الاسكتلندي أو الانكليزي ، الاستزادة من ارسطو والتعمق فيه ، اكثر مما يسنح له من المترجمات اللاتينية الميسورة ، فلا مندوحة له من الرحيل الى طليطلة ليتعلم هناك كيف يقرأ كتاب اليونان باللغة العربية . ان انتقال العلوم اليونانية الى الغرب بدأ من بغداد وجاء به وسطاء مسلمون ويهود الى مسلمي اسبانيا ومن هناك حمل الى الطلاب والتلامذة الجوّالين ثم الى اوربا المسيحية بواسطة اليهود ايضاً .

التأثير العربي على الادب الاسباني

الاول

فصلنا فيما سبق ، المظاهر الادارية والاقتصادية والفنية لمدنية الاسلام في اسبانيا ، كما أن فصلا آخر من هذا الكتاب قد تناول بحث تأثيرها على الادبيات الاوربية . على كل — فثم بعض ما يجب قوله فيما يتعلق بتأثير الفكر الاسلامي على الادب الاسباني .

فى عصر شعر الفروسية « ١٠٥٠ — ١٢٥٠ » كانت المؤثرات فرنسية وتيوتونية اكثر مما كانت عربية . والملحمة القشتالية المسماة « قصيدة سيدي » هي شكل من اشكال نشيد جهاد الفرسان ، ولو ان البطل كاد يكون معاصراً لاول مغن اشاد بجهاده ومآثره : ولم يكن « كما هو الحال عند رولاند » بطلا نصف خرافي ، مات قبل ذيوع اناشيده بمئات من السنين. يرجع تاريخ هذه القصيدة الى حوالي ١١٤٠م بينما مات (روي دياز دي بيفار Reuy Diaz de Bivar) اي السيد — سنة ١٠٩٩ (ولقبه عربي بالطبع فهو يقرأ بالشدة على كرسي الياء في العربية الفصحى ، وبالسكون عليها فى الدارجة) . ان امتزاج اللغتين الجاريتين اذ ذاك على الالسن لا يمكن ان يكون خيراً من اللقب المألوف الذي كان اتباع السيد ينادونه به (يامو سيد ya mio cid) ولو كان تابعه ممن يتكلم العربية لقال (يا سيدي)وفي الفترة الثانية (١٢٥٠ — ١٤٠٠) تقريباً كان أحد المؤثرات الخارجية الرئيسية على الادب الاسباني ،عربياً لا شك فى عربيته . فقد فتحت ابواب العلوم الشرقية واقاصيصه — على مصاريعها لتغترف منها اسبانيا واوربا على حد سواء بعد احتلال طليطلة ١٠٨٥ م . هذه المدينة آضت مدرسة للترجمة والنقل عن اللغات الشرقية . وكان بطرس الفونسي (وهو اسباني يهودي متنصر عمّده اشبينه الفونس السابع) اول من قدم لاسبانيا الحكايات الهندية قبيل ١١٢٠ م بمجموعة الاقاصيص الشهيرة المعروفة (التأدب الاكليريكي) . واخذت الترجمة الاسبانية للحكايات الهندية المعروفة (بكليلة ودمنة) من النص العربي مباشرة عام ١٢٥١[٤١] فسجلت بذلك اسبق محاولة لنشر الادب

(٤١) نشره ج . الماني *J. Alemany* (مدريد سنة ١٩١٥) و : ا.غ سولالينده *A. G. Solalinde* (مدريد

القصصي باللغة الاسبانية . اما قصة الحكماء السبعة (سندباد أو سندبار) ، فقد ترجمت من العربية للامير الصغير دون فادريك حوالي ١٢٥٣م باسم (كتاب مكائد النساء وحيلهن)[٤٣] وعقيب النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، صارت كتب الحكم ومجموعة الحكايات في اسبانيا — لا تعد ولا تحصى : منها ترجمة مفقودة للاسطورة البوذية (برلام ويوشافاط) . وكتاب امثال للحووف الابجدية (الذي جمعه كليمنت سانجيث دي فرسيال[٤٢] . والكاتب الغريب العنوان (كتاب القطط libro de los gatos) الذي ربما كان تحريفاً للاصل كتاب القصص libro de los qetos (quentos) المأخوذ من مصدر عربي منقولا عن « الاحاديث» للراهب الانكليزي اودو الجريتوني Odo of Cheriton [٤٤] . والقصص التي تضمنتها هذه المجموعات تردد ذكرها دوماً في الادب الاسباني حتى عصر الكتاب الدراميين في القرن السابع عشر . وان اعظم المسرحيات الاسبانية « الحياة حلم lo vida es sueno » انما هي قصة « كرستوفر سلاي » في مسرحية » ترويض[٤٥] الوقاح (، وهي ايضاً قصة النائم يصحو ، في الف ليلة وليلة. والاصل في الاثنين على كل حال هو قصة (برلام) الهندية .

١٩١٧) . (المؤلف)

٤٢) نشره د. كومباريتي *D. Gomparitte* (ابحاث عن كتاب السندباد — ليدن سنة ١٨٨٢) و : أ. بونللا *A. Bonilla* و سان مارتان *San Martin* (مدريد سنة ١٩٠٤) . (المؤلف)

٤٣) نشره أ. موريل فاشيو *A. Morel Fatio* في رومانيا سنة ١٨٨٨ . (المؤلف)

٤٤) نشره س. ي. نورثب *S.E. Northup* في « فقه اللغات الحديثة » ١٩٠٨ . (المؤلف)

اما اودو الجريتوني المتوفي سنة ١٢٤٧ فهو واعظ انكليزي وكاتب حكايات حكمية انجزها عام ١٢١٩ .

٤٥) في مسرحية شاكسبير المسماة (ترويض الوقاح *The Taming of the Shrew*) تنسخ شخصية الحداد المدعو كرستو فرسلاي *Cristopher sly* عمد المؤلف الى نسج اضحوكة عنه وجعلها مقدمة لمسرحيته ، وعرض فيها كيفية التقاء سيد نبيل اثناء خروجه للصيد بهذا الحداد ، وكيف نقله غائباً عن وعيه الى قصره وأحاطه بمظاهر الترف والتعظيم وأوصى بعامل معاملة رب القصر سخرا به ، حتى اذا شبع منه هزؤا نقله غائباً عن الوعي الى دكان حدادته ، وتذكرنا هذه القصة طبعاً باصلها العربي في الف ليلة اعني قصة « الحمال والسبع بنات » .

الفونسو الحكيم

كان الفونسو العاشر الحكيم el sabio اعظم تلامذة العلوم الاسلامية فى اسبانيا المسيحية . فقد بوشر تحت رقابته ورعايته المباشرة ، بتأليف عدد من الكتب الجليلة ، جمع اكثرها من مصادر عربية يسرها له اعوان من اليهود [٤٦] . وآثاره النثرية (أن نثره السهل البسيط الشبيه بالنثر الشرقي هو اصل اسلوب الدراسات الاسبانية فى القرون الوسطى التي تخلف في نفوس متدارسيها اعظم اللذة والاستمتاع) ، هي عبارة عن مجموعة قوانين الاحزاب الستة las siete partida اشبه بمنجم حفل بمعلومات عجيبة عن الحياة الاسبانية وعادات ذلك الزمان ولقد خصص من كتابه (التاريخ العام) فصلا ترجم فيه حياة النبي محمد (ص) [٤٧] العجيبة تقع ما بين صحائف ٤٦٦ – ٤٩٤ ، كذلك هناك (التاريخ العام الكبير) وهو مفصل مسهب بوشر الآن بطبعه للمرة الاولى [٤٨] . وثم دراسات الفونسو الفلكية ومن ضمنها « الازياج الالفونسية » وهي مجموعة من نتائج الارصاد المأخوذة في طليطلة ، وقد شاع استعمالها في جميع انحاء اوربا ، وظلت موضع اعتماد عدة قرون . وبمعرفة الفونسو المذكور الفّ كتاب «الجواهر» وهو عبارة عن رسالة فى فضائل الاحجار الكريمة . وثم كتاب في الالعاب ، يتضمن العاب النرد والطاولة backgammon وضروباً من العاب الشطرنج ، اداؤها يقتضي رقاعاً مختلفة الاشكال متفاوتة الحجوم .

يمثل الشطرنج الطابع الاصيل للتراث الاسلامي بحيث يستأهل منا اكثر من الذكرى العابرة . فالشطرنج الاوربي الحديث هو الخلف المباشر للعبة الشطرنج الهندية العتيقة . اخذها

٤٦) انظر كتاب تراث اسرائيل ص ٢٢٢ – ٢٢٥ . (المؤلف)

٤٧) كتاب منيديث بيدال « مقدمة في التاريخ العام *primera cronica general* طبع مدريد عام ١٩٠٢ ص ٢٦١–٢٧٥ كذلك انظر ا.ج سوليلاند (الفونسو العاشر – الحكيم « مقتبسات ») ج ١ ص ١٥٢ – ١٧٢ طبع مدريد ١٩٢١ . (المؤلف)

٤٨) كتاب « مدريد مركز الدراسات التاريخية » ج ١ سنة ١٩٣٠ . (المؤلف)

الفرس ثم نقلوها الى العالم العربي واخيراً اقتبستها اوربا المسيحية من المسلمين[٤٩] . اننا نجد هذه اللعبة قد سميت في اغلب اللغات الاوربية باسم الملك : الشاه (بالفارسية) وسكاشي scaci بلاتينية القرون الوسطى (ومعناها رجال الشطرنج) . لكن الكلمة الاسبانية : الجدريز ajidrey (كانت اولا axadrez او acederex) مع الكلمة البرتغالية xadrez ، هما مشتقتان من (الشطرنج) العربي . وهذا اللفظ استمد من الفارسية . واصله سنسكريتي بلا جدال . وكثير من مصطلحات الشطرنج المستعملة هي فارسية كقولك (جك ميت check mate) فهي مثلا تعبير : الشاه مات . ولا يعني هذا ان الملك مات حقاً . لكنها دلالة على انه في وضع حرج او انه قد اندحر[٥٠] . وان قطعة القلعة (الرخ castle , rook) هي (روخ roque) الاسبانية وهي (الرخ) الفارسية ، الجبار المخيف الذي لقيه السندباد البحري . ولقد تبين على كل حال ، ان هذه الكلمة كانت شائعة الاستعمال بين المسلمين في اسبانيا حيث اطلقوها على عجلة الركوب المسماة (chariot)[٥١] وفكرة العجلة تفسر بالبداهة الحركة المستقيمة والقوة المدمرة (للرخ) في الشطرنج الحديث . وفي عدة شطرنج قديم منذ القرن السابع عشر سرت اشاعة عنه بانه يعود الى عهد شارلمان) ، مثل الرخ rook فعلا بعربة فيها رجل . ونجد في الوقت نفسه ان عجلة النصر المستعملة في حفلات دينية معينة ببلنسية ما زالت معروفة الى الان بالروكة roca اما القطعة المسماة بالاسقف bishop فتعرف في اسبانيا باسم الالفيل el alfil وعربيتها (الفيل) وهي بالفرنسية فو fou عندما يقصد بها التعبير الشطرنجي وهي محرفة من الكلمة نفسها ، ولا علاقة لها البتة بحركة أو سلطة مقام من مقامات الكنيسة الرفيعة .

---

٤٩) انظر موري *H. J. R. Murray* في كتابه « تاريخ الشطرنج » طبع اكسفورد ١٩١٣ (المؤلف) .

٥٠) « قف ، صد *check* او *xaque* » ، اذا هو شكل للاعتراض « الفيتو » القانوني على السيد او الملك ، فاذا ما اضيف الى ذلك ، حركة « ميت *mate* » فمعنى ذلك ان الملك قد لحق به ذل عظيم ، حتى لكأنهم يريدون تحيته او قتله . « انظر كتاب الالعاب » لالفونسو الحكيم (المؤلف) . او نقول واقرب العبارات الى هذا المصطلح الافرنجي هو تعبير « كش ميت » الشائع على السنة لاعبي الشطرنج في العراق .

٥١) هذه العربة هي ذات عجلتين يجرها حصان واحد ، على طرز العجلات الحربية اليونانية والرومانية .

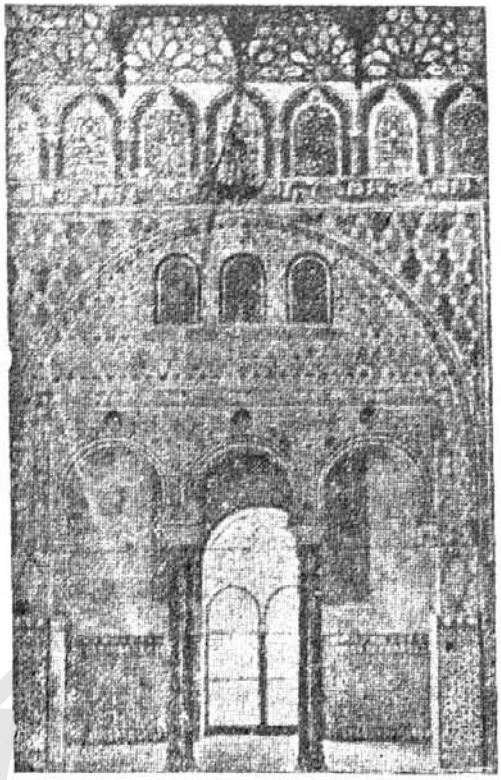

(شكل و)

آجر ملون في اسپانيا

بهو السفراء بالقصر Alcazar

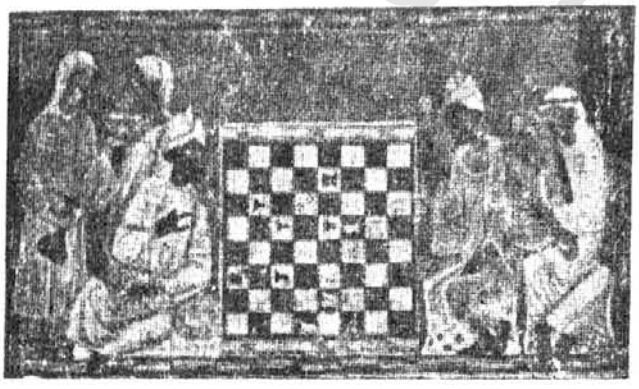

(شكل X)

مسألة شطرنجية : من مخطوط الفونسو الحكيم

(الاسكريال م١ ، رسم ٢٢ آ) القرن الثالث عشر

obeikandl.com

كانت اسبانيا هي التي امدت اوربا باوائل الاسانيد عن الشطرنج . واقدم ما نجده حول الموضوع هو توارث شطرنج في وصيتين لشخصين من اسرة كونتات برشلونة يرجع تاريخها الى ١٠٠٨ او ١٠١٠ ، و ١٠١٧ . واول وصف للعبة الشطرنج فى اللغة الاوربية هو وصف الفونسو الحكيم . والواضح أن كتابه [٥٢] قد جمع من مصادر عربية . والصور التوضيحية فيه كانت تظهر اللاعبين عادة — وهم في ثياب شرقية ، ومعهم كان يظهر موسيقيون شرقيون ، وانك لترى بين آن وآخر الموسيقيين انفسهم يتلاعبون وهم قابضون على آلتهم الموسيقية باليد اليسرى ليكونوا مستعدين في حالة ما لو طلب منهم العزف (شكل X) وقد تبين من شروح اللعبة كما اوردها الفونسو ، انه لم يكن يجري وفق القواعد التي كان يجري عليها المسلمون تماماً . على أن المسائل الشطرنجية التي يذكرها «تكاد تكون اسلامية بحتة ذلك لان (المشكل الشطرنجي) هو ضرب من ضروب الرياضة العقلية ، وهذا هو الطابع الذي يميز تراث الاسلام في اوربا . وقطع الشطرنج عند الفونسو ، هى قطع شطرنجنا نفسها خلا قطعة واحدة وهي (الملكة) فقد ناب عنها قطعة اخرى سماها (جوسر) فرز fers وسماها الفونسو (الالفراز ell alferz) واصلها فى الحقيقة ، من « الفرزان » اي الوزير وليست من« الفارس » . وللفرز ان يتنقل من مربع الى آخر على خط منحرف ولكن له أن يقفز فى الحركة الاولى الى المربع الثالث ، أما بانحراف أو باستقامة . و(الفرز) هو سلف (الملكة) الحالية ، ويرجع الفضل في تطور قوته واسلوب حركته هنا الى لاعبين اسبانيين بصورة رئيسية — هما لوسينا ١٤٩٧ ، ووويي لوبيث ١٥٦١ .

ان العاب الفونسو العاشر الشطرنجية ، بمربعات رقعتها التى يربو عددها على عدد مربعات الشطرنج المعروف الان ، امر يثير اعمق الاهتمام واغربه في عصرنا هذا حيث نجد فيه صدى مقترحات لتحسين اللعبة (تقليلا لمجال حركة قطع الشطرنج) تقدم بها استاذ باقعة هو سان

---

٥٢) انظر *J. G. White* (الرسالة الاسبانية فى لعب الشطرنج) كتبت بأمر الملك الفونسو الحكيم سنة ١٢٨٣ منقولة عن مخطوطة في الاسكوريال في ١٩٤ لوحة بالفوتوتايب « ليبزك ١٩٣٠ » . (المؤلف)

كاباباڵانكا st.Capablonca ومن هذه التصاميم رقعة تحتوي على مئة مربع بدلا من الرقعة ذات الاربعة والستين مربعاً المعروفة لدينا . كذلك نجد شطرنجاً آخر هو عبارة عن شكل مضاعف من الشطرنج المعروف ، أللعبة فيه تجرى على رقعة تحتوي على ستة عشر مربعاً من طرفين ، واثني عشر مربعاً من الطرفين الاخرين . ومن الغريب انناالانري تنويهاً باسم الفونسو الحكيم عند مناقشة هذه المقترحات والتصاميم . فاللعبة المعروفة في زمانه كانت تتم على رقعة مؤلفة من مئة مربع . وفي شطرنجه هذا قطعتان جديدتان اطلق على الواحدة منها اسم (القاضي) كل منها على جناح من الشطرنج . وفيها ايضاً جنديان (بيدقان) اضافيان . اما الشطرنج الذي كان يفضله على غيره ، فهو (الشطرنج العظيم) ويتم بموجبه اللعب على رقعة فيها مئة واربعة واربعون مربعاً باثنتي عشرة قطعة واثني عشر جنديا . ويلي (الملك) في هذا النوع من الشطرنج قطعة تسمى (العنقاء) ثم يقوم الى جانب كليهما (تنين) ثم زوج (زرافة) ثم « خرتيتان » ثم أسد ثم رخ . ويتحرك الملك حركته المعهودة في اللعبة الشائعة الى مربع مجاور . ومع أن « الترخيص » لم يكن مبتكراً انذاك ، فقد كان للملك هنا ، ان يثب الى المربع الثالث فى اول حركة له . وكان يجوز للعنقاء « بالاسبانية آنقا aanca » أن تتعدى مربعاً واحداً على خط منحرف ثم الى أي عدد من المربعات على خط مستقيم . أما التنينان فيعملان عمل الفيلين الحاليين وان كان اتساع الرقعة يمنحها مدى اوسع وقوة باطشة تفوق قوة الفيلين المعروفين . وكانت حركة الزرافة شبيهة بحركة «الفرس» الحالية ، خلا ان قفزتها كانت اطول حيث أن الفرسين تتحركان مربعاً على خط منحرف ، ثم مربعين على خط مستقيم . أما الزرافتان فتتحركان على خط منحرف — مربعاً واحداً ثم باستقامة ، اربعة مربعات . وكان للخرتيتين حركة معقدة وهما لهذا قد اعتبرا اقوى قطعتين في الرقعة بعد العنقاء . — انهما يبدأن كالفرس وينطلقان كالفيل ، الا انهما لا يستطيعان قتل قطعة من غير اكمال حركتها ، والمجال فسيح للاسد ان يثب الى المربع الرابع من كل جهة . ويتحرك الى الرخ كالمعتاد في الشطرنج الحالي على خط مستقيم في كل ناحية . وتتحرك الجنود كما تتحرك في اللعبة الحالية اي مربعا واحداً الى الامام في كل دور

ما عدا التصفيف الذي كان يبدأ في امثال هـذه الرقع من الخانات الرابعـة بدلا من الخانات الثانية كما هو المعتاد ، فاذا وصل احدها الى المربع الثاني عشر ، وصار « فرزا » — اخذ قوة ومكان القطعة التي بدأ الحركة من صفها .

ولألفونسو الحكيم صلة اخرى بتراث الاسلام في اسبانيا . فقد كان لهالفضل في تأليف واحدة من اعظم المجاميع الشعرية في القرون الوسطى الا وهي «اناشيد او مدائح القديسة مريم Cantigar de Santa Maria » وقد بقيت حتى الآن مع نوطاتها الموسيقية الملحقة في مخطوطة بمجلدين محفوظة في مكتبة الاسكريال ، وبمخطوط واحد في مدريد . وليست لغة هذه القصائد قشتالية بل هي لهجة غاليسية شائعة في شمالي البرتغـال كانت في القرن الثالث عشـر لغة شعر البلاط الشتالي والارغوني فضلا عن بلاد البرتغال وظلت كذلك حتى صارت اللغة الاسبانية القشتالية على درجة كبيرة من الصقل والتهذيب بحيث اتسعت لمصطلحات الشعر الغنائي البليغة الجيدة السبك . وزعم الاستاذ « ريبرا » أن موسيقى هذه الاناشيد هي اندلسية اسلامية الاصل وهو ادعاء لا يجد مؤرخو الموسيقى في انفسهم كبير استعداد لاقتباله والرضا به ومع ذلك فأن كثيراً من آلات الموسيقى التي ظهرت في الرسوم الصغيرة في المخطوطة هي عربية لا بل صور بعض الموسيقيين انفسهم فقد كانت في ثياب عربية .

اما الصياغة الشعرية — فنجدها اجنبية عن اسبانيا المسلمة ولكن نجد في اغلب قصائدها مصاريع اشبه شكلا بالموشح أو الزجل الذي كان أول من أحدثه « ابن قزمان Abencuzman[٥٣]

---

٥٣) اول من ابتدع الموشح هو مقدم بن معافر الفريري من شعراء الامير عبد الله محمد المرواني حوالي ٢٧٥هـ = ٨٨٨م . واول من ابتكر الزجل العامي : ابو بكر محمد بن قزمان ذكره ابن بسام قائلا « ان المتوكل اول من اتخـذه كاتبا » عرف بانه امام الزجالين وكانت وفاته سنة ٥٥٥هـ = ١١٩٥م . يقال انه حين كان صغيرا بالمكتب دخل عليه صبي مثله صغير وناداه واجلسه بجانبه وصار يحيه فرآه الفقيه فضربه فكتب في اعلى اللوح :

الـلاح اولاد امارة والوحاش اولاد نصارة

وابن قزمان جا يفقر ما قبل له الشيخ غفارة

فاطلع الفقيه على اللوح فرأى المطلع فقال : هجوتنا بكلام مزجول (يعني مقطعا يترنم به) فسمي زجلا .

اتينا الى وصفه في جزء آخر من كتابنا هذا . وقد راح بعضهم يقول ان هذه القصائد هي من الاصل المسيحي الصرف وعليه فلا مساغ لنا ان نشك في انها اسلامية لكن شكل الموشح والزجل قد تطور فصار شبيهاً بالشعر القشتالي المعروف باسم فيلانثيكو villancico الذي درج استعماله في نمط من انماط الشعر المسيحي : منها تراتيل عيد الميلاد . وما موضوع « مدائح مريم العذراء » الا تطور منطقي لمدح شعراء التروبادور في « السيدة النبيلة » والاشادة بشرفها . وفي الوقت نفسه نجد اشعار التروبادور « كما سيتضح لنا من الجزء الثالث » انما هي متصلة بالاتجاهات العربية وبالشعر العربي المدون فن اسبانية من ناحية الاغراض والشكل والاسلوب .

ديوان خوان مانويل

وعظيم كهنة هيتا

ان فترة التجميع والترجمة من المصادر الشرقية المتمثلة في مدرسة الفونسو الحكيم اعقبتها فترة زاهرة من الآثار المبتكرة في نثر الامير دون خوان مانويل [٥٤] ١٢٨٢ – ١٣٤٩ وفي شعر عظيم كهنة هيتا [٥٥] المتوفى قبيل عام ١٣٥١ وكلاهما تعلم الشيء الكثير من القصة

طبع ديوانه في برلين سنة ١٨٩٦ نقلا عن النسخة الوحيدة الموجودة في لنغراد باعتناء البارون دافيد خوتربرغ مع ترجمة فرنسية وشروح وبحث عن المؤلف ، وعن اللغة الدارجة في بلاد الاندلس .

٥٤) *Infante Don Juan Manuel* : كاتب اسباني يشغل مكانة خطيرة في آداب القرن الرابع عشر . واعظم آثاره بلا نزاع « قصة الكونت لوكانور » وتسمى ايضاً (عامي الحسن) او (الامثال) .

٥٥) عظيم كهنة هيتا : كاتب وشاعر اسباني ربما كان مولده الذي لا يعرف زمنه – في الكالا . لا يعرف شيء عن تاريخ حياته خلا انه كان قساً خليعاً اودع السجن سنيناً طويلة بأمر من رئيس اساقفة طليطلة الكردينال دي البورنوث . وكتبه وقصائده ربما تفرغ الى كتابتها وهو في السجن جمعت في المجلد المعروف (بالكتاب الصالح) وهو عبارة عن ترجمة حياة ، اختلطت فيها حوادث ومواضيع نثرية وقصيدة شعرية مختلفة الاوزان وورد فيها عن غراميات (الدون ميلون والدونا اندرينا) ومواضيع : كفاح الصوم والمرافع ، ونصر الحب ، واشعار غنائية شعبية الاسلوب ، وتراتيل دينية ودعوات العذراء وحكايات اخلاقية مأخوذة من كتب

الشرقية ، تعلما كيف يستخلصان من الحكايات الخرافية عبرة ودرساً اخلاقياً ، تعلما كيف يصبانها في قالب جذاب . ففي أثر دون خوان مانويل المسمى « كونت لوكانور [٥٦] » يطلب الكونت وهو احد شخصيات الكتاب المذكور — النصح من مستشاره باترونيو في امور تمتّ الى حياة البشر ، والحكومة . فيجيب باترونيو على كل سؤال ، مدعماً اجاباته بقصة موضحة . ولقد امكن تعقيب الاصول الشرقية لهذه الاقاصيص في عدة احوال . كانت هذه القصص في موضعين او ثلاثه تحتوي على جمل وعبارات من العربية العامية الشائعة في ذلك الحين . وكان الطابع الاخلاقي سامياً في كل تلك الاقاصيص على حد سواء . والكاتب — وهو ابن عم لالفونسو الحكيم — كان يدرك بكل وضوح انه ينجز واجباً وطنياً عاماً بكتابه هذه .

اما خوان رويث عظيم كهنة هيتا ، فهو رجل من الدهماء لم يكن يشعر بواجب الخدمة العامة أو بواجبه كمواطن حيال المجتمع . وكان الدافع الديني فيه اقل من ذلك ايضاً ، ومع ذلك فقد كان شاعراً مطبوعاً يعد من اعظم شعراء اللغة الاسبانية وديوانه الموسوم « كتاب الحب الحقيقي libro de buen amor واختلافه عن الحب الارضي loco amor انما هو عبارة عن مذكرات شخصية وهجاء لنفسه وتنديد باعماله ، فيها يقص بصراحة استسلامه البشري ووقائع غرامياته وعشقه . وليس في كتابه أي مجال للظن بأنه كان يرمي به ضرب الامثال التكفيرية والندامة . فالحب الذي اوحى لعظيم كهنة هيتا بشعره هو الحب الارضي ، وان كانت قصائده التي يشع منها اخلاص عاطفي — تفصح عن مبلغ تفانيه في حب العذراء مريم. على انّ اغراضه في الحب السامي هذا ، لم تتحقق جميعها بدليل وصفه لبعض السيدات وصفاً دقيقاً وتصويرهن تصويراً رائعا ساحراً ، كالدونا اندرينا . ولقد صارت حاملة رسائله الغرامية

الاقدمين ومن الاداب الشرقية وخصوصاً العربية منها . واشعاره العجيبة التي امتزج فيها الاسلوب القديم بالتفكير الجديد انما هي نسيج وحدها في الادب الاسباني الكلاسي .

٥٦) نشره هـ. كونست *H. Kunst* في لايبتسيك عام ١٩٠٠ ، وف. ج سانشز كانتون *F. J. Sanchez Canton* بمدريد عام ١٩٢٠ انظر ايضا ترجمة برودوي *Broadway* طبع لندن سنة ١٩٢٤ . الموءلف.

« تروتاكونفنتس trotaconventus » (وهي اصل شخصيتي : مرضع جوليت ولاسيليستينا[٥٧] la celestina) من المع الشخصيات الروائية . كان هذا الكاهن يخالط حثالة المجتمع ويخالطهم ويعاشرهم . يرعى المنبوذين والفجرة والاوباش ورعاع القوم ، كالمغنين والراقصات المغربيات . وقد نقل كثيراً من الاحاديث والاجابات باللغة العامية العربية حرفياً وضمنها كتابه ، فكتابه من هذه الناحية شرقي الطابع الى حدّ ما احاطه باطار فيه ما لا يحصى عده من الحكايات الخرافية والاساطير . اما لغته فهي بمثابة خزان عظيم للكلمات المأخوذة من العربيـــة . ولو أن عظيم الكهنة هذا ، امترى من موضوعات اقتبست من اللغتين الفرنسية واللاتينية التي كانت شائعة في القرون الوسطى . استخدم قس هيتا كل ما تعرّف عليه من الاوزان الشعرية بعبقرية وحذق عظيمين « غير مستثن من استعماله وزناً ، حـتى لكأن فكرةً ما كانت تلازم ضميره وهي ، انه قد يجيء يوم فيه ينشد المغنون مقطوعات زجلية من كتابه هذا في قارعة الطريق . ولقد صدقت الايام وصار الامر حقيقة في غضون القرن الذي عقب وفاته . اذ ان نساخاً كان جالساً يوماً في صومعته ينسخ تاريخاً ، فشرد ذهنه فجرى قلمه بلا شعور منه — بدور غناء كان يؤديه مطرب جوال في الشارع المطل عليه . فبين سلسلة من الاخبار والاغاني التي كان يؤديها ، وبعد وقفة أو وقفتين ، سمعه النساخ ينادي محاولا جلب انتباه سامعيه المشتت . « والآن نبـدأ باغان من كتاب عظيم كهنة هيتا[٥٨] .

ومن معاصري دون خوان مانويل ، وعظيم كهنة هيتا ، يأتي مؤلف أول كتاب اسباني

---

٥٧) في روميو وجولييت الشهيرة لشاكسبير . شخصية المرضع التي كانت تنقل الرسائل بين هذين المتحابين ، كذلك لاسيليستينا فهي تلعب الدور نفسه في مسرحية كوميدية أسبانيا اسمها (كايستو وملیبيا) تقع في ٢١ فصلا ويرجع تأليفها الى سنة ١٤٨٣ أو ١٤٩٧ والمظنون انها للكاتب اليهودي الاسباني فرناندو دي روجاز . وقيل انها مبنية بالاصل على الشخصيات التي ابتدعها جوان رويز المذكور في المتن .

٥٨) راجع منيديث بيدال (اشعار غنائية ومغنون *joesia juglaresca y juglares*) طبـع مدريد ١٩٢٤ ص ٢٧٠-٧١ و ٤٦٢-٦٧ . (المؤلف)

في الفروسية واسمه « تاريخ الفارس سيفر[٥٩] » الذي ربما كان فراغ صاحبه من تأليفه ما بين عامي ١٢٣٥ و ١٢٩٩ ، وقد زعموا انه مأخوذ -- ككل الكتب الفروسية -- من أصل « كلداني » (اي عربي) . ثم أن فكرة الكتاب الأصلية مأخوذة من قصة في الف ليلة ، كما انّ التفاصيل هي خليط عجيب من الاسطورة الذهبية ، والرواية الآرثرية والخرافة الشرقية. اما الاسم سيفر cifar ، فهو بالعربية(سفر) ومعناها (رحلة أو سفارة) وعليه يكون معنى اسم الفرس سيفر Caballero cifar مهمة الفارس أو بعثة الفارس . واسم زوجته كريمي crima وهو (كريمة) اسم شائع عند المسلمات ومعناه (الشيء الثمين ،أو ذات الاصل الرفيع ،أوالبنت) كما لوحظ في الكتاب مظاهر شرقية اخرى[٦٠] .

كتابة الاسبانية بالاحرف العربية

هناك مؤلف آخر عاصر عظيم الكهنة « وهو صاحب (قصيدة يوسف[٦١]) قصيدة بناها صاحبها المجهولة هويته على قصة يوسف الصديق وميزتها انها مكتوبة بالاحرف العربية مع ان كلماتها اسبانية (اللهجة الارغونية منها) اما وزن شعرها ففرنسي . وموضوع القصيدة مستمد من القرآن الكريم ، وغيره من المصادر العربية الاسلامية وهي مثال لما عرف في اسبانيا والبرتغال باسم «الادب العجمي literature aljamid والمقصود بالعجمي ، التكلم العربية الدارجة (العجمة) ومنها الاعجمي وهو الاجنبي ، والعجمية هي اللغة الاجنبية . هذا اللفظ كان يستعمل بالاصل في اسانيا للدلالة على الاسبان الذين يتكلمون العربية ويكتبونها بالاسبانية.

---

٥٩) نشره هـ. ميشلانت *H. Michelant* مكتبة فيرانس الادبية في شتوتكارت طبع طوبنجن ١٨٧٢ و س. ب فاغنر *C. P. Wagner* جامعة مشيغان سنة ١٩٢٩ . (المؤلف)

٦٠) ا . كونزاليس بالانثيا *A.Gonzalez Palencia* (تاريخ الادب العربي – الاسباني) مدريد ١٩٢٨ ص ٣١٦ - ٣١٧ . (المؤلف)

٦١) نشرها منيديث بيدال (مدريد ١٩٠٢) : النص بالاحرف العربية ، ثم بالاحرف اللاتينية . (المؤلف)

ثم استعمل بعدئذ للدلالة على كتابات الموريسكيين الذين استخدموا الاحرف العربية في الكتابة الاسبانية ومخطوطات من هذا النوع كثيرة . ومنذ حين ، عثر على مجموعة منها مخفية تحت ارضية بيت قديم في (المونا سيد دي لاسيّرا) بأرغونة . قد دفنت عمداً خشية أن تقع عليها انظار رجال ديوان التفتيش[٦٢] . وهذه المجموعة محفوظة الآن في مكتبة «اتحاد نشر الدراسات والابحاث بمدريد[٦٣] » ، وقد وجد بينها وثائق قضائية مهمة وقصائد في مدح النبي (ص) منظومة باشكال من الموشحات ، وتاريخها يعود الى القرن الرابع عشر . ومن بين المجموعة ايضاً مواعظ واساطير وحكايات وشعبذات طبية تعود الى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وتجد كذلك مخطوطاً من احفل و اغنى المخطوطات بثقافة ذلك الزمن هو عبارة عن رسالة دينية من مفتي

٦٢) يعزى تأسيس دواوين التفتيش المعروفة في التاريخ الحديث الى البابا غريغور السابع الذى أمر بها بعد سحق الالبيجيين الهراطقة في طولوز عام ١٢٣٣ . أمر بتشكيل لجنة في كل قرية او بلدة يرأسها قس وبعضوية شخصيتين بارزتين ، وذلك للتفتيش عن الهراطقة واحضارهم امام الاساقفة . ثم ما لبث ان تسلم هذه الدواوين جماعة الدومينيكان والجزويت وغيرها من الرهبانيات . كان الناس المتهمون بالزيغ يقبض عليهم ويحقق معهم عن التهمة سرا اولا ، فاذا قامت الادلة على زيغهم ، فرضت عليهم العقوبات الكنسية ، وتتراوح بين السجن آمادا طويلة وبين القيام باعمال نافعة . فاذا أصروا على جحودهم ، سلموا الى السلطات المدنية لتتولى أمر ايقاع افظع العقوبات بهم ، وهي غالباً الموت . اما اسماء المخبرين فتبقى سرا مكتوماً . وادخل التعذيب في التحقيق لغرض انتزاع الاعترافات ، وقد اسست دواوين تفتيش في ايطاليا وفرنسا ولكن اهولها وأشدها نكالا كان في اسبانيا والبرتغال ومستعمراتها ، وقد امتدت وظائف هذه المؤسسة فشملت احراق الكتب واتلاف كل ما يؤدي الى نشر ما يضر الدين السائد ، واعطيت لدواوين التفتيش سلطات واسعة خاصة ايام فرديناند وايزابلا وفيليب الثاني ، وشمل التقتيل والموت جماعة اليهود ثم المسلمين الذين تنصروا ظاهرا واقاموا على تقيدهم وظلوا يمارسونها في الخفاء ، وذكر المؤرخ بتشل ان ٢٠٠٠ نسمة اعدموا الحياة في اسبانيا لهذا السبب خلال فترة ١٤٨١-١٥٠٤ . وجاء نابوليون فحل ديوان تفتيش اسبانيا وكان آخر واحد بقي في الوجود لكن احياه فرديناند السابع بعده حتى سنة ١٨١٤ ثم الغاه كورتيز نهائياً سنة ١٨٣٤ بعد ان ظل اسمه عنوانا للاضطهاد .

٦٣) « المخطوطات العربية والعجمية لمكتبة الاتحاد » طبع مدريد ١٩١٢ . وانظر ايضاً (و . لوبيت) « نصوص العجمية في اللغة البرتغالية طبع لشبونة ٩٧ » (المؤلف)

وهران ، ينصح فيها المضطهدين الموريسكيين – بعد سقوط غرناطة بقرن ، ويحدد لهم اقصى مدى يصلون اليه في مطامنة الفاتحين (يبدو أن هؤلاء الفاتحين كانوا يعتبرون كل تطهّر في حياة المسلم – حتى الاغتسال – هرطقة ومن ثمّ جريمة عظيمة) . ان استعمال الحرف العربي حتى بعد سقوط غرناطة يرينا كيف تمسك المسلمون الاسان المغلوبون بالكتابة التي تمت الى دينهم باوثق صلة حتى حين تخاطبم باللهجة الرومانسية وان كانوا من سلالة اسرة اسبانية مسيحية (وقد وجد الكثير من هذا) . ان قاعدة اثبات مخارج المفردات الاسبانية اللغوية بالاحرف العربية تثير فينا عظيم اهتمام وتبعث في اوصالنا اعمق النشوة واللذة . وتتجلى قيمة ذلك بصورة خاصة في تنويهنا بكيفية نطق مسلمي اسبانيا العربية والاسبانية وهما لغتا البلاد (يؤيد ذلك ما نقله بدرو دي ألكالا pedro de alcala من اللغة العامية العربية بغرناطة كما كانت دارجة على الالسن بالشكل الروماني عام ١٥٠٠) والآثار التي تلت بعدئذ للنطق الموريسكي ما زالت ملحوظة حتى الان .

وهنا لا حاجة لنا باعادة سرد قصة طرد الموريسكيين المؤلمة . لم يتم اخراجهم الا عام ١٦١٤ وعليه فان اللغة العربية كانت تتداولها الالسن فى شبه الجزيرة ايام سرفانتس Cervantes [٦٤] ، لذلك لم يكن مصدر دهشة لمعاصريه ان يجدوا في تصريحه – بأن اصل (دون كيخوتي) انما هو كتاب لمؤلف عربي اسمه «سيدي حامد بن انجيلي » وان روايته كذت مكتوبة اصلا باللغة العربية – شيئاً مستحيلا لا يمكن تصديقه ، (اذا ادخلنا في حسابنا ان جميع قصص الفروسية قد اثر عنها بانها مأخوذة من اصل عربي او كلداني) .

ج . ب . ترند

---

٦٤) بدرو لونكاس *Pedro Longas* « الحياة الدينية لجماعة الموريسكيين» مدريد سنة ١٩١٥ ص٣٠٥-٣٠٧ . والمجلة الاسبوعية (جدول ٢١٠) ص١-١٧ عدد كانون الثاني آذار سنة ١٩٢٧ .

(المؤلف)

obeikandl.com

الأدب

LITERATURE

بقلم

البروفسر كب H. A. R. GIBB

امام المستشرقين الانكليز المعاصرين واستاذ اللغة العربية في جامعة لندن سنة ١٩٣٠ واستاذ في جامعة اكسفورد من سنة ١٩٣٧ ، وعضو المجمع العلمي المصري والعراقي والسوري. حاضر بالعربية في مدرسة المشرقيات بلندن . وتفرغ الادب العربي فطبع سنة ١٩٢٦ كتابا في دراسات الاداب العربية العصرية . ومن ابحاثه «الفتوحات الاسلامية في آسيا الوسطى وعلاقتها ببلاد الصين» ومنها « ترجمة الادب العربي لابن القلانسي » . وهو احد محرري دائرة المعارف الاسلامية .

obeikandl.com

ربما بدا لنا أن ادب الشرق المسلم بعيد الشقة عنا حتى أن قارئاً واحداً من ألف قد لا يعثر على حلقة تربط ذلك الادب بادبنا . وان رائد تاريخ الادب الذي يعرف كم من الادب ذي الاصل الشرقي قد نسب الى الادب الاوربي فى مختلف الازمان وكم هو ذلك القليل الذى ثبت دخوله — سيكون جد ميال الى أن يرمق القضية كلها بشك ساخر . الحق يقال أن ثم حقائق لا يماري فيها احد : فالامثال الشرقية ، والحكايات الشرقية وما لفلفها من المصنفات — تمتعت بشهرة واسعة في القرون الوسيطة . واول كتاب طبع في انكلترا : « حِكَم الفلاسفة واقوالهم » كان مترجماً عن نسخة فرنسية مأخوذة من ترجمة لاتينية مترجمة عن اصل عربي . وللمرة الثانية نجد في القرن الثامن عشر ما لا يقل عن ثلاثين طبعة من قصص الف ليلة وليلة باللغتين الانكليزية والفرنسية . ومنذ ذلك الحين اكثر من ثلاثمائة طبعة لهذه القصص فى جميع لغات اوربا الغربية . وطار صيت عمر الخيام في انكلترا وامريكا اكثر مما اشتهر اسمه في بلاد فارس . لكن هل كانت هذه الظواهر حالات طارئة شرقية المنبت ، متباعدة المكان لا صلة تربط بينها ؟ ام هي تمثل اتجاها عاما ؟ واذا كان الامر هذا فكيف ظهرت تلكم الاتجاهات ؟ ما مدى تأثيرها على مراحل سير الادب بصورة عامة ؟ لا يمكن أن نظفر باجابات قاطعة الاعلى اسئلة قليلة مما ذكرناه . ولا مندوحة لنا الا أن نقوم بمجرد محاولات تغنينا عن اعطاء رأي جازم بقدر ما يتسر لنا من الادلة والمشاهدات ولربما توصلنا عن طريقها — الى الجواب الشافي لو تتبعنا خطوطها وتأثرنا معالمها .

ليس ثم مسألة اصعب وادق من تحري العوامل المحددة لطبيعة الاثر الذي يخلفه أدب أمة في ادب امة اخرى ، ومن ثم تقدير درجة هذا التأثير . والواضح أن وجود تماس تاريخي وثيق دن ، ليس بالامر الضروري فيما نحن بسبيله ، وان كانت مثل تلكم الصلات تخلف بالطبع آثارها في ادب الامة او الامتين ذوات العلاقة . ليس من المهم كذلك ان تغلب على علاقتها التاريخية صفة المودة وحسن الجيرة ، او صفة الجفاء والشنآن . فتاريخ كل الآداب الاوربية هو برهان ساطع على أن اساليب الادب وانتقالاته لا تقف عند الجبهات الحربية . والأعظم

اهمية من الصلة التاريخية ، بل الاصعب اثباتاً عن طريق الادلة التاريخية هوحقيقة وجود المبادلة الادبية بين امتين سواء في ذلك أكانت المبادلة ذات صفة فردية أم ذات صفة مزدوجة الجانبين او كما يحدث في كثير من الاحيان ان تكون علاقة مدرسية الصفة ، ذات وجهين . فبالتحليل الادبي فقط — كآخر ملاذ لنا — نستطيع أن نثبت وجود ذلك التأثير او أن ننكر وجوده.

واهم عامل هو اشدها روغانا . فقبل أن يكون أي شكل من اشكال النقد الادبي في متناول اليد ، من الضروري ان يتوفر هنا شرط الاقتبال من الجانب الواحد او من الجانبين اي الرغبة والتهيو. لقبول عطاء بعضها لبعض ، والاقرار الضمني بتفوق هذا الجانب على ذاك في هذا الميدان او ذلك . والامر لا يتطلب منا التحقيق الدقيق ليتضح لنا ان التهيو. الاوربي لقبول الاساليب العربية او الفارسية كان ضيق النطاق ، محدوداً الى آخر درجة ، بالزمان والمكان ، وليس ثم مجال للمقارنة بين الايغال الدائم لاثر الادبين اللاتيني لعصر النهضة والاغريقي لما بعد النهضة — في جسم الادب الاوربي ، وبين اقتباسه المقنع لبعض العناصر من الادب الشرقي ولا نكاد نجد شيئاً قريباً للاقتباس التام من أي فن من فنون الادب الشرقي ودخوله الادب الاوربي بشكله واغراضه نفسها . على أن عناصر متفرقة منفردة منها تتعلق بالاساليب وباتجاهات موضوعية ادبية معينة ، شقت لها طريقاً ناجحة بين آن وآخر الى الادب العربي . والسبب الى انتقائها واستخلاصها من المجموع دون سواها ، انما هو امر يعود على اغلب الظن الى نفسية الشعوب ، والآراء الآنية السائدة . وعلى كل حال فالامر الذي يستوجب الملاحظة هو ان الادب الشرقي قد مارس تأثيراً ظاهراً ونفوذاً على الآداب الغربية في المسائل التي تميزهما وتفرق ما بينهما ، اكثر مما كان في المسائل التي تقربها وتشابهها . كان الذوق الادبي الاوربي لا ينفك يمج الاساليب والاشكال الغريبة غير المألوفة من الادب الشرقي . ومال بدلا من ذلك — الى العناصر التي سبق لجرثومتها ان وجدت أو ابتدأت تتطور بشكل محاولات تجريبية في الفكر الاوربي والاداب الاوربية في مثل هذه الاحوال صارت العناصر الشرقية تقوم بدور مفتاح الباب الذي كان اهل الغرب يقرعونه . أو ان اشراق ديباجتها ودقتها الوصفية انالاها

ذلك الحب الاجماعي بحيث صارت تنير السبيل التي كان على الحركة الاوربية ان تسلكها . ولا يستفاد من هذا انها اوجدت مستوى ادبياً وصاغت قوالب ادبية وكانت بمثابة انماط مبتكرة قلدها الغرب تقليداً اعمى . ان الامر على الضد ، ففروع الآداب التي تأثرت بعدئذ بالآداب الشرقية ، تطورت أو اتسعت بطرقها الخاصة من أن تجد ضرورة للرجوع الى الشرق وكثيراً ما كانت تسير على هذا المنوال وهي جاهلة تماماً الطلائع التي سبقتها ظهوراً .

ان كل محاولة يقصد بها تقريب المشابهة بين الآثار التي تمسح وجه الادبين الشرقي والكلاسي[1] (المدرسي) بطابع واحد ، انما تفصح بصورة نسبية عن اوجه الاختلاف بين احدهما والآخر اختلافاً في النوع فضلا عن الدرجة .

ان ادب الفرس والعرب هو رومانتي Romantic النزعة اصلا ، والطالب الذي تعود على الاتجاهات المثالية للادب اليوناني الراقي سيجد فيه القليل من تلك الميزات التي تدمغ الاداب اليونانية بدمغة الفتنة والروعة . في الادب العربي من قوة التعبير العبقرية والمتانة والجزالة التركيبية ما يوجد في الادب اليوناني لا بل ما يفوقه ، لكنه متزمت محصور في الاتجاهات والاعراض التي ينطلق فيها الادب اليوناني مرخياً لنفسه العنان وهو متوثب سريع الانطلاق من الاماكن التي يلزم الادب اليوناني نفسه بالعقر والحزم ، ولقد حققت الآداب الكلاسية عظمتها بالبساطة والرزانة ، بينما حاكت الآداب الشرقية ادق نسيج واكثر تعقيدا من لغة البيان والبديع الحافلة بالغموض ، تطرزها اخيلة عجيبة لا يمكن الوصول الى معناها في بعض الاحيان . كان جمال الادب الاغريقي ينحصر في مخاطبة ذكاء الانسان والتأثير على العقل . اما الادب العربي او الشرقي فانه يتوصل الى هز الاحاسيس والعواطف وتنمية الخيال بكثرة الالوان التي حفل بها .

---

(١) يدهشني كثيرا اني اجد بعض المتأدبين العرب يعمدون الى اثبات كلمتي (رومانتيك *Romantic* وكلاسيك *Classic*) بطريق النسبة هكذا : (رومانتيكي) و (كلاسيكي) باضافة ياء النسبة العربية الى الاسمين بينما الاضافة *(ic)* بالانكليزية او *(que)* بالفرنسية وغيرهما تقابلان اداة النسبة العربية ، فيقولنا رومانتيكي وكلاسيكي نجعل للكلمتين اداتي نسبة . والصحيح ان نقول رومانتي وكلاسي .

والاصرار على القول بأن الادب الاغريقي ، هو أدب ابتكار وتوليد ، وان الادب الشرقي اساسا ، ادب محاكاة وتقليد بادى الفقر بالمعاني والامور العقلية ؛ قول وان لم يكن يخلو من بعض حقيقة ، فهو في الواقع تعميم واشتاط فيه تسرع كثير . وتوفيق الكاتب المسلم للابداع يكمن في اكسائه الحقيقة الجوهرية من افكاره ، ردا ، من لغة الخيال . ولكن من الغلط ان نستنتج من هذا وجود تنافر جوهري بين الروح الشرقية والروح المدرسية (الكلاسية) . ان النزعة الكلاسية في الادب الاوربي كانت تأتي من الاعلى دائما . أما ادب العامة في الشمال والغرب على الاخص — فينم عن صلة قربى وثيقة بروح الادب الشرقي . فشعورها المتبادل بالجفوة والتباعد يعود سببه الى عزلة كل واحد منهما وجهل احدهما بأخيه . فكلما تم فتح قناة بينهما فان فيضان التأثير الشرقي يجلب على العموم زيادة في قوة التيارات الشعبية للآداب الغربية بحيث يعينها على مقارعة التفوق والسيادة الكلاسية ببعض نجاح .

ان واقع الميل الشعبي الى الآداب الشرقية ، وانتقال العناصر الشرقية — خلال العصور الوسطى أمران زادا من اخفاء هذا النقل وجعلا معرفة تأثيره معقداً جداً وفي اغلب الاحيان صعب الاثبات عن طريق قواعد النقد التاريخي المألوفة ، سيما وان اكثر أدب العامة عند الجانبين قد اندثر وعفي على أثره ولم يعد في متناول يدنا . ثم ان تواريخ آدابنا تفصح عن سمات الازدراء المترفع الذي كان يدخره كتاب الغرب وباحثو اوربا بصورة عامة — لاغاني الدهماء واقاصيص العامة . ان جميع الاسباب تؤدي بنا الى الجزم بأن الدراسة الحديثة لآداب الدهماء ستلقي ضوءاً باهراً على مدى شيوع المراد والصنائع المستمدة مباشرة من الشرق — في اوربا الغربية . ومن المحتمل أن يكون هذا التأثير قد شرع يفعل فعله منذ القرن الثامن الميلادي[٣] ، لكن — وبصورة رئيسية — لم تبرز مشكلة الاحتكاك بالشرق الا حين قطعت الآداب الاقليمية الشعبية شوطاً في

---

٣) تدبر البراهين القاطعة التي أتى بها الاستاذ ليوفاينر *Prof. Leo Wiener* عن الوساطة القوطية في نقل التأثيرات العربية ، بكتابه « ايضاحات عن تاريخ الحضارة العربية القوطية » م ١ طبع نيويورك ١٩١٧ وليعط اهتمام خاص بالفصل الذي يبحث في اعمال النحوي « فرجيليوس مارو » . (المؤلف)

حلبة التقدم . وربما كانت اولى المشاكل ، اصعبها واعسرها تحليلا ومناقشة . فقد ظهر في جنوب فرنسا فجأة وفي نهاية القرن الحادي عشر — شعر ذو طابع جديد ، بقالب جديد ونفسية اجتماعية جديدة ، واغراض مستحدثة ، وليس في الأدب الفرنسي الغابر العتيق ما يشير الى هذه الفترة الا النزر اليسير . هذا الشعر وجد من الناحية الاخرى — بعض مشابه قوية بنمط معين من الشعر الذي عاصره في اسبانيا العربية . فما هو وجه العجب ، أو ما هو اقرب الى الطبع من قولنا أن اوائل شعراء اقليم البروفنس قد تأثروا بالاغاط العربية ؟ بقيت هذه النظرة عـدة قرون تلقي ترحيباً وقبولا لاجدال فيها . ولم يتفق متشيع لهذا الرأي — اشد تفانياً واستقتالا «من جيا ميريا باربيري[٣] » ، وذلك ايام وصول حركة احياء الآداب الكلاسية في القرون الوسطى اقصى مدها[٤] ، وفي حركة احياء العلوم الوسيطة حتى نهاية القرن الثامن عشر ، ايام كان الخيال الشعبي حاذعاً للادب الروائي الشرقي استقر الرأي العام الذي كان ينتزعه سيسمندي[٥] وفوريل[٦] على وجود تجاذب وثيق بين الشعر العربي والشعر البروفنسي . وفي منتصف القرن التاسع عشر تحول كل من فئتي المستشرقين وتلامذة فقه اللغات الرومانسية عن هذا الرأي . كان النقاد يطلبون شواهد وادلة خطية تثبت حصول الاحتكاك بين اقليم البروفنس واسبانية فلم يجدوها فتحزبوا لهذا الرأي الاخير بكل قواهم .

واذا عزا احدهم — من دون تحيز — جانباً من هذا التحزب الرجعي الى الشعور الوطني المتنامي الذي شمل امم الغرب كافة ، فيجب علينا الاقرار باذعان كلي أنه لا يوجـد باحث رومانسي يُحترم نفسه — زعيم ان يدافع عن نظرية المؤثرات العربية ويصمد في وجه التصريح

---

٣) *Giammeria Barbiere* (١٥١٩ - ١٥٧٤) باحث واديب ايطالي ألف فيما يتعلق باصول الشعر الفرنسي والبروفنسي الايطالي .

٤) انظر كتاب جياميريا « اصول القافية الشعرية »(طبعه تيرابوشي في مودينا - ١٧٩٠) . (المؤلف)

٥) *Sismondi* « ١٧٧٣-١٨٤٢ » كاتب ومؤرخ ايطالي ولد في جنوا وعاش في انكلترا .

٦) *Fauriel* « ١٧٧٢-١٨٤٤ » مؤرخ ولغوي وناقد فرنسي وعضو الاكاديمية الفرنسية . اختص بالكتابة عن الادب الرومانسي والشعر البروفنسي وله فيها مجلدات عديدة .

الهازي. الذي ادلى به المستشرق الشهير« دوزي » قال:

« نحن نرى هذه المسألة اشبه شيء بالعبث الذي لا طائل تحته . اننا لا
«نريد بعد الآن أن نجعلها موضع نقاش . نقول هذا وان كنا واثقين بأن هذا
«النقاش سيبقى امداً طويلاً . ومهما يكن فلكل امرء حصان معركته[٧] »

وعلى هذه الدعائم بدت الفكرة السائدة وكأنها اطمأنت في مستقرها ،وجمدت في وقفتها. فالمسيو(انكلاد)مثلا يدلي برأيه الجازم لا يقبل الجدال وهو : « ان الطروبادور هم وحدهم خلقوا لاشعارهم الشكل والموضوع » ولكن الفريقين ،رغم هذا التأكيد الذي يلوح به كل من المنكرين والمؤيدين في تصريحاتهم ، يعتمدان على شيء أكثر قليلاً من التخمين . أما عن بحث منظم في القضية من وجهة نظر المستشرق ، فلم يظهر الا القليل التافه حتى زمن متأخر ، لا بل لم يظهر شيء مطلقاً . على أن الادلة الجديدة التي غمرها الضياء الآن ، سارت بعيداً بنا حتى لكأنها ازالت كل شك في أن جانباً على الاقل من المستحدثات الشعرية الخاصة بالجنوب قد اثرت فعلا في شعراء البروفنس الاولين[٨] .

ان الابداع المستجد في الشعر البروفنسي لا يكمن في الموضوع ، بل يتعداه الى الشكل واعني به اسلوب معالجة ذلك الموضوع بالذات . هذا الحبّ النابض الذي تعبر عنه ثروة عظيمة من الوصف الخيالي الدقيق والديباجة الادبية الرقيقة . ليس الحبّ الذي افصحت عنه اغاني الشعب الساذجة الملأى بالعاطفة . انه مذهب وجداني ، قاعدة رومانتية ، حالة سقم (باثولوجي) تثيرها دواع طارئة ، عاطفة تجد مثلها الاعلى لا في الفتاة العذراء بل في الزوج التي كانت حياة الشاعر تستمد من خدمتها والغرام بها — قوةً ومتانةً خلقية تجعلها حياة مشرفة حافلة بكل ما هو نبيل . فمن اين جاء فنّ الحبّ هذا ؟ من اين جاءت عبادة السيدة ؟ انه لم يأت من اخلاق

---

٧) « ابحاث في تاريخ ... اسبانيا » ط٣ (١٨٨١) م ٢ ملحق « ٦٤ » ملحوظة ٢ . (المؤلف)

٨) لا حاجة بنا الى القول بأننا لا نتنوي انكار اثر المصادر الثقافية الاخرى كاللاتينية والكلتية وغيرها ، ولا ان ننفي مقدارا معينا من التقدم المحلي . (المؤلف)

ذلك الزمان كما قد ظهرت منعكسة على صفحة الآداب الشعبية التيوتونية [9] منها او الرومانتية. ولقد كتب برونتيير [10] يقول « يبدو ان المرأة في حياة برجوازية القرون الوسيطة كانت قد احنت رأسها الى قانون الطغيان والقسوة بدرجة لم تدانها فيها امرأة اي عصر من العصور أو أي بقعة من بقاع الارض». ولم يكن يتضمن هذا النوع من الحب المثل العليا للفروسية التي بدأت تنفخ روحها في الطبقات الاجتماعية العليا. هذه الاحاسيس الطارئة ، لا رباط يشدها بعقيدة المحارب الذي ابتلى بها. ان المثل العليا هي في العذرة والطهارة. ولو أن هذه العاطفة قد نشأت عن العلاقات الطبيعية بين الشاعر المحترف وبين السيدة التي تكلأه لكانت جاءت نغمة هذا الحب اكثر خضوعاً وذلة. والآداب اليونانية اللاتينية — سواء في عصرها الذهبي أو الفضي — لا تتحفانا الا بالقليل الجديد الذي قد يكون اساسا سيكولوجيا لهذا الحب لكن الواضح — مع ذلك — انه يعتمد على تقاليد ادبية ثابتة ، والمصدر المحتمل لهذا التقليد يمكن على اقل تقدير أن ننشده في شعر اسبانية العربية [11].

كان من حق الشعر العربي في القرن الحادي عشر أن يلقي نظرة عجب واعتداد الى الخلف ليتبين المسافة التي قطعها في حقل الناء ، والدرجات التي رقيها في سلم التطور. ولكن لم توجد في غضون مرحلته الطويلة فترة فيه ، خلت من أن يكون الحب احد ينابيعه الرئيسة. ففي فن الشعر الجاهلي لبادية جزيرة العرب بصور التقليدية المصاغة بجزالة لفظية ، وبلغته المصقولة وتشبيهاته المنمقة واوزانه المعقدة وقافيته المتقنة (ذلك لان العربية هي اولى اللغات الغربية التي كانت تتشدد في القافية التامة باعتبارها عنصراً أساسياً في الشعر) كان يجب أن تستهل كل

---

٩) *Teutons* : هم القبائل الجرمنية التي ظهرت في اوربا في أواخر عصور ما قبل الميلاد. استوطنوا المانيا وشمال الدانوب واختلطوا بالهون. فعندما يذكر الادب التيوتوني يكون المقصود به هو الادب الجرمني الاول.

١٠) *F. Brunetiere* (١٨٤٩-١٩٠٦) كاتب فرنسي. عرف بكتابه « تطور الشعر الغنائي الفرنسي خلال القرن التاسع عشر ».

١١) لمناقشة هذا الموضوع ، وبغية التعمق فيه ، انظر *K. Burdach* في مقال له منشور بمجلة الاكاديمي العلمية البروسية سنة ١٩١٨ بعنوان « اصول الاغاني الشعرية للقرون الوسيطة ». (المؤلف)

قصيدة بالبكاء على فراق المحبوب الذي أثارت ذكراه زورةُ الربع أو مرورٌ بالطلل البالي .
ولما هاجر الشعر الى المدن ، أثبتَ عاطفة الحبّ نفسه بقوة تفوق ما كانت عليه في الجاهلية واستعيض عن هيدونية [١٢] البادية الصريحة ، بطلاوة ورقة جديدتين ، وافسح القصد سبيلا للمقطوعة الغنائية التي صار الشاعر يعبر بها عن احاسيسه وشخصيته نفسها . وظل الشعر العربي بضع عشرات من السنين يرتوي من نبع جديد فيه الحرية والحب المجوني والصدق في التعبير عن الحياة قبل أن يأتي على الشعر الغنائي دور ينقلب فيه الى شعر محاكاة ، الى جمود لا يعبر عن الحياة الا تعبيرا زائفاً . وظهر عند شعراء البلاط ايام الخلفاء ، شعر غنائي وجداني فيه شيء من الخفة والمجون الظريف ، فيه اتحدت موسيقى الحسّ بالصنعة الادبية فخرج من هذا المزيج بديل عن حرارة العاطفة الخالصة البدوية . هذا الشعر دفعته الامة فكان خادم فنّ جديد، هو القصة الخيالية لعاشق مدنف جعل حياته وقفاً على حبّ ظاهر لمعشوقة مثاليةلا سبيل للوصول اليها . أما عناصر المثالية فى تلك الصور التي يقدمها عن الحب الروحي السامي، فقد اقبل عليها المتصوفة بلهفة فكانت لهم نعم المعبر المجازي عن تعلق الروح تعلقاً دائماً بالمحبوب . ولقد كان التصور الحسي الشهواني للحب الجنسي يسود الشعر الصوفي العربي والفارسي على حد سواء . هذا الشعر المشرق البهيج الذي يمتاز بكثرة المبالغة والذي يعبر عنه بعض شعراء الغرب بالخيال العربي التقليدي بعد أن صقلته التأملات وزادته عمقاً وفلسفة عند البعض الآخر من الشعراء ؛ اكتسب عند الفرس حلاوة وبساطة تُوجتا بصور غنية انبثقت بحكم الطبع من الخيال الفارسي . ولقد كتب لكل شكل من شكلي هذا الشعر الغنائي ان يلعب دوراً في تاريخ الاداب الاوربية .

واهم ميزة جديرة بالذكر في هذا الشعر الغنائي الجديد، هي ظهور اسلوب ادبي ملحوظ للحب الافلاطوني امتزج بنظرية حب اخلاقية هي رسالة بلاد العرب الى العالم . وقد حدث في نهاية القرن الثامن الميلادي ان بعض شعراء بلاط الخلفاء في بغداد صاروا يوقفون ملكة الشعر فيهم على هذا الضرب من الحب . وبعد مرور اقل من نصف قرن على هذا الزمن ظهر صبي

١٢) كلمة اغريقية معناها « السرور » وتطلق على فلسفة اللذة والانانية التي نشر بها ابيقور .

لم يتعد العشرين من عمره هو ابنٌ وخلفُ مؤسس اشد المدارس الدينية الاسلامية صرامة. فقنن هذه القواعد فى كتاب فريد في سحره وروعته هو كتاب « الزهرة » نظم فيه ابن داود ونسق وصوّر كل صور الحبّ وطبائعه وشرائعه ومعبراته وتأثيراته نظما . مستهديا بروحه المثل العليا التي اختطتها سنة الاسلام على لسان النبي (ص) « من حَبّ ، فعفّ ، فكتم ثم مات، مات شهيداً »[١٣].

ان وحدة الثقافة فى العالم الاسلامي شجعت على تقدم هذه الفنون الشعرية فى اسبانيا ايضاً . لكنها سلكت في تطورها هناك ، سبلا مستقلة وقطعت شوطاً ابعد عن طريق تشرب السكان بالبيان العربي والاسباني وتمثله فيهم بسبب وطأةالنضال المثير الدائم بين العرب والدول المسيحية في الشمال . لم تأت فترة في تاريخ الادب العربي كهذه الفترة انتشرت فيها الروح الشعرية بين مختلف طبقات الشعب اوسع انتشار ، وحفلت بالتحفز العقلي والقلبي للتأثر بالجمال وبقوة اكساء صور التأثير تلك لغةً نفسية اخاذة. ومن بين العدد العديد من الشعراء المعروفة اسماؤهم او المجهولة ، قد تنهض اشعار الفارس سعيدبن جودي[١٤] الغنائية التي استشهد بها دوزي

---

١٣) يقصد المذهب الظاهري . سمي بهذا نظرا الى تمسك اتباعه بحرفية وظاهر نصوص السنة تمسكا دقيقاً . ازدهر المذهب في ايران ثم انتشر في الهند وعمان وذر قرنه في المغرب على يد ابن حزم . ومن تعاليم مؤسسه ، انكار كل توسط او نقل او اقتباس من اي امام ، وانكار ما فعله الشافعي من محاولة التوفيق بين نهجي الفقه القديم والجديد ، « مفاتيح العلوم ص ٨ » . والشخصان اللذان يشير اليهما صاحب البحث هما : ابو سليمان داود بن علي بن خلف الاصبهاني (٢٠٠ أو ٢٠١ - ٢٧٠ هـ = ٨١٥ م - ٨٨٣م) المولود بالكوفة والذي دعا الى مذهبه باصبهان . خلفه ابنه في زعامة الظاهرية وهو ابو بكر محمد بن داود (٢٥٥ - ٢٩٧هـ = ٨٦٨ - ٩٠٩ م) في سن السادسة عشرة . كتب مؤلفات فقهية وكلامية يرد فيها على ابن السراج وجرير الطبرى وغيرهم . على ان اعظم ما وصل من آثاره الينا هو كتاب « الزهرة » طبع الجزء الاول منه في مطبعة الآباء اليسوعيين سنة ١٩٣٢ - بيروت نقلًا عن الدكتور لويس شيكل اليوهيمي . وقد اعلمنا الاستاذ كوركيس عواد ان الجزء الثاني منه (الذى كان يظن انه مفقود) هو من جملة مخطوطات انستاس الكرملي . وعن (الحديث) انظر الارشاد لياقوت ص ٣٠٨ ج ١ .

١٤) (من القسم الثالث المطبوع من كتاب - المقتبس في تاريخ رجال الاندلس - للمؤرخ ابي مروان

كأمثلة! نحن بصدده . فهنا ايضاً وجد المثل الاعلى للحب الافلاطوني – قبولا اجماعيا . ويضرب المثل في الاسلام بابن حزم في الحماسة الدينية والجدال العنيف . عرفه العرب كمؤسس لعلم (مقارنة الاديان) ومع ذلك فقد كتب هذا الرجل رسالة[١٥] مطرزة باشعار من نظمه عن الحب ، تنافح أو ربما تفوق كتاب الزهرة نفسه . ولقد قبل ابن حزم بالنظرية الافلاطونية القائلة أن الحب هو وسيلة بها يلتئم شقان منفصلان للجوهر الالهي الواحد في اتحاد ارضي . وفي هذه الروح التي هي من انقى الرومانتية واصفاها ينكشف تحليل للحب شبيه من عدة اوجه بتحليل الطروبادور له في القرن الذي تلاه لكن يقصر عن أن يطال الاول ويبلغ ما بلغه من رفعة وسمو . ولئن كان كثير من الشعر العربي الاسباني بسيطاً مرسلاً على السجية فالذي وصل الينا منه كان الشعر المصقول الديباجة لشعراء وشاعرات البلاط وهم ارستقراطيو صناعة الشعر ممن لم يكن يرى الوزراء والامراء غضاضة في مجاراتهم لا بل كان هؤلاء الامراء والوزراء هم الشعراء . في هذا الازدهار المبارك للثقافة العربية – الاسبانية اخذ ينهض بالتدرج صرح صناعة شعرية جديدة . فالى جنب المقطوعة الشعرية والقصيدة ذات القافية الموحدة بابياتها ذات الوزن والبحر الواحد « بدأ الشعر الغنائي الاندلسي يكشف عن تفصيل لاشكال نظم جديدة

بن حيان بن خلف ط باريس ١٩٣٧ بعناية الاب ملشور . م . انطونية ، عن نسخة محفوظة في المكتبة البودلية – باكسفورد) . الفارس الشاعر سعيد بن جودي : امرته عرب غرناطة في حوالي اوائل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري . من كورة البيرة ايام الفتنة ، وكان بطلاً باسلا ، واديبا شاعرا ، قتل بيد جماعة من اصحابه غيلة سنة ٢٨٤هـ = ٨٩٦م . وكان قيامه بامر العرب سبع سنين ، واكبر ما نقمه عليه اصحابه استئثاره باحرار النساء وكان له فيهن ما لا يحصى من قصائد الغزل والنسب .

١٥) طوق الحمامة بتروف – ليدن سنة ١٩١٤ ومحمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم القرطبي (٣٨٤ = ٩٩٤ – ٤٣٨هـ = ١٠٤٦م) . (المؤلف) ، من مفكري العرب العظام وفلاسفتهم . ويشير المؤلف هنا الى كتابه (طوق الحمامة في الالفة والالاف) ألفه على غرار كتاب الزهرة ، تناول فيه العشق وألوانه المختلفة واوضح انظاره النفسية باقاصيص ، كما تمثل فيه باشعار من نظمه ، كشف عنه المؤرخ (دوزى) وله الان عدة طبعات عربية .

بقوافٍ متغايرة في المقطوعة نفسها وبموازين شعرية معقدة. ومع أن هذه البحور ظلت على الاوزان المعروفة ، فالظاهر انها كانت خطوة نحو اشعار الطروبادور وذلك ايضاً كان فناً شعريا من منتوج رجال البلاط وشعراء البلاط — ذا قواعد جديدة ومصاريع واقفال معقدة . بقيت صعوبة واحدة وهي انه لم يؤثر عن واحد من الطروبادور الاوائل انه كان يعرف اللغة العربية فمن هم الوسطاء الذين نقلوا هذا الفن من الاندلس الى البروفنس ؟

علينا أن نقر صراحة ان حلا كاملا لهذه المشكلة غير ميسور الآن مع أن كثيراً من الباحثين تصدوا لهذا الموضوع بعد «دوزي» ولقد ثبت الآن ثبوتا لا يقبل الدحض[16] ان مغاربة الاندلس هم اسبانيون يغلب الدم الاسباني فيهم ، فضلا عن انهم كانوا — من اعلى طبقة الى ادناها — يفهمون الرومانسية ويتكلمونها بحكم العادة والطبع . في الوقت الذي تشرب هؤلاء المسلمون الاسبان بالثقافة العربية ، افادوا هم بدورهم . وبتعاونهم هذا صارت الثقافة الاسبانية العربية مدينة بميزات تفوقها ونفوذها . ان مسيحيي الاندلس الذين صاروا نصف عرب (كما يدل على ذلك اسمهم ، مستعربة : Mozarab) والذين وقفوا على الادب العربي في اكثر الاحيان ، هم بدورهم نقلوا كثيراً من بذور الحضارة الاسلامية الى الممالك الشمالية وشمل قسم شبيه بهذا التوسط والنقل ، تاريخ الشعر الاندلسي وكثيراً من الشعر الاسباني ، ولعبت العبقرية الاسبانية دوراً كبيراً في تطور عروض الشعر . وبرجوعنا الى التحسينات النظمية التي فرضتها قوانين الشكل والوزن العربية على المقطوعة الشعرية بشكلها الادبي (الموشح) ، نجدها قد دخلت في الاغاني الشعبية المطلقة (الزجل) . ومن ثم شقت تلكم المحسنات طريقها الى الشعر القصصي . ومما لا يمكن الجدال فيه ، أن هوية الشعر الشعبي المسمى « الفلانشيكو Villancico » ترتبط (بالزجل) العربي ، وليس ثم ما يحملنا على الظن بأن مثل هذا الانتقال كان مقصوراً على طرز الصنعة ، أو على شكل واحد من اشكال الشعر ، ومهما كانت العناصر العربية التي ثبت

---

١٦) اثبت ذلك دون خوليان ريبرا في كتابه *Disertaciones y Opusculos* (مدريد ١٩٢٨) ج١ ص ١٢ - ٣٥ و ١٠٩ - ١٢٠ . المؤلف

دخولها في شعر « الرومانسيرو الاسباني » قليلة بصورة عامة . ان اسلوب التاريخ العام من جهة النشر الادبي الاسباني ينهض مثالا مشابهاً لاتحاد الاساليب العربية والاسبانية معاً[١٧] .

وعلى ذلك فقد كان الوسط الناقل هو (الزجل) العامي ونظيره الشعر الغنائي المعروف « بالفيلانثيكو » . ولحسن الحظ خلصت من البلى مقطوعة نفيسة واحدة من هذا الادب الشعبي . وهي مجموعة تحتوي على مائة وخمسين قصيدة مكتوبة باللغة العامية الخليطة من لهجات عدة في الجزء الاول من القرن الثاني عشر ، لشاعر اندلسي اسمه « ابن قزمان » الذي وان كان هو نفسه معاصراً لشعراء الطروبادور الاولين ، فانه اعترف اعترافاً صريحاً لا مواربة فيه باتباعه اسلوبا معروفاً راج استعماله في الاندلس اذ ذلك . وطريقة نظمه هي عربية من ناحية الروي والقوافي . لكن الثورة على العروض عنده بلغت اوجها ، وآض ميزانه يعتمد على النبرة لا التقطيع المعروف . أما مقطوعاته واساطه فقد صيغت ببراعة لتفق ومتطلبات غنائها الجماعي حيث أن اغلب اشعارها (كما اوضح ريبرا) هي مآس درامية ينشدها مغنو الطرقات . وبمضاهاة هذه المقطوعات بالانظمة الوزينة لشعراء البروفانس الاوائل ينكشف الامر لنا عن مشابه عظيمة القدر . فاشعار وليم من بواتييه[١٨] منظومة احيانا باوزان قريبة من اوزان « ابن قزمان » باختلاف طفيف الجأته اليه في الظاهر ضرورات صياغتها للغناء الفردي ، حيث كانت اصلا معدة لغناء الجماعة (غناء الجوق) . ونجد فضلا عما تقدم أن تحرر شعراء البروفنس من القواعد الشعرية وسيرهم وراء اهوائهم في ذلك ، اوضح لنا انهم كانوا يستعملون اوزانا ذات قيم معترف بها أو ذات ذوق متفق عليه raison d'etre بينما كان جوق الشعر الاندلسي محافظاً على قيوده الايقاعية والموسيقية مخلصاً لاسلوبه بحيث لا زلنا نميز تأثيره عن تأثير الشعر البروفنسي وذلك في اشعار

---

١٧) انظر فيتز موريس - كيللي في كتابه « تاريخ حديث للأدب الاسباني » ط ١٩٢٦ ص ٢٤ . كذلك انظر كتاب منيديث بيدال في « الرومانسيرو » ص ٥٨ . المؤلف

١٨) *William of Poitiers* « ١٠٢٠ - ١٠٩٠ » مؤرخ روماني ، كان كاهنا لوليم الفاتح . ذكر المؤرخ فيتالس في كتابه « التاريخ الكنسي » انه كان ينظم شعرا عجيباً لم يتقدمه فيه أحد .

الفونسو الحكيم وعند الشعراء الاسبان [١٩] .

بقيت نقطة اخيرة نرى وجوب بحثها . فأزجال بن قزمان لم تكن تعكس ابداً الاغراض العالية لشعر البلاط الاندلسي ، أو الهوى العميق الذي تفصح عنه الاغاني الشعبية. ومع ان بعض آثار « وليم بواتييه » ما كانت لترتفع عن هذا المستوى الخلقي الزقاقي ، فثمة فرق بين ، بين رنة هذا الشعر الشعبي الاندلسي وبين المثاليات التقليدية لشعر البلاط البروفنسي . لكن « ابن قزمان » يمثل انحطاطاً وتفسخاً مفزعين في المجتمع العربي — الاسباني ، ومن المحتمل جداً ان المثل العليا لشعر البلاط انعكست بشكل ادق واقرب في الآثار الشعبية الاخرى (على الاخص في القرن الحادي عشر عندما بلغت الثقافة الاندلسية اوجها الاقصى) نستدل على هذا من الاشارات العرضية التي كانت ترد بمحض الصدفة لدى كتاب العرب اثناء تناقلهم روايات العامة ، وتحريفات هؤلاء العامة للقصائد المشهورة .

يبدو من هذا العرض المختصر للشواهد — أن نظرية انتقال بعض المؤثرات من شعر البلاط الاندلسي وشعر البروفنس ، لا يمكن نبذها واطراحها بكل بساطة نظراً الى عدد وطبيعة الاشياء التي تربط ما بينها وما زالت هناك عدة نقاط تحتاج الى جلاء. كما هنالك اسئلة اخرى (بخصوص المصاحبة الموسيقية) في تلاوة الشعر الاندلسي والبروفنسي [٢٠] مثلا قد تلقي ضوءاً

---

١٩) انظر « ريبرا » الكتاب المار ذكره ج ١ ص ٣٠ - ٩٢ . المؤلف

٢٠) انظر ريبرا « تاريخ الموسيقى العربية في القرون الوسيطة » - ١٩٢٧ . وهنري جورج فارمر في (حقائق تاريخية عن التأثير الموسيقي العربي) - ١٩٣٠ . وتشير ايضا في هذا الاستطراد البسيط للهامش بأن المصطلحات الفنية للشعر الرومانسي يمكن درسها ثانية على هذا الضوء . وقد اظهر فوريبل (ج ٣ ص ٣٢٦) الاصل العربي للفظة (*galaubia*) وذكر (سنكر) في *Senhal* كلمتي *midons* و *guardador* (بالعربية = رقيب) . وألمع هازلوك *F. W. Hasluck* الى ان كلمة (*Stanza*) في الشعر الرومانسي ، مرادفة لكلمة (بيت) في الشعر العربي وقد جرى استعمالها تشبها بالعرب ، فكلمة (تانزيو *Tanzio*) تقابل (تنازع) العربية مبنى ومعنى . وقد أتى (ريبرا) في كتابه *Disertacione* ج ٣ ص ١٣٣ - ١٤٩ بعدد من مشتقات فارسية وعربية لعدد من الكلمات بينها *trobar* المشتقة من « طرب » ، لكن حتى لو كان لهذه الكلمة

باهراً على المسألة . أما الآن فثم ما يبرر الادعاء القائل ان الشعر العربي له الفضل الى حد ما في قيام الشعر الجديد باوربا وان كنا لا نستطيع السير طول الطريق مع البروفسر ماكيل prof Mackial الذي يقول مؤكداً « كانت اوربا مدينة بدينها الى اليهودية ، كذلك هي مدينة بادبها الروائي الى بلاد العرب »[٢١] .

وكانت مملكة النورمان في صقلية المنطقة الثانية التي انبثقت منها وبوساطتها المؤثرات العربية الى اوربا حيث حوفظ على تقاليد هذه المملكة بصورة خاصة — ايام حكم الامبراطور فردريك الثاني — والامر الذي لا يمكن دحضه أن الشعر العربي قرض في بلاد ملوك النورمان لكن المدرسة الصقلية لم تبرز الا في عهد فردريك (ما سوى اذا كانت الآثار التي سبقتها قد عفي عليها ولم تصلنا) وكما تم بروزها في اسبانيا على يد الفونسو الحكيم القشتالي وفي بلاطه كذلك برزت في صقلية على عهد فردريك وفي بلاطه ، وان كنا نسمع عن كثير من المترجمات للكتب العربية ، والكثير عن الفلسفة الاسلامية والكثير ايضاً عن شعراء الطروبادور ، صقليين كانوا ام بروفنسيين ، فليس هناك ذكر صريح للشعراء العرب والشعر العربي . والاكيد من الناحية الاخرى ان الراقصات والمغنيات العربيات ، كن موجودات في حاشية فردريك .

وفي الوقت الذي نسلم لمؤرخ في تاريخ صقلية الوسيطة حذره بأنه عرف اكثر مما عرف فعلا عن الشعر الشعبي العربي — الصقلي فربما تسنى لنا أن نكشف وشائج اوثق بينه وبين الشعر الايطالي الغابر في صقلية . هذا المؤرخ الحذر لا يذهب ابعد من الادعاء بانه قرض الشعر العامي يعود الى احتذائهم حذو الشعراء المسلمين والى التأييد والحماية التي كان يلقاها من حكام

صلة بـ trover ، فمن المفيد الاشارة الى ان كلمة « وجد » العربية ومعناها العثور على شيء تعني ايضاً « الشعور بغصص الحب ، أو البث » . المؤلف

٢١) « محاضرات في الشعر » ١٩١١ ، ص ٩٧ . قارنها بما جاء في ص ١٢٥ : « . . والى الشعوب العربية الساكنة في النجد العربي السوري الذى تدخل فيه (المنطقة الفلسطينية والشعب الفلسطيني القح) تدين باكبر قسم ، او بالدرجة الرئيسية من تلك القوى النشيطة التي جعلت القرون الوسطى الاوربية مختلفة روحاً وخيالا عن العالم الذي كان يخضع لرومة . . » . (المؤلف)

المسلمين[٢٢] ، ومع ذلك فالحقيقة التي لا جدال فيها ان اوزان الاشعار الشعبية الايطالية القديمة كما تتمثل في تسابيح جاكوبوني دي تودي[٢٣] ، واغاني الكرنفال . وتتجلى باكثر من هـذا دقة في البلاتا ballata التي هي نسخة طبق الاصل من اوزان الشعر العامي الاندلسي[٢٤] . حتى حملات بترارك[٢٥] الوطنية العنيفة على العرب[٢٦] ، فانها برهنت ، ان برهنت — على أن الشعر العربي من النوع الاكثر شعبية ، ما زال معروفاً في ايطاليا وقتذاك .

ومهما كانت الدرجة التي عينها الباحثون لتأثير الشعر العربي في اثارة روح الابداع لدى الشعب الرومانسي ، فان الدين الذي تحمل عبئه اوربا القرون الوسطى للشعر العربي ، لا يمكن أن يماري فيه أحد أو يجادل ، وان لم يتعرض اليه بحثنا بتفصيل . أن شيوع (مودة) اقتبال الآثار العربية : فلسفية كانت أم علمية ، جلب معه اهتماماً بنواح اخرى من الآداب العربية لا سيما الحكايات الخرافية ، والمقالات الخلقية ، والقصص : وهي بمجموعها تؤلف فن الكتابة الراقي العربي (اسلوب الحكيم) . وقبل ذلك بزمن اذاع النقل الشفوي عناصر اخرى من القصص العربي والشرقي وشمل انتشاره منطقة واسعة ، ولقد ظل الناس حتى زمن قريب يسلمون بلا جدال ، بله ينادون مقرين للشرق باصول بعض الحكايات الشعبية التي ازدهرت في اوربا في غضون القرن الثالث عشر باشكال مختلفة مثل « الخرافات والامثال والقصص الخيالية »

---

٢٢) م . أماري *M. Amari* : تاريخ مسلمي صقلية ، ١٨٦٨ - ٧٢ ج ٣ ص ٧٣٨ و ٨٨٩ . انظر كذلك ج . سيزاريو *G. Cesareo* (أصل الشعر الغنائي والشعر الصقلي) ١٩٢٤ ص ١٠١ و ١٠٧ .

٢٣) *Jacopni de Todi* (١٢٤٠ - ١٣٠٦) شاعر وناظم تسابيح دينية ايطالي . ظهرت أول طبعة لاناشيده في فلورنسا سنة ١٤٩٠ .

٢٤) انظر *J. Millas* في تأثير الشعر الشعبي الاسلامي الاسباني على الشعر الايطالي . ١٩٢١ و ١٩٢٠ في مجلة *Revisto de Archivos* ومن الجدير بالذكر أيضاً ان ريشارد من سان جرمانو يضمن كتاب تاريخه منظومات تاريخية على النمط العربي لكتب التاريخ . المؤلف .

٢٥) *Petrarch* ١٣٠٤-١٣٧٤ من ألمع كتاب وشعراء حركة البعث الثقافي الايطالي .

٢٦) المرجع السابق . السنة ١٢ جزء ٢ . المؤلف

وغير ذلك مما يوجد بينه وبين القصص الشرقي والهندي اوجه شبه لا جـدال فيها . ومع ان الابحاث المضنية التي قام بها الاستاذ بيديه قد اضعفت الى حد بعيد — وجهات النظـر المؤيدة لهذا الرأي[٢٧] . فما يزال ثم جوانب كثيرة من الادب الشعبي التي تحوي على الاقل مشـاهد واستطرادات مأخوذة من القصص الشرقي . ووجدت مشابهة شديدة بين القصص العربية وبين قصة (ايسولدي بلانشمان) وهي (رولاند سلايد) الالمانية[٢٨] وغيرها من القصص المنتشرة في شمال اوربا . حتى أن كاتب احد تراجم قصة البحث عن « الكأس الاقدس[٢٩] » ذكر كاتباً عربياً كمصدر له . ان الاستيحاء العربي، يتجلى اكثر شيء في القصة الفرنسية القديمة « فلور والزهرة البيضاء floire et blanchfleur[٣٠] وذلك لارتبـاطها بقصـة « اوقاسين ونيقولايت » الشيقة وهذه القصة نفسها تقوم شاهداً لا يدحض على اصلها العربي — الاسباني ، بدليل الاسم العربي المحرف لبطلها (اوقاسين : القاسم) وفي عدة تفاصيل من حوادثها[٣١] .

وقولنا : ان الخرافات الغنائية chone - fable تحفة الآداب الاوربية — هي شكل شائع من الملاحم العربية الشعبية — ليس فيه قطّ ما يسلب الجونكلور الفرنسي الفضل الذي استحقه لابتداعه هذه النادرة الادبية التي تقوم علماً مفرداً بجمالها وروعتها .

---

٢٧) انظر *J. Bedier* : الخرافات ، الطبعة (٥) ١٩٢٥ . المؤلف

٢٨) *Isolde Blanchemain* أو *Rolondslied* : هي اسطورة غرام تراجيديـة كلتية ، بـين ايسولدي الايرلندية ذات اليد البيضاء ، وتريستان (تريستـرام) وهو ابن اخت الملك مرقس زوج ايسولدي . وتم ذلك الحب في بلاط كورنوول بتأثير مسحوق عجيب الاثر تناولته ايسولدى .

٢٩) *Grail Saga* : وهي حكاية البحث عن الاناء الذي شرب به المسيح في عشائه الاخير والذي استقبل به يوسف الرامي دمه اثناء ما كان مصلوباً .

٣٠) من قصص الملاحم الفرنسية ، تعود الى القرن الثالث عشر .

٣١) انظر على العموم في هـذا الصدد : مقال ل : س . سنكر ، الشعر العربي والاوربي في القرون الوسطى ، نشر في مجلة العلوم للاكاديمية البروسية سنة ١٩١٨ . وانظر ايضاً : كتاب فقه اللغة الالمانية ، ٥٢ ، ١٩٢٧ ، ص ٧٧ - ٩٢ . وعن القاسم : انظر طبعـة *F. W. Bourdillon* ، مانشستر ١٩١٩ ، ١٤ - ١٥ . المؤلف

ان ادب الاسفار وادب الجغرافية الحيوانية العربيين قد خلفا كذلك آثارهما في الادب الغربي . فالرحلات ، لم تعرف في اوربا الا لغرض الحج الى الاراضي المقدسة . ويكاد يكون امراً مفروغاً منه ، ان انتشار عناصر الاساطير العجيبة والاخيلة الخرافية في رقع واسعة المدى تمت بالنقل الشفوي . انها كانت بمثابة حلي وزخارف وشيت بها رحلات ماركو بولو ورحلات «سير جون ماندفيل[٣٢]» ولكن حدودها لم تكن قاصرة على الدول اللاتينية الغربية فقد امتدت حتى اسكندينافيا وايرلندا — ربما كان ذلك عن الطريق التجارية لبحر قزوين — حتى البلطيق وعادت الى الظهور في حكايات رهبانية : كاسطورة القديس برندان[٣٣] جاء بها الجونكلير والتجار من الدول الصليبية التي اقيمت في سوريا وفي مرافيء شرق البحر الابيض المتوسط ، ومن المصادر الشفوية — باحتمال كبير يمكننا الادعاء . بأن بوكتشو[٣٤] اقتبس الحكايات الشرقية التي ضمنها كتابه «ديكاميروني» كذلك قصة «سكواير» لشوسر ، فهي من الف ليلة العربية التي ربما نقلها الى اوربا التجار الايطاليون القادمون من البحر الاسود حيث ان محل القصة جعل في بلاط خان المغول على نهر الفولغا :

في السراي بأراضي التتر . .[٣٥]

كان التناقل الشفوي بين الناس للقصص العربي مصحوباً في القرن الرابع عشر بترجمات عديدة لمجموعات القصص العربية عملت لتسلية طبقات عصرية من القراء . هذه القصص الشرقية

---

٣٢) *Sir John Mandville* : كتب تاريخ رحلات خرافي يظن انه منقول ، لاحتوائه على امور لا تصدق وقد طبع سنة ١٤٩٩ .

٣٣) *St. Brendan* : بطل ايرلندي اسطوري يظن انه عاش في ٤٨٤م . كتب راهب بندكتي رحلته الى ارض الميعاد بعد عبوره الاطلنطي .

٣٤) *Boccacio* ١٣١٣ – ١٣٧٥ أحد اعلام الكتاب الايطاليين عرف بكتابه *Decamerone* المنسوجة حكاياته على غرار الف ليلة .

٣٥) انظر : حكايات كانتربري ، لشوسر ١٣٤٠ – ١٤٠٠ .

كانت تفضل على زميلاتها قصص القرون الوسطى لا بكثرة تنوعها وتعدد الوانها وعرضها الادبي الفني وحده بل — واكثر من كل شيء — بخصوبة خيال العربية منها وسمو اغراضها . وهنا التقت العصور الوسطى الاسلامية والمسيحية في ارض واحدة « هي الذوق الادبي والقواعد الادبية. الناس كانوا يقصّون الحكايات لانهم يحبونها ، وقصصهم بصورة عامة كانت تهدف الى غايات اخلاقية . على ان القصة بوصفها فناً ادبياً — كان يحدق بها من جميع جهاتها اطار خلقي. الغرض العام الذي يتوخاه الكاتب هو التعريف بآداب الملوك أو واجب الحياة الصالحة او واجب الفضائل . كان يوجد في العربية الشيء الكثير من امثال هذه ، بعضه امتير من مخزن الخرافات الهندية العتيقة وبعضه أمتير من مصادر شرقية اخرى (من ضمنها ولا شك ما هو ذو اصول يونانية) وبعضه من النصوص التاريخية والخرافية للتاريخ الشرقي . لم يكن المؤلف أو القارىء لا في البلاد المسلمة ولا في البلاد المسيحية يبدي اهتماما ما أو يقيم وزنا للابتداع في المادة أو لقوة الاختراع السيكولوجي . وبتركنا مسألة الاسلوب الادبي في الوقت الحاضر ، نجد أن فن المغازي يقوم دليلاً على المقدرة في الاختيار والسبك ، المقدرة في اظهار مواد مألوفة معروفة بقالب جيد السبك . وهكذا ، فان المغازي الاخلاقية العربية قدر لها أن تلعب دوراً عظيما في آداب القرون الوسيطة الاوربية وما تلاها — عابرة ارضا قاصدة اخرى مختلطة بكثير من آثار ذلك الزمن المبتكرة ، أو دافعة بانتاجه الى الامام . ولنختر من شتيت هذه الآثار التي ترجمها اليهود من العربية على الاخص ، ثلاثة نماذج تقوم امثلة على الباقي : فهنا الكتاب العربي « كتاب السندباد » (ليس البحري) الذي استمد من الاصل السنسكريتي ، وهو الآن مفقود كالأصل نفسه — هذا الاثر هو مصدر من مصادر القرون الوسطى ، لعدد من المترجمات منها الترجمة السريانية (سندبان sindban) التي اشتقت منها سنتبياس syntipas اليونانية والتي كانت شائعة في القرون الوسطى . ومنها ايضاً ترجمة عبرانية باسم : سندبار sindabar وترجمات ايرانية عديدة بعضها ترجم الى العربية والتركية وقدر له الوصول الى اوربا في القرن الثامن عشر. وربما كانت (السندبار) العبرانية ، الأصل في احد تراجم القرن الثالث عشر للكتاب الاسباني

المسمى libro de los engannos من جانب واحد ثم لكتاب القرن الرابع عشر اللاتيني « تاريخ الحكماء السبعة » الذي كان مصدراً لعدة ملاحم شعرية من بينها الملحمة الانكليزية المسماة « حكماء روما السبعة » من الجانب الثاني[٣٦] .

أما النموذج الآخر فهو مجموعة من اقوال الفلاسفة الاقدمين جمعها بمصر في القرن الحادي عشر شخص يعرف باسم « مبشر بن فاتك » ترجمت الى الاسبانية بعنوان « قطع الذهب » بينما كانت ترجمات اخرى غربية تعتمد على ترجمة لاتينية باسم « كتاب الفلسفة الاخلاقية » التي نقل منها « كيوم دي تينيونفيل Guillaume de tignonville » ترجمته المسماة اقوال الفلاسفة المأثورة ترجمها الى الانكليزية « ايرل رايفرز [٣٧] باسم « اقوال ووصايا الفلاسفة » وكان هذا اول كتاب طبعه كاكستن [٣٨] .

ظهر تأثير هذه الكتابات واشباهها في الادب الاسباني اكثر من الآداب الاخرى وخاصة في الازمنة المتقدمة . فمثلا منه استوحى الانفانتي (الامير) دون خوان مانويل الذي كان يعرف العربية ، كتابه الموسوم « الكونت لوكانور ». حتى مقدمة هذا الكتاب ، فانها صيغت على طرز المقدمات التي اعتاد تدبيجها كتاب العرب وتصدير كتبهم بها ،[٣٩] عن متنه .

---

٣٦) رواية خلاصتها كما وردت في حكايات كنتربري ان امرأة الامبراطور الروماني ديوكلتيان كانت تغار من ابنه الذي يحبه والذي وضع له سبعة حكماء لتعليمه . فاتهمت الابن البريء بأنه يراودها عن نفسها . فطلب الملك منه ان يدرأ عن نفسه التهمه فعجز لسحر عملته له امرأة ابيه عقلت به لسانه سبعة أيام . وكان الحكماء السبعة اثناء ذلك يبعدون فكرة قتله عن ابيه بقصهم الحكايات الممتعة لمدة سبعة ايام حتى بطل عمل السحر وانحلت عقدة لسانه . قارنها مع القصة الاولى لالف ليلة . انظر المسعودي ج١ ص١٦٢ : « ... ويقال ان مؤلفه طيب هندي يسمى سندباد . وهو يحتوي على كتاب الوزراء السبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك ... »

٣٧) *Rivers* ١٤٤٢ - ١٤٨٣ من رجال القلم الانكليز . ترجم الكتاب المذكور عن الفرنسية ١٤٧٧ وطبعه له كاكستن .

٣٨) *Caxton* ١٤٢٢ - ١٤٩١ أول ناشر وطابع انكليزي .

٣٩) لا يمكن البرهنة بصورة جازمة على كل من ان دون خوان قد استمد من المصادر العربية مباشرة .

والحق انه يوجد بعض قطع نثرية قديمة اسبانية لم تستمد كيانها من مترجمات عربية ، لكن الملحوظ في اكثر الاحيان بأن الانماط الادبية العربية لم يبدأ انتشارها مباشرة من اسبانيا . فاوربا القرون الوسطى كانت متمثلة هناك ، كما هي متمثلة في امور اخرى — على اكتاف ايطاليا وجنوب فرنسا ، ولم تدخل مؤثرات عربية كهذه فى الادبين الفرنسي والانكليزي كما دخلت فى الادب الاسباني الا في ازمنة متأخرة جداً .

هذه العزلة النسبية نفسها يمكن الاستدلال اليها ، فى اثناء بحثنا النموذج الثالث الاكثر شهرة من زميليه الاولين : واعني به حكايات معشر الحيوان ذات الاصل السنسكريتي التي ترجمت الى العربية فى القرن الثامن الميلادي باسم كليلة ودمنة واعيدت ترجمتها الى الاسبانية لالفونسو الحكيم ١٢٥٢ — ١٢٨٤ ، لكن اوربا عرفتها فقط بترجمتها اللاتينية المسماة (مرشد الحياة الانسانية Directorium humanae vitae اتمها في هذا القرن نفسه ، جون الكابوي وهو يهودي متنصر . هذه الترجمة كانت معيناً أستمدت منه آثار كثيرة ككتاب « مفاخر الرومان » الذي لم يترجم الى اللغة الشعبية الايطالية الا سنة ١٥٥٢ ، حيث نهض بذلك (دوني Doni) . فالنجاح المستمر الذي كانت تلقاه هذه القصص الشرقية يظهر سحرها الجاذب وقوتها الاخاذة حتى في عجيج البحر الملتطم لحركة بعث الآداب الكلاسية . لم يكن كتاب « توماس نورث[٤٠] المسمى فلسفة دوني « والذي ظهر سنة ١٥٧٠ ، الا اولى التراجم العديدة لهذه القصص الى اللغة الانكليزية . ظلت التراجم اللاتينية والايطالية متداولة احقابا متعاقبة ، وآضت معيناً يستمد منه الروائيون والدراميون . (مثال ذلك ماسنكر[٤١] في الفصل الثالث من قصته المسماة : الوصي) وكان أن بعث بعد ذلك باسم (خرافات پاپاي Pilpay) في الترجمة الفرنسية سنة ١٦٤٤ عن ترجمة فارسية متأخرة عملت من العربية اسمها (انوار سهيلي[٤٢])

انظر G. Moldenhauer : برلام ويوشافاط ، ط ١٩٢٩ ص ٩٠ - ٩٤ . المؤلف

٤٠) Thomas North ١٥٣٥ - ١٦٠١ كاتب ومترجم انكليزي .

٤١) Massinger ١٥٨٣ - ١٦٤٠ روائي ومسرحي انكليزي . وقد الف « الوصي » سنة ١٦٣٣ .

٤٢) كشف الظنون ، للحاج خليفة : انظر مادة كليلة ودمنة .

امراً ينطوي على اهمية خاصة لكونها اشارة الى اول تماس مباشـــر للادب الفارسي مع اوربا الغربية وأحد مصادر حكايات لافونتين .

هناك لون آخر من الآداب العربية ، ربما كان له تأثير على اداب العصـــور الوسطى الا وهو أدب «المقامات» أجلّ أنماط الادب العربي فصاحةً ووشياً . وان كانت الضوابط الادبية العربية تحتم في أن يُتبع المقامات اسلوب النثر المسجوع المقفى ذي الايقاع المنتظم ، المرصـع بالحوشي من الالفاظ والغريب من التعابير فان موضـوع تلك المقطوعات ، كان من ابسط المواضيع : عدة حوادث متفرقة يقوم ببطولتها دائماً فارس مغامر ماكر ، احد شـذاذ الآفاق من المشعبذين الدجالين ، يبرز بوطابه الملآن حيلا والآعيب لا تمتُّ الى الشرف والوقار بصـلة يعتاش على ممارستها عندما يحز به الامر . هذا الفارس وُهب في الوقت نفسه فصاحة وسرعة بديهة ادبية ، كثيراً ما عبرت عن اسمى المشاعر الخلقية . وتُعزى اوجه مشابهة بين هذا النمط وبين الروايات البيسكارسكية[٤٣] الاسبانية ونزيد على ذلك ،أن المقامات قد وجد لها مقلدون بين اليهود والاسبان ، وقصة الفارس (كيفار) فضلاً عن كشفها اوجه شبه بالادب الشرقي ، فانها تحتوي على الاقل واحدة من مغامرات ريبالدو Ribaldo أو بيكارو الاسباني ، وهي اذن موضوع مقتبس من المجموعة الشرقية يمكن أن نقرنها — في النص العـربي — بشخصية جحا[٤٤] . ومن المحتمل كذلك أن تكون اوجه الشـبه بين وقائع المقامات وبين أوائل الحكايات الايطالية ذات الطابع القديم أو الطابع الهزلي (البيكارسكي) على أن الموضـوع نفسه ما زال بالغ الطراوة لم يتصد له احد ، للكشف عن معمياته .

إن دخول أنماط الادب العربي هذه ، اوربا القرون الوسطى كان في الواقع يمثل مظهراً من مظاهر الحركة الثقافية العامة . كانت الحضارة اللاتينية تضيق ذرعاً بالقيود الضيقة الـتي

---

٤٣) هي قصص تصف مغامرات بيكارو « الآفاق او المشعبذ ، من الكلمة الاسبانية *picaro* » في الانكليزية باضافة *on* = بيكارون .

٤٤) مجلة هسبانيك مجلد ١ ص ٩١ ، ١٩٠٣ . المؤلف

تفرضها الانظمة الكنسية في العصور المظلمة ، واصبح الناس جميعاً وهم يشكون محتارين امام الامور التي ظلوا يقتبلونها كحقائق منزهة لا تقبل الدحض ولما رأوا أنفسهم عاجزين عن إيجاد ما ينقع غلتهم وسط جدب ادبهم اللاتيني وضيقه وزيفه وسخفه ، فقد اضطروا أن ينشدوا ما يريدون في اصقاع اخرى . كانوا حتى ذلك التاريخ يعترفون ويسلمون حانقين ساخطين بتفوق الاسلام العسكري ، أما الآن فصاروا يدركون خجلين وجوب التسليم لهم بالتفوق الفكري. وبتدفق فيض العلم العربي الذي عقب هذا التسليم والايمان ولدت مجموعة من النثر الادبي الذي تسلل الى جميع الآداب الاوربية الاخرى المتحاملة على نفسها المتنامية ، قليلاً كان نموها أم كثيراً . وكان هذا ما مهد الطريق للانفجار الفكري المعروف (بالرينسانس) . على أن أهم يد أسداها الاسلام الى آداب العصور الوسيطة هو أثر الثقافة العربية على الشعر والنثر معاً قبل كل شيء . سواء في ذلك أكان مصحوباً بالاستعارة المادية من المعين العربي أم كان بغيره . هذا الموضوع وإن كان يخرج عن نطاق بحثنا ، فلا بد لنا أن ننوه بعض التنويه بالرأي الذي كثر ترداده على أفواه المتدارسين الجدد ، وهو أن عناصر من علم الاحياء والكون وبعض الاساطير التي تدور حول الرسول (ص) — يرجع بعضها الى اسطورة غابرة فارسية — قد دخلت (الكوميدي الالهية) مباشرة أو عن طريق أساطير غربية متقدمة عليها أمثال اسطورة (مطهر القديس باتريك[٤٥] St. patrick purgatury واسطورة توندال tundal . من حيث أن الاراء الفلسفية العربية ، واحوال الصوفية المسلمين وخيالاتهم قد انعكس بدون شك : ليس على آثار دانتي وحده بل على أهم الافكار التي جاء بها شعراء المدرسة الايطالية الحديثة المسماة (الاسلوب الرشيق الجديد[٤٦] dolce stil nuovo) إن الاهتمام الذي كان يرافق الدراسات العربية ايام دانتي ايطاليا

---

٤٥) القديس باتريك ٣٨٩-٤٦١ قديس ومبشر مسيحي نسجت حوله عدة خوارق وقصص واساطير .

٤٦) في هذه النقطة الاخيرة انظر كتاب « اطروبادور » بقلم جايتور *H. J. Chaytor* سنة ١٩١٢ ص ١٠٦ (المؤلف) تميز القرن الرابع عشر في ايطاليا باتخاذ اللغة الايطالية المتداولة على ألسنة العامة من قبل الشعراء والكتاب ، اسلوبا للكتابة الادبية العالية بدل اللاتينية التي لم تعرفها غير الخاصة ، فسميت بهذا الاسم .

يجعل نظريتنا هذه التي قدمناها غير بعيدة عن الواقع في الوقت الذي لا يمكننا القول بثبوتها قطعاً عدا النقاط الفرعية منها . لكن النظرية جذابة وان لم تكن ،فلسبب واحد على الاقل : وهو أن عبقرية دانتي قد تعاوني نظرنا الى الريماكين لو استطعنا اثبات دعوه — في مجموعة واحدة — التراث العظيم للمسيحية والصوفية الكلاسية فضلاً عن اغنى واخصب مظاهر الروحانية في الديانة الاسلامية . وقبل أن نترك القرون الوسطى ، علينا أن نكر راجعين الى اسبانيا ، فنقف لحظة واحدة ونتناول بالبحث نقطة كنا قد تصدينا لها ، اعني التأثير المستمر للتراث الشعري العربي ، والثقافة العربية في الاندلس بعيد الفتح المسيحي لاغلب رقعة اسبانية . هذا التأثير ،وان كان لا يخضع ابداً للحكم المطلق الجازم — نستطيع أن ندل عليه فى الادب الاسباني ومن اسبانيا الى الآداب الاوربية الاخرى ، قليلون هم الذين ينكرون ان الحياة والنشاط وسعة الخيال التي تطابع الآداب الجنوبية ، يعود الى الوسط الثقافي العربي في الاندلس خلال العصور المتقدمة والى الانطباع الذي خلفته تلك الحضارة في الشخص الاندلسي . صحيح طبعاً أن الاندلسيين خلال الفترة الواقعة بين فتح اشبيلية وسقوط غرناطة ، كانوا يقتدون على آثار اخوانهم في الدين من أهل قشتالة في امور اللغة وفي العادات والاساليب الادبية ، لكن عندما ارتفعت اسباب الشنآن الرئيسية من بينهم بضعف دولة المغاربة في اوربا وسقوطها ، وحلت بين المسيحيين والمغاربة الصداقة والعلاقات الاخوية محل العداوة ، حصلت ثورة ادبية عظيمة ،وبدا وكأن اهالي الاندلس يرون أن القشتالي البارد الجهم الخشن ينقصه شيء . ما زال يلمس من انفسهم وتراً حساساً فكروا راجعين الى الماضي المغربي باحثين عنه .

ربما يمكن تعقيب تأثير الروح الاندلسية في التهذيب والصقل الذي يبز قصة « أمادس دي كولا [٤٧] » عن غيرها من القصص ليظهر باجلى مظاهره في قصص الموريسكيين (العرب) ويبلغ ذروته في تاريخ بن السراج (قبل سنة ١٥٥٠) ومكملتها « الحرب الاهلية » لمؤلفها

٤٧) اسم بطل لقصة مشهورة من أقاصيص القرون الوسطى ، وصلنا منها النسخة القشتالية التي تعود الى سنة ١٥٠٨م .

جنيز بيريز الهيتي Gines Perez of Hita . وسواء اعتمدت هذه القصص على بعض اسس عربية أم لا فليس هذا بالمهم . والحقيقة المنشودة هي انها كانت قد شكلت مجموعة من الثقافة العربية — الاسبانية التي قدر لها أن تصير نقطة تحول في تاريخ الادب الاوربي الحديث ، كانت ايذاناً بيوم ميلاد الرواية الحديثة novel . الى هذا المدى كانت قصة دون كيخوتي لسرفانتس (التي يقول عنها (برسكوت [٤٨]) انها اندلسية قلباً وقالباً باناقتها وحبكتها) تدين بالكثير للثقافة الاندلسية ، وان لم تكن تدين بطبيعة الحال عن طريق — سيد حامد بن انقالي Cid Hamete Benengeli المؤرخ العربي والجغرافي إن هذا الحكم ذاته يمكن أن يسري على اسماء اخرى لا تقل شأناً ومكانة عن اسم « سرفانتس » في ميدان الادب الاسباني .

* * *

ان حركة النهضة الايطالية ، دفعت بالشرق الى الخلف . واقامت سداً يحول دون طغيان النفوذ الشرقي ، لكن النزعة الكلاسية لم يكتب لها الدوام ، فقد اخذت الروح الرومانية الاوربية ، الروح التي استظهرت في قصص البريطون [٤٩] والقصائد الشعبية التيوتونية وفي الدراما الانكليزية تنشد لها متنفساً بعد أن صكها الضغط وضاق الخناق عليها . وأخذت كل المبتدعات من قصص البطولة وحكايات الرعاة الخيالية والقصص البيكارسكية بالافول واحدة بعد الاخرى . وهدم بيرولت [٥٠] مرجعاً قوياً لكن لم تستطع قصصه الشعبية هذه أن تتحمل ثقل الهجوم . ثم في سنة ١٧٠٤ ظهرت ترجمة كالاند [٥١] لالف ليلة وليلة . وابانت الابحاث الاخيرة ان هذه الترجمة لم تكن حدثا منعزلا بل منتهى حركة طويلة الامد للتصوير الفني ، غذته القصص

٤٨) Prescott ١٧٩٦ - ١٨٥٩ مؤرخ امريكي اختص بدراسة التاريخ الاسباني .

٤٩) سكان مقاطعة بريتاني الواقعة شمال فرنسا .

٥٠) Perrault ١٥٢٨-١٧٠٣ كاتب فرنسي معروف بكتابه « تاريخ ما غبر ، او الحكايات الخرافية » .

٥١) Galland ١٦٤٦ - ١٧١٥ آثاري ومستشرق فرنسي واستاذ العربية بكلية فرنسا عرف بترجمته لالف ليلة وليلة .

الموريسكية وبداية الرحلات الى الشرق واستعماره ، كوصف تافرنييه [٥٢] وشاردان [٥٣] وبيرنييه [٥٤] وغيرهم للحياتين الهندية والفارسية . والخيال المحلي الفاتن الذي خلقته سفارات متعددة شرقية كانت تأتي مدينة باريس فتبهرها وتفتنها بعظمتها وروعتها [٥٥] ، كانت كلها سطحية جداً ، ضحلة في الواقع على انها بنت — خلال هاتيك السنين — تلكم الصورة الرومانتية باونها الحار وغرابتها وغموضها وما زالت هذه الصورة تستغل عندنا حتى يومنا هذا .

كان نجاح كتاب الف ليلة وليلة الفريد الشرقي ، نجاحاً سريعاً ساحقاً . فالتهبت اخيلة جمهرة القارئين ، وتزاحم الناشرون بالمناكب يريدون الاستباق الى سد هذا النهم الجديد ، وتبعت الف ليلة ، قصص فارسية اسمها (الف يوم ويوم) وعاد الى الحياة مرة اخرى الكتاب القديم (السندباد) باسم (الحكايات التركية) . وعندما اخذ المعين الذي تستمد منه هذه المواد الحام ينضب ، نشط الكتاب المشغولون الى العمل لسد هذا النقص فاشتغل كرليت [٥٦] حياة جيل بشري كامل بنسج وتآليف مترجمات زائفة . وابتدعت عبقرية مونتسكيه شكلاً جديداً من النقد الاجتماعي في كتابه (رسائل فلسفية [٥٧])

وفي انكلترا لم تكن الفتنة باقل ثورة ، فقد ترجمت الف ليلة العربية ، والحكايات

---

٥٢) *Tavernier* ١٦٠٥ – ١٦٨٩ رحالة فرنسي رحل ثلاث رحلات الى بلاد الشرق . ترجم الجزء الخاص برحلة العراق الاستاذان كوركيس عواد ونشير فرنسيس وعلقا عليه .

٥٣) *Chardin* ١٦٤٣ – ١٧١٣ رحالة فرنسي عاش في انكلترا .

٥٤) *Bernier* ت : ١٦٨٥ رحالة فرنسي ترجمت رحلاته الى الشرق الاقصى والادنى الى لغات عدة .

٥٥) انظر *Pierre Martino* : « الشرق في الادب الفرنسي خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر » ط ١٩٠٦ . انظر ايضاً م . ب كونانت « القصة الشرقية في انكلترا » – نيويورك ١٩٠٨ . وعن القصص الموريسكية انظر : ا . جابلين : « القصة الموريسكية في فرنسا » ١٩٢٨ . المؤلف

٥٦) *Geullette* : كاتب فرنسي من كتاب القرن الثامن عشر .

٥٧) قصة في رسائل نشرها مونتسكيه ١٧٢١ ، وهي عبارة عن خطابات لنبلاء وهميين فارسيين « اوزبك ورياكة » سافرا خلال اوربا واستقرا بباريس واخذا يرسلان الى أصدقائهما في فارس رسائل يضمنانها انتقادا للمجتمع الفرنسي المتفسخ آنذاك .

الفارسية والقصص التركية حالما ظهرت في اوربا وتوالت طبعاتها واحدة بعد الاخرى ، وتعلم ما لا يحصى من المقلدين — مثل كوليت — كيف « . . . يقلبون قصة لاتينية بنصف كراون . . » لقد انعكس شرق عجيب للغاية في الادب الشرقي الذي عرفه القرن الثامن عشر ، شرق اعادت الاخيلة الرومانتية السائدة انذاك — صقله وصياغته وفقاً لمُثُلها ، وحشدت فيه شخصيات غريبة الشكل مكسوة طيالس الخلفاء والقضاة ومعشر الجن . ولكن عبئاً ضخماً كهذا لم يكن بالطاقة احتماله طويلاً وسرعان ما اخذت هذه القصص الشرقية الزائفة تتهاوى تحت ضربات سوط هاملتون[٥٨] وپوپ[٥٩] وغولدسمث[٦٠] ، لم تتهاو الا بعد أن خلفت طابعها في الادب . ففي انكلترا امتزجت بما لفّ لفها واقترب منها وهو اساوب التوراة ، فخرج لنا من ذلك ، رؤيا ميرزا (الشرارة التي الهبت أول ما الهبت — خيال روبرت برنز[٦١]) ثم (رأس سيلاس)[٦٢] وفي فرنسا عادت هذه القصص بعجيب الصدف الى الاسلوب الشرقي القديم ، فأمدت فولتير وغيره من المصلحين بهيولى أودعوا فيها نقدهم الساخر الاجتماعي والسياسي ، واخرجت انكلترا وفرنسا معاً — كتاباً شهيراً مفرداً كان من منتوج امتزاج القصص القوطي فيه بالموضوعات الشرقية واخيلتها ، إن خلف أثراً وشكلاً على المنتوج الفكري لنصف القرن الذي تلاه ، فهو كتاب « الواثق Vathek »لبكفورد[٦٣] والأهم من كلّ هذا تأثيرات تلك القصص غير المباشر ونصيبها الوافر في إعداد ذوق الجمهور الى الانقلاب اللاكلاسي — الوسيطي الذي عرف (بالحركة الرومانتية) لكن يلزمنا أكثر من هذا لنوضح الاسباب التي جعلت (الف ليلة وليلة) تلقى مثل هذا النجاح — وربما وجدنا السبب في الازمة التي كانت تجتازها الآداب الفرنسية والانكليزية

٥٨) Hamilton ١٦٤٦ - ١٧٢٠ كاتب انكليزي المولد فرنسي الثقافة .

٥٩) Pope ١٦٨٨ - ١٧٤٤ شاعر وناقد انكليزي معروف .

٦٠) Goldsmith ١٧٢٨ - ١٧٧٤ قصصي وشاعر ودرامي انكليزي .

٦١) Robert Burns ١٧٥٩ - ١٧٩٦ أعظم الشعراء الغنائيين الاسكتلنديين .

٦٢) Raselas قصة كتبها بالفرنسية صموئيل جونسون ، وتدور حول امير حبشي .

٦٣) Beckford ١٧٥٩ - ١٨٤٤ كاتب انكليزي شرقي المنحى عرف بقصته « تاريخ الخليفة الواثق »،

آنذاك نظراً لاتساع طبقات القراء وازدياد الطلب على ثمار آداب ذات طابع اكثر شعبية . وعلى الاقل ، فالنزعة الى الادب الكلاسي في انكلترا لم تكن مطلقاً ذات صبغة شعبية . وان القصص الثقيلة البطيئة الحركة الرتيبة التي تخص بها القرن السابع عشر لم تكتب لعامة الشعب. لقد كان العصر عصر تجارب ، تلمس فيه الكتاب امثال « ده فو[٦٤] وستيل[٦٥] وادسون[٦٦] » سبيلهم للوصول الى اساوب كتابة جديد . انّ الف ليلة وهي نتاج شعبي في جوهرها ، قد تنقصها عناصر البلاغة والفصاحة والصقل التي يتسم بها فن الادب ، لكنها غنية كلّ الغنى بميزة واحدة لم يكن ادباء ذلك الحين يعيرونها اهتماماً : ميزة واحدة قيمتها لا تثمن ـ بالنسبة الى الادب الشعبي ، هي روح المغامرة . فليس من قبيل المبالغة والتهويل قولنا إنها كانت مرشداً وهادياً للكتاب الشعبيين ، ما فتئوا يطمحون اليه ، ولولا الف ليلة ما كان روبنسن كروزو[٦٧] ولا كانت — ربما — رحلات گوليفر[٦٨] .

إن ما وصلت اليه (مودة) القصص الشرقية من رفعة في القرن الثامن عشر ، والتأثير الذي خلفته ، كانت أموراً غض الطرف عنها مؤرخو آدابنا متقصدين متعمدين على العموم . ويمكن أن نلقي تفسيراً لهذا التجاهل ولا شك في رخص القيمة النوعية الادبية للتقليد المباشر في كل من فرنسا وانكلترا . هذه الحقيقة حملت برونتيير الى القول منتقداً : « ان الاتصال

كتبها بالفرنسية ١٧٨٥ وهي تدور حول خادم شرقي توصل بدهائه وحيله الى الخلافة بعد مغامرات عجيبة .

٦٤) *De Foe* ١٦٥٩ – ١٧٣١ كاتب انكليزي عرف بقصته روبنسن كروزو .

٦٥) *Steele* ١٦٧٢ – ١٧٢٩ كاتب ارلندي وصحافي .

٦٦) *Addison* ١٦٧٢ ـ ١٧١٩ منشىء وشاعر واديب مؤسس صحيفتي السبكتيتر والكارديان .

٦٧) أشير في فقرات ان اصل روبنسن كروزو يمكن تقصيه في قصة « حي بن يقظان » الفلسفية لابن الطفيل التي ترجمها الى اللاتينية *Pocock* سنة ١٦٧١ باسم « الفيلسوف الذي علم نفسه » وعنها نقل *ockly* ، الترجمة الانكليزية ١٧٠٨ . ولقد اشبع الموضوع الان تحقيقاً الاستاذ *A. R. Pastor* ، انظر كتابه : (فكرة روبنسن كروزو ـ القسم الاول ط . وتفورد ١٩٣٠) . المؤلف

٦٨) رحلات خرافية انتقادية كتبها الروائي الانكليزي جوناثان سويفت سنه ١٧٢٦ .

بالشرق الاسلامي لم يغذّ الا فرعاً واحداً من فروع الكتابة ، كان وصمة عار وطنيـة » لكن كان ثم دلائل اخرى على عمق الانطباع الذي خلفته القصة الشرقية في عقلية ذلك العصر . وبدا لوارتون [٦٩] أثناء ما كان يكتب تاريخ الشعر الانكليزي في العقد السابع من القرن الثـامن عشر ، بأنّ الحركة الرومانتية في القرون الوسطى كانت بدون شك من المنتوج العربي الاصيل قلباً وقالباً ، ومهما كان في نظرية وارتون من مبالغة ؛ فوجود مثل هذا الرأي وقبـوله يلقي نوراً باهراً على الافكار التي كان قد تشرب بها العصر . هذا الرأي يمكن استقراؤه في أمر اختيار ساوثي [٧٠] لقصائده القصصية من موضوعات قد تبدو للناقد العصري بعيدة المفهوم وغير شعبية أمثال « ثعلبة thalaba ولعنة كهامة the curse of kehama لكن هذه القصص لم تكن لجيل رُبي على قراءة (المغربي الساحر) وغيرها من القصص الشرقي ؛ بعيدة عن ذهنيته ؛ غريبة على مفاهيمه اكثر من بعد (علاء الدين) و(علي بابا) عن رجال ونساء القرن العشرين . بقيت الف ليلة وليلة رغم كل شيء . لقد كان فيها عنصر لا سبيل للخيال الى أن يمجه ويطرحه ولم تكن الوانها الجذابة الخافقة وقوالب مغامرتها وحوادثها — هذا العنصر الاخـير هو الذي أكسب مقلديها ثروتهم — بل مهما بلغ شأو مظاهر السحر فيها ؛ وكثرة اسـرارها ؛ فأنها تستند على اساس متين صلد من الواقعية ؛ وان كان شخوصها بسيطي التركيب ذوي صور واحدة فمغامراتها مغامرات حقيقية مسرودة بهوى غريزي وميل فطري الى النزعة الدرامية ؛ اذ يمكن تحت سطحها الخيالي وطلاوة مغامراتها ؛ لبّ اخلاقي لولاه ما نفذت بهذه الدرجة من العمق الى قلب اوربا ؛ كلاّ ولا بقيت محتفظة طوال قرنين من الزمن بمكانة سامية في عواطف المثقفين والبسطاء معاً . لقد صارت صورة الشرق الحقيقي اكثر وضوحاً ودقة ؛ وآض نفوذه اقوى أثراً حين كتب له التحرر من الاراء المتطرفة المعرقلة التي جعلته مبهما مغلقاً على الافهام حتى تلك الساعة .

ويجب ألاّ يغرب عن البال أن اوربا ما زالت حتى ذلك الوقت في جهل عميـق بالادب

---

٦٩) *Warton* ١٧٢٨ - ١٧٩٠ شاعر انكليزي واستاذ بجامعة اكسفورد .

٧٠) *Southey* ١٧٧٤ - ١٨٤٣ شاعر ومؤرخ انكليزي .

والفكر الشرقيين . لكن قلبت صفحة جديدة في سنة ١٧٧٥ عندما نشر وليم جونس[٧١] كتابه اللاتيني الموسوم بـ « تعقيبات على الشعر الاسيوي » لا بوصفه مترجماً بل شاعراً ، لا بوصفه فقيهاً لغوياً ؛ بل رجلاً مذواقاً (على حد قوله) — وللمرة الاولى فتح الباب للمثقفين ولدوائر المشتغلين بالادب الكلاسي في أوربا الغربية ؛ ليتفهموا ويقدروا مزايا الشعر العربي والفارسي. لكن الادبين الفرنسي والانكليزي كانا ينوءان بعبء التقاليد الثقيلة ويئنان تحت وطأتها وهكذا أخليت الحلبة لقادة الحركة الألمانية الجديدة كيما يظهروا امكاناتهم. فاذاهم يفصحون عن ذوق الجمهور بأصدق البيان ؛ واذا هم مبدعون لا خدام تابعون. وفضلاً عن ذلك ؛ فإن الشعر الفارسي كان قد سبق الى ترك آثاره في الادب الالماني. فقبل أكثر من قرن ؛ قام الرحالة والباحث « اولياريوس Olearius » بترجمة كتابي (سعدي) الموسومين « كاستان ؛ بستان » فأنعشا الادب الالماني وأمداه بدواء صحي مهيج في حينه[٧٢] ويلاحظ تأثير الادب الفارسي المستمر مثلاً في : قصة « يوسف وزليخا » التي اقتبسها « كرملسهاوزن[٧٣] وضمنها قصته « يوسف Yoseph . ونجد من الجهة الاخرى انه لم يكن لأدب القرن الثامن عشر منجى من أن يعكس « الاستشراق » الفرنسي . فقد اقتفى « لسنغ[٧٤] » أثر فولتير في اكساء كتبه الخلقية قالباً شرقياً . كذلك يوجد آثار اخرى قديمة من آثار المدرسة الرومانتية ، كقصة علي ووردة الهند Ali und Gulhyndi لمؤلفها اولنشليخر الدانمركي[٧٥] ؛ فهي مثال حي لقصص القرن الثامن عشر الخيالية . وفي الوقت نفسه نرى في مسرحية الفها بعدها (سنة ١٨٠٨) باسم « علاء الدين » — مع انها خليط من ألف ليلة وقصص الجنيات والعفاريت والحكم الهندية — تشير الى فهم حقيقي صحيح للشرق . هذا الفهم أدى حتماً الى دفع تلك الخرافات البعيدة عن تمثيل روح الشرق ؛ الى عالم الاطفال ؛

---

٧١) *William Jones* ١٧٤٦ – ١٧٩٤ مستشرق انكليزي ترجم المعلقات الى الانكليزية .

٧٢) انظر : مجلة « الاعلام الالمانية العامة » مجلد ٢٤ ص ٢٧٥ . توفي اولياريوس سنة ١٦٧١ . المؤلف

٧٣) *Grimmelshausen* ١٦٢٥ – ١٦٧٦ روائي وكاتب الماني .

٧٤) *Lessing* ١٧٢٩ – ١٧٨١ ناقد ومنشيء وروائي الماني .

٧٥) *Oehlenchlager* ١٧٧٩ – ١٨٨٥ احد كبار الروائيين والشعراء الدنمركيين .

فكانت لهم قصصاً .

ان المانيا مدينة بهذا الفهم الحقيقي الى رهط من مشاهير الشعراء المستنيرين ؛ واصلوا العمل الذي بدأه السر وليم جونس . فكان لهردر[٧٦] أثره في ازدياد الميل الى مدارسة الادب والفكر الشرقيين وتتبعه (كان ذلك طابعاً ظاهراً يسم الحركة الرومانتية في المانيا) . وكان وكان شليكل[٧٧] وهامر[٧٨] من الرعيل الاول، ثم يليهما روكيرت[٧٩] . فهؤلاء كشفوا للشعراء والكتاب الغرب عن كنوز جديدة غير منتظرة تقريباً ، وهكذا استطاع أدب الشرق ،هنديا كان أم عربياً أم فارسياً ، الدخول الى أدب القرن التاسع عسر الالماني بدرجة لم يكن يدانيه أدب آخر منذ الادب الاسباني في القرون الوسطى . وكان أول واينع زهرة في « الكلستان » الغربية ، هو ديوان غوتيه الموسوم ، « بالديوان الشرقي — الغربي Wesostliche Divon » أما خلفاؤه الذين تدارسوا وترجموا لأنفسهم النماذج الشرقية التي ساروا عليها ،فقد أوغلوا في المضي بعيداً . انهم مثل روكيرت قلدوا الافكار والصور الفارسية بل قدموها للقراء ، هذا إن لم يندفعوا الى ابعد من ذلك — مثل بلاتن — الذي راح الى حد استعمال اوزان الشعر الفارسية . أما غوتيه من الجهة الاخرى ، فقد وجد في الشعر الشرقي — قبل أن يجد شيئاً آخر وسيلة للفرار والخفي من واقع الحياة ذلك العصر القاسي في عالم الخيال . غوتيه هذا ، لم يكن يرضيه أو يسد حاجه مجرد المحاكاة ، فعمد الى ربط المثل العليا للشعر الفارسي بالعناصر الوسيطة والرومانتية بانسجام واتساق تام ، وبذلك خلق منحى جديداً للتعبير عن فكره الخاصة . وفي الوقت نفسه لبيان وتوضيح فكرته الدولية التي عمل على أن يجعلها طابع الادب الالماني[٨٠]

٧٦) *Herder* ١٧٤٤ - ١٨٠٣ ناقد وشاعر بروسي .

٧٧) *Schlagel* ١٧٦٧ - ١٨٤٥ مستشرق الماني .

٧٨) *Hammer* ١٧٧٤ - ١٨٥٦ من اعظم المستشرقين الالمان .

٧٩) *Ruckert* ١٧٨٨ - ١٨٦٦ مستشرق وشاعر الماني استاذ العربية والفارسية والسنسكريتية في ارلانكن وبرلين .

٨٠) في موضوع العنصر الشرقي في الحركة الرومانتية : انظر المجلد الاول رقم ٤ — ط نيويورك ١٩٠١

بقيت الاساليب الفارسية والهندية سيدة الميدان حينا من الزمن حتى مجيء هاينه[٨١] الذي لم يقتصد في صب هجائه ونقده لها . ورغم ذلك ما استطاع أن يبقي اشعاره في نجوة تامة عن المنحى الشرقي . لكن هذه الاساليب فشلت اذ كان مقدراً لها الفشل حتما . كانت نباتا من انبتة المناطق الحارة لا يستطيع إن يقيم جذوره أو يخرج شطئه في تربة أوربا ، دون أن تفسد نموه جذور الانبتة الاخرى ، هناك مقدار كبير من الحقيقة في وجهة النظر القائلة بأن الشاعر كلما قلّ تأثره بالافكار الشرقية كلما قلت قيمة عمله من الناحية الادبية . ولقد رفضت عبقرية غوتيه من تلقاء نفسها جميع عناصر « شعر حافظ » التي لم تنسجم واياها . حتى أن ديوانه الشرقي الغربي هذا ، يأتي بالدرجة الثانية من بين خير مؤلفاته . ولم يستطع أن يلهب خيال الجمهور غير « بونشتد[٨٢] » بروايته المقلدة (حلم الميرزا شافعي) وعلى كل حال فسواء كنا عاجزين عن اعطاء الشعر الشرقي مكانة رفيعة في الحركة الرومانتية الالمانية بمقياس واسع جداً بوصفه ادبا، (وان لم يمكننا أن نقلده فضل تحقيق مزج شعر الشرقي بالشعر الاوربي الحديث) فانه والحق يقال — أسدى الايادي الثمينة للتراث العام الذي اقتبلته اوربا عن طريق التراجم والمحاكاة ، وفتح بابا لم يكن مقدراً له أن يوصد مطلقاً .

ان ايغال الموثرات الشرقية الجزئي في جسم الادب الالماني ربما آثار — وقد اثار فعلاً —[٨٣] الآمال في حركة شرقية الانحياز بمقياس جد واسع . لكن هذه الآمال حبطت وخابت بالأدبين الانكليزي والفرنسي في القرن التاسع عشر ، ولا ندري هل أن ابتعاد الفكر العربي فجأة عن الشرق أكثر مما سبق له ، إن كان خيراً له أم شراً ؟ لقد انصرف الغرب عنه بفلسفاته الجديدة،

« ابحاث جرمانية — جامعة كولومبيا » بقلم *A. J. F. Remy* . المؤلف

٨١) *Heine* ١٧٩٧ — ١٨٥١ من اعظم الشعراء الغنائيين الالمان وهو غني عن التعريف .

٨٢) *Bodenstedt* : ١٨١٩ ١٨٩٢ شاعر المانى ترجم عن الفارسية .

٨٣) قارن العبارة التي نقلها بروئيتر عن شوبنهور من كتابه دراسات مجلد ٨ ص ٢١١ : « لم يكن القرن التاسع عشر بأقل معرفة يوما واحدا بالعالم القديم الشرقي ، من القرن السادس عشر في كشفه وازاحته الستار عن دفائن الآثار اليونانية الرومانية » . المؤلف

وآرائه السياسية الجديدة ومخترعاته الجديدة وتقدمه الصناعي الجبار . ولم يعد مزاجه يسمح له بالاصغاء الى الشرق لم يعد يصبر كما كان سابقاً — على قتل الوقت في تفهم افكار ذلك العالم . وسحقت عجلةُ الوطنية والقومية فكرةَ الادب العالمي الذي كان يبشر بوجوده «غوتيه» وقضى عليه القضاء الذي لا قائمة بعده حتى في المانيا نفسها . ومع هذا ، فالمكانة التي احتلها الشرق — الشرق الاسلامي خاصة — في أدب القرن التاسع عشر وقرننا هذا ، لهي مكانة لا نستطيع التقليل من شأنها أو نكرانها . ويبدو من قبيل التناقض أن يُتناسى تأثير الادب الشرقي تناسيا تاماً ويهمل بالمرة في عصر اصبح الشرق مربوطاً أكثر من أي وقت مضى[٨٤] بالغرب ، وعندما كان الشرق يمارس هيمنة وقوة جذب على خيال الغربيين لا تدانيها قوة . ان تفسير ذلك يمكن تنشده — ننشد قسما منه — في الفروق النوعية بين الحركة الرومانتية في فرنسا وانكلترا والحركة التي تزعمها هردر .

في فرنسا كانت الحركة الرومانتية اقل غزارة وخصباً ، أقل تحالفاً مع البحث العلمي منها في المانيا . وهي أكثر اندفاعاً بتأثير (سكوت وبايرن) مما كانت تحت تأثير (غوتيه وشلر) ومع ذلك لم تبد الا اثاراً طامسة لحركة الاستشراق الجديد .

ان الدواعي السياسية والمسحة الخاصة في الادب الفرنسي (نجد وصفاً له بكلمة «الاقليمية» تنطعاً وشدة لا يتحملها) جعل الشعراء والكتاب الفرنسيين يركزون منتوجهم القلمي في أمور محلية قريبة من مواطنهم . ولا يعني ذلك أن الشرق قد اصابه الاهمال وعفى عليه . بالعكس ، فقد كتب هوغو في « المشرقيات Les Orientales » يقول : في عصر لويس الرابع عشر كان العالم كله هلينيا (اغريقي الحضارة) أما الان فهو شرقي وأظهر اتجاهات شعرية قوية للعالم الشرقي . الظاهر أنه توسم فيه قبساً من الفن الشعري الغني ؛ ينبوعا كان يتوق دوماً الى ارواء غليله منه . وفي الواقع هنالك تجد كل شيء غنياً ، ثرّا ، واسعاً ، كما كان في القرون الوسطى »

---

٨٤) ان كان المؤلف يقصد بأن الاستعمار الاوربي جعل الشرق مرتبطا اكثر من ذي قبل بالمستعمرين الجدد ، فهذا صحيح .

لكن رغم هذا التصريح ، فمن الصعب علينا أن نقتفي أثراً من الشرق في شعر هذا الشاعر ليس ثمّ أثر لاولئك الشعراء الفارسيين الذين نفثوا سحرهم في « غوتيه » وسائر الادباء الالمان. كان ميله الى الشعراء العرب اقرب حيث اقتباس الفرس من العرب بلغ غاية العنف ، فهو اشبه بانقضاض امة من النساء على أمة من الرجال . . . شعر ذليل ، شعر مداهنة . يقينا أن الفرس كانوا ايطاليي آسيا ! « كان الشرق بالنسبة اليه ، شرق زم زيز مي Zim - Zizime » كما في المشرقيات ، ما زال يكمن في لبابه الشرق الزاهي البربري لتقاليد القرن الثامن عشر . لقد نحته غوتييه بتمثال فورتينو Fortunio أو الشرق البايروني المزخرف وليس بيت التجهد والتأمل والموسيقى للشعراء والباحثين ، استخدمه للتأثير الفني بسبب الوانه العميقة كما رسم «دلاكروا[٨٥] مناظر وتصاميم جزائرية . والامر نفسه يمكن قوله عن كل الكتاب الرومانتيين الفرنسيين تقريباً . فقد شعر بعضهم — كجيرار دي نرفال[٨٦] وغوتييه[٨٧] الاكبر تحت تأثير المدرسة الالمانية بالاكثر شعروا بتعلق وحب حقيقيين للشرق . لكن استشراقهم كان مجرد محاكاة مكررة في اغلب الاحيان . وامور الشرق كما تعبر عنه جملة لبرونتيير « في الوقت الذي اصبحت مألوفة ، لم تصر داخلية » .

كذلك الادب الانكليزي في القرن التاسع عشر ، فلم يكن يفترق عن وضع زميله الفرنسي . لكن الاستشراق الحديث كان هنا اكثر ظهوراً كما كان متوقعاً . لكن اسلوب الشرق بقي يستخدم في مسائل الزخرف والوشي تقريباً — فيزداد روا. وطلاوة بالعرض الرومانتي. على أن الاحتفاظ (بالطابع المحلي) تراث جاء من «سكوت» ومن الحركة الالمانية . وكان « بايرن » هو الذي جعل الشرق (الثاني) معروفاً ومثله الكلاسي كتاب (مور) الموسوم « اللاروخ Lalla Rookh»[٨٨] واقتصر تأثير الف ليلة على صيرورتها مصدراً يستمد منها

٨٥) Delacroix ١٧٩٨ - ١٨٦٣ رسام فرنسي وزعيم المدرسة الرومانتية في الرسم .

٨٦) Gerard de Nerval ١٨٠٨ - ١٨٥٥ منشيء وكاتب فرنسي .

٨٧) Gautier ١٨١١ — ١٨٧٢ كاتب وقصصي فرنسي .

٨٨) ديوان شعري على الاسلوب الشرقي الفه الشاعر الانكليزي توماس مور ١٨١٧ .

عناصر لبناء هيكل الرواية ، والاستشهادات الشعرية التي تعتمد على آثار جونس وديربلو[٨٩] وغيرهما من المستشرقين . ولكي يشبع (مور) رأسه بالصور والاخيلة الشرقية ، اخفى نفسه عن الانظار لمدة عامين ولكن مع اطمئنانه الخاص الى النتيجة [٩٠] فان اشعاره لم تفعل اكثر من أن رحلت نبرة (سكوت) من موطنه الى الهند. أما عن الباقي فان الاستشراق عند الشعراء الاعاظم لم يكن له محل ظاهر فالقطعة الشعرية « زهراب ورستم Sohrab and Rustum [٩١] واحلام فريشتاخ[٩٢] Ferishtah's Fancies واضرابها لا تملك من الشرق غير الاسم . أما في الآداب النثرية فان قصة «شكبة[٩٣] shagpat » تقوم على نموذجاً عربياً اصيلاً مستقلاً .

اذن ، فحل هذا التناقض الوهمي – بقدر ما يهم الشرق الاسلامي – هو أن انشغال كتاب وشعراء الفرنسيين والانكليز بالمشاهد الرومانتية التي جاءت وليدة تصوراتهم الخاصة ابعدهم عن الحقيقة الكامنة خلف قناع كانوا انتفعوا به كثيراً . وهكذا عومل الشرق معاملة منظم زخارف وملون ، وانكروا عليه بسرعة فائقة ادعاءه انه غذى التراث الروحي لمعشر البشرية . ولقد لحظ السر وليم جونس منذ زمن بعيد ، انه لا يمكن تقدير الشعر الاسيوي حق قدره ، الا بعد درس علمي لشعوبها وتاريخها الطبيعي . وما دامت هذه الدراسة الضرورية جداً ، محصورة في فئة من العلماء والموظفين . فكل تحسس لتأثير مثمر تفضل به الادب الشرقي والفكر الشرقي على اوربا ، أمر خارج عن صدد المناقشة .

---

٨٩) *d' Herbelot* ١٦٢٥ – ١٦٩٥ مستشرق فرنسي وضع معجماً عن الشعوب الشرقية ارتكز فيه على كتاب كشف الظنون للحاج خليفة .

٩٠) قال مور : « اني وان لم اكن في الشرق شخصياً ، فكل من هناك يصرح بانه لا يوجد وصف له اكثر اتقاناً من وصفي لشعبه وحياته في للاروخ ». المؤلف

٩١) مقطوعة شعرية لماتيو ارنولد ١٨٢٢ – ١٨٨٨ من ديوانه المسمى « امبدوكل على اتنا » .

٩٢) كتاب من تأليف الشاعر الانكليزي روبرت براونغ ١٨٨٤ يحتوي على اثنتي عشرة حكاية خرافية عن لسان الدراويش . على طراز المقامات العربية .

٩٣) أولى قصص الشاعر الانكليزي جورج مريديث ١٨٢٨ – ١٩٠٩ على طراز الف ليلة .

أما اولئك الذين فهموا الشرق وصوروه بعطف قاس مثل « غوبينو[٩٤] Gobineau »وموريه Morier[٩٥] فهم لا شك مدينون بشيء ما للادب الشرقي، كما هم مدينون الى الحياة الشرقية على أنه دين ليس من السهل تحديده . ومع ذلك فلم تأفل شمس القرن التاسع عشر ، قبل ان تخلف شاهداً على التماس الوثيق بين الشرق والغرب . فكما خلق انكليزي في قصة (الواثق) همزة وصل بين القصة الشرقية والقوطية ، كذلك قدر لانكليزي آخر في هذا العصر — أن يظهر قوة شاعر شرقي وقوته الهائلة في تغلغله الى اعماق الشعر الغربي . «فعمرُ خيام» فيتز جيرالد[٩٦] عبارة عن مقطوعات فارسية صرفة ، انكليزية صرفة في الوقت نفسه ولم تكن ترجمة بأي حال بل خلقاً جديداً . واذا لم تكن روح هذه الرباعيات اسمى واعظم ما يكون فانها عبرت على الاقل عن احاسيس العصر الدقيقة ،واعلنتها بالكمال والاتقان الذي تكشفت به للمجتمع الاصفهاني المثقف قبلها بثمانية قرون.

وان نحن اعدنا نظرنا في حقل الادب الاوربي بدا لنا لاول وهلة — ان آداب مسلمي الشرق محصورة في مجرى ضيق عقيم ، ولا نجد العكس الا حين ندرك بأن الشرق قد فعل في الادب الغربي فعل الخميرة في الروح ، وعندئذ تتبدى اهميته وأثره الاعظم . ولو كانت وجهة نظرنا صحيحة في هذا المضمار ، حق لنا القول اننا رأينا الشرق يؤثر في الادب الغربي في فترات ثلاث مختلفة وفي كل مرة يتمخض هذا التاثير بنتائج متفقة بطبيعتها وان لم تكن بدرجة متساوية. ففي كل فترة ومناسبة كهذه ، كانت مهمة الادب الشرقي تحرير الخيال من الاغلال الضيقة الشديدة الوطأة ، وقيام ذلك الخيال بشق أول صدع في جدار التقاليد . وقد ظهر فضل الادب الشرقي على الغربي في مقدرة الاول على أبتعاث ودعوة الاحاسيس الخلاقة المبدعة التي كانت حتى ذلك الحين ترسف في قيود الخمول والجمود . فما أن شرعت بالحركة ، حتى اخذت تلم مواد

---

٩٤) *Gobineau* ١٨١٦ ـ ١٨٨٢ كاتب فرنسي كتب عن الشرق كثيرا .

٩٥) *Morier* ١٧٨٠ ـ ١٨٤٩ رحالة وقصصي انكليزي عرف بكتابه « حاجي بابا اصفهاني» .

٩٦) يقصد بها ترجمة فتيز جيرالد ١٨٠٩ ـ ١٨٨٣ لرباعيات عمر الخيام .

خصيبة من احتياطها الداخلي تبني به نفسها بنفسها . والعناصر الشرقية من تلك التي تشبع بها هي الاخرى اخذت تتمثل وتذوب فى العناصر المحلية ، فأصبح من العسير جداً تفريق احدهما عن الآخر فى التطور التكاملي الختامي . وطالما كان الشرق يمد الادالاب وربي بنماذج وقوالب فانه كان يلعب في الميدان الادبي دور التابع الثانوي. وفي القرون الوسطى عندما وجد بين مدنية الاسلام والمسيحية تقارب جوهري فى قواعد التفكير واساليبه ، أثمر التقليد والاحتذاء الذي استمدته الثانية من الاولى ثمراً جد طيب . أما بعيد (الرينسانس) فلم ينتج هذا التماس الا لطائف وغرائب ادبية لا ضرر منها ، وللسبب نفسه كانت نتائج اتصال الافكار في القرون الوسطى بالادب الشرقي اكبر مما لا يقاس من اتصالات الازمان المتأخرة .

اما الرومانتيون الالمان فقد عادوا الى الشرق على أثر فترات الاتصالات العرضية الثلاثة وجعلوا لاول مرة في حياتهم هدفهم الوجداني فتح طريق لتراث الشعر الشرقي الحقيقي حتى يدخل منه الى شعر اوربا . ولكن القرن التاسع عشر بروح العظمة والتعالي والقوة الجديدة التي كانت ترافقه ، بدا وكأنه اغلق هذا الباب نهائياً في وجه غرضهم . وتوجد اليوم من الجهة الاخرى دلائل تشير الى حصول التغير . فالادب الشرقي صار يدرس ثاني مرة لذاته فقط . وحصل الشرق على مفهوم جديد فى ذهنية اوربا . وفي الوقت الذي تنتشر هذه المفاهيم ويعود الشرق الى احتلال مكانته اللائقة في حياة الانسانية قد يتاح الادب الشرقي ثانية —القيام بمهمته التاريخية فيساعدنا على تحرير انفسنا من الفهم الرجعي الضيق الذي يحدد كل ما هو مهم جوهري في فن الادب ، في الفكر والتاريخ ، في حيزنا هذا الضيق من الكرة الارضية .

ه . ر . ب

obeikandl.com

الفلسفة وعلم الكلام

PHILOSOPHY & THEOLOGY

بقلم

البروفسر الفريد كيوم ALFRED GUILLAUME M. A., D. D.

رئيس دائرة الشرق الادنى والاوسط لمعهد الدراسات الشرقية والافريقية لجامعة لندن. وأحد علماء المستشرقين الانكليز الكبار . عين في عدة مناصب استاذية منها : كرسي اللغات الشرقية في جامعة دورهام (١٩٢٠—١٩٣٠) . وكرسي العربية في الجامعة الامريكية ببيروت (١٩٤٤—١٩٤٥) وكتب الكثير في التاريخ الاسلامي وعن أبرز ما أصدر كتابه (تقاليد الاسلام) ونشر كتابي الشهرستاني : «نهاية الاقدام في علم الكلام» و « الملل والنحل » .

وهو أيضاً من كتبة دائرة المعارف الاسلامية .

obeikandl.com

اجتمعت كلمة المسلمين على أنّ المذاهب الفلسفية العربية والاسلامية الذائعة الصيت في ارجاء العالم والمعاهد العلمية الاسلامية التي كانت طليعة ونماذج للجامعات الاوربية ، لم تزدهر إلاّ في عصر الخلافة الذهبي . هذا الرأي الذي يعني أنّ الاسلام هو أب تلك المدنية الاوربية المزدهرة المجاوبة لم يكن قاصراً على أدب الدراية الصرف بل اننا نجده في أكثر ابحاث علماء المسلمين اثناء دراستهم تطور المذاهب الاسلامية في العصور الوسطى وتاريخها . كذلك يقرأ المرء في الادب الغربي من وقت لآخر عن الفلسفة العربية ، ويقول بعض كتاب اوربا عن الفلسفة (العربية) إنها من مخلفات ميراث الغابرين حيث تكدست فيه أخلاط غير متجانسة من جميع الانواع وتركت هنالك لتغلي وتنضج . كذلك يزعمون أنه ليس ثمّ ما يصحّ تسميته بـ «بالفلسفة العربية» . وان الشعوب التي تتكلم العربية استحوذت على الفلسفة اليونانية التي كانت سائدة بين مسيحيي سورية والمجتمع المثقف الوثني في حران ليس إلا ، بعد أن زادت عليها مواد قليلة مستعارة من بلاد فارس والهند .

والصحيح الآن هو أن نتأثر شكل اطار الفلسفة العربية بكامله . ان خطوطها الرئيسة ومادتها جاءت من مدنية الامبراطوريات التي ثلّها العرب وان الفلسفة الاغريقية كانت هي السائدة على شكلها ومهما قيل في الازمان المتأخرة ، فليس ثمّ سوء فهم للحقيقة من جانب الباحثين المسلمين الاوائل . والجاحظ البصري المتوفى ٨٦٩م ، ذلك الكاتب القدير الجمّ الثقافة الذي قدر لتأثيره في اسبانيا المسلمة أن يكون عظيما – يقر اقراراً نبيلاً بالدين الذي يدين به أهل جنسه لآثار اليونان بقوله « .. ولولا ما اودعت لنا الاوائل في كتبها ، وخلّدت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها ، ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، لجمعنا الى قليلنا كثيرهم وأدركنا ما لم نكن ندركه الاّ بهم ، لقد خس حظنا من

الحكمة ، ولضعف سبيلنا الى المعرفة[1] . . . « وفضلاً عما تقدم فانّ الفلاسفة وعلماء اللاهوت انفسهم لم يقوموا بأيّ محاولة في اغلب بحوثهم لستر أصل نظرياتهم ، ولا يمكن لأي إدعاء علمي أن يخدع المتزمتين الذين تمسكوا بالقران والسنة . حيث أنّ عدداً كبيراً من اثمهم كانت توجه بخصوص الابحاث الفكرية التي لم يكن للعرب معرفة بها زمن محمد (ص) ، ضد من يدخل بدعاً ذات اصـول أجنبية . كانت الفلسفة تسمى « الحكمة المزوجة بالكفر » وكانت عناوين الكتب أمثال « بيان مخازي الاغريق في منهل الحكم الدينية ، وككتاب اسطع البرهان في شجب وجود الفلسفة في القران » هي التي تنمّ عن محتوياتها . كما أن ثمّ حكاية شـائعة مؤداها أن فيلسوفاً معروفاً قال وهو يعالج سكرات الموت «صدق الله العظيم وكذب بن سينا»[2] .

ولنعد الى القول أن الآثار التي قدمها العرب الى مجمـوع تراث المعرفة الانسانية بطريقة أضافتها الى ما حققه المفكرون الاوائل هو في الحقيقة ليس ذا أهمية . لكن حتى في هذه الحالة : حتى وان قام البرهان الدامغ بأن مدنية الاسلام خلفت القليل ، أو لا أكثر مما ورثته هي نفسها ، فيبدو من الظلم أن ينكر أيّ حق لتلك المدنية في خلق رابطة غريبة من الفكر الفلسفي رابطـة ادعاها حكماء المسلمين لهم . وانه لمن الظلم الواضح أن نقلل من شأن الحماسة والاقبال على ورود مناهل الثقافة لاجل الثقافة نفسها ، هذا الاقبال الذي كان يجمع شمل عدد عظيم من الرجال في ارجاء الامبراطورية المحمدية الواسعة . أنّ عبارة « الفلسفة العربية » تسوق الى المستشرقين معنى معينـا[3] ، فهم يعرفون بأن العـربي الخالص الدم (الكندي) فقط هو الذي برز واثبت وجوده في معرض مشاكل فلسفية دقيقة لكنهم يعرفون أيضاً انّ ذلك الخليط المتنـافر — في أكثر الاحيان — من الفلسفة الافلاطونية الجديدة والارسطية التي اجمع أعظم فلاسفة المسلمين

---

١) كتاب الحيوان ج ١ ص ٨٥ طبعة مصطفى البابي بتحقيق عبد السلام محمد هارون .

٢) لم نعثر على اسم القائل ، ولعل احد القراء يتكرم به علينا .

٣) وبالنظر الى الاخرين ايضا ، انظر مقالة كيشر *Keicher* (ريموند لوس وموقفه تجاه الفلسفة العربية : *R. L. und seine Stellung Zur Arabischen Philosophie*) . المؤلف

على أنها تشمل تفسيراً معقولا للكون ، هو قبل كلّ شيء يمكن تسميته عربياً لا محمدياً . فاعظم حملة لوائه كانوا مسلمين بالاسم فقط ، أو ملحدين أقروا جهاراً بالحادهم فدفعوا حيواتهم ثمناً لهذا الاقرار أو خسروا حرياتهم .

ولو أنّ العرب كانوا كالمغول البرابرة الذين اخمدوا نار العلم في الشرق بشكل لم يَعُد معه الى الانقاد مرة اخرى : ربما لم يعد أبداً ، لضياع المكتبات ، والتقاليد العلمية ، لتأخرت حركة احياء العلوم في أوربا أكثر من مائة سنة . لا بد وأن حياة الباحث رائد الثقافة قبل اختراع الطباعة كان يحف بها القلق والخيبة دوماً . والى أن وجدت الجامعات الاسلامية ، وحتى بعد وجودها في الشرق والغرب ، كان أكثر طلاب العلم يشدون الرحال في سفرة قد تمتد الف ميل أو أكثر ليقصدوا استاذاً . وقد قام شبان عديدون برحلات مضنية من اسبانيا حتى مكة أو من مراكش حتى بغداد ، تاركين منازلهم ، ووطابهم خال من فلس ، ليجلسوا عند قدمي استاذهم المختار .

ان كلمة نقولها عن أصل الجامعات الاسلامية قد لا تكون خارجة عن صدد الموضوع. فالمدرسة النظامية الشهيرة المؤسسة ببغداد تأتي في الطليعة بناها نظام الملك صديق عمر الخيام الوزير التركماني الب ارسلان عام ٥٤٧هـ قبل الفتح النورماني لانكلترا بعام واحد ، وبعد ذلك بمدة وجيزة تأسست عدة جامعات في نيسابور ودمشق واورشليم والقاهرة والاسكندرية وغيرها من الاماكن التي كانت قد نالت صيتاً في العلوم والثقافة قبل مجيء الاسلام بقرون كما سيأتي ذكر الكثير من ذلك . ففي اوربا كانت (سالرنو[٤]) قد طار صيتها بوصفها جامعة طبية . فلو كانت هذه المدرسة فعلاً من بقايا مدرسة الطب اليونانية الغابرة فالفضل في ذلك يعود الى أن ايطاليا الجنوبية كانت جزءاً من الامبراطورية البيزنطية حتى القرن الحادي عشر فبقيت حتى بعيد الفتح النورماني منزلا لامة كبيرة تتكلم اللسان اليوناني ، كما أن فاتحي صقلية من النورمان

٤) انظر كتاب راشدال *Rashdall* : الجامعة الاوربية في القرون الوسطى جزء ١ الفصل ٣ . وكتاب « تاريخ كمبردج للقرون الوسطى » ج ٦ ص ٥٦٠ . المؤلف

بسطوا رعايتهم على الدراسات العربية واقتبسوا العادات الاسلامية بصورة واسعة حتى صار من الصعب علينا الآ نستنتج بأنّ الطب العربي كان له بدون شك نفوذ عظيم على تلك المدرسة ان لم يكن تأثيراً ابتداعياً خلاّقاً ، فهو على أقل تقدير ، تأثير تغذية وادامة[٥] . وعلى كلّ حال — فانّ العدد العظيم من السكان المسلمين كانت معالجتهم تتم بلا شك على يد أطباء مسيحيين ، ولم يكن اوائل المؤلفين — كما تظهر كتاباتهم — يجهلون كما يبدو آثار المؤلفين العرب .

كانت سالرنو مدرسة طبية بكل ما فى كلمة مدرسة من معنى وبساطة فهي لم تكن جامعة لآن أقدم الجامعات المسيحية في بولونا وباريس ومونبليه واكسفورد لم تنشأ الآ فى القرن الثاني عشر وكانت أول جامعة عربية في أوربا تدين بقيامها الى الدراسات الاسلامية ولا تدين الى الاسلام بتأسيسها ، كما أنها جاءت في وقت متأخر جداً . لقد استخدم الفونسو الحكيم (١٢٥٢—١٢٨١) رجلاً اسمه أبو بكر الراقوطي وهو اعلم اعلام عصره فبنى له مدرسة فيها قام بتدريس جميع العلوم للمسيحيين واليهود والمسلمين . على أن أعظم الجامعات الاسلامية وأعلاها كعباً هي مدرسة المستنصرية التي بنيت ببغداد عام ١٢٣٤ « لقد علمنا من المظهر الخارجي ؛ ونسق الزخارف والنقش ، ومن الاثاث الفخم واتساع الرقعة التي شيدت عليها وضخامة الاموال التي اوقفت لادامتها ، انّ المدرسة المستنصرية بذت جميع ما وجد من مثيلاتها في العالم الاسلامي . لقد كانت تحتوي على أربع مدارس فقهية لتدريس الشريعة ، كلّ واحدة تتبع احد المذاهب الاربعة ويترأس كل مدرسة استاذ انيط به تخريج خمسة وسبعين تلميذاً يتولى تدريسهم حسبة لله لا يتقاضى عنهم شيئاً . وقد خصص له من بيت المال معاش شهريّ . أما التلاميذ الذين يبلغ عددهم نحو الثلاثمائة فقد عين لكل واحد منهم دينار واحد ذهباً كل شهر . وفضلاً عن هذا فقد كان المطبخ الكبير الملحق بالكلية يمدّ طلبة العلم بوجبات الاكل اليومية من الخبز واللحم . . . وأورد

---

٥) قام كيوم دي يوبن الثاني بحث رعاياه الذين كانو عرباً أغلبهم ، على توجيه دعواتهم الى « الله » وقلد خلفاؤه النقود العربية ، وتقاليد البلاط وزخارف القصور وطرق الادارة ، حتى الحريم على ما يقال . « انظر كتاب وصف افريقيا واسبانيا الادريسي طبع دوزي و دي غوية » المقدمة ص ١ . المؤلف

ابن الفرات[٦] انه كان فيها مكتبة . . . تضم كتباً نادرة في شتى العلوم منضدة تنضيداً متقناً يسهل على الطالب الرجوع اليها ، وكان بامكان من يرغب ، أن يستنسخ ما شاء من هذه المخطوطات لأن الاقلام والورق كانت تعطى من ادارة المدرسة . وذكر أيضاً أن المدرسة كانت توزع على الطلبة المصابيح وما يقتضي لها من زيت الزيتون للاضاءة. كذلك كان يوجد صهاريج لتبريد مياه الشرب ، وفي المدخل الكبير المؤدي الى البهو . . . اقيمت ساعة . . . هي لاشك من الساعات المائية ، وظيفتها اعلان أوقات الصلاة وحساب الساعات ليلاً ونهاراً . وفي داخل المدرسة حمام للطلاب . . . وبيمارستان . . عين له طبيب يزور المدرسة صباح كل يوم ويصف الدواء للمرضى من الطلاب ، ووجدت مخازن وعنابر عظيمة لخزن أنواع المؤن والاطعمة والاشربة والادوية[٧] » كل ذلك كان موجوداً في مفتتح القرن الثالث عشر ، فتأمل[٨] .

ان أصل الحركة الفكرية في القرن الحادي عشر غامض تماماً ومن الاسلم لنا نظراً لقلة معارفنا ومعلوماتنا الراهنة — أن نشير الى الاهمية العظمى للدور الكبير الذي لعبه علماء المسلمين في اسبانيا في ميدان التثقيف العام ، اكثر من التأثير المباشر لاساليبهم التعليمية على الجامعات المسيحية الاوربية ، وهذه المعاهد هي احدث من جامعات الشرق طبعاً وان علماء القرون الوسطى يسلمون بلا قيد بالزعم القائل ان العلوم الاسلامية قد أمدتهم بما لا يحصى من المواد في بحوثهم العلمية ، وفي كتاب « تراث اسرائيل » تنويه بكثير من هؤلاء الباحثين ، كما يوجد ذكر لهم

---

٦) ناصر الدين بن محمد بن عبد الرحيم علي بن الفرات المصري الحنفي (٧٣٥-٨٠٧هـ = ١٣٣٤-١٤٠٥م) صاحب كتاب التاريخ الشهير بتاريخ ابن الفرات، الذى أجمع المؤرخون على انه كان في ثمانية مجلد وقد بقي منه الآن تسعة مجلدات في المكتبة الامبراطورية بفيينا . نشره الدكتور قسطنطين زريق سنة ١٩٣٦ - ١٩٤٢ .

٧) « بغداد في اثناء الخلافة العباسية » غ . لو سترانج *G. Le Strange* . ص ٢٧٦ . ط اكسفورد سنة ١٩٠٠ .

٨) انظر بحث « المستنصرية » في مجلة سومر « كوركيس عواد » . وهو بحث نفيس للغاية .

أيضاً في فصول اخرى من هذا الكتاب انا نرى «جون السالزبري[٩]» يذكر قارئيه بخدمات الاسبان والمتصلين بافريقيا والشرق الاسلامي . أما روجر بيكن (١٢١٥–١٢٩٢) فلم يتردد في القول أن « . . الفلسفة انما هي ارومة عربية . . . لذلك فان اللاتيني لا يستطيع أن يكون على وقوف بالكتب المقدسة ولا على الفلسفة الا اذا عرف اللغة التي نقلت عنها :Philosophia ab..arabico deducta est.Et ideo nullus latinus sapientiam sacrae scripturae et philospphiae poterit ut oportet intelligere, nisi intelligat linguasa quibus sunt translatae» وانه يورد لنا بصورة خاصة اسماء الكتاب الغرب الذين يعززون قوله هذا . لكن لسوء الحظ لم تخبرنا جمهرة السياح النصارى في الازمنة المتقدمة عما جلبوا من رحلاتهم الى البلاد الخاضعة للحكم الاسلامي أو تحت نفوذه . ان المقارنة بين ما كان متدارساً عند المسلمين في القرنين العاشر والحادي عشر وبين ما انشغل به الطلبة المسيحيون في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، قد يكون بمثابة اشارة الى وجود تمازج وثيق بين الجامعات الشرقية والغربية أكثر مما كان يظن ، لكنه لم يتيسر لنا على هذا التمازج دليل حاسم حتى الآن .

لا بد وان طبيعة البحوث العلمية المنظمة والعلاقة بين الاستاذ وطالبه ، مسألة الاجور والمنح ، الضبط والادارة ، ووضع الدرجات العلمية أو اجازات التدريس وسائر ضروب فعاليات الحياة الجامعية كانت متشابهة الى حد ما — سواء في ذلك ، أكان مركز العلم بغداد ، أو اكسفورد . وعليه فربما صعب علينا الجزم بان الجامعة المسيحية صبت في قالب مماثل للاسلامية منها ما لم يقم البرهان الدامغ على هذا .

هناك أوجه شبه عديدة جداً ، كمنح المدرس المسلم الاجازة (الليسانس) في التدريس ، أو كصيرورة الطالب معيداً ، لوثيقة معينة باسم الاستاذ أو بتخويل منه ؛ هذا النظام يماثل ما سمي في القرون الوسطى بـ « اجازة المعلم licentia docendi » وهو اقدم اشكال الدرجة

٩) ميتالوجيكوس *Metalogicus* مجلد ٣ ص ٦ : « واني مدين للبروفسر كليمنت . سي . جي . وب بهذا المرجع (المؤلف) جون السالزبري توفي ١١٨٠ باحث انكليزي درس على الفيلسوف ابيلار في اكسفورد والجامعات العربية وعرف بكتابه المذكور آنفاً » .

العلمية[10]. ومن الجهة الاخرى فمبدأ عدم احتراف احد التدريس دون أن يسبق له طلب العلم لنفسه فترة كافية على يد استاذ مجاز رسمياً بتعاطي التدريس، انما هو أمر من الوضوح بمكان. حتى انه لا يحتاج الى سابقة بعيدة هذا البعد الشاسع. ومن بعض النقاط السطحية الدالة على وجود جاليات أجنبية كبيرة كانت تنتظم بمثابة طوائف وامم. كذلك الاسلوب الاوربي القديم وهو التدريس المجاني أي بدون تقاضي اجور من الطلاب هذا الاقرار الكريم بوجوب تسليم شعلة العلم من يد الى يد بدون تقاضي اجر، ما زال حياً في الجامعة العظيمة في الازهر — القاهرة حيث يجتمع التلاميذ من شتى انحاء العالم الاسلامي — كل حلقة برواق أو جناح خاص يستعينون على عيشهم بالاوقاف الخيرية والاعانات الحكومية[11].

ان الطريقة التي كان بعض رواد العلم اللاتين يتارون العلوم من اسبانيا قبل أن بدأ المترجون الموظفون بترجماتهم — بقرن من الزمن — فصلناه بمهارة ودقة عظيمتين في كتاب «تراث

---

١٠) وعلى كل حال فان الهيئات التي تعطي الاجازات ليست متشابهة. المؤلف

١١) كتب راشدال: ان اجازة العميد *Rector* لقراءة موضوع او كتاب، او بالاحرى اكمال قراءة دور معين من المحاضرات تجعل الطالب « باجلر *Bachler* = صاحب بكالوريا » والفقيه.. يستطيع ان يدرس مادة واحدة بعد سماعه مدة اربع سنوات. ان المعنى الدقيق لكلمة « السماع » و « القراءة » يتفقان تماماً مع مدلولها في العربية لكن هذه المشابهة — كذلك استخدام الطالب — المدرس بعد خمسة او ستة أعوام في التحصيل ليس ذا اهمية وقد يظهر في أي جامعة من تلقاء نفسها لا محاكاة او تقليدا. ولو استطعنا ان نجزم بالاصل العربي للفظة *baccalareus* (بعد ان عجز معجم اكسفورد الانكليزية عن اعطاء تفسير مرضي لها) لمست قدمنا ارضاً قوية ولما زلت. ولفظه « باجلر » الجامعية تبدو والمقصود بها اصلا الطالب المصرح له بالتدريس في مدرسة الاستاذ. ومع اني فشلت في العثور عن التعبير الدقيق عند اى كاتب عربي، فعبارة « بحق الرواية » ومعناها منح حق رواية العلم من احدهم الى الاخر: ربما اعطت معنى (البكالوريا) للغة النطقية المتقاربة التي تصدر من التعبيرين. ومهما يكن فأقدم استعمال للكلمة « انظر هاتزفيلد ودارمشتتر » ورد في نشيد رولاند. وان كان حدسي هذا صحيحاً، فهو يستتبع ان الكلمة العربية الاصل قد حرفت الى (باجد) وليس في العربية صفة لشخص ذي درجة علمية، بل صفة للوظيفة التي يتقلدها.

المؤلف

اسرائيل[١٢]». أما في اوربا فان ثمار الفكر العربي اضطلع بنشره العلماء الجوالون الذين لم يصلنا شيء من كتاباتهم ، ومع اننا على يقين بالقنوات التي تمّ بها تسرّب آثار الغزالي وابن سينا وابن رشد الى اللاتين ، لكن لا يسعنا الاّ اللجوء الى الحدس والتخمين في آثار القرون الخالية الاخرى حيث يعوزنا البرهان .

وبالتراجم التي انجزها (دومنيك كونديسالفي) أسقف سيكوفيا في أولى سني القرن الثاني عشر اصبح الغرب المسيحي يعرف ارسطو عن طريق ابن سينا والفارابي والغزالي . فالموسوعة الفلسفية التي الفها (كوندیسالفس) تعتمد بصورة رئيسية على المعلومات المستقاة من المصادر العربية[١٣] .

والزعم الكثير الترداد على الافواه : من أن الغرب مدين باحياء فلسفة ارسطو الى العرب يحتاج الى دليل . وقد يقال أنه لم يكد يعرف حتى الى زمن كونديسالفس فيلسوف باسم ارسطو . ان بيكن[١٤] يخبرنا بأنّ (بويوس) هو أول من عرّف العرب بارسطو ، فترجمته (للمقولات : القاطيغوريس) و (العبارة de interpretatione) مع رسائله في المنطق وتعليقاته ، كانت فعلاً جملة ما وصل اوربا من الفلسفة الارسطية حتى سنة ١١٥٠ . والحق أن الغرب لم يكن ليعرف عن افلاطون اكثر مما عرف عن ارسطو بنتيجة الاتصال المباشر مع اليونان . لكن (الافلاطونية) تتمتع بامتياز اندماجها المستحكم بالفكر المسيحي . فاقدم ترجمة لكتاب (ما بعد الطبيعة : الميتافيزيقيا) — مع كونها ناقصة — وصلت باريس من بيزنطية مصدرها وذلك حوالي ١٢٠٠ . وبعدها ببضع سنين وصلت باريس ترجمة اخرى ناقصة — نقلت من العربية . ولم يقع كتاب ارسطو هذا في يد الباحثين كاملاً الاّ سنة ١٢٦٠ . ووصل كتاب (الاخلاق : ethics) لنيقوماخس من المصادر اليونانية اولا ثم من المصادر العربية . وفي الاخير

---

١٢) انظر الفصل المكتوب بقلم (جاراس ودوروثيا سنكر) ص ٢٠٤ وما بعدها . المؤلف

١٣) انظر كذلك (تراث اسرائيل) ص ٢٥٤-٢٥٦ . المؤلف

١٤) Francis Bacon (١٥٦١-١٦٢٦) كاتب انكليزي ومفكر معروف . المؤلف

بشكله المترجم الكامل من الاغريقية مباشرة عام ١٢٥٠ ووصل كتاب (الطبيعة physica) وكتاب (النفس) من الاغريق في أول الامر .

وعلى هذا يمكن القول أن الغرب مدين باحياء الفلسفة الارسطية واعادة نشرها الى العرب بقدر ما أيقظ تصرف الباحثين الاوربيين في الفكر العربي من اهتمام بآثار ارسطو . ويشق علينا ان نشك في أن الاوربيين انصرفوا الى مدارسة ارسطو لان شوقهم المستعر الى الفلسفة اشتد باحتكاكهم بالفكر العربي . ومما لا ريب فيه أنه ان لم يكن أول تأثير خطير عربي الا ومة فكيف يتسنى لنا تفسير امتزاج آراء ارسطو بالتعاليم المعزوة الى ابن رشد طوال قرون متعاقبة؟ (وابن رشد نفسه كان يجهل اليونانية وقد اكتفى بالاعتماد على تراجم اسلافه . وطريقه في البحث كانت شائعة تماماً عند اليهود هذه التعاليم اوغلت الفكر المسيحي ايغالا ، ونفذت عميقاً حتى اصبحت خطراً على تعاليم الكنيسة . والى القديس توما على الاخص يعزى الفضل في فصل ارسطو عن شارحه ، ونقد التفاسير العربية لفلسفته .

ولكن ما نهتم به الآن ليس أصل وتطور كل من الفلسفة العربية ولاهوتها ، بقدر اهتمامنا بتأثيرها على أفكار الغرب . ونبذة مختصرة عن هذا اللاهوت ونشوئه أمر ضروري لنا حتى نتفهم طبيعة المكانة التي كان العرب يحتلونها في تاريخ نقل الفلسفة ، وقد يذكر في بحث كهذا الصعوبة — ان لم تكن الاستحالة — في فصل الفلسفة عن اللاهوت . ولدينا سند قوي لتبرير تصدينا الى بحث الفلسفة واللاهوت معاً . فارسطو نفسه كان يسمي ما عرفناه باسم ما وراء الطبيعة — (الفلسفة الاولى أو اللاهوت : ثيولوجيا) وعقيدة الوحدانية لم تظهر في دوائر الاغريق الدينية فقط بل في دوائرهم الفلسفية كذلك . يتجلى الخطر الاعظم لهذه الحقيقة في مناقشة اصل هاتين الدراستين وتطورهما عند الاسلام ، اذ كانت الفلسفة في العصور التي سبقت ظهور المسيحية تهتم أولا ، بكل ما يتحقق لدى العقل الانساني . بينما تدعي الثيولوجيا انها تدرس الحقائق الروحية للاشياء المخلدة التي لا يمكن ادراكها الا بالالهام . رفض العالم الاسلامي قاطبة أن يعترف بما اعتبر ثابتاً راسخاً في هذا الميدان ، ولقد أقر القويس توما الاكويني ودنس

سكوتس [١٥] بهذا الفرق بين الفلسفة والثيولوجيا ، واعتبر كل فرع سيداً لميدانه الخاص لا ينازعه فيه منازع ، واعتبرا – كأسلافهما العرب كلا من العقل والوحي وسيلة للتوصل الى الحقيقة. لكن لم يتوصلا الى اتفاق ثابت مستديم على ما يعود الى ما وراء الطبيعة ، وما يعود الى الدين الموحى به . وقد اوضح (روجر بيكن) في تنكره لدراسة الفلسفة وتنديده بها ، موقفه منها ونظرته فيها واشار الى المراجع الشرقية التي كانت العامل في تحويل فكره الى هذا السبيل قال :

« ان الميتافزيقيا عند الفلاسفة ، تحتل مكان جزء من اجزاء الالهيات ، حيث انهم اطلقوا
« عليها مع فلسفة الاخلاق اسم (العلم الآلهي scientia divina [١٦]) أو الالهيات الطبيعية
« theolagie physica كما بدت في الكتابين الاول والحادي عشر من كتاب ما وراء
« الطبيعة لارسطو ، ومن الكتابين التاسع والعاشر لما وراء الطبيعة لابن سينا . ان علم ما
« وراء الطبيعة يشمل مواضيع عديدة تتعلق بالله والملائكة وما جرى مجرى ذلك من الموضوعات
« الآلهية [١٧] ... ثم أن نهاية الفلسفة النظرية ، هو معرفة الخالق عن سبيل المخلوقات [١٨]
« وان على المسيحي ان يذكر دوماً « .. ان الفلسفة فى نفسها تؤدي الى عماوة جهنم ؛ وعليه
« لا بد أن تكون في قرارة نفسها ظلاماً وضبابا [١٩] . »

ولم يكن بين الباحثين العرب أي اتفاق على هذه المبادي، بمقدار اوسع مما ذكرنا ، فابن

---

١٥) *J. Duns Scotus* (١٢٧٤-١٣٠٨) : راهب فرنشسكاني من فلاسفة القرن الثالث عشر . كان امام جدلي عصره وأحد اعلام المنطق حتى ضرب به المثل واصبح اسمه في مفردات اللغة الانكليزية *dunce* مدلولا لمعكوس معناه « بليد او غبي » . وفلسفته مشائية كالقديس توما .

١٦) انظر رسالة ابن سينا فيما وراء الطبيعة المسماة « علم الالهيات » وهي تبحث كما يدل عليها اسمها عن المعرفة بالاشياء المتعلقة بالمسائل الالهية . المؤلف

١٧) انظر الكتاب الاكبر *Opus Majus Philog* الفصل ٣. المؤلف

١٨) المرجع نفسه الفصل ٨ المؤلف

١٩) المرجع نفسه الفصل ٢٠ حتى الاخير. المؤلف

سينا يؤكد أن موضوع (الكينونة الوجودية : qua) هو أنسب المواضيع للميتافزيقا . بينما يؤكد ابن رشد الذي يدعي باعتماده على ارسطو اكثر من أي فيلسوف — ان الله والعقل هما مجثم الفلسفة اللائق . وهكذا اختلف مفهوم الميتافزيقيا والثيولوجيا عند الفيلسوفين العربيين المعروفين في العالم اللاتيني اختلافاً بيناً . بشر ابن رشد بوجوب اخضاع كل شيء الى حكم العقل ما عدا العقائد الدينية الموحى بها .

وبالرجوع الى اصل الدراسات الفلسفية عند المسلمين ، نجد انه لا مبرر للرأي بأن العرب الذين تألفت منهم جيوش الخلفاء الاولين المظفرة — يختلفون عن عرب اليوم اختلافاً تاماً ، خلا ان نسبة البداوة العربية في دم الاولين كانت اكثر بكثير ، وتلك حقيقة لا يبدو انها تثير آمالا عراضا عند فلاسفة العصر . عند رجال كهؤلاء . كانت كل رغبة في أي دراسة من الدراسات ، شبه معدومة . وقد اتاهم الحافز على الدرس من الخارج فضلا عن مواد الدرس نفسها ، جاء هذا الحافز عند انقراض الجيل الاول ، أو الجيلين : الاول والثاني ، وبررت الطبقة الفاتحة حقوقها بوصفها مجتمعاً دينياً منفصلاً ، كما حكم القادمون الجدد بقوة السلاح محتفظين بكل أو بأكثر العادات البدوية المأثورة عنهم ، ومتكلمين بلهجة مختلفة . لم يكونوا بحاجة تبرير ايدلوجي لحكمهم هذا ، يتجلى ذلك مثلاً في سوريا على الخصوص حيث كان جيرانهم النصارى ينظرون اليهم نظرتهم الى فرقة جديدة آريوسية [٢٠] النزعة بينما كان العرب ينظرون بدورهم باستنكار الى الطقوس التي يقوم جماعة الثالوثيين trinitarians [٢١] لكن بعد مرور سنين ليست بالكثيرة لم يعد ثم فرق بين الساميين الذين اقبلوا من الصحراء وبين الساميين الزراع وانتظمت في صفوف جيوش الخلفاء . آلاف العرب الذين كانوا بمثابة جنود احتياط

٢٠) نسبة الى *Arius* (حوالي ٢٥٦-٣٣٦) موجد الهرطقة الاريوسية في المسيحية . وتتلخص هرطقته بافكاره ان الابن « الاله » ازلي مع الآب . لان الآب موجود قبل الابن - يريد بهذا شجب عقيدة الوهية المسيح . انتشرت بدعته في سوريا وانطاكية .

٢١) او الفداثيون *Redemptonists* : اخوية مسيحية اوجدها سنة ١١٩٨ جون الماتي وفليكس الفالوازي على خطى القديس اوغسطين وغايتها افتداء الاسرى من العرب (الكفار) .

للرومان . استقبل العرب على الاغلب في سوريا ومصر والعراق بترحاب لانهم قضوا القضاء المبرم على الابتزاز الامبراطوري ، وانقذوا البيع المسيحية المنشقة من الضغط الكريه الذي كانت تعاني من الحكومة المركزية ، وبرهنوا بذلك على معرفة بالمشاعر والاحاسيس المحلية اكثر من معرفة الاغراب . كان الاسلام في بادي الامر عقيدة واضحة لا تعقيد فيها ، فايمانه البسيط بآله واحد ، لم ينطو على أي تعارض مع العقيدة المسيحية ، ولم يتطلب الاسلام صوتاً مدافعاً منافحاً عنه ، ولم يشرع في البحث عن وسائل وتعاليل لاثبات رسالته والدفاع عن دعوته الا حين برزت أوجه الاختلاف بين الدينين وبدت مظاهر التناقض .

وبمرور الزمن اسلم الكثير من اليهود والنصارى تملصاً من الجزية التي كانت تجبى من الموحدين وأهل الكتاب من غير المسلمين[٢٢] . فهؤلاء الذين دخلوا كنف الدين حملوا معهم ثقافة الامبراطورية البيزنطية وثقافة اليونان . هذه الانشقاقات الواسعة افزعت السلطات الكنسية فشرعت تهاجم بالجدل والمناظرات اسس العقيدة الاسلامية ما هي الطبيعة الالهية ؟ ما معنى قولنا : « انه على كل شيء قدير ؟ » و « انه بكل شيء عليم ؟ » ما هي علاقة علمه تعالى بذات نفسه ؟ اذا كان قد قدر كل الاشياء قبل حدوثها فعلاً ، فأين تكمن حرية الارادة عند الانسان ؟ والى أي مدى تمتد مسؤوليته عن اعماله ؟ أمثال هذه المسائل كانت تبحث فيها الكنائس المسيحية لعدة قرون ، فسلمتها بارتياح ساخر الى المجتمع الاسلامي حيث أثارت نعراً وحزازات وشقاقات اعظم مما احدثت عند اهلها الاصلاء . وقد كان بالامكان اخماد اصوات هذه المسائل في مناطق وازمان معينة ، بأوامر من السلطات الحاكمة ولكن هذه الاسئلة كانت تتطلب اجوبة لدى الفئة المفكرة الجادة . وكانت الاجوبة عليها مخيبة مقتضبة لا تنقع غلة فالافكار واللغة كانا جديدين غريبين عن شعب لم تعرف طبقته الحاكمة شيئاً اسمه (فلسفة) فالقديس يوحنا الدمشقي[٢٣] كان يستطيع اثناء مناظرته افحام مناظريه المسلمين ببراهين تأتيه

---

٢٢) وصفت تأثير اليهود في كتاب تراث اسرائيل في صحائف ١٢٩ وما بعدها . المؤلف

٢٣) يوحنا الدمشقي : (٨١-١٣٧هـ = ٧٠٠-٨٥٤م) اسمه العربي منصور . كان عالما كبير القدر

مطواعة مستسلمة ولكن لم يطل الزمن بالمسلمين تاركين لخصومهم اسلحة الديالكتيك اليوناني بل اخذوا تدريجاً يعودون انفسهم على شكل التفكير الذي كان يطبع كتابات الاغريق والسريان ، وما وصل الينا من هذه الفترة المتقدمة كان نزراً عدا ما روته الكتب والاخبار عن ترجمة عدة كتب فلسفية الى العربية ، وبعض الاقوال والحكم لاوائل اللاهوتيين المفكرين وهي تنبيء بان الشكوك الفلسفية كانت تراود عقولهم ، وتعمل فيها عملها .

ولم تستو الفلسفة على قدميها حقاً الا برعاية الخليفة المأمون العباسي (١٩٩ – ٢١٨هـ = ٨١٣–٨٣٣م) كان هذا الخليفة في الواقع يعتقد بخلق القرآن في أجل مسمى ، متحديا ومعارضاً بذلك المعسكر المتشدد من أهل السنة الذين يقولون بازليته وسبقه العوالم . كما انه اقر بدون مواربة انه من انصار المعتزلة[٢٤] أو اللاهوتيين الاحرار ، في موضوع طبيعة الله . ربما استدللنا من هذا بأن المسلمين قد وقفوا على الفكر اليوناني والاهليات المسيحية منذ أمد طويل . واوجد المأمون مدرسة للحكماء في بغداد حيث ظلت ترجمة الاثار اليونانية ودراستها متواصلة باشد ما يمكن من النشاط والعزم . ولعب الطبيب النسطوري حنين ابن اسحق العبادي (٨٠٩– ٨٧٣م) في ميدان الترجمة دوراً هاما هو واسرته . ولم يشتغل في بغداد وحدها بل سافر الى سورية وفلسطين وهو في طريقه الى الاسكندرية ليقف على كل ما وعى العالم القديم من الطب ويوسع معارفه العملية باللغة اليونانية . وبتركنا جانباً الرسائل الطبية والرياضية التي ترجمها ، فقد كان له الفضل في نقل كتاب (المقولات : قاطيغورياس) و (الطبيعة) وكتاب (الاخلاق الكبير Magna Moralia لارسطو ، وترجمة كتاب (الجمهورية) و(القوانين) و النواميس[٢٥]) و

وقديساً محترماً عند الكنيستين الشرقية والغربية ، له بعض مناظرات وجدالات دينية معروفة .

٢٤) انظر ما بعد الصفحات العشر التالية . المؤلف

٢٥) استعمل كلمة القانون بهذا المعنى الامام أبو القاسم بن جزى من أهل غرناطة ٦٩٣ - ٧٤١هـ في (القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكيه) ط فاس ١٩٣٥ فكان أول من أورد هذه اللفظة باعتبارها مرادفة لكلمة الشريعة . وكلمة (القانون) يونانية الاصل دخلت العربية عن طريق السريانية وكان استعمالها في الاصل بمعنى المسطرة ، ثم صار بمعنى القاعدة . ومعنى القانون في اللغة العربية : مقياس كل شيء –أنظر لسان العرب

(طيماووس) لافلاطون ، وان لم تكن الكتب تترجم برمتها دائماً . وربما كان ابنه اسحق (ت حوالي ٩١٠م) المترجم العربي الكتب : « الميتا فزيقا »والكون،والفساد ، والعبارة» مع تعليقات الاسكندر الافروديسي (٢٦) Alexander of Aphrodisia وغيرهم . فاذا ما اضيف اليها اعمال جيش ابن اخت حنين، لم يعد باقياً الشيء الكثير من العلم المعروف في عالم ذاك الزمن ولم ينقل الى العربية . هذا ، ولم يظهر ان العرب أولوا اهتماماً بالشعر والدراما وتاريخ العصور القديمة .

الى هذا الوقت لم يكن يوجد تفكير مستقل الا فيما ندر ، ولم يوجد ما يبرر قولنا « الفلسفة العربية » فمدرسة المترجمين الذين اوجدها هؤلاء ، استمرت بفضل العباقرة الذين لم يتصاعد فخرهم بزعم الاستقلال الفكري والابتداع اكثر مما تصاعد ادعاء اسلافهم ، خلا رسالة لرجل اسمه (قسطا بن لوقا) كتبها في مطلب (الفرق بين النفس والروح) هذا الاثر الذي اهتماماً عظيماً حينما ترجم الى اللاتينية .

وفي هذا الجيل ظهرت مؤلفات أول وآخر فيلسوف انجبه العرب . كان ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي عربياً تزحت اسرته من جنوب شبه جزيرة العرب ولد في الكوفة حوالي ٨٥٠م وتعلم في البصرة وبغداد . لم يصلنا الكثير من آثاره باسلوبه الاصلي ولكن ما زال يوجد الكثير من مخلفاته الفكرية باللغة اللاتينية عملها (جيرار القرموني) وغيره . ونحن الآن في شغل شاغل عن التصدي لما انجزه هذا المفكر في حقل الرياضيات والنجوم ، والكيميا والبصريات ، الى اعظم ما عزي اليه اسماً وتأثيراً في ترجمة كتاب قدر له ان يخلف اعظم التأثير على ما تبعه من الدراسات الفلسفية والالهية في الشرق والغرب حتى تم للقديس توما الاكويني

ج ٧ ص ٢٢٩ وقاموس المحيط ج ٢ ص ٢٦٩ ومنه أخذ التعبير العام الذي يطلق على القواعد الكلية الملزمة وبهذا المعنى انظر الغزالي « قوانين الحد – المستصفى من علم الاصول ج ١ ص ٨ » .

٢٦) نبغ في حدود القرن الثاني ق.م ، وهو تلميذ الفيلسوف ارستكلس . وأحد شراح أرسطو وقد وصلنا من شروحه عليها اكثر من أربعة .

ازاحته وتنحيته من الميدان . لكن لم يتحقق له ذلك بغير معونة المصادر العربية التي اعتمدعليها هذا القديس . الكتاب الذي نحن بصدده يحمل المقدمة التالية في أصله العربي :« الفصل الاول من كتاب ارسطو الفيلسوف ، ويدعى باليونانية ، اثولوجيا ، وهو قول على (الربوبية) تفسير فرفوريوس الصوري[٢٧] ، ونقله الى العربية عبدالمسيح بن ناعمة الحمصي ، واصلحه لاحمدبن المعتصم بالله ، ابو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي رحمه الله[٢٨] » يتضح من هـذا ، انه وان كان الكتاب منسوباً لارسطو ، لكن هذه التقدمة تعلن بلا حـذر بانه شرح معزو الى فرفوريوس وربما نُسب (الثيولوجيا) الى ارسطو في عهد متأخر عندما ثبتت جذور الافلاطونية الحديثة ذات النزعة الصوفية ثباتاً قوياً في الاسلام ، وعندما ارتفعت قيمة ارسطو الفلسفية فاصبح الفيلسوف الاعظم الذي لا يدانيه فيلسوف . هذا الكتاب ليست بالتعليق ، مهما رغبت في تفسير (كلمة (تعليق) وهو في الحقيقة رسالة في الافلاطونية الحديثة مرتكزة على الكتب الرابعة والخامسة والسادسة من تاسوع (اينياد Enneads للفيلسوف افلوطين[٢٩] ونظراً لتوارد ظهور نظريات (النفس) في هذا الكتاب بتعديلات شخصية متعددة خلال السبل التي سلكتها الفلسفة العربية فربما كان من المفيد أن نأتي الى تلخيصها فنقول :

« النفس ، جوهر عقلي ، لا شائبة فيه ، لا هيولى له ؛ لا يلحقه الفنا . ؛ انحدر من عالم العقل « الى عالم الشعور والمادة ؛ هذا الجوهر العقلي ؛ يقيم ازليا في عالم العقل الذي لا يمكن أن « يتخلى عنه ، ولكنه يلي درجة العقل النقى الذي لا تنهنهه العواطف في أنه يستشعر رغبة « الى توليد الاشكال التي تخامره . والرغبة تتمخط بالالم ؛ حتى تنجز مهمتها في عالم المادة .

---

٢٧) *Porphyrys* هو تلميذ افلوطين واحد أساطين الافلاطونية الحديثة ، عرف بأنه جامع الفانسوع ومرتبه .

٢٨) طبعه الدكتور فردريك ديتريسي *Fr. Dietici* « لايبتسك ١٨٨٣ » المؤلف - (تقول طبعته الاولى كانت في برلين ١٨٨٢) .

٢٩) *Plotinus* « ٢٠٣ - ٢٦٢م » فيلسوف اغريقي موجد الافلاطونية الحديثة وآثاره تتألف من ستة مجموعات تحتوي على تسعة كتب ، ومنها جاء عنوانها « اينياد » .

« من هذه الرغبة تتكون النفس ، لذلك كانت النفس هي العقل ، احيانا تكون خارجة عن
« جسم . والعقل يعمل في هذا العالم بواسطة النفس . ونفس سائر الحيوان قد سلكت سبيلا
« خطأ . وهنالك ايضاً نفس نباتية انعم عليها بالحياة وانبثقت ايضاً من المصدر نفسه
« الذي انبثقت عنه النفسان الاخريان . والنفس البشرية ثلاثة اجزاء ، نباتي ، حيواني ، عقلي
« والنفس تفارق البدن عند تحلله . والنفس الخالصة من كل شائبة وهي التي حُفِظت ذاتها
« غير مدنسة برجس هذا العالم ستعود فوراً وبدون أي تأخير الى الجواهر المعقلية اما النفوس
« التي اصابها الرجس في هذه الدنا واصبحن خاضعات لوسخ الجسد ، فلن تعود الى حالتها
« الاصلية الابعد معاناة الاهوال. وبصدد السؤال عن مقدار ما يسع النفس تذكره بعيد رجوعها
« الى عالم العقل ، فالجواب ان النفس انما تقول وتفعل ما يليق بذلك العالم . والبرهان على انها
« لن تذكر افعالها التي اجترحتها شهواتها والتي غرقت فيها فلسفتها نفسها ، هو انها لا تعود
« تستشعر حتى في عالمها هذا ، أي اهتمام في الامور الدنيوية عندما تتعلق انظارها بالامور
« السماوية وكل النفوس في العالم السماوي لا يمكن تحديدها بزمان ، لذلك فالنفوس كلها
« خارجة عن حدود الزمان . ويأتي من هذا ان النفوس تعرف جميع أمور هذا العالم بلا تحديد
« زماني » .

ان الافاعيل المتكثرة للنفس في اوقات مختلفة لا تقوم برهاناً يدحض قوة النفس الواحدة البسيطة الموجودة . ان افاعيلها تتكثر في اوقات مختلفة لان الاشياء المتجسمة لا تستطيع ان تقبل افاعيلها مجتمعة في آن واحد . والعقل هو كل الاشياء ، وذاته يدرك جميع الاشياء ، وعليه فاذا رأى ذاته نفسه فقد رأى الاشياء كلها . والله هو علة العقل ، الذي هو علة النفس ، والنفس بدورها علة الطبيعة ، بينما الطبيعة هي علة مفردات الاشياء . وان كان الشيء الواحد علة الشيء الاخر ، فالله علة العلل لانه خالق العلة ، وبين عالمي الحس والعقل ، علاقة شبيهة بعلاقة الحجر الخشن مع الحجر المنحوت . والجمال في الطبيعة ينبثق من الجمال الذي تنطوي عليه النفس .

ان نتائج العلل الثانوية ، يجب ان لا نعزوها الى ارادة كامنة في النجوم السماوية .

والجسم الذي هو مجرد آلة للنفس ـ يبلى ويتحلل عندما لا تعود النفس بحاجة اليه فتغادره، لان الانسان النفسي هو ما هو . والنفس باقية دوماً ابدا ، وفي حالة واحدة لا تخضع لا لفساد ولا لتحلل .

هذه بعض الاراء القليلة التي تنسب الى ارسطو، ومن الغريب كما يتضح لنا ـ ان الفلاسفة العرب المتأخرين لم يفكروا في مناقشة صحة هذه الاسانيد التي تحتوي على اراء ينكرونها ولا يعترفون بها هم انفسهم بالغريزة . هذا الخبط والاضطراب في مراجع المخطوطات الارسطية يمكن ان يكون هو العلة فى الاضطراب العام والافتقار الى الانسجام الفكري الذي ورثه الغرب عن الشرق ، والذي خلص القديس توما الاكويني الدين المسيحي منه . على كل حال فالميراث الصوفي في مذهب الافلاطونية الحديثة ، اصطدمت بحاجة الكثيرين الذين رأوا ملجأ لهم من الشكوك والمصاعب التي خلقها لهم مذهب النفس هذا ، بانتشاره على أنه جزء من الفلسفة الارسطية . ومن الناحية الاخرى فأن الاضطراب الذي ولده خليط الفلسفات المتنافرة في اذهان الباحثين عن الحقيقة من المسلمين المخلصين ، لا بد وانهم حفظوا تعصباً وبغضاء . ليست بالقليلة ضد كل ما يسمى فلسفة على نحو ما عبر عنه كثير منهم .

يقصد العرب بالفلاسفة ، اولئك الذين كان اهتمامهم الاول منصباً الى مدارسة الفلسفة اكثر من الثيولوجيا ، ويقول الشهرستاني المتوفى ١١٥٣م انهم « سلكوا طريقة ارسطو . . . سوى شرذمة قليلة . . . رأوا فيها رأي افلاطون والمتقدمين عليه[٣٠] » هذا التصريح يجب أن يفهم على اساس العقيدة الاسلامية التي كانت ترى أن نظريات الافلاطونية الحديثة المعزوة الى ارسطو انما هي نظرياته الحقة . يبدأ الشهرستاني قائمة فلاسفة العرب بالكندي ثم حنين بن اسحق وينتهي بابن سينا الذي — على حد قوله — اتفق عليه الاغلبية انه امضى حكم وارجح

---

٣٠) الشهرستاني (٤٧٩ - ٥٤٨هـ = ١٠٨٥ - ١١٥٣م) ابن أبي الفتح محمد أبي القاسم . ولد في شهرستان « خراسان » ودخل بغداد وبرع في الفقه وتسلم الكلام ، صنف كتاب « الملل والنحل » وكتابين في علم الفقه والكلام وتوفي بشهرستان . أنظر الفقرة في كتابه الملل والنحل ، ج٢ فصل « الفلسفة » .

عقل . ومما لا شك فيه انه كان سيضيف الى هذه القائمة لو امتد به الزمن اسم الفيلسوف الاسباني ابن رشد (ت ١١٩٨م) اثقف مفسر ارسطي واعظمهم عبقرية . ان كتب (الطبيعة) التي الفها هؤلاء الرجال بنيت على مبدأ ارسطو القائل (بالعلل الاربعة [٣١]) ، ولقد ايدوا وجود الاشكال والطبائع التي تتميز بها المخلوقات واحدها عن الاخر ، وحاولوا أن يكتشفوا مبدأ الوجود في هذه الاشكال والطبائع .

ونظرية الكندي الخاصة بـ(الكون) تقرب من ثيولوجيا ارسطو . فالعقل الالهي هو العلة في وجود العالم السفلي . أما نفس العالم ، فهي وسط بين الله وعالم الجسوم . هذه النفس — العالم هي التي خلقت الافلاك السماوية . والنفس البشرية انما هي منبثقة عن النفس — العالم . وعليه ففي الانسان يوجد (ثنائي) : فبقدر ما كانت النفس مشدودة بالجسم ، فهي متأثرة بالافلاك السماوية . لكن ما دامت هي مخلصة لاصلها الروحي ، فهي مستقلة . وكل من الحرية والسرمدية هما قريبتا المنال في عالم العقل . لذلك فعلى الانسان ان شاء الوصول اليها أن يأخذ نفسه برياضة قواه العقلية عن طريق اكتسابه المعرفة الحقة بالله وبالكون .

وفي رأي ابن خلكان كاتب السير المعدود من اوثق المؤرخين اطلاقاً — ان اعظم فلاسفة المسلمين الاوائل طرا هو (الفارابي) المتوفي ٣٣٩هـ = ٩٥٠م التركي الذي ثابت نسبه . كان شارحا مكثراً على ارسطو وجميع الآثار المعزوة الى افلاطون التي عرفها اخوانه في الدين . ورسائله في (النفس) وفي (قوى النفس) و (في العقل) كلها معروفة باللاتينية . لقد خلف الكندي والفارابي لخلفائهم مسألة العقل الفعال intellectus agens .

تقدم ارسطو بنظريته عن العقل البشري مشحونة مثقلة بنظريته في (تباين القوة والفعل) المحتمل والاكيد . وفي رأيه ان العقل البشري (الذي سمي في القرون الوسطى intellechus انما هو القدرة على المعرفة . وهو في بعض الاحيان يعرف ويفكر وفي بعضها لا يعرف ولا يفكر . اذن فلابد وانه يوجد كائن فعلي يستطيع ان يرفع العقل البشري من منزلة القوة الى منزلة الفعل .

---

(٣١) وهي المادية ، والصورية ، والفاعلية ، والغائية .

وهذا يجب أن يكون العقل (الفعال) . لكن ما هو هذا العقل الفعال ؟ أو العقل الخلاق . ما هي علاقته بالنفس البشرية؟ بالعقول التي حركت الافلاك ؟ بالله ؟ يقسم الفارابي العقل الى اربعة (١) العقل بالقوة (٢) العقل بالفعل (٣) العقل المستفاد (٤) العقل الفعال . ويظهر انه يعني بالنوع الثالث ، حالة العقل في الفعل في اللحظة التي يدرك المعقولات . وبالعقل الفعال يعني شكلا خالصاً غير متقمص مادة . وهذا الذي يجعل العقل بالقوة عقلا بالفعل . والمعقول بالقوة معقولا بالفعل .

قبل أن نترك هذا الموضوع يحسن بنا ان نذكر ان ابن رشد ذهب الى ان العقل الفعال والعقل بالقوة هما واحد في جميع البشر . عقيدة في مثل هذه هادمة لخلود النفس الشخصية وللشخصية الفردية ، هاجمها القديس توما الاكويني الذي كان يبشر بأن العقل بالقوة والعقل الفعال هما جزآن من نفس كل انسان . لذلك يكون عدد العقول بالفعل والعقول بالقوة مساوياً لمجموع معشر البشر . تأثر ابن سينا خطى الفارابي في قوله بوحدة العقل الفعال وان لم يتفق معه في مسألة وحدة العقل بالقوة لدى جميع الناس . لكن هذا الدومنيكي العظيم ، كان على صواب حين وجد ذلك مناقضاً لاختيار المرء وسيطرته على افعاله نفسه .

نحن نلتقي في آثار الفارابي هذه البراهين التي تثبت وجود الله ، حيث استقيت من معين (طياووس) و(وما وراء الطبيعة) وكررت تكرارا مملا رتيبا عند جميع علماء المسلمين وهي الواجب والممكن والاستحالة في سلسلة علل ما لها نهاية ، وافتراض وجود علة اولى واجبة الوجود في ذاتها ولذاتها . كان الفارابي شارحا متحمساً للنظرية القائلة ان العالم قديم وما له بداية . وهو مذهب كان يعد جريمة عند الاسلام والمسيحية ، وتعريفه الزمن بأنه حركة تضبط الاشياء معا انما تستحق منا الذكر .

هناك اسم آخر غطت شهرته على الفارابي في الغرب وهو ابو علي الحسين عبدالله بن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧م) الذي نزحت اسرته من بخاري . وشهرته بعد وفاته اعتمدت اكثر من أي شيء آخر على كتاباته الطبية لا الفلسفية . كان يملك موهبة الكتابة للدهماء . ويستطيع أن

يبتدع مواضيعه ، ويبرز فيها شخصيته ويؤكدها بايجاز وتركيز للعالمين حتى عد بحق ممثلا لأعلى ما بلغه الفكر العربي الفلسفي قبل ذيوع صيت ابن رشد في الغرب . عرف اللاتين ابن سينا وأمر رئيس اساقفة طليطلة ريمند بان يُعمل له تراجم منها ، واناط المهمة بالشماس الانجيلي دومينيك كونديسالفوس ويوحنا ابن داود الاشبيلي . وحالة ابن سينا العامة اشبهت سلفه لكن نظرياته كانت تمتاز بالتوضيح والتبسيط . وعنده ؛ ان العقول المحضة قد انبثقت عن واجب الوجود — باشيا. بسيطة لا تخضع للتغيير . هذه الاشيا. الجميلة تتجه دوماً الى واجب الوجود محاولة تقليده غارقة في اللذة العقلية للتفكر فى الآله خلال الازلية . فتفسير ابن سينا لاقوال اسلافه كسب نفوذاً قوياً في الغرب عندما ترجمت كتبه الى اللاتينية[٣٢] .

ومن التعابير الكثيرة التي اقتبسها الغرب من ابن سينا كلمة (intention [٣٣])وعربيتها « المعقولات » اعني كل ما يدرك بالعقل ؛ فهو معقول . وهناك نوع من المعقولات المدركة اولا او بداهة من الشي. كالشجرة . والمدركة ثانياً أو منطقياً لشي. بالاضافة الى الادراك الكوني المجرد . ومذهب ابن سينا في أن المنطق موضوعه هو المعقولات الثانية التي ينتقل بها المرء من المعلوم الى المجهول ؛ اخذها عنه « البرت الاكبر » فاصبحت جزءاً من فلسفة القرون الوسطى الكلاسية .

خلق ابن سينا له وخلفائه مشكلة كلفته آخر طاقة من ذكائه وعبقريته ، فوضع المبدأ القائل ان الواحد غير القابل للانقسام لا يمكن ان يصدر عنه الا كائن واحد[٣٤] ، وعليه فلا

---

٣٢) قارن تراث اسرائيل ص٢١١ (المؤلف) نقول : ان رئيس أساقفة طليطلة ريمند الذى شغل منصبه ١٢٢٦ - ١١٥١ أسس ديوانا للترجمة ضم علماء منهم دومينيك جونزاليز المدعو كنديسالفس ويوحنا ابن داود . فكان يوحنا ينقل من العربية الى الاسبانية فيرجع دومنيك لينقل من الاسبانية الى اللاتينية . وبقي هذا الديوان ينتج الكتب المترجمة عشرين سنة ١١٣٠ - ١١٥٠ .

٣٣) أنظر التفسير لهذه الكلمة في « القاموس الانكليزي المصري » . المؤلف

٣٤) لا ريب وان افلاطون الذي كان عالما بالمشقة التي تواجهه في اراءة كيفية انبثاق الكثير من الوحدة ، هو مصدر هذه النظرية ونظريات كثيرة اخرى لابن سينا . المؤلف

يجوز في عرفه الزعم بأن (الصورة والهيولى) تصدران من الله مباشرة ، لان هـذا يتضمن التسليم بالزعم القائل بوجود حالين مختلفين في الجوهر الآلهي . الهيولى في الحقيقة لا يلزم اعتبارها آتية من الله لانها هي نفسها مبدأ التكاثر والتغير .

ويعود ابن سينا ليقول ، علينا أن لا نشتط في زعمنا بأن (واجب الوجود) الذي لاعلة نهائية له ، مسير بغرض ما على اعتبار أنه يعمل لاجل شيء آخر غير ذاته ، ذلك لانه لو فعل ، لكان خاضعاً في اعماله لكائن ادنى منه بالذات ، وعندئذ يكون من الضروري التفريق في داخل الطبيعة الالهية بين : (آ) صلاح الشيء الذي يجعله مرغوباً (ب) المعرفة الالهيـة لذلك الصلاح (ج) النية الالهية في تَطلُّب أو صدور هذا الصلاح . وعلى ذلك يجب أن يفترض وجود شيء يتوسط بين الله وهو واجب الوجود وبين عالم المتكاثر . فالمسألة في هـذه الحالة كانت تتلخص بكيفية امكان تعليل حقيقة الكون المركب والخلاق البسيط ؟

بدأ ابن سينا بربط مدلولي الواجب والممكن ، بمدلولي الشعور والمعرفة . فالاول معاول وهو عقل محض يستمد وجوده من الموجود الاول فهو اذن واجب الوجود ، لكنه بذاته ممكن لا غير ما دام ليس ثم وجوب على العلة الاولى أن توجده هي . وبهذا ظهوت ثنائيـة الكون ، العلة الاولى لا تتأثر بها . ومن هذه الثنائية وجدت الثلاثية . ومن ثم جاءت سلسلة من الانبثاقات التي انتهت في فلك القمر حيث العقل القمري قد انفصل عنه عقل محض أخير ، منه جاءت الانفس البشرية والاسطقسات (العناصر) الاربعة . وهنا تورط ابن سـينا في مشكلة خطيرة بان اضاع المبدأ الذي تمسك به اثناء بحثه عن الافلاك ومؤداه : لا يصدر عن الواحد الا واحـد . وربما كانت العناصر واحدة من جهة المادة بسبب الرابطة الموضوعية المشتركة ولكن ماذا عن صورها ؟ لقد عزا وجود عناصر اربعة الى المعرفة الكامنة في العقول المحضة ، بانها اربعة في عقل الله . وبمحاولته تحاشي ما يهدد سلامة نظريته ، كذلك ليترك مجالا لنظرية التكاثر ؛ تقدم بنظرية مؤداها أن المادة (مستعدة) أو (مقدر لها) أن تقبل شكلاً خاصاً . هذا الاستعداد صـدر عن حركات الافلاك ، بأسلوب ليس على (الشكل) الا أن يقوم باحتلال المادة أو أن

يستحوذ عليها ، تلك المادة التي هُيئت من سابق لتقبُّل صورتها المناسبة .

ومراقي الخليقة عند كثير من فلاسفة الاسلام رتبت على النمط الآتي :

المبدأ الاول : اعني الله

العقل الاول : يعرف نفسه واصله :

العقل الثاني : أ – النفس ب – جسم الفلك التاسع .

يعرف نفسه بأنه : (أ) واجب (ب) ممكن .

العقل الثالث : (أ – النفس ب – جسم فلك زحل).

يعرف نفسه بأنه : (أ) واجب (ب) ممكن. وهكذا حتى . .

فلك القمر : (نفس وجسم فلك القمر).

العقل الفعال : النفس الانسانية والاسطقسات الاربعة .

وانه وان كان الامر سابقاً على تقدم العلم في الغرب ، فمن المناسب ان نورد هنا رأي روجر بيكن في حالة المعرفة الفلسفية ايام عاش (١٢٩٢) ، قال : «لقد فشل القسم الاكبر من الفلسفة الارسطية في ترك أثر في الغرب ، أما لأن آثارها الخطية كانت مختفية عن الانظار أو نادرة جداً أو لان موضوع تلكم المخطوطات صعب لا يلائم الذوق ، أو للحروب التي كانت مستعرة في الشرق . ظلت الحالة على هذه الشاكلة حتى بعد محمد (ص) حيث اعاد بن سينا وابن رشد واضرابهم فلسفة ارسطو ، الى النور وعرضوها عرضاً علمياً واسعاً . ومع ان بعض آثار في المنطق كان قد ترجمها (بويوس) من الاغريقية رأساً ، فان الفلسفة الارسطية لم تقع عند اللاتين موقعاً رفيعاً الا في زمن ميخائيل سكوت الذي ترجم اجزاء من كتابي ارسطو في (الطبيعة وما وراء الطبيعة) مع تعليقات له . فمن آلاف الكتب التي تضمنت حكمته الواسعة العظيمة لم يترجم الى اللاتينية الا مجرد جزء يسير وقتذاك . ولم يكن متداولا في ايدي الطلبة الا جزءاً ايسر . كان ابن سينا بوجه خاص مقلد ارسطو وشارحه الذي اكمل فلسفته قدر المستطاع ، قد الف كتابا في الفلسفة باجزاء ثلاثة كما قال في مقدمة كتابه (الشفاء) اشتهر واحد من هذه

الاجزاء وذاع صيته ، كما اشتهرت مناظرات فلاسفة المشائين[٣٥] الذين كانوا من مدرسة ارسطو اما الثاني فقد الفه على طريقة الفلسفة المحضة التي (لا تخشى حراب الخصوم) كما عبر هو نفسه. والثالث الذي اكمله في اواخر حياته فهو يتضمن شرح الجزئين الاولين ، مع جمعه فيه اكثر حقائق الكون والفن خفاء. لكن لم يترجم من هذه الاجزاء غير واحد . وفي اللاتينية فصول من الجزء الاول المسمى بالشفاء (Assepha [٣٦]) .

وجاء بعده ابن رشد ، وهو رجل جم المعرفة عبقري التفكير فصحح كثيراً من اراء اسلافه وساهم بقدر كبير في ايراد مادة جديدة من نفسه مع ان ما كتبه هو يحتاج الى اصلاح في بعض امور تفصيلية ، ويستازم تبسيطاً في اماكن اخرى . وعلى كل حال فكما قال سليمان الحكيم في سفر الحكمة (تأليف الكتب لا نهاية له [٣٧]) .»

هناك بعض المبررات التي تجعلنا ننظر الى (بيكن) نظرنا الى ناقد حاد اللسان . ولقد فشل على وجه التأكيد احيانا في أن يكون رأس المعرفة في عصره ومع ذلك فلآرائه قيمتها اذا ما طبقناها على ماضيه القريب .

* * * * * * * * *

لما كانت اسبانيا المسلمة مرآة صادقة لمذاهب اسلام الشرق المتطاحنة التي جرّت الى عدة مناقشات وجدل طويل فلسفيا كان ام دينيا اثار اهتمام مراكز الدراسات الهيلينية القديمة ، فمن الضروري أن نبحث هنا ببعض اقتضاب تعاليم اولئك المفكرين الذين اثرت تعاليمهم تأثيراً قويا على الفلسفة الاسبانية الاولى والابحاث الكلاسية الوسيطة . وما زالت بعض كلمات

٣٥) *Peripatetic* : وهو اسم اطلق على الفلاسفة القدماء ، وهم اتباع وتلاميذ ارسطو . الذى قيل انه كان يتمشى عندما يلقي محاضراته وتعاليمه .

٣٦) هذه ترجمة خاطئة ، والاسم الصحيح باللاتينية هو *Liber Sanationis* وقد وضع الكتاب اول مرة كما يغلب على ظني سنة ١٨٨٧ في « الحوليات الشرقية *Analecte Orientalia* » باعتناء د. س مرغليوث *D. S. Margoliouth* . المؤلف

٣٧) سفر الحكمة الاصحاح الثالث عشر . المؤلف

(بيكن) ذات قيمة . على أن الوقت لم يئن بعد ليكون في الوسع تدوين تاريخ الفلسفة الاسلامية حتى لو طبعت جميع المواد المتصلة بالموضوع والميسورة بشكل مخطوطات مودعة في عدة مكتبات من اوربا والعالم الاسلامي ـ ثم وزعت بعد طبعها على الباحثين فعلينا ان ننتظر حتى تقوم الدراسات الواسعة والابحاث الدقيقة بتهيئة الجو فتتم الاحاطة العامة بمحتويات تلك الفلسفة الواسعة وآفاقها المترامية . أما في الوقت الحاضر ففي معلوماتنا ثغرات عديدة صارت تملأ الان ببطء ، ولكن كل زيادة على معارفنا في الفلسفة العربية للقرون الوسطى تكاد تلقي نورا جديدا على تقدم الفكر الوسيطي في الغرب . كان الشرق الاسلامي مرتبطاً بالغرب بأسراس الدين ، فلم يكن التنابز السياسي بقادر على قطعها . وعندما فتح الغرب الاسلامي ابوابه الى الدراسات والافكار العربية المتدفقة ، لاح في الافق بكل وضوح بوادر ارتباط وثيق بين الجهتين سواء منها ما تعلق بالفكر ، او ما مت الى مواضيع الدراسة . كانت هناك وحدة بل مصلحة مشتركة تربط العلماء المتفرقين في الامبراطورية الاسلامية الواسعة الرقعة — بعضهم ببعض ، تربطهم برابطة الاخوة الفكرية والمفاهيم الثقافية الواحدة . تلك الرابطة التي آضت اوربا اليوم منها عاطلة .

ان فلاسفة Fachgenossen المسلمين ظهروا على نظرائهم بميزة لا يمكن تقدير قيمتها من التفكير والكتابة والتكلم بلغة واحدة . لذلك فاننا مضطرون الى البحث عن مقدمات وسوابق المفكرين الاسلام في اسبانيا ممن لم يبرز نشاطهم في الشرق حتى القرن الثالث الهجري .

كانت الكنيسة في اسبانيا قد فقدت اتصالها بالفلسفة ، لذلك وعوضا عن ان يتولى المسيحيون مهمة تثقيف المسلمين الفاتحين وجدوا ألا مناص لهم من التتلمذ عليهم . كان ادب (المستعربة) ، ادبا فقيرا منحطاً بكل معنى الكلمة . من العبث ان ننشد فيه بذور الثقافة الوسيطة . وقد بقيت اسبانيا من اشد البلاد تمسكا بدين الاسلام طوال ثلاثة قرون ولا نعرف فيها اثرا بينا لحركة عقلية او لاهوتية فكرية ، حتى كتابات الجاحظ (وهو معتزلي ذو

ذهنية عالية كتب في كل علم كان معروفاً في العالم القديم تقريباً) فانها نقلت بفضل العرب الاسبان الذين كانوا يتلقون دروسه وهم في الشرق . وسرعان ما لاقت المذاهب الاعتزالية ترحابا من الطبقة المثقفة الامر الذي اوجب ظهور تعاليم اهل السنة لمقارعتها .

ان علاقة السلطان الالهي بالارادة البشرية اصبحت موضع نقاش حاد مستعر الاوار منذ القرن الاول للهجرة . هذه المشكلة التي اثارها صاحبنا (بيلاجيوس[٣٨]) وبحثها بعنف وصرامة حتى ان اراءه التي جاء بها ما لبثت ان عدت من قبيل الهرطقة الجديدة — كانت من جهة تلاقى هوى في نفوس اللاهوتيين اليونان الذين ادركهم التوقان الشديد الى موضوع مناظرة جديد.

ان (الجبر والاختيار) اصبح سؤالا محرقاً يتردد على الالسن الحائرة ، وقد سرى من ثَمّ الى المعاهد الدينية الاسلامية كما يسري الوباء ، فكان اولئك الذين يرون ان الله لايستطيع ان يسير اعمال الناس لانه كائن معصوم عن الشر ومقدر عليه الا يفعل الا ما هو عدل وحق ، قد نعتوا بـ « المعتزلة» اي المنشقين المعتزلين. ومنذ ذلك الحين وهذا الاسم لاصق بالذين انكروا الاعتماد الدقيق والتمسك بحرفية القرآن والسنة . وليس من المهم في موضوعنا هنا ان نتعقب مصائر هؤلاء اللاهوتيين الاحرار في بلاد الشرق الا بالقدر الذي اثرت تعاليمهم وانماط بحثهم في المجرى التالي للفكر الاسلامي الذي انصب في غربي اوربا وجنوبها . والخدمة الكبيرة التي قدمها المعتزلة للعالم المتمدين لم تكن في اصرارهم على ترديد مبادىء معينة كالمبدأ الخالد في (العدل الرباني[٣٩]) ، وكدعوتهم القائلة ان ان علم الكلام يجب ان يكون موضوع التحقيق

---

٣٨) *Gelagius* : زعيم هرطقة مسيحية ازدهرت في القرن الخامس . موءداها انه لا يوجد خطيئة اصلية وان المرء لا يحتاج الى النعمة لاجتناب الخطيئة الفعلية وللتوصل الى خلاص نفسه لان ارادة المرء الحرة كافية ، ولد حوالي منتصف القرن الرابع في بريطانيا وعاش في روما واعلنت هرطقته وزيفه في مجمع ديوسبوليس سنة ٤١٥ .

٣٩) في هذا لم يكونو مجددين بل مبشرين بالمذهب السامي القديم في « الصدق » الذى هو اقدم بكثير من مذهب « التوحيد » . اما اسم المعتزلة فهو يعنى بالاصل الشخص الذى يعتقد بان الخاطيء خطيئة كبيرة قد اعتزل مجتمع المومنين . المؤلف

العقلي . وعبارة (قال الله تعالى) ما كانت تنوى على اسكاتهم ، بالعكس فقد كانوا يلحون في ان يُفسر لهم المقصود بكلمة (الله) وبكلمة (قال) . ان خطورة هـذا المسلك اصبحت واضحة حين أشتط المتطرفون بتفسير هذه الاسئلة الاعتزالية للغاية حتى سقطوا في الغنوصية (اللادرية) او الالحاد الصريح . ورباعيات فيتزجيرالد الشهيرة قد اجادت في تصوير التشاؤم الذي سقط في وهدته ما لا يحصى من هؤلاء الناس . لكن الشك والتشاؤم هما كما يراهما البشر بفطرته – حالتان غير اعتياديتين من حالات العقل . وقوة الحركة الاعتزالية مردها جهود اولئك الذين حاولوا اقصى ما في طوقهم اقامة علم الكلام الاسلامي على اسس ثابتة من الفلسفة مصرين في الوقت نفسه على ان تكون تلك الاسس منطقية – تم الانسجام بينها وبين الفلسفة التي يجب ان تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية de fide واذ نحن نجد في التراث الضخم لتنابز المعتزلة على الصفات الالهية محض اختلاف حول اسماء ، فسنعود لنقلل من قيمة هذا التراث تقليلا كما فعل جيبون[٤٠] حين اتهم الكنائس المسيحية بأنها اقامت قيامة العالم بسبب مناقشات لفظية لا غير diphthong .

من العسير القول بان القرآن الكريم قد امد المسلمين بمادة لتكوين منحى مذهبي في فهم (الله). كان يشار الى الله في آياته بأنه القادر ، علاّم الغيوب ، الحي ، القيوم ، المميت ، وما الى ذلك . انه ليتكلم عن الله المستوي على العرش معزياً اليه صورة الانسان . فعد المعتزلة هـذه الصفات شكلية تمثيلية : محض سيماء تميل الى صورة الانسان لتوضح المقصود وتقرب الموصوف من الاذهان واعتبروا تعظيم الصفات السبعة : القوة ، الارادة ، المعرفة ، السمع ، النظر ، الكلام الحياة ، وجعلها صفات مستقلة عن طبيعة الله ، اعتبروه شركا . واندفع بعضهم مشتطاً فأنكر ما يشار به الى الله كافة ، ورفض غيرهم الاعتراف ببعض هذه الصفات والتسليم بالاخرى ، وذهب (دنز سكوت) الذين يدين بالكثير للمدرسة العربية الاسبانية ، الى ان الكائن الاول (اي

---

٤٠) Gibbon (١٧٣٧ - ١٧٩٤) أشهر المؤرخين الانكليز عرف بكتابه الاشهر « انحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية » .

الله) هو حي فعال ، عاقل ذو ارادة .

ومما صار موضوعاً رئيسياً ، هو المناقشة فيما يعني ان الله يملك صفة الكلام . هذا النقاش تخض اخيراً بالقضاء على المعتزلة بقوة سلاح السلطة الزمنية . قال المعتزلة : اذا كان الكلام صفة من الصفات الالهية ، فيجب ان يكون ازليا غير مخلوق سبق وجوده وجود العوالم . وبخلاف ذلك اذا ما تكلم الله في وقت طرأ التغيير عليه فيما صار اليه مما لم يكن من قبل . «والصيرورة» قد لا يمكن ان تعزى الى الله . وعليه اذا كان (الكلام) صفة الهية ، والقرآن الكريم سجل هذا الكلام ، وجب أن يكون القرآن على هذا الاعتبار قديما : غير مخلوق ex hypothesi . لكن ذلك محال ، لانه كان ـ حسب ما هو مبين ـ شيئاً وجد في العالم المخلوق اوحي به وكتب في زمان ومكان كما تشير الى ذلك احياناً بعض آياته المكانية بكل وضوح . ان صفات الله مطابقة لوجوده . وان كانت علاقاته بمخلوقاته قد تعرضت لصفات فعالة معينة كالخلق والبقاء . فهي مختصة بالزمان لا غير .

ان الخليفة المأمون وهو معتزلي ـ كان يؤمن بالقرآن بوصفه زمنيا وهو امتحان يدل على ثبات عقيدة . وقد اظهر المعتزلة لسوء الحظ ايام بأسهم وسطوتهم تعصبا . لذلك فقد تحول وانصب على رؤوسهم اضطهادهم لاهل السنة الذين بقوا ثابتين على عقيدتهم الناطقة بقدم القرآن والتقيد بمتنه الحرفي الى حد ما مع قبول عدد كبير من الاحاديث التي نقلت عن محمد (ص).

ومهما يكن من امر فقد كان واضحاً في القرن الرابع الهجري بأن النزول الى بعض اراء المعتزلة واجب . اصبحت افكار الناس متبلبلة ، واستدعت الحاجة الملحة الى اعادة تثبيت اركان الدين على ضوء الفلسفة الحديثة . بهذا العامل اضطلع رجلان ، هما موجدا علم (الكلام) الاسلامي المعروف ، واعني بهما : ابا الحسن الاشعري[٤١] البغدادي ٩٢٣م ؟ وابا منصور الماتريدي) السمرقندي المتوفى ٩٤٤م[٤٢] . ان علم الكلام هو علم نظري يتصدى بصورة

٤١) ان رسالة الاشعري في شرح مذهبه ، تطبع الان في المانيا للمرة الاولى وقبل وصول هذه الرسالة الى ايدي الباحثين نجد من المستحيل ان نحدد مدى تأثير آراء الاشعري الخاصة على مدرسته نفسها .

٤٢) الامام ابو منصور الماتريدي « او الماتوريد وهي محلة بسمرقند ، ت ٣٣٣هـ » هو للحنفية في علم

خاصة لا بصورة كلية ـ الى مسائل الاثولوجيا . وقد ذكر المتكلمون loquentes اسم القديس توما الاكويني الذي عرف علم (الكلام) بانه : «علم اسس الدين ، والادلة العقلية التي تدعم حقائقه الاثولوجية .» وكلمة (المتكلمين) ، بالاصل لم تطلق على مدرسة معينة ما ، وكان اهل السنة وغيرهم يستخدمونها على حد سواء. وان اصبح اطلاقها مع مرور الزمن ـ وقفاً على مظاهري اهل السنة ومشايعتهم على موقفهم .

ان عقائد المعتزلة كان حظها في اسبانيا من الرواج حظا جد قليل لعدة سنوات . لان هذه الزندقة اقترنت في عقول الجمهور بالجمعية الفاطمية السرية الخطيرة التي كانت تهدد كيان الفرق الاسلامية الدينية كافة . وعليه اضطر الفلاسفة الى العمل سراً . وانجبت اسبانيا ثلاثة مفكرين عظام من العرب هم : ابن مسَرة وابن العربي وابن رشد الذين اضطلعت ايديهم بتزييج الفلسفة والاثولوجيا المنحدرة اليهم من آثار الافلاطونية الحديثة ، وشبه الامبدوكلية[٤٢] ، والارسطية . والمذهبان الاوليان خالصا الصوفية . هؤلاء الفلاسفة قلدوا الصرامة والشدة التي اخذها اخوانهم في الدين الشرقيين من الرهبان المسيحيين ، وربطا بمراسيم المؤمنين الاطهار فلسفة وحدة الوجود النظرية الصبغة .

اول هؤلاء محمد بن عبدالله بن مسرة المولود سنة ٢٦٩هـ = ٨٨٣م . كان ابوه عبدالله قرطبياً وقد اصبح تلميذاً متحمساً لمذهب المعتزلة الذي حملته رجاحة عقله على اخفائه في ذات نفسه . توفي عن ابنه الشاب بعد ان زرع في قلبه حبه الاثولوجيا النظرية وحياة العزلة . ولهذا نزح ابن مسرة قبل بلوغه الثلاثين الى منطقة جبال قرطبة وهناك تفرغ ـ وهو محاط بتلاميذه ـ

الكلام كالاشعري للشافعية . من كتبه « التوحيد ، واوهام المعتزلة ، وماآخذ الشراح ، والجدل في اصول الفقه . . الخ » .

(٤٢) *Pseudo — Empedocle* : امبدوكل ولد حوالى ٤٩٠ ق . م وهو فيلسوف وقانوني وطبيب وشاعر اغريقي عرف بتقسيمه العناصر الكونية الى اربعة : النار ، الهواء ، الارض ، الماء . وان الكائنات تتكون وتتبدل باختلاط العناصر ببعضها او اقترانها بعاملي الحب والبغض .

الى تدريس وتعلم مذهبه الثيولوجي السري . كانت السرية التي بعثها الخوف من السلطات الزمنية قد اشاعت في تعاليمه عمقاً لا يمكن أن يدعيه مذهب اوسع من مذهبه انتشارا . وقد اطمأن بن مسرة ومدرسته الى التأثير الباقي الذي خلفه على القرون التالية . واصبح المحل المنعزل الذي اختاره للتواري عن الانظار كعبة للقصاد ومركزا انتشر منه مذهب خطر جدا على رسالة الاسلام الاساسية بمرور الزمن . ولخوف بن مسرة ان يرمى بالزندقة ، وازن الامر في نفسه وآثر ترك البلاد متعللا بالحج الى مكة ، ولم يرجع الى اسبانيا من الجزيرة العربية الا بعد ان تولى الملك عبدالرحمن الثالث المعروف بالتسامح وحب العلم . وعندما استعاد مركزه التعليمي اصبح طابع التقشف والخشونة في تعاليمه اكثر ظهوراً ووضوحاً . كان يبدوا للعالم الخارجي نقيا ورعا ظاهر التصوف يتبع سبيل التائبين ويرتاض رياضتهم ويتسلك سبيل عباداتهم . كان يبدو لسامعيه العاديين صوفيا خلانطقه وكلامه من اي دليل على زيغ العقيدة ولكنه كان في الباطن ، بين حلقة تلاميذه المقربين استاذاً للحقيقة التي لا تقبل المصانعة . كانوا يرون في كلامه معنى خفيا عميقاً لا يفهمه الا الصفوة المنتخبون . وهو اول من قدم للغرب الاستعمال الغامض الملتبس للكلمات الاعتيادية عمداً وتقصدا . وسار على نهجه اغلب الكتاب التابعين لمذهبه فيما بعد . وبلغت طريقته اوجها من النجاح حتى انه عد عند وفاته ٩٣١م ، انسانا ذا صفات نبوية وقداسة وتقشف اكثر مما عد معلماً لاثولوجيا شكوكية .

لا أثر مكتوب لابن مسرة لكن مستشرقا اسبانيا باقعة ، جمع مواد لبناء هيكل تقريبي لمذهبه يحتوي على مقوماته[٤٤] الرئيسة ومنها يبدوا ن ابن مسرة كان محاميا متحمساً عن الفلسفة المغزوة الى امبدوكل . كان المسلمون يرون في امبدوكل احد الفلاسفة الاغريق السبعة الاول . في اسطورة ان امبدوكل كان تلميذاً على انبياء وحكماء كداود وسليمان ولقمان . وبذلك كسي ثوباً آخر من من الثقة والعلم ، واكتسب تبعاً لهذا لوناً من المكانة بوصفه عالماً مفرداً في الاحاديث التي يرويها عنهم وان كان قد ولد في غير وقته .

٤٤) بروفسرم . آسين في « ابن مسرة ومدرسته *Abonmasarra y au escuela* » مدريد ١٩١٤ .

ان الاختلاف الجوهري بين (المَسرّية) وبين الشكل الشرقي (للافلاطونية الحديثة) يكمن في افتراض أن المادة الاولى (العنصر أو الهيولى الاولى) هي أول شيء خلقها الله وهذا العنصر كان روحيا رمز اليه بعرش الله ، هذه الفكرة التي كان ابن مسرة أول من بثها في الغرب، مارست نفوذاً عظيما مر العصور التي تلتها . فالفلاسفة اليهود المشاهير كابن جبرول المالقي (حوالي ١٠٢٠ — ١٠٥ أو ١٠٧٠م) ويهوذا هاليفي الطليطلي ، وموسى بن عزرا الغرناطي. ويوسف بن صديق القرطبي وصموئيل بن طبون ، وشمطوب بن يوسف بن فلفيرا ، كلهم ثبّتوا اوليات مبادى. شبه الامبذوكلية ، وكانوا من الارتجال والفجاجة بحيث يحق لنا ان نؤكد انهم استمدوها من ابن مسرة .

ومع ان الفكر الفلسفي اليهودي في العصور الوسيطة قد سبق بحثه في كتاب آخر من هذه السلسلة[٤٥] فالعدل يقضي أن ننوه بدين العرب على اليهود هنا . وما على المرء الا أن يتذكر انه لم يكن يوجد ترجمة عبرانية لارسطو وان اليهود كان يكفيهم الترجمات التي قدمها لهم الفارابي وابن سينا وابن رشد ليدركوا كم تأثرت اليهودية بالحضارة العربية . ان علماء العبرانية قد ينظرون احيانا نظرة تساؤل وشك الى الترجمات العربية لارسطو (الترجمات التي كانت توحي الاحترام لمن يفلح في ترجمتها من المستشرقين اكثر من مترجمها الاصلي العربي) . لقد قرّ رأيهم على الاستفادة من شروح وتعليقات الذين اتينا الي ذكرهم آنفاً .

تتمتع المعتزلة بنفوذ عميق على مفكري اليهود ، والواقع أنه يستحيل احيانا أن نتعرف على كاتب من نص ورد في كتاب موضوعه علم الكلام ، أكان كاتبه يهوديا أم محمديا . وكما كان المتوقع ، فان نظرة الاشاعرة المتزمتة الى الله المنكرة بكل صراحة فعالية القوانين الطبيعية والعلاقة بين السبب والمسبب ، لم يكن لها من أثر على اليهودية اكثر من أثرها على المسيحية .

اهتمت الفلسفة اليهودية من وقت سعديا بن يوسف الفيومي (٩٤٢ — ٨٩٢م) حتى

---

٤٥) تراث اسرائيل ص ١٨٩ وما بعدها . المؤلف

يوسف ألبو Joseph Albo (١٣٨٠ – ١٤٤٤) بالمسائل والمناظرات التي ورثتها عن العرب ولا حاجة بنا الى تنظيم قائمة بأسماء الرجال الذين تصدورا بصورة عامة ديوان الفلسفة في ذلك الزمان أو برزوا[٤٦] فيه واعظم طرا بل ابعدهم صيتاً موسى بن ميمون (١١٣٥ – ١٢٠٤م) الذي استخدم القديس توما الأكويني نقده العلمي للمتكلمين العرب بلا حد ولا تقف . اقتدى بن ميمون على آثار الفارابي وابن سينا في العودة الى ارسطو لاستمداد المواد اللازمة للبرهنة على وجود الله وعلى وحدانيته وعدم تجسده .

ومن بين العلماء المسيحيين ، اصاب ابن جبرول شهرة رفيعة مدهشة بعد أن ترجم له افنديث (ابن داود) ودومنيك كوندیسالفس كتابه « ينبوع الحياة fons vitae » من العربية الى اللاتينية في النصف الاول من القرن الثاني عشر . وقد وقعت المدرسة الفرنشسكانية كلها تحت سحر كتاب « ينبوع الحياة » بينما اخضع الدومينكان (مقتفين خطى توما الأكويني) تعاليمه وموضوعاته الى نقد حاد متلف . وكوندیسالفس نفسه كتب ثلاثة كتب في الوحدانية الاول اوضح فيه ان كل شي الا الله يتألف من صورة وهيولى . والثاني في موضوع صدور العالم De Anima processione Mundi والثالث في النفس De Anima والاخيران نشرا نظريات الحاول للمدرسة العربية ـ الاسبانية . وكان كتاب ينبوع الحياة بدرجة من الخواء من كل جدال حتى ان عدة كتاب مسيحيين ظنوا أن كاتبه عربي بينما ظن كيوم دوفيرن[٤٧] انه المسيحي الاوحد الذي كان له وقوف تام على الفلسفة العربية ، وهو الذي برهن على طول باع في تفسير مبدأ (الكلمة verbum dei) وعلى كل لما يكن كيوم يشارك وجهة نظر ابن جبيرول في ان الكائنات الروحية مؤلفة من مادة فمن المعقول أن نذهب الى ان مدحه له ووصفه اياه باعلى الفلاسفة طراً انما هو مبني على معرفة بسيطة بآثاره .

٤٦) انظر ايضا « تراث اسرائيل » صحائف ١٨٢ - ٢٥٢ وخاصة ص ٤٣٧ . المؤلف

٤٧) *Guillaume d' Auvergne* : ت ١٢٤٨ ، اسقف باريس سنة ١٢٢٨ واحد رواد الفلسفة الكبار كتب كتاباً مشاجاً « لمجموع » الكسندر الهاليسي فيه تحبيذ لمذهب ارسطو . درس لغات العرب وساعد في نشرها .

ويتبنى اسكندر الهاليسي[٤٨] كذلك ، وجهة نظر ابن جبرول عن المادة الاولى . ويتكلم عن الملائكة باعتبارهم ذوي صورة وهيولى بذلك فهو مدين لهذا اليهودي الاسباني بفكرة ان كل علاقة فعّالة وانفعالية انما تشير الى الصور والهيولات بالتسلسل . ولقد سمى ابن جبرول كتابه (ينبوع الحياة) لانه يدعي ان الكتاب يحوي على معارف عالية بخصوص المبدأ الذي يكمن خلف كل ظاهرة ، وهي معرفة كانت مستترة عن الجاهل والاحمق ومتكشفة للفيلسوف الذي له وقوف على الاسرار الالهية . كان الكون قد فسر على هذا النمط لا بدراسة طبيعة الاشياء بل بمعرفة المبدأ الذي منحها الوجود في هذا العالم ، ان الحكمة المستوحاة كانت معروفة لـ« بيكن» الذي يتكلم عن الفلسفة بانها « جاءت الى الوجود بتأثير الوحي الالهي » .

ان ابتعاث الدراسات الفلسفية المشائية (الارسطية) قوت معارضة كثيرين من علماء النصرانية للعقائد الاسبانية – العربية وأجبر من اعتنقها على أن يدأبوا في اكسائها حللا من اراء القس . ولهذا تكلف القديس توما الاكويني عناء توضيح سو. فهم للقديس اغسطين[٤٩] فبين انه لم يلصق صراحةً صفة الهيولى بالكائنات الروحية . وكان ثم احتمال وجود استثناء واحد أو استثنائين في شرحه نظريات ابن جبرول ذلك الشرح الذى استهدف دائماً تنفيذ تلكم النظريات . وكتابه الجواهر المتفارقة du substontiis separatis هو مثل بارز وبرهان ساطع . يقول فيه : من المستحيل البرهنة على ان الكائنات الروحية مكونة من هيولى . ويتقدم بحجج لابطال المبدأ القائل بصدور العالم ، وإعمال تأثير الله المباشر الخلاق .

وثم كاتب آخر كان لشمار قريحته الخصبة ، تأثيرٌ عظيم في الغرب الا وهو الغزالي ابو حامد بن محمد الطوسي ١٠٥٨ – ١١٠٩ ويلقب بحجة الاسلام . قضى حياته الكثيرة التقلب في وسط الحركات الفكرية والدينية الخطيرة التي كانت منتشرة في ايامه . وكان اولا

---

٤٨) *Alexander of Hales* : ١١٧٥ – ١٢٤٥ مفكر انكليزي تلقى الفنون فاللاهوت بباريس ثم علمها بجامعتها سنين طويلة ثم انضم الى رهبنة الفرنشسكان وشغل الكرسي اللاهوتي المخصص لهذه الرهبنة بجامعة باريس .

٤٩) *St Augustine* : ٣٥٤ – ٤٣٠ ولد في الجزائر ، وهو من فلاسفة الكنيسة العظام والمدافعين عن الكنيسة ضد الهرطقات ، عرف بكتب دينية فلسفية (كالاعترافات ، ومدينة الله) .

فيلسوفاً ثم صار عالما ، ثم محدثا ، ثم شاكا ، ثم متصوفاً . وهو لا شك رجل عظيم الايمان ذو نزعة اخلاقية متينة يكاد يكون احد القلائل بين اهل ملته الذين وقفوا انفسهم دوما على ايقاظ الفضيلة نفوس اخوانه . لقد جعل للاسلام مكانة يمكن مقايستها الى حد ما بالمكانة التي جعلها للمسيحية توما الاكويني . ان المرء لا يتبين حين يقرأ رسائله الثيولوجية بان كاتبها مسلم العقيدة الا بعد جهد ، حتى تصل به القراءة الى مبحثه في عقيدة الثالوث المقدس ، وفي سر التجسد .

تفرغ الغزالي في شرخ شبابه الى دراسة الاثولوجيا والفقه ليكونا له مهنة ومستقبلا ، وقبل أن يبلغ العشرين بدأ يحاكم القواعد الدينية التي كانت تعتبر آنذاك من الامور المسلم بها التي لا يتطرق اليها الشك . واخذ يبحث بنفسه في مسائل الاثولوجيا ، واختير مساعد استاذ في نيسابور ، ومن هنالك انتقل الى المدرسة النظامية ببغداد حيث تطامن مستقبله ونبه ذكره كاختصاصي في امور الشريعة . وبعد عدة سنوات قضاها في صراع بين ايمانه وعقله ، عانى انهياراً عصبياً هائلا فترك العاصمة طلباً لراحة البال واستقرار الفكر . وبعد أن استعاد قوة التفكير المنظم ، شرع يدرس من جديد الطرق الاربعة التي زعم انها توصل الى الحقيقة وهي :

١ — علم الكلام لمن تقدمه من اللاهوتيين .

٢ — التعليميون الذين كانوا يعتقدون بوجود معلم من الزلل .

٣ — الصوفيون الذين يرون أن الله ممكن ادراكه عن طريقة الانجذاب .

٤ — الفلاسفة الارسطيون .

ولقد درس هذه المذاهب درس تمحيص وخرج منها اخيراً وهو صوفي . وقصة الحج الروحاني قصته العجيبة المدهشة تستأهل الشرح بتفصيل ودقة . واهميتها لنا تتجلى في أن الغزالي انصرف الى معاودة درس عدة مذاهب من الفلسفة والاثولوجيا ، واودع النتائج التي توصل اليها في كتب ترجمت الى اللاتينية . وكتب في المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة اصبحت معروفة عن طريق مترجمي طليطلة في القرن الثاني عشر مع أن تأثيره فيما يخص موضوع ما وراء الطبيعة

لم يكن يداني تأثير ابن جبرول الذى كان في المجرى الرئيسي فى الفكر الاسباني ـ : لم يكد يتركز جيداً بين اللاتين حتى ابعده تماما ابن رشد والقديس توما الاكوينى الى مجرى فرعي صغير .

وعلينا هنا أن نذكر اسبانيين اثنين : ريمنـد لل ، وريمند مارتن . ان اللغط الذي دار حول اصل فلسفة ريمند لل ، يجلو باتقان لا مزيد عليه ـ النقطة التي تقدم ذكرها في أول الفصل. يدعي المستشرقون الاسبان انهم وجدوا فى كتاب (لل) أمثلة عديدة تفوق الحصر ذات مصادر عربية بينما ، يؤكد علماء فرنسيون معينون ان اصـل مذهبه هو كامن فى الفلسفة الاغسطينية والتعاليم الكلاسية الكنسية . وحيث يحمى وطيس المناقشة تضيع الحقيقة ولا يمكن التوصل الى البديهيات منها . لكن ربما يتفق الكثير على أن الحقائق تبرر النتيجة العامـة المتوخاة في مبحثنا هذا ، وهي أن تراثا كلاسيا ضاع اثره واختفى في طيات النسيان في اوربا المسيحية ليعود تحت رعاية الاسلام ويسبب حماسة علمية تتبعية للكتابات العربية عن ارسطو وآباء الكنيسة . لم يكن ثم ضرورة للكتابة عن تقبيح الاستعراب reproche d'arabisme عندما عمـل الباحثون المسيحيون على اعانة اولئك الذين نقلوا بامانة جميع علوم الاقدمين بصورة عامة . ولم يكن المسيحيون الذين عاشوا خلال (الريسانس) العربي يشعرون بالخجل حـين يستمدون العلم من العرب ولا كان العرب ـ والوجدان يجبرنا على الاعتراف ـ بالذين اظهروا استعلاء اكثر مما يستأهلون فى ميدان تفوقهم الثقـافي الذي لا يمكن نكرانه وكان ابن طلموس الشقري (ت ١٢٢٣م : وبذا يكون معاصراً لرايمندلل) يكتب بروح تجردت من المكابرة والغرور ولقد سبق علماء الاسلام اسلافهم الاوائل في علوم الهندسة والحساب والفلك والموسيقى ومع ان الاحتمال الكبير يحملنا على القول انّ رجال اليوم قد حازوا معرفة اكثر من معرفة الاقدمين فمن العدل أن نذكر ببعض الاحتمال بان الكثير جداً من آثار الاقدمين قد فقد . والبحوث الجديدة تدعم هذا الرأي[٥٠] الذي اتى به (من طلموس) وشرحه بامانة العالم الذي يميل اعظام اعمال

٥٠) انظر الفصول ١٠ و ١١ و ١٢ . المؤلف

سابقة لا الحط من شأنها . وادعاؤه بان المفكرين المسلمين قد انجزوا الكثير في ميدان فلسفة ما وراء الطبيعة بقدر ما انجزوا في العلوم الوضعية ، لا يستند الى اساس قوي فلقد رأيت ما جرى على الارسطية عندما كسيت ثيابها العربية .

ان عدم وجود اراء فلسفية ذات شكل متميز بالطابع العربي يعتد أمر تحرينا عن مصدر مباشر . لكن أي شخص كان يعتبر «لل» مؤسس المعهد الدراسات الشرقية وانه اتقن العربية تكلماً وكتابة وكان اعظم هدف في حياته التبشير بالنصرانية بين العرب عن طريق صبها في قالب عقلي وانه استشهد — كما قيل اثناء تبشيره بين عرب تونس — ربما يشعر بأن استبعاد تأثير مباشر عربي من حياته ، انما هو تضييق اعتباطي لمدى اتجاهاته القياضة . لقد عاش في عصر (١٢٣٥ — ١٣١٥) كان الغرب يكر راجعاً الى المصدر الحقيقي لفلسفته ، ولا يمكن القطع بمدى اعتماده على الفلسفة الاسلامية الا بعد دراسة دقيقة غير موسومة بتمهيدات قطعية الاحكام ، ومما لا شك فيه انه استمد الكثير جداً من العرب في الجزء الخاص بالاهياته أو بالاحرى عباداته التي تفصح هي عن ذات نفسها . وهو يكتب في كتابه Blanquerna بكل ارتياح عن المرابط marabout أو طريقة الدراويش في تحقيق احوال العبادة والانجذاب بترديد ايقاعي الكلمات معينة . ويبدو لنا اكثر طبيعية وانسجاما افتراضنا بان المشابهات بين اللغات والعادات وطرق العيش التي تبناها (لل) وبين تلك العادات التي كانت سائدة في العالم الاسلامي انما تعود الى دقة ملاحظته واهتمامه بالحياة الدينية لمعاصريه المسلمين اكثر مما يعود فضلها الى ظروف وصدف امثال النساك النصارى الموغلين بعداً في اوائل عصور النصرانية .

انشيء أول معهد للدراسات الانجيلية الشرقية في اوربا بمدينة طليطلة عام ١٢٥١ من جانب (اخوية الواعظين) وكانت اللغة العربية والعبرانية التوراتية من منهج الدرس لغرض تخريج رجال قديرين على النهوض باعباء المهام التبشيرية بين اليهود والمسلمين . واعظم عالم انجبته هذا المعهد هو مارتن معاصر القديس توما الاكويني . فلقد كانت معرفته بالكتاب العرب لا تسمو اليها معرفة في اوربا حتى العصر الحديث . لم يكن مطلعاً على القرآن ومجاميع الاحاديث

النبوية الاسلامية وحدها بل تعداها الى الاستشهاد والاقتباس من مشاهير الاثولوجيين والفلاسفة المسلمين من الفارابي حتى ابن رشد مصحوبة بملحوظات انتقادية دقيقة في موضوع الاختلاف بينهم ولكتابي « الرد على من ليسوا مسيحيين summa contra gentiles » والدفاع عن الايمان ضد الموريسكيين واليهود Pugio FideiAdversus Mauros et Judaess » اصل مشترك في كونهما ألفا بامر رئيس اخوية الواعظين . كان ريمند مارتن هو الذي تحسس قيمة كتاب الغزالي « تهافت الفلاسفة » ذلك الكتاب الذي هو من قبيل الجدل ضدفلاسفة الاسلام ومفكريه . استمد ريمند الكثير منه واودعه كتابه « الدفاع . . » لذا فان مناقشات الغزالي المتفقة مع فكرة الخلق من العدم Greato ex nihilo وبراهينه المثبتة ان معرفة الله تضم التفاصيل ، وان ثم نشوراً بعد الموت ، قدتبناها المسيحيون كذلك وضمنوها كثيراً من الكنانيش. ويترجم ريمند عنوان كتاب الغزالي فى مهاجمة الفلاسفة ب Ruina seu praecipituim philosophorum . وقد استهوى اسلوب الغزالي العقلي والديني مفكري المسيحيين، ولقي استحساناً عظيما من اللحظة التي تيسرت لهم كتبه ، وما برحوا يشبعونها درساً دقيقا . كتاب « الدفاع » لا نظير لبساطته في تنقله بين تراث الشرق ، فكان مؤلفه يقتبس نصوصاً عبرية من العهد القديم (التلمود) ومن ابن ميمون باللغة نفسها بالاسلوب الذي ينحوه المفكر العصري الذي يكتب لحلقة من القراء المثقفين . وكان يذكر دوماً عنوان الكتاب الذي يرجع اليه أو يقتبس نصوصاً منه فيما يكتب باللاتينية ويا ما اقتبس من الغزالي والرازي وابن رشد .

من آثار الغزالي رسالة « الاقتصاد » . وبينها وبين كتاب « الخلاصة » لتوما الاكويني اوجه شبه عدة فى مناقشاته ونتائجه . وتلك ظاهرة يصعب أن يوجد لها اكثر من تفسير واحد. إن لكتابي « الرد » . . و « والدفاع » اصلا واحدا من حيث انهما كتبا بناء على طلب « ريمند دي بنافورت[٥١] رئيس رهبانية الدومنيكان وتشابه بعض فصول الكتابين جلي واضح وتجد

---

٥١) St Raymond de Pinafort (١١٧٥ - ١٢٧٥) راهب دومينكاني من برشلونة يعزى اليه وضع قانون الكنيسة الذي ظل معمولا به من قبل الكنيسة الرومانية حتى ١٩١٧ .

ثم بعض المسائل ذات الاهمية وافكار الضرورة والاحتمال ، كما انها تثبت وجود الله ووحدانيته المتجلية في كماله ، وكامكان التجلي الالهي والمعرفة الالهية ، والبساطة الالهيـة ، وكلام الله verbum mentis ، واسماء الله ، والمعجزات بوصفها برهاناً على حقيقة احاديث الرسل وكعقيدة البعث من العالم الاخر .

كان القديس توما كما رأيت يشير احياناً الى اراء مختلف الاثولوجيين المسلمين ولهذا فانه كتب في الجزء الثالث (صحيفة ٩٧) من كتابه « الرد » يقول : « اولا هناك خطأ الذين يقولون بأن كل الاشياء هي نتيجة الارادة الالهية البسيطة من غير العقل . وهذا هو غلط الاثولوجيين المسلمين laquentuim في مجال شريعة العرب saracen[٥٢] كما يقول الرابي موسى ut Rabbi Moyses dicit ، الذين يرون أن السبب الوحيد في كون النار تحمي ولا تبرد هو ارادة الله . ثانياً اننا نفند قول اولئك الذين ظلوا يعتقدون بأن نظام العلل يتسلل مع العناية الالهية بطريق الضرورة » .

والواضح من مقتبسات (توما) عن موسى بن ميمون (من كتابه مرشد الحيارى) ان مصدر معلوماته عن الاشاعرة والمعتزلة ليس عربيا بشكل ، لكن نرجح — لاسباب بيناها آنفاً — أن يكون ابن ميمون مصدر المعرفة الوحيدة . كان الغزالي يقصر من الناحية العقلية عن اللاهوتي الانجيلي . على ان اوجه شبه كثيرة لوحظت بينهما . فميولهما واغراضهما ومصالحها كانت واحدة بجوهرها : كلاهما عمل على وضع وجهة الخلاف قبل أن ينطق بحكم ، وكلاهما اجتهد في اصدار (خلاصات) لتكون بمثابة وجهة نظرة معقولة لمعتقده ، وكلاهما وجد السعادة في الادراك الصوفي لله تعالى الذي اعترفا له بانه جعل مجاهداتها الاولى تبدو لا شيء .

---

٥٢) اختلف الكتابة في اصل كلمة *saracen* التي كانت اوربا في قرون الوسطى تطلقها على العرب . والثابت ان الاغريق كانوا يطلقونها على قبائل العرب الرحالة في بادية الشام . *Sarakenos* ، ولهذا ظن انها أتت من كلمة (السرحيون) . قال ابن بطوطة في كلامه عن الروم : « وسمعتهم يقولون (سرا ـــنو) ومعناه المسلمون » .

ومرورنا بابن باجه وابن الطفيل مرور الكرام ، وجب علينا أن ننتهي بذكر ابن رشد اعظم معلق على الفلسفة che il gran comento feo . هو ابو الوليد بن رشد ٥٢٠–٥٩٥هـ = ١١٢٦ – ١١٩٨م الذي يدعيه الفكر الاوربي وقارة اوربا لهما أكثر مما تصح نسبته الى الشرق. بقي تأثيره يسود ايطاليا حتى القرن السادس عشر وتسبب في اثارة الجدال الفلسفي الاشهر بين اجليني[٥٣] وپمپوناسي[٥٤] . ظلت فلسفة ابن رشد عاملا حيا في الفكر الاوربي حتى ميلاد العلم التجريبي الحديث . وقد حفظ اللسان اللاتيني أكثر من تأليف واحد لابن رشد فقدت اصوله العربية وكان لفلسفته في الغرب خلال فترة من الزمن أن تفخر باجتذابها اهتمام اعظم مفكري العصر . ولكنه لم يفز في الاسلام بمرتبة السنداو المرجع .

انحدر بن رشد من اسرة قضاء قرطبية . كان هو وجده وابوه قضاة لمدينة قرطبة . تفرغ الى الكتابة في الفلسفة والتعليقات خلال اوقات فراغه المختلسة من ساعات اعماله القضائية . وكان في فترة من الزمن ذا حظوة عظيمة لدى البلاط المراكشي ولكن معارضة الفقهاء المستمرة خفضت مكانته فاتهم بالزندقة وحتى بالتهوّد فطرد من قرطبة وان كان قد عاد الى مكانته قبل وفاته . ثم انه استدعي الى مراكش حيث مات عام ١١٩٨ ولا يزال قبره ظاهراً ثم .

خلال ابن رشد عدة قرون ممثلا للفكرة الناطقة بصدق الفلسفة التي تكشف عن زيف الدين . والمسؤول الاول عن ذلك هو (سيكر البرابنتي Siger of Brabant الذي قال بتناقض العقيدة المسيحية مستنداً الى قوة حجة ارسطو في مجال المقابلة ومعزياً غموض فلسفة هذا الفيلسوف الى تعليقات ابن رشد . يرى (سيكر) ان العقل والايمان ضدان لا يجتمعان. ونظراً لافتقارنا الى دراسة دقيقة لما كتبه ابن رشد وعلمه فعلا ، فلا مفر للكنيسة الا ان تشجب آراء سيكر

---

٥٣) *achillini* « ١٤٦٣ – ١٥١٢ » طبيب وفيلسوف ايطالي ولد في بولونا ، كان احد الاوائل الذين شرحوا الجسم البشري . وهو ايضا من المدرسة المشائية .

٥٤) *Pomponace* ١٤٦٢ – ١٥٢٥ أحد الفلاسفة الايطاليين . من اتباع مدرسة أرسطو (المشائية) والمتشبعين لابن رشد .

وتشجب معه المصدر الذي زعم انه استمد منه اراءه . يعتبر ابن رشد بطبيعة الحال موجد الفلسفة التي عرفت باسمه ، مثلما كان يعتبر نسطورس الى زمن جد متأخر السبب في كل مثلبة رمي بها المذهب الذي اوجده . ان رسالة اللاهوتي الانجيلي (في وحدة العقل ضد الرواشد du unitate intellectus contra averroistao) والتي فيها عارض المذهب القائل بأن وحدة العقل وهي الضرورة من الناحية العقلية واجبة النبذ من ناحية الايمان ؛ كانت في ذات نفسها تكفي لتظهر ابن رشد فيلسوفاً زائفاً . والخطاب الشهير لاستيبان اسقف باريس الذي كان مقدمة لـ ٢١٩ مسألة رشدية حكم بكفرها ، ختمت على ابن رشد بانه ابو الفكر الحر والالحاد[٥٥] . ومما لامراء فيه أن تعاليم ابن رشد القائلة بأن النفس هي واحدة عند كل الناس ، وان اجزاءها متماسكة لا يفرقها بعضها عن بعض الا الاجساد التي تتقمصها — هذه التعاليم لهي كفريات في عرف المسيحيين والمسلمين على حد سواء . وتجد في كتاب ريمند مارتن المسمى (الدفاع) مناقشة واضحة للمسألة ، صرح في آخرها ان هذه التعاليم ليست الا خلط مجنون .

والآن — وبعد أن يتيسر تمحيص جميع الآثار المعزوة الى ابن رشد ويفسح له المجال باظهار نفسه ، سيتضح لنا انه غير مسؤول كلية عن الحالة العقلية التي تبناها من يسمون انفسهم بالرواشد في البلاد المسيحية . بالعكس ، فان ابن رشد والقديس توما يقفان جنبا الى جنب كمدافعين عن مثل واحدة الا وهي انسجام العقيدة مع العقل بل يتمادى اللاهوتي الملائكي[٥٦] الى الاستفادة فعلا من اكثر المسائل التي سبق أن برهنها اللاهوتي المسلم . ولقد تكلف احدهم عناء الرجوع الى كتاب ابن رشد (كتاب الفلاسفة) وعلى الاخص في (فصل المقالة في موافقة الحكمة

---

٥٥) ومع ذلك ، علينا ان نضع حدا فاصلا بين ابن رشد كفيلسوف وابن رشد كشارح لارسطو . ان جامعة باريس نفسها التي ادانت تعاليم ابن رشد طابت من متخرجيها بعد ادانتها له بقرن ان يفسحوا الايمان الملاظة على ان يعلموا الاشياء التي تتفق مع ارسطو كما شرحها ابن رشد « *quad textum Aristotelis et sui commentatoris firmiter et tanquam authenticum observabit* » انظر راشدال - الجامعات م١ ص٣٦٨ .

٥٦) هو اللقب الذي عرف به القديس توما الاكويني . ويعرف ايضا بالمعلم الملائكي .

والشريعة[٥٧]) واجزائه المتسقة في رده المتزن على حملة الغزالي على الفلاسفة (تهافت الفلاسفة) فانة سيتدرج منذ البدء حتى يجد ابن رشد عدواً قوي المراس للفلسفة العقلية المعروفة في الغرب (بفلسفة ابن رشد) ، انه سيجد هناك بغيته المنشودة تماماً .

هناك تشابه في موقف ابن رشد وتوما الاكويني ، ان دل فعلى اكثر من التقارب العقلي وهو النية في اعطاء العقل مكانته الحرية به ، والانتفاع بفلسفة الاقدمين على اساس اخضاع نتائجها الى النقد والتمحيص الذي تتطلبه ذهنية الاحقاب والقرون المتناجحة . وتبرير الرأي القاضي بوضع طريق وسط بين التصوف الارتيابي والمذهب العقلي المطلق تماماً من إسار الاعتقاد بوجود ديانة منزلة آلهية . تلكم هي النوازع والاهداف عند كل من اللاهوتيين المسلمين والمسيحيين. والمعارضة التي قوبلا بها انما انبعثت من مصدر واحد وهو الحزب الذي يأبى تطبيق مبادي، الفلسفة الرواقية على اللاهوت . ان فصول المعلم الملائكي الشهيرة عن مدى نفوذ العقل والايمان بما فيها تاكيدها بعجز العقل عن تكشف الاسرار الالهية التي يتم ادراكها بالوحي ، لها ما يقابلها في الكتاب القرطبي « الدفاع عن نفسه Apologia pro vita sua » وفي عرف الاثنين ، ان التصادم بين الفلسفة وبين الحقيقة المنزلة كما نشرت في التوراة والقرآن لا يمكن نكرانه ، ففي حالة ما لو وجد اختلاف ظاهر بين الوحي والحقيقة الفلسفية ، فليس معنى ذلك الا ان القاري. اساء التفسير . والمعنى الواضح الحرفي للنص ليس هو المعنى الحقيقي دائماً وخاصة عندما كانت الهيئة الانسانية تستخدم لبيان الصورة الالهية .

ملاك القديس توما القدرة في الاستظهار على كل النصوص التي تبدو متعارضة مع نتائجه

---

٥٧) باريس ١٦٥١ ، ص ١٨٢ . المؤلف

– طبعت ترجمة لهذا الكتاب باللغة الفرنسية لـ : ل . كوتييه L. Gauthier باسم *Adord de la Religion et de la Philosophie , traite d' Ibn Rochd. Auger , 1905* وفي الاسبانية مع آراء مشابهة ومقدمة تحليلية قيمة جدا نقدية وتاريخية بقلم م . آسين بمدريد ١٩٠٤ ص ٢٧١ وما بعدها *Homenafe a D. Francisca Codera* . المؤلف

ص ٣٦٨ . المؤلف

دائماً . لانه كان يستطيع الرجوع الى التفسير الاصلي الذي لا يقبل تأويلا ! كان الكتاب المقدس هو المرجع الاخير في تقرير صحة الفكرة الفلانية أو الاعتقاد الفلاني ولكن الكنيسة وحدها صاحبة الحق في أن تقرر كيفية تفسير نص الكتاب المقدس. ومن الواضح ان ابن رشد لم يستطع المضي أبعد من هذا لكنه سار ما وسعه السير . فوضع عدداً من القواعد ليحكم القضايا حيث التأويل المجازي ضروري وحيث يجب أن يهمل المعنى الواضح للنص أو يترك للجاهلين أو غير المهذبين الذين لا يملكون من الذكاء ما يكفي لتفهم الصعوبة الفلسفية المودعة في المعنى الحرفي اولئك الذين قد ينحطم ايمانهم انحطاماً لو أخبروا بأن النصوص القرآنيـة هي ليست حقيقية بمعناها الحرفي . وهو ينكر في الرد على منتقديه بأن مبدأ الاجماع (وهو العقيدة الاسلامية التي تقرب اكثر « ما في كل مكان، وزمان ، وما عند الكل quad ubique, quad semper, quad ab omnibus » كان ثابتاً في وقت من الاوقات . فاذا اعترض بأن ثم نصوصاً معينة يأخذها المسلمون بمعناها الحرفي بينما هم مجمعون على تفسير النصوص الاخرى تفسيراً مجازيا وعليه لا يمكن أن يكون صحيحاً تطبيق هذه القاعدة على النص الاخر والعكس بالعكس ، اجاب ابن رشد على ذلك بأنه اذا ما وجد رضي اجماعي حقاً ، فليس جائزاً أن نفعل كذلك . ولكن عندما يكون هذا الرضى الاجماعي تخمينياً فهو جائز . وفي رأيه أن اللاهوتيين لم يكونوا في عصـر واحد مجمعين على تفسير اي مسألة ـ الا في حدود جد ضيقة .

ان الرواشد المسيحيين لم يكن لديهم حرية استاذهم في الدراسات الرواقية ، وكان عليهم أن يدفعوا بتفاسير لارائه لا مبرر لها . قال ابن رشد بان علم تفسير القرآن لم يجعل للجهلة وان الاحرى أن يتركوا وآراءهم الفجة في الوقت لذي كان الفيلسوف يفسـر نصوص الآيات على ضوء العقل . ومن المسلم به أن سيكون ثمّ اختلاف انذاك بين كلمات القرآن وبين عقيـدة المثقفين ولكن اختلافاً كهذا لا يمكن أن يجيز تلك النظرية الجريئة الناطقة بأن الديانة تتطلب الاعتقاد في فرضيات ينكر العقل صحتها . ان مترجمات ابن رشد اللاتينية الخالية من التعليق والنقد تساهم في تحمل مسؤولية جعل هذا العربي موجد نظرية الحقيقة المزدوجـة . ولم يفهم

المترجمون دائماً المدلول اللغوي الفني للكلمات التي كانت تستخدم بطريق (المجاز والمثل) فتؤخذ على اساس التخريف والزيف . و كان تمسك ابن رشد بالدين كاملا في تأكيده بشرعية التفسير المجازي مهما فكر اخوانه بالدين في النصوص التي اختارها لاجراء تجربته عليها . انه لم يكن غير مطبق مبدأ كان موجوداً من أول ظهور المسيحية والاسلام[٥٨] .

ان الاتفاق بين لاهوت القديس توما وابن رشد كثير لا يمكن حصر وجوهه ، وليس ما يفوق منه اهمية ، النظرية القائلة بان علم الله يشمل الجزئيات وجميع النتائج والفرضيات المقدمة لدعمها . ان الفرضية المشهورة للمعلم الملائكي ومؤداها بان (علم الله) هو علة الاشياء ، ليست الا نظرية ابن رشد نفسها « العلم القديم هو علة ، وسبب للموجود[٥٩] » . هذا وقد انكر الرواقيون المسلمين بأنّ علم الله يشمل الجزئيات متعللين بانه اذا احدث تغييراً في المعلوم فهذا التغيير يستتبع حتما تغييراً في العالم . رد الغزالي على هذا بأنه اذا كان الله لا يستطيع أن يرى ويسمع كل ما يحدث في الحياة الدنيا فانه — وهو خالق السمع والبصر — يكون أقل شأناً ، سبحانه ، من سائر مخلوقاته .

والتشابه بين ابن رشد والقديس توما كثير بحيث يستأهل التعقيب والبحث عن شيء ينفي كون هذا التشابه هو محض اتفاق صدفي . ان الرغبة المشتركة للتوفيق بين الفلسفة واللاهوت أمر لم يولياه اهتماماً عظيما كلاهما ولكن عندما تتلمس الخطة سبيلا مستقيمة واحدة فمن الطبيعي أن نستنتج بان ابن رشد قد خلف شيئا اكثر من شروح ارسطو لعلماء المسيحيين . اننا لنجد لدى المؤلفين كليهما مقتبسات من القرآن الكريم والكتاب المقدس بعد البراهين الفلسفية على العقيدة وكلاهما يبتدي بعرض حجج تنطوي على الشك أوالتناقض الظاهر . كما اننا نجدالبرهان

---

٥٨) قارن : متى الاصحاح السابع الاية ٦ والقرآن الكريم سورة ٣ الاية ٥ ، بابن رشد «فصل المقال» ص ٨ ، و«الخلاصة اللاهوتية »ص ١ أ المسألة الاولى وما بعدها . المؤلف

٥٩) انظر « ضميمة المسألة التى ذكرها ابو الوليد في فصل المقال » طبعه آسين ، (تأليف واقتباس) هذه الرسالة ترجمها ريمند مارتن وضمنها كتابه الدفاع ج ١ فصل ٢٥ . المؤلف

نفسه على وجود الله من الحركة ، وعلى العناية الالهية للعالم وفرضية كليهما ان وحدة الله هي من وحدة العالم وهما يتفقان في فرضهما بأن علينا استخدام طريقة التنزيه Via remotiomis لاجل التوصل الى ادراك الله . وكلاهما بطريقة القياس والتشبيه Via analogiae .

هذه الاشباه والنظائر يمكن أن نورد منها ما نشاء ، والكثير منها متوفر بذات نفسها عند كتاب الاسلام في الشرق والغرب . ولكن ما اوردناه آنفاً فيه الكفاية لايضاح الطريق التي جرت فيها الافكار الفلسفية واللاهوتية خلال رحلتها الشرقية . فمن سنة ١٢١٧ فصاعداً ، اصبحت شروح ابن رشد في متناول يد المدارس الغربية بفضل ميخائيل سكوت في طليطلة وانك لواجد كثيراً من اراء ابن رشد مجتمعة في كتاب ابن ميمون العظيم الذي كان يستشهد به القديس توما الاكويني احيانا . فينوه مثلاً في كتابه (مسائل جدلية Quaestiones Disputatae) باقوال ابن رشد في موضوع المناقشة الخاصة بطبيعة معرفة الله .

من المناسب أن تختم هذا الفصل بتوما الاكويني لانه واضع فكرة (التأثير) في قالبها الاصيل الذى استمده من علماء الاسلام بدون شك . لقد اقتفينا وجود التأثير العربي فى كتاباته ولكن قد لا يصح قولنا انه كان يعتمد على الكتاب العرب . فهو لا يمكن أن يكون خادماً لاي مدرسة أو لاي قرن من القرون[٦٠] . وتعوده اطراح عقائد اباء الكنيسة الغابرة السائدة عصره انما هو تذكرة قيمة جداً بأن الغرب كان يريد أن يسترجع من العرب تراثه الضائع وقولنا هذا ما فيه ارتخاص أو تقليل من قيمة ما انجزه العرب ، فانهم ابقوا نور العلم دائم الاتقاد ومهما كان فضلهم قليلا في تقدم الافكار الفلسفية الخاصة ، فان خدمتهم للاثولوجيا كانت ذات

---

٦٠) «انه لم يشتط في الرجوع الى مصادره ليجمع منها خلاصة واحدة ، بل كان يفكر بكل نقطة كما تبدو ويخرج – رغم العقبات التي اعاقت التفكير الحر ومنعته من الانطلاق في ميدان البحث بسبب الاحترام الدائم لمختلف المصادر الضرورية – اثرا لا قريع له تجلى فيه النقد الرزين والنظر الحديد في الميزات العامة والمطابقة بين الاراء المقبولة او المرفوضة .» كليمنت . سي . جي . ويب . فى كتابه « تاريخ الفلسفة » ط لندن ١٩١٥ ص ١٢٠ . المؤلف

قيمة لا تقدر[٦١] . قد نكون جد واثقين بأنّ اولئك الذين يتهمون العلماء المسلمين بافتقارهم الى الابداع وضعف المستوى التفكيري ، لم يقرأوا ابن رشد ، أو يلقوا نظرة على آثار الغزالي ، لكنهم تبنوا أحكام غيرهم بدون تمحيص . ووجود افكار ذات اصل اسلامي في قلعة المسيحية الغربية واعني بها كتاب (الخلاصة) لتوما الاكويني ـ يكفي لتفنيد الاتهام القائل بفقر العرب الابتداعي وضحولتهم العقلية . وعلينا أن نكتب تاريخاً لحضارة القرون الوسطى جديداً وأن نثير شتى البحوث الجدلية بشكل واسع ان شئنا انصاف الاثر العربي .

تصب سيول الثقافة الوطنية في المحيط الواسع للفكر البشري ، فما أن تصل البحر حتى يصعب ـ ان لم يستحل ـ تفريق الماء العذب عن الماء الاجاج ، ولكل أن يعتمد على ذوقه الخاص . وفي خلال القرون الاربعة لسيادة الاسلام ، وجدت روح البحث الديني والفلسفي في كل مراكز العلم . وان لون وسحر الطابع الذي تميز به العقل الشرقي ، ما زال باقياً متمسكا في كتابات ذلك العصر الذي كان كل تاجر شاعراً ، وليس كل شاعر تاجراً . ان السفر والمطالعة ، الحب والحرب ، الموسيقى والغناء ، كلها من (فضل ربي) . وقد تكون الحياة قصيرة خاصة إذا ازداد دنو صاحبها من العرش أو البلاط ، لكنها حلوة طيبة . ماذا يهم في عصر كهذا ، لو وجدت بعض الشكوك الدينية ؟ ان الريب والشك يستطيعان أن ينتجا لها مقيلا في الحلول الصوفي الذي يجد الله فيه أو يجد الله بدونه . ان الابوكالبتيين[٦٢] والجوهريين[٦٣] ليستطيعون

---

٦١) ان نظرية الجوهر الفرد المسلمة القائلة بالخلق المستمر والزمن الذري ، لهي على جانب عظيم من الاهمية في ايامنا هذه . انظر ابن ميمون « مرشد الحيارى » ترجمه . م . فرايدلاندر *M. Friedlander* . لندن ١٩٢٥ صحيفة ١٢٠ وما بعدها . وانظر : د . ب . مكدونالد في مجلة ايزيس المجلد التاسع عدد ٢ ، ١٩٢٧ صحيفة ٣٢٦ وما بعدها . المؤلف

٦٢) *Apocalyptists* : فرقة مسيحية تتمسك بتفسير رؤيا يوحنا في جزء قصص الرسل من الكتاب المقدس ، تفسيرا يتفق مع اتجاهاتها الصوفية .

٦٣) *Essenses* اخوية يهودية دينية من وقت المسيح ورد ذكرها لدى يوسفوس وبلني وفيلو وهي ذات طقوس صوفية سرية .

أن يتمتعوا بالانجذاب الروحي او ان يمارسوا التقشف. وهذه الطرق شقت لها طريقا الى اوربا والهبت حماسة الاليبيجيين والكاثاريين[٦٤]، المسيينين Messianists[٦٥] (مهديهم) المنتظر وللسني المسلم « فرحه الدائم ، وسعادته المقيمة » في جنة حفلت بالحوريات ، فيجلس التلاميذ المتزمتون كابن حزم القرطبي ويؤلفون أول كتاب جامع حاو لتاريخ الاديان Religionesch-ichte وأول دراسة نقدية عالية للعهدين القديم والجديد . ولقد ظل الخيال ممزوجاً بالواقع وبه طلي معدن الحياة الحقيقي المشترك حتى جاء رجال كابن العربي ـ أخرجوا اولى النماذج العجيبة للكوميديا الالهية . ان سدود اللغة قضت بالا يحفظ اباؤنا الاولون من هذه الحياة المتعددة الالوان الا قطعاً متناثرة . وهكذا ، فحين ادرك الامبراطورية الاسلامية في اوربا الانهيار والسقوط ضاعت كل المعارف التي لم تهضم بعد ، وراحت مع المراكشيين المندحرين . لكن مع هذا فان الشرق والغرب حققا في القرن الثالث عشر اتصالا ثقافياً فياضاً متقاربا أكثر من أي وقت مضى وما خلا العقيدة الرئيسية وهي سر التثليث والتجسد ، فان فلاسفة العصور الوسطى كما رأينا ـ كانوا يجدون لهم معارضين من بين صفوفهم نفسها عدداً كثيراً لا يربو عليه الا عدد المشايعين الذين يجدونهم في المعسكر المقابل . وعندما ترى ضوء النهار جميع المواد النفيسة المختزنة في مكتبات اوربا فسنرى بأن التأثير العربي الباقي في الحضارة الوسيطة لهو اعظم بكثير مما عرف عنه حتى الان .

الفريد گيوم

---

٦٤) *Cathare* : لفظ يطلق على الاليبيجيين كذلك .

٦٥) اولئك الذين يعتقدون بمجيء المسيح ثانية غير مجيء يوم الدينونة ومنهم الادفنتست (السبتيون) .

obeikandl.com

الفنون الزخرفية الاسلامية

وأثرها في الصناعة الاوربية

ISLAMIC MINOR ARTS AND THIER INFLUENCE UPON EUROPEAN WORK

بقلم

اي . اچ . كريستي A. H. CHRISTIE

وبآخره :

الفن الاسلامى وأثره على التصوير فى اوربا

ISLAMIC ART & ITS INFLUENCE ON PAINTING IN EUROPE

بقلم

السر توماس ارنولد SIR THOMAS ARNOLD

١٨٦٤ – ١٩٣٠

وهو من أعاظم المستشرقين البريطانيين. صاحب فكرة كتاب (تراث الاسلام) والمشرف على تنسيقه واخراجه . تعلم في كمبردج وقضى عدة سنوات في الهند استاذاً للفلسفة في كلية عليكرة الاسلامية وهو أول من جلس على منبر الاستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن، ذاع صيته بكتابيه (١) الدعوة الى الاسلام الذي ترجم الى التركية والاردية والى العربية مؤخراً . و (٢) الخلافة . كما انه نشر عدة كتب قيمة عن الفن والرسم الاسلامي .

obeikandi.com

قدر للاسلام حين بدأ بالسير في نهجه المجيد من ناحيته الغربية أن يزرع شكلا من الفن جديداً في المدن المتاخمة للاطلنطي . وكانت مرحلة الشروع في أقاليم ألفنُ فيها بدائي متأخر. ان هذا الفن كما وجد في جزيرة العرب كان إما اثرا فقيرا من آثار الماضي البعيد ، وأما محض تقليد في طبيعته لانعكاس خارجي لاح في امكنة تأثرت بالتطورات الخارجية تأثيراً سطحياً. ولم يبد أن فناً محلياً بارزاً قد ظهر حتى في البقاع الخصبة التي غمرتها مجتمعات مستقرة آمنة مفلحة في ظروف تختلف تمام الاختلاف عن تلك الظروف التي ابقت القبائل الرحالة في عزلة خاملة . استمد الفن الاسلامي روحيته من جزيرة العرب ولكن شكله المادي قد فُصل من مكان آخر : في بقاع كان الفن قوة تنبض بالحياة .

احدثت النصرانية في سوريا ومصر تغييرات عميقة من الفن الوثني الذي كان سائداً لدى ظهورها ، واتحدت العوامل العديدة التي كانت متأصلة في تلك التربة أو التي جلبت وتطورت بقوى سيطرة الاجانب لتولد فناً جميلاً ملتحما عظيم الروعة . كان اطراد الامور فيما وراء دجلة والفرات يجري في سبيل مختلف . فقد تصرمت بضعة قرون منذ أن أقام الفرس الاسرة الساسانية الوطنية بعد ثورتهم في وجه الفرثيين[1] حكامهم الطغاة ودخلوا بذلك عهد احياء وطني ساطع. ان فنهم هو موغل في القدم غذته العناصر اليونانية المستمرة في التمثل منذ غزوة الاسكندر وبالاخير مما ورده من قلب آسيا والذي طعمته العبقرية الايرانية. هذا الفن بلغ الان اشده وصيغ بابداع عظيم لا يدانى . وقد اخذ الفن الاسلامي ينمو تدريجياً في وسط هاتين المدنيتين المتعاديتين فيما بينها من جهة واللتين كان الاسلام يمقتهما معاً .

---

١) حكم الفرثيون او البارثيون من ٢٤٧ ق.م الى ٢٢٦ ب.م ، والساسانيون من ٢٢٦ - ٦٣٦م . واردشير الاول هو مجيد اسرة آل ساسان ، تزعم فئة فارسية متبرمة لقتال سادتها الفرثيين ، فانتصر عليهم في ثلاث معارك ، ونوري ملكا على خرسان . وقد ثل العرش الساساني الفتح الاسلامي .

كان الفن في القرون الوسطى اولا وآخراً مجرد افصاح عن اغراض دينية . واننا نستطيع بالغريزة أن نميز بين الاتجاهات الفنية عن طريق المذاهب الدينية التي صاغها . اذ مهما كانت بعض العناصر الداخلة في تكوينها واساليب صناعتها تربطها بجذور مشتركة ، فانها صبت في قوالب متمايزة ذات طابع ديني غلاب . كان الفن المسيحي بالدرجة الرئيسة واسطة للتثقيف الديني ، ورسالته كانت على الدوام بينة ظاهرة من مجموعة من الصور والتهاويل الخفية الفن صيغت بشكل يفهمه الأمي كما يفهمه المتعلم . ولكن صناعة الايقونات الفاخرة كانت تبدو محض اعمال وثنية في نظر العرب الذين لافتقارهم الى تراث فني — كانوا ينظرون الى الفن بارتياب وقرنوها ككل الناس البدائيين الى السحر ، فضلا عن ذلك فان الترف كان يعد بنظرهم في اول حميتهم الدينية وتمسكهم باهدافها حراماً بصورة خاصة أو هو نتيجة طيش كفري لا طائل تحته أو من حبائل ابليس بحيث يجب ألا يكون للمؤمن به اية صلة . كانت فخامة الفن الفارسي بل وروعة مهارة الصناع الفرس التي ما عتمت أن أثرت التأثير العميق على الفن الاسلامي . هذه الصفات كانت في بادىء الامر مكروهة للغاية منهم بقدر ما كان يظهرون من البغضاء للابتذال الوثني الذي مثلته تلك الفنون .

بدأ الفن الاسلامي في الجامع . هنا ولد في رائعة النهار وربي بكل وضوح تحت رعاية عامة الجمهور وكان أول جامع عبارة عن ابنية عارية بدون أي نزعة معمارية جعلت للعبادة والوعظ فقط . أما أثاثها — لو كان وجد لأنه لم تؤثث في مبدأ الامر — فهو ابسط ما يمكن وكل تجديد فيه كان موضوعاً لنقد مرير . ولقد قيل بأن أول منبر اقيم في مصر — هدم بأمر من الخليفة عندما طرق سمعه نبأ الفضيحة لأن ذلك من شأنه أن يرفع الخطيب أعلى من اخوته في الدين . وأول محراب بني ليعين جهة معاكسة اتير حوله لغط عظيم جداً لانه كان شديد الشبه بالحنية المسيحية (المذبح) aspe الذي عنه اخذ بلا شك . ولكن سرعان ما ظهر جيل أكثر تدقيقاً في ملاحظة التباين بين فقر المسجد وغنى كنيسة الكفار . وبتسرب الزمن في مجراه اصبحت المنارة والمحراب ؛ الزخرفين الرئيسيين في بنايات عدت بسبب براعة التصميم وتلون

الزخارف من بين فتوحات فن العمارة الخالد .

وباتساع رقعة الاسلام اخذ التماس مع الامم الغربية نظرته الفنيـة وانتجت القيود الصارمة الدائمة التي تفرضها العقيدة اتجاهات جديدة للعمل الفني الاعلى . زد على ذلك فان اتساع النظرة الاسلامية ادى الى دخول عنصر ثقافي جديد دنيوي خالص فى طبيعته وتركزه على حساب التفوق الروحي . وعندما اخذت العادات الاجنبية تعدي الحاكمين الذي لم يكونوا اعمدة الدين الحنيف ، صارت الصبغة الدينية تنصل من جدران القصور وزحفت انواع من الفنون ما كانت من الدين فى شيء. عندما بدأ الخلفاء المثقفون يكتسبون اذواقاً دقيقة في الكتب الجميلة والمنسوجات المزركشة بالزخارف وامثالها من الاشياء اللائقة بملك لا بخليفة الرسول ؛ عندما وجدت ميـول الحاكم الفنية هذه مقلدين من النبلاء ومن اولئك الذين قلدوا تصرفات اسـيادهم تقليد القرود ظهر فن ذو ميزة هو (فن البلاط) الذي لم يكن يخلو من ربح للصناع لكنه كان مصـدر احتجاج رجال الدين .

كان الانفصال الارستقراطي مستحيلاً في زمن الخلفاء الاولين الذين ثبتوا اركان مبدأ المساواة الاجتماعية بوصفه مبدأ لا يمكن خرقه قائلين بالاحجاب يفصل عند الحاجـة بين الفرد والحاكم الذي يجب أن يكون اسلوب حياته وداره ووجوه انفـاقه فوق الشبهات . ولم يطل العهد بهذا ، حتى اخذت طبقة حاكمة مرفهة ناعمة تبتعد عن سواد المجموع فاصبح القصر مكانا منفصلاً ساد فيه مستوى عيش وخلق جديدين. أما عن وجود فن بلاط دنيوى الصبغة في عهد بني امية فهذا ثابت من رسوم حائطية دقيقة الصنعة ذات صـور آدمية متقنة على طراز مزيج من الهيليني والشرقي ما زالت موجودة فى كهف صيد في صحراء شرق البحر الميت[٢] وهو بنـاء يظن ان الخليفة الوليد الاول كان قد شيده بين سنتي ٧١٢ـ٧١٥م . كان لفن البـلاط اصوله الثابتة عندما نقل العباسيون عاصمتهم من دمشق الى المدينـة الحديثة بغداد التي فرغ من

٢) ان صورا ملونة لهذه النقوش وردت في كتاب (الواز موزيل *Alois Musil*) المسمى «قصر عمرا» ط فيينا سنة ١٩٠٧ . المؤلف

بناءها فعلاً سنة ٧٦٦م هذا التغيير في عاصمة الملك يشير الى بداية فترة في تاريخ الفن الاسلامي اذ من ذلك الحين اخذ التأثير الفارسي يتغلغل فيه ويفرض سلطانه على تطور ذلك الفن .

* * * * * * * * *

لا تقتصر غايتنا على تتبع نمو الفن الاسلامي خطوة خطوة بل أن نرسم بصورة مختصرة بعض تطوراته الناضجة وان نقتني — عن طريق تركيز اهتمامنا في مستحدثاته المحضة — أثر النجاح الآني السريع الذي خلفته في اوربا المسيحية . وليكن معلوماً أن قصارنا هنا هو البحث في الفنون الزخرفية ؛ في عمل اولئك الصنّاع الذين يُستدعون عند اشادة بناء لاكماله من كل ما تحتاج من البداية حتى آخر التفاصيل ليكون مناسباً للشيء الذي أقيم له .

سرعان ما اصبح المسلمون اعظم البنائين . كانت عبقريتهم قد أنبتت آراء هندسية ذات مفاهيم فنية دقيقة ووقف التحريم الديني للتصوير البشري حائلاً دون أي تطور في عمل نحت التماثيل . لكن النحاتين على الصخر والحفارين في الخشب وغيرها من المواد كانوا عظيمي المهارة . ومع أن النقش على الجدران يبدوا أنه قد وجد منذ الازمان الاولى . فالنقش الاسلامي المعروف تحدد بما يسمى المينياتور Miniature[٣] وهي صور وتهاويل صغيرة ورسوم ومخططات وما اشبه ، تنبيء عن قدرة فنية وبراعة دقيقة واحساس عميق بالالوان . لكن ينقصها بعض المقومات التي يمكن اكتناهها عند مقارنتها بأحسن آثار القرون الوسيطة الاوربية التي صنعت في ظروف شبيهة بظروفها . كان المعماريون العباقرة العظام كثيرين عند الاسلام ولكن نحاول عبثاً أن نجد جبابرة يطاولونهم في فني النحت والتصوير واذا كان المسلمون باستثنا . فن العمارة وحده قد فشلوا في مطاولة التقدم الغربي في فنون الزخرف فإن نجاحهم ما كان له نظير في الفنون التي أطلقت عبقريتهم من عقالها تسرح وتمرح كما تشاء . خلال القرون الوسطى . كان الاسلام الوارث المباشر لكثير من تقاليد الصناعات الدقيقة الغابرة غير المعروفة عند الغرب وبالطريقة نفسها

٣) اصل هذه الكلمة لاتينية *mino* ومعناها (لون بالمغرة) . وهو الرسم على الورق او الخزف او المعدن بالوان واحدة بسيطة خالية من التظليل والتجسيم . ومنه جاء « المينا » ونقش المينا .

نقل العلماء لأخلافهم الدين العظيم من الثقافة الغابرة . وقد حفظ الفنانون المسلمون ورفعوا ونشروا في الخارج تقاليد (شغل الدكان) للصناعات والفنون الرائجة في الشرق . التي لم تتسلل الى اوربا أو انها كانت قد اندثرت خلال فترة الاعصار والضغط الذي كان بشيراً بالقرون الوسطى لو عرفت في ازمان سابقة .

اتخذ الفن الاسلامي وهو في سبيل تقدمه من جديد بهذا الفن القديم شكلاً متمايز المعالم وطابعا خاصاً واضحاً حتى ليمكن عده طبيعياً يمر النظر به مر الكرام غير متشكك. كان كل شيء سواء أعد للاستعمال الاعتيادي أو عمل لمناسبة خاصة — يكسي الزخارف النابضة بالحياة باسراف عظيم الدقة وبأشكال تبدو وكأنها طبيعية ، كالرسوم التي تخلعها الطبيعة على الاحياء اكثر مما تبدو زخارف اصطناعية . والاشكال التي اخذتها هذه التصاميم وان هي غريبة تماماً عن الذوق الغربي فانها ليست بدرجة من النبوّ عن التقاليد الاوربية بحيث لا يمكن تحقيق المواءمة بينها .

كانت غرابتها جاذبة خيالية . كانت عناصرها المكونة مصوغة بدرجة من الدقة والنظام حتى ليكاد يستولي علينا الوهم بأن تحت هذا المظهر المتناسق حيوية دافقة لا يدرك كنهها . هذا الاسراف الزخرفي لم يكن تعلة لملء فراغ أو اخفاء اشكال ظاهرة المدلول، لكنه جزء رئيسي من اجزاء الصناعة الدقيقة التي لا يمكن أن نعد العمل كاملاً بدونها . فاطراد النسق الايقاعي في الزخرف للعين الشرقية ، انما هو ضرورة ايناسية كضرورة اللحن للاذن الغربية . وكان الصناع الشرقيون مولعين بالتأليف الزخرفي الى درجة انهم كانوا يقتاون مسائلها درساً وتمحيصاً وينظمون قواعد شغلها على الخطوط التي مازال الصناع منهم يحتذونها حتى الان. ان ازهد دراسة للفن الاسلامي ستبين بأن الاشكال الزخرفية يجب أن توضع في صف اعلى الفنون الصغيرة التي تفتقت منها العبقرية الاسلامية . ومع أن الشرائع الدينية حرمت تحريماً باتاً على واضعي التصاميم المسلمين أن يبرزوا في اشغالهم الصور الآدمية أو المخلوقات الحية ؟ مع ذلك فان نقوشاً كهذه ما كانت في الواقع تخلو منها الزخارف الاسلامية غالباً . على أن الزهم القائل

بأن بعض المذاهب الاسلامية قد اجازت ذلك ، هو زعم لا اساس له كما لم يسمح له بأي حال من الاحوال في المساجد . وعليه فظهورها الفجائي في الحاجات التي تزينها يدل على انها صنعت لغرض غير ديني . ان الجرم الذي كان يرتكب بسبب كسر حدود الشريعة ذات القواعد الصارمة كان يغض الطرف عنه من قبل الناس الواسعي العقل ولكنه كان دائماً يثير حفيظة المتزمتين الذين قد ترتفع عقائرهم في أي لحظة بالاحتجاج الغضوب . وفي متاحفنا ومجموعاتنا الاثرية الفنية نجد تحفاً كثيرة عليها آثار الغضب الفجائي ، من ضربة سريعة أو تشويه آني وكلها دلائل ثابتة بأن النعرة الدينية قد تدفع يد القصاص الى الامام أحيانا.

وثم مظهر آخر بارز من مظاهر الزخرف الاسلامي وهو استعمال الخطوط العربية : آية من القرآن أو بيت شعر جميل لاحد الشعراء أو عبارة من عبارات الترحيب أو الدعاء . كثيراً ما تجدها تحيط حافة أو افريزاً أو تملأ شكلاً هندسياً انيقاً . ونرى ايضاً بين آن وآخر اسم ولقب التعظيم للمالك الامير ، تزين بعض ممتلكاته النفيسة مقدمة لنا بهذا قرينة ودليلاً نادراً على تاريخ الحاجة ومصدرها . وكانت تُدرج وتُثبت لنا الوقائع احياناً بدقة عندما يضع الصانع الفنان ختمه على اثره مع اسم المدينة التي تم فيها الصنع . كان نقش الخط العربي وهو الهبة الوحيدة العربية للفن الاسلامي دليلاً كونياً على السلطان والتأثير الاسلامي اينما انتشر . ان الخط الذي كتب به القرآن كان يعتبر مقدساً في عهود الاسلام كافة وكان الخطاطون ينافس احدهم الآخر في التفنن بكتابة حروفه الجميلة . وصارت اجيال أئمة من الخطاطين والنساخين تزاول عملها هذا بنجاح وتشجيع حتى اصبح الكتاب الديني كنزاً لا يقدر بثمن فضلاً عن أن اصغر عبارة مخطوطة لخطاط مشهور لتكون قبلة جمّاعي التحف .

اخذ الصناع الاوربيون يألفون بالتدريج شكل الخطوط الغربية وان لم يكونوا قادرين على قراءتها وثم شاهد قديم على المعرفة بها والجهل بقراءتها تقدمه له عملة ذهبية ضربها (أوفا ملك مرسية ٧٥٧–٧٥٦م) هي الان محفوظة في المتحف البريطاني (انظر صفحة ١١٢) تشبه هذه القطعة الدينار الاسلامي شبهاً عظيماً الا من كلمتي (اوفا . ملك) على وجهيها

مثبتين وسط كتابة عربية منقولة نقلاً امينا بحيث اننا نجد تاريخ القطعة الاصلية بالعام الهجري ودعاء دينياً اسلامياً ظاهراً للعين في النسخة . ان هذه القطعة لا مثيل لنوعها فهي تثبت لنا كما كان واسعاً تداول العملة الجيدة التي تخرجها دور الضرب الاسلامية وفي المتحف نفسه شاهد آخر للتاس الغربي بالصناعة الاسلامية في شخص صليب ايرلندي مطلي بالبرنز يعود الى حوالي القرن التاسع في وسط زجاجة عليها العبارة العربية (بأسم الله) بالخط الكوفي . في كلتا هاتين الحالتين لم يكن الصناع يدركون مغزى الكتابة العربية التي ينقشونها أو التي يقلدونها اذ لا يمكن لكتابات اسلامية بحتة كهذه أن تنقش بدراية وفهم على عملة ملك مسيحي أو تثبيته فوق شارة مقدسة .

منذ هذا الوقت فصاعداً اخذ نقش الخطوط العربية يتسع مدى استعماله في اوربا المسيحية وان كان نقله مشوهاً في أغلب الاحيان حتى لم يكن بالامكان قرأته . كذلك التفاصيل الزخرفية المستمدة من الجهات المسلمة فقد ازدادت وتعقدت . ان الدافع الديني الجاذب الى الاماكن المقدسة والتوقان الشديد الى المعرفة التي ورثها المسلمون وحدهم كذلك المشاريع التجارية وغيرها من المصالح ؛ اجتذبت عدداً كبيراً من السياح الى اراضي المسلمين ليعودوا فيما بعد منها ؛ محملين بهداياً وتحف تجلت فيها المهارة الاسلامية شاهداً على القصص التي حفظوها عن ترف العرب وعظمتهم .

كان الاسطرلاب[٤] من الاشياء الرئيسة التي جلبها رواد العلم الجوالون في انتجاعهم حواضر ومراكز العلم الاسلامية لينهلوا مما حرمته بلادهم من المعارف . والاسطرلاب آلة فلكية من مخترعات الاغريق حسنها الجغرافي الاسكندري بطليموس ووصل بها المسلمون حد الكمال . دخل الاسطرلاب اوربا في غضون القرن العاشر وكان استعماله في الشرق لتعيين وقت الصلاة وقبلة مكة بالدرجة الاولى لكنه استخدم أيضاً لاغراض أخرى كالتي وصفت في (القصة

---

٤) انظر ادواردو سافدرا *Edwardo Savedra* «ملاحظات حول الاسطرلاب العربي» *Aatti del ive* « المؤتمر الدولي للمستشرقين » ١٨٧٨ فيرنيزي *Firenze* ١٨٨٠

التي حكاها الخياط)[٥] حيث أخر الحلاق المتعيلم ضحيته المستشطية غيظاً ريثما يعين بأسطرلابه الوقت المناسب للحلاقة الميمونة. ومهما يكن فاقتران ذكر الاسطرلاب بالتنجيم كسب له ولاولئك الذين مهدوا في استعماله شهرة رديئة وذكراً غير حميد في القرون الوسطى عندما كان الاعتقاد سائداً بأن الفلك والتنجيم هما سميان لشيء واحد . ان العالم الكبير في القرن العاشر (گربرت الاوفيرني) الذي تسنم عرش البابوية باسم سلفستر الثاني سنة ٩٩٩م أثر عنه لاشتغاله وعلمه في امور الفلك ، بأنه كان على اتصال بالشيطان ايام وجوده في قرطبة . وعندما ابدى (وليم المالسبري) اشارة سوداء عن براعة گربرت في مناجاة الارواح بذكره كيف انه (وهو الذي تفوق على بطليموس في استعمال الاسطرلاب) احيا العلوم الرياضية المشروعة في بلاد الغال (فرنسا) بعد أن كانت في طيات الخمول . في مدينة فلورنسا أثر مهم يعود الى القرن العاشر هو اسطرلاب عمل لقياس عروض روما ويظن بعض المنقبون أن يعود للبابا سلفستر .

ان الاسطرلاب المحفوظ الآن في اكسفورد هو اقدم اسطرلاب معروف ، عمل سنة ٩٨٤م يتعاون اثنين من الاساتذة (احمد ومحمود) ابني ابراهيم الاسطرلابي الاصفهاني. ومن بين ما هو محفوظ في المتحف البريطاني تقليد انكليزي يرجع الى ١٢٦٠م. وتحتفظ مكتبة كلية مرتون Merton بآلة أثر عنها انها تقرن الى (جوسر) الذي كتب رسالة عن الاسطرلاب اصغيره . كان الاسطرلاب الملاحين لا يثمن ؛ فقد استمر يستعمل في الغرب لرصد الانواء حتى القرن السابع عشر حيث حلت محله متبدعات جديدة . ان الاسطرلاب الانيق هو عبارة عن عمل جميل من اعمال الفن يصنع ويحفر بدقة وبراعة لا مزيد عليها بشكل يظل محافظاً على قوامه عدة قرون دون أن يحصل تغيير في معدنه . وثم واحد صنع تحت نظارة ابراهيم بن سعيد في طليطلة سنة ١٠٦٦ – ١٠٦٧ يظهر في (شكل ١) يمكن أن يقارن باسطرلاب آخر (شكل ٢) شبيه به لكنه مغطى بزخارف دقيقة من عمل الفنان الايراني عبدالحميد في ١٧١٥ . ومن بين المصنوعات المعدنية الاسلامية التي وصلتنا صندوق في كاتدرائية جيرونا

٥) انظر هذه القصة في حكايات الف ليلة .

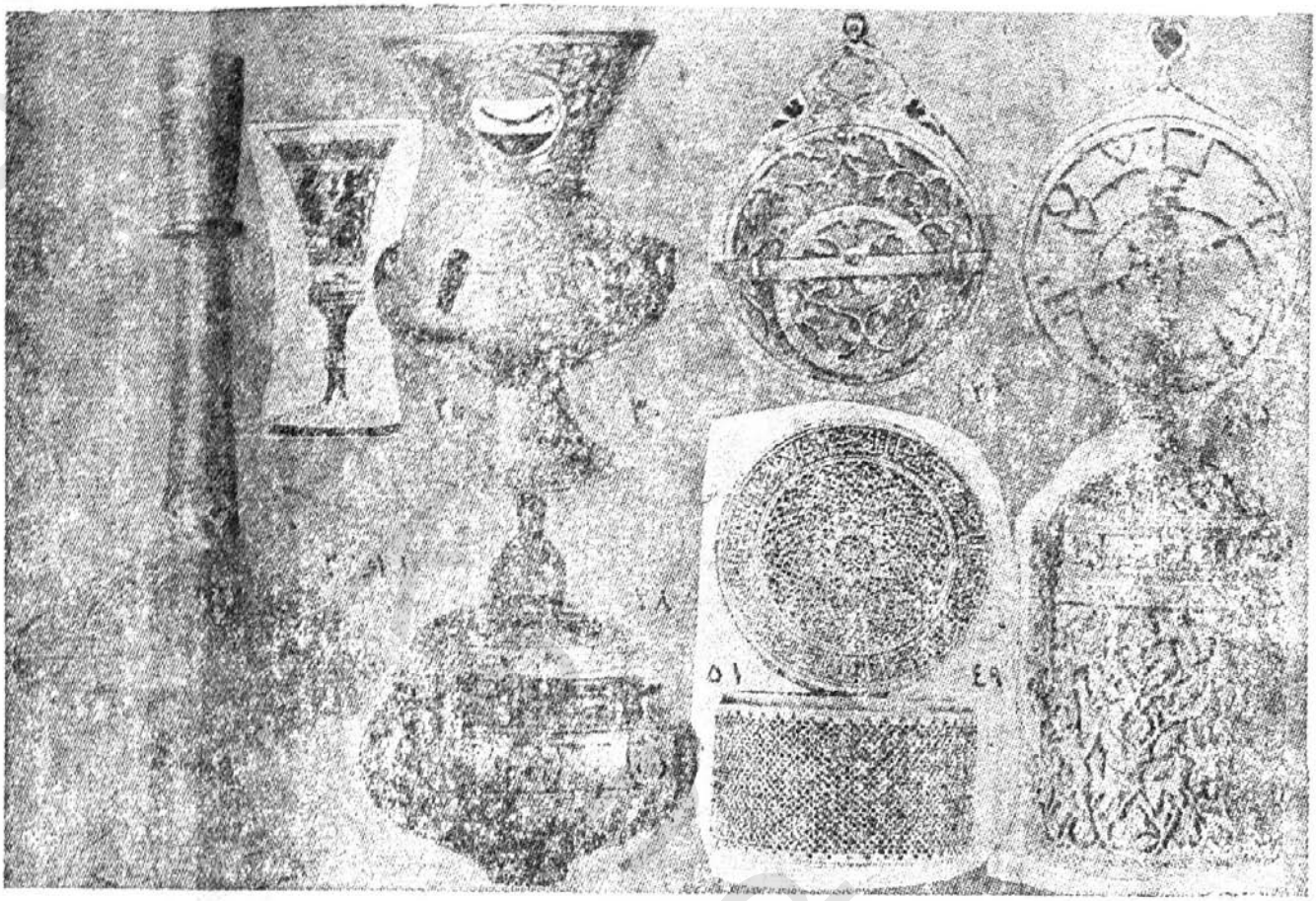

١ – اسطرلاب طليطلي يعود الى سنة ١٠٦٦–٧ .

٢ – اسطرلاب فارسي (متحف فكتوريا – البرت) يعود الى ١٧١٥ .

٢٥ – كأس من الزجاج مموه بالمينا الحمراء والبيضاء ومطلي بالذهب – صنع سورية القرن ١٣ (متحف فكتوريا – البرت) .

٢٧ (٣١) – قنينة زجاجية مموهة بالمينا صنع سورية – القرن ١٤ (متحف اللوفر) .

٢٨ – كأس من الزجاج المموه بالمينا " " " (المتحف البريطاني) .

٣٠ – مصباح زجاجي مموه بالمينا صنع سورية – القرن ١٤ (متحف اللوفر) .

٤٩ – علبة عاجية صنع قرطبة سنة ٩٦٤ محفوظة في متحف الآثار بمدريد .

٥١ – علبة عاجية مخرمة صنع القاهرة – القرن ١٤ بالمتحف البريطاني .

Gerana (شكل ٣) مصنوع من الخشب ومصفح برقائق من الفضة مكتظة بالزخارف المرصوعة البارزة على شكل عساليج واغصان وفيها نقص خطي ينطق بأنه لـ (بدر ، وطريف) صنعاه لاحد رجال حاشية الحكم الثاني (٩٦١ — ٩٧٦) ليكون هدية لولي العهد هشام الذي عقب اباه في الخلافة بقرطبة . وهذا هو احد تحف فضية عدة بقيت حتى زماننا . ولكن مع الاعتراض الديني على استعمال المعادن الثمينة في هذه الحياة الدنيا لكونها معدة للصالحين في الحياة الاخرى ، فان صحاف الأكل الذهبية والفضية لم تكن محظورة قط في قصور الخلفاء .

وتصف السجلات التاريخية المصرية ببعض الاسهاب ، كنز الذهب الذي جمعه الخلفاء الفاطميون في القاهرة والذي نهبه بكامله جنود الاتراك المأجورين الثائرين في فتنة سنة ١٠٧٦ . لقد سجل المقريزي المؤرخ — معتمداً على السجلات القديمة التي كانت متوفرة في زمانه — نقلاً لمفردات الامتعة والاثاث التي كانت القصور تتلي بها منذ انشادتها . هذه المنقولات تعيننا على تكوين صورة لمواد الترف الغريبة التي كان يتفنن صاغة البلاط في عملها . انها لوثيقة طويلة تصف بلهجة تجارية دقيقة التفاصيل ـ مواد عدة كالمحابر الذهبية والفضية وقطع الشطرنج ومقابض المظلات واواني زهر النرجس والبنفسج وطيور ذهبية وشجيرات مطعمة بالجواهر باعداد هائلة مذهلة لو اطرحنا عدة مئات أو نحوها من مفرداتها البالغة حد الآلاف التي ربما اثبتها بعض المؤرخين المتحمسين بلا تدقيق ؛ فالباقي على كل حال يكفي لتسليم المتأمل الى الدهشة والعجب وفضلاً عن ذلك فان ثورة الفاطميين المأثورة قد شهد عليها شاهد معاصر هو الرحالة الفارسي ناصري خسرو الذى قام بناء على توسط احد كتاب السلطان له عند صاحب السر بجولة في قاعات السراي فذكر حين دخوله من الباب رؤية (اثني عشر جناحاً ابنيتها مربعة وكلها متصلة بعضها ببعض كلما دخلت جناحاً منها وجدته احسن من سابقه . . . وكان بالجناح الاخير تخت يشغل عرضه بتمامه وعلاوه اربع اذرع وهو مغطى بالذهب من جهاته الثلاثة وعليه صور المصطاد والميدان وغيرها كما أن عليه كتابة جميلة . . . . وحول التخت درابزين من الذهب المشبك يفوق حد الوصف وبلغ هذا التخت من العظمة الي لو قصرت هذا الكتاب على وصفه ما استوفيت

الكلام وما كفى . . .[٦] .

اختفت صناعة الذهب والفضة الاسلامية القديمة بالفعل . وبقيت بصورة رئيسة فيما تخلف لنا من آنية واثاث برنزية ونحاسية وصفرية[٧] كان يستعملها اغنياء المسلمين. ومنها وحدها يمكن دراسة الصناعة المعدنية الآن . والعقاب البرنزي العظيم (شكل ٤) الذي ينتصب قائماً في (كامبوسانتو بيزا انما هو مثال باق لصنف الطيور وصغار الحيوان هي في الاغلب تقوم بمثابة اجزاء من فسقيات أو آنية يدوية لحمل الماء. وعنها اخذ ما يسمي في اوربا بالاكوامانيل[٨] هيئاتها العجيبة ان جسم هذا الحيوان الهائل الحلقة وفيه كل ما في الحيوانات المدللة من اعتداد بالنفس وغرو آنف — مغطى تماماً بنقوش محفورة على العنق والجناحين يمثل ريشاً اشبه بفلوس السمك . وقفاه يبدو للناظر اشبه برداء مسرود عليه سرداً محكماً مزخرف بنقوش دائرية. وحول حافة هذا الرداء كتابة كوفية تستمر صعداً الى شريط ملفوف حول صدره والوركين وثم اطناف رفيعة رسم فيها أسود وصقور تحيط بها خطوط لولبية . أما الكتابة في عبارات مدح وثناء للمالك لا تدل على تاريخ هذه القطعة البرنزية البديعة أو اصلها ؛ لكن اقرب الاحتمالات ترجح انها تحفة جيء بها من احد القصور الفاطمية في القرن الحادي عشر .

هناك طرق اخرى مارسها الصناع المسلمون بنقش المعدن غير الزخرف المحفور أو المرسوم. انهم برزوا فى فن التكفيف على الذهب والفضة والبرنز والصفر وهو صنعة تتم بأساليب عدة معروفة بصورة عامة باسم الصناعة الدمشقية damascening وهو مصطلح مشتق من نسبة الاوربيين هذه الصناعة الى مدينة دمشق حيث كانت تمارس على وجه التأكيد وان لم تنشأ فيها

٦) انظر (سفرنافة) وهي رحلة ناصري خسرو . ترجمها الى الفرنسية وطبعها شارل شيفير *Charles Schefer* باريس ١٨٨١ (المؤلف) . نقلنا هذه الفقرة من الترجمة العربية للسفرنافة — الدكتور يحيى الخشاب سنة ١٩٤٥ .

٧) (الصفر) : معدن اصفر باهت هو مزيج من النحاس والزنك .

٨) *Aquemaniles* : اباريق نحاسية او صفرية تستخدم لسكب الماء والخمر في القداس . وتعمل على اشكال الحيوان .

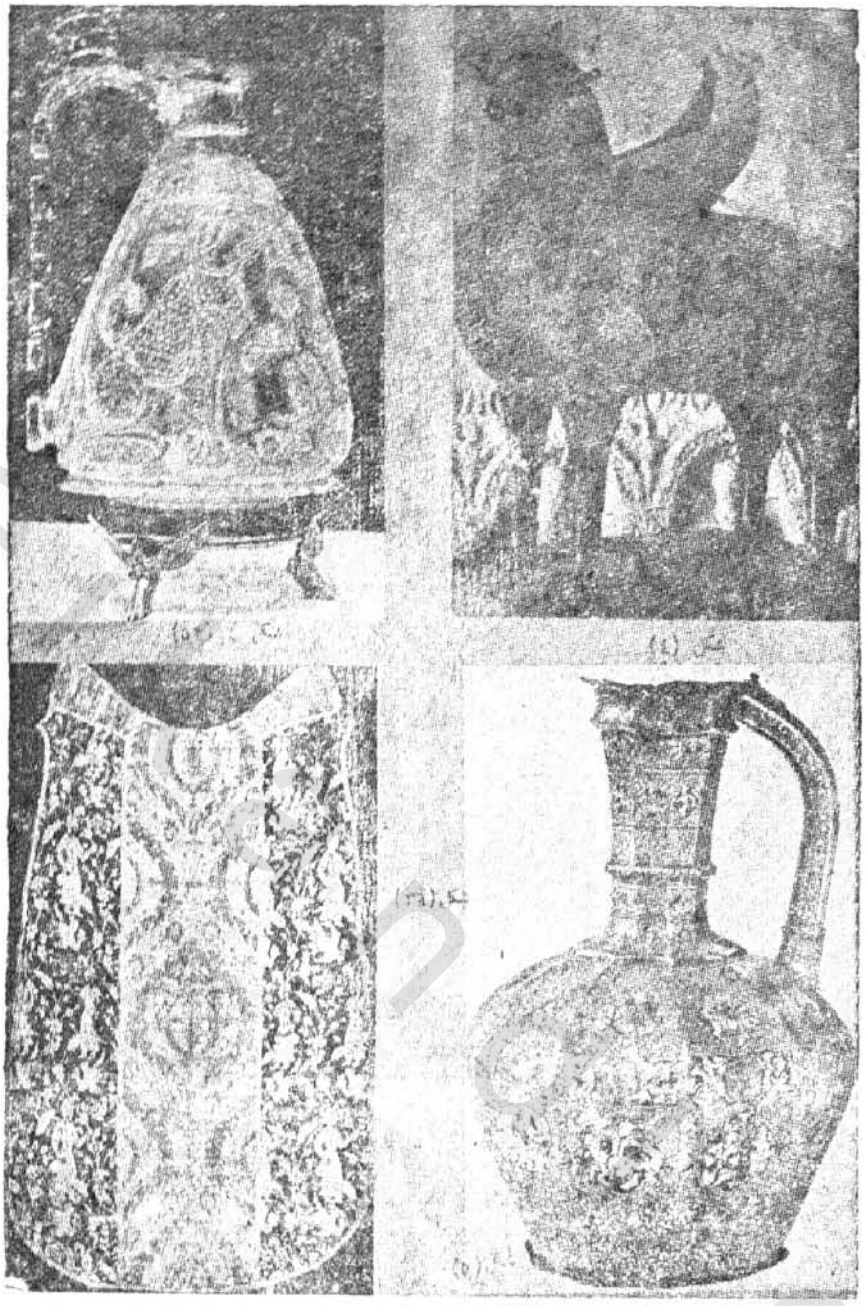

٤ - عقاب برونزي في كامبو سانتو بيزا العصر الفاطمي القرن ١١ .

٥ - ابريق نحاسي مكفت بالفضة - الموصل مؤرخ فى ١٣٣٢م (المتحف البريطاني) .

٣٦ - بذلة القداس chasuble من الديباج الفارسي القرن ١٦ . (متحف الفنون الزخرفية - باريس ربما كان الشريط الاوسط من الدمقس التركي) .

٥٣ - ابريق من البلور الحجري يعود الى العهد الفاطمي القرن ١٠ (محفوظ بكنيسة سان مارك - البندقية)

وادق النماذج واقدمها مما وصل الينا تدل على أن النقوش كانت تحفر حفراً في وجه المعدن بالازميل ثم تملأ المنخفضات بالذهب أو الفضة أو بكليهما احياناً . وكثيراً ما كان يسمو بجمال القطعة ملء بعض الحفر الاخرى بمادة لينة مركبة سوداء. وفي بعض الاحيان تكون هذه المادة هي الوحيدة المستعملة في الزخرفة .

ان فن التطعيم المعدني الاسلامي وصل حد الكمال في حوالي منتصف القرن الثاني عشر واستمر محافظاً على منزلته الرفيعة هذه طوال قرنين . واصدق نموذج هو ابريق نحاسي من ابدع ما وصل الينا محفوظ الآن في المتحف البريطاني (شكل ٥) مغطى تماماً بالنقوش المكفتة بالفضة . إن اسطح عنقه وجسمه العشرة مقسمة افقياً الى مناطق ذات اشكال متنوعة بتنوع المناطق. وكل جزء من اسطحه هذه مثقل بالرسوم والصور والاشكال الهندسية أو الزخارف النباتية والكتابات. وبالقرب من قاعدته يوجد مستدال من نقوش كالعقدتنتهي باقراط كالازرار وبها يكمل الزخرف . ان صفائح الفضة الصغيرة المكفتة التي تمثل الوجوه قد نقشت بابداع ودقة تظهر دقائقها مثال ذلك تقاطيع الوجه والايدي وطيات الثياب كلها حفرت فوقها بدقة لا مثيل لها وتجد كتابة تحيط بالعنق فيها. وهو من صنع شجاع بن هنفر[1] في الموصل ١٢٣٢م .

هذا الابريق يمثل انتاج مدرسة يرجح انها تركزت في الموصل المدينة القريبة جداً من مناجم النحاس القديمة الغنية والمتخمة بالفنانين من الصناع الذين اشتهروا في كل نوع من الفنون. وعلى الاخص بانتاج اواني الطعام النحاسية كما صرح بذلك احد كتاب القرن التاسع عشر واقتبس تصريحه هذا السيد رينو M . Reinaud ولكن طريقة الصنع نفسها زخارف شبيهة بها تظهر في آنية اقدم تاريخاً منها مصنوعة في مكان ما شرقي وشمالي الموصل . يظهر منه أن تأثيراً أرمنياً وفارسياً لم يعرف مداه حتى الآن قد ساد صناعتها .

---

١) هكذا اثبت الاسم السيد رينو الذي كان اول من قرأ الكتابة سنة ١٨٢٨ . ولكن تصحيحاً للسيد ماكس فان برجم (ملحوظات آثارية عربية) في المجلة الاسيوية المجلد (١١) باريس ١٩٠٤ اظهر ان لفظة « منعة » هي التي يجب ان تقرأ بدل (هنفر). (المؤلف)

ولما كانت بعض الطرق الفنية والاتجاهات الزخرفية في القطع المتأخرة بعض الشيء ترجع الى المناحي الهيلينية للقرن الثاني ، فليس بمستبعد أن يكون أصل الصناعة الاسلامية مستمداً من الفن الذي كان سائداً في تلك البقاع من ازمان عريقة في القدم .

ان تأثير هذه المدرسة انتشر سريعاً خلال سوريا وانتقل الى مصر وعجلت بذلك هجرة سببها غزوة المغول الذين دوخوا مدن ما بين النهرين وحولوها انقاضاً وشتتوا رجال الصناعة . وباحتلال هولاكو حفيد جنكيز خان بغداد وبموت الخليفة المستعصم قضي على حكم العباسيين ١٢٥٨م .

توجد مقلمة في المتحف البريطاني (شكل ٦) مصنوعة من الصفر ومكفتة بالذهب والفضة عليها اسم صاحبها (محمود بن سنقر) البغدادي ولكن لا يمكن أن تكون قد صنعت في مدينة آبائه اذا انها مؤرخة ١٢٨١ عندما كان سكان بغداد الوحيدون من القرويين الفلاحين الذين استقروا في خرائبها . انها لقطعة جميلة جداً تلك المقلمة التي لا ينقص تصميمها وصنعها دقة عن الاناء الذي سبق وصفه . فنجد فيها اشارات البروج الاثني عشر مجتمعة اربعاً اربعاً في ثلاث رصائع مستديرة هي التحلية الرئيسية في الغطاء الذي نقش في باطنه صف من الدارات تتضمن تعابير فلكية . فالدارة الوسطى فيها شمس مشعة صورت بشكل وجه آدمي . وعلى جانبي هذه الدارة صورة تمثل القمر وعطارد قابض على قلم وطرس ؛ والزهرة ممسكة بعود ، والمريخ يقبض على سيف ورأس مقطوع ، ثم المشتري قاعداً كالقاضي ، وزحل بيده صرة من المال وصولجان . كلها نقشت على أرضية احتشد فيا الزخرف احتشاداً لا مزيد عليه تكتنفها حاشية ذات زخارف متداخلة . هذه العلبة مثل ممتاز لكثير من الحاجات اشباهها كان فيها بالاصل دوى لوضع الحبر وعلب للرمل والغراء وحجرات مستطيلة لاقلام القصب . كل هذا موضح في (شكل ٧) .

وبانتشار فن التطعيم في الجنوب ، طرأ تغيير على زخارفه وظهر تطور جديد في طابعه الخاص على يد مدرسة ثانية مركزها القاهرة خلال القرن الرابع عشر . ان الرصائع التي كانت

تتوالى على مسافات في الاشرطة الزخرفية، ادخل عليها حواشي نباتية رقيقة. واصبحت الكتابات التي كانت شيئاً ثانوياً تحتل مركز الصدارة. وفي (شكل ٨) نموذج رصيعة ذات حافة منقولة من جفنة صنعت (للناصر محمد بن قلاوون) سلطان مصر الذي حكم في فترتين من ١٢٩٣ حتى ١٣٤١م .

هذان المثالان يجب أن يكون فيهما الكفاية لاعطاء بعض فكرة عن عدة قطع جميلة كثيراً ما وصلتنا بحالة ممتازة ومن بينها اباريق وجفان واوعية انيقة اخرى كانت كما تنم عليه اسماء الالقاب المحفورة عليها — تزين موائد السلاطين والامراء . أما الادوات الاخرى كعلب الاحجار الثمينة والمقلمات والشمعدانات والمباخر واواني الزهر وما الف لفها مما يستعمل في البيوت فهي كثيرة جداً لا تعد ولا تحصى كماً وكيفاً بل وتتخطى حدود التصنيف. كان فن التكفيت الجميل هذا ، مرغوباً جداً خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر وكانت النماذج الرائعة التي يتفنن في عملها الاساتذة الكبار يتهافت الجماعون الاغنياء على اقتنائها ، هؤلاء الذين كثيراً ما يوصون بعمل اشياء خاصة لهم . وفي متاحف بريطانيا وفكتوريا والبرت توجد قطع أثرية كل واحدة تتعلق بحادثة تاريخية مهمة . ومنها عدة قطع شهيرة لا مثيل لها ولا منافس في العالم .

في نهاية القرن الرابع عشر اخذ فن التكفيت بالاضمحلال. فاندفاع المغول في سوريا ونهب تيمور لدمشق سنة ١٤٠١ ، جر ذيول الدمار على المراكز الصناعية النشيطة . وشتت الفتح العثماني لمصر سنة ١٥١٧ البقية الباقية من الاساتذة القاهريين القليلين ولكن في الوقت الذى كان هذا الفن يموت في مسقط رأسه كان يصيب في اوربا اهتماماً متزايداً حيث قدر له أن يولد ميلاداً ثانياً باهراً . في القرن الخامس عشر اخذت التجارة الشرقية التي استعدتها المدن الطليانية اثناء الحروب الصليبية تزدهر للغاية . واصبحت المنتوجات الشرقية شائعة الاستعمال عند امراء ايطاليا الصغار عشاق الفخفخة والمظاهر الذين اخذ صناعهم يتخذون من تلك المصنوعات نماذج يحتذونها ويخرجون ما يصح أن يكون نصراً مبيناً لتقليدهم اياها . وكان للصناعة المعدنية

الاسلامية أثرها العميق على صناع البندقية المحليين حتى ظهرت مدرسة بندقية — شرقية قائمة بذاتها ، فيها حورت التصاميم والاتجاهات الاسلامية الى ما يوائم ذوق عهد النهضة الايطالية . ومثال ذلك التطور ما يرى في (شكل ٨) وهو صينية نحاس تعود الى حوالي منتصف القرن الخامس عشر طعمت بالفضة مع خطوط متشابكة اسلامية تذكر المرء بالزخرف القاهري الصريح في عصوره الاولى . ومركزها منقوش وهو ترس فضي مزدان بشعار اسرة (أوجي دي كاني Ochi di cane النبيلة من مدينة فيرونا . وثم قطع اخرى على طراز مثيلات لها فارسية معاصرة كانت قد صنعت آنذاك في البندقية نفسها صنعها اساتذة فارسيون مقيمون هناك . وفي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر سلكت صناعة المعدن في بلاد فارس سبيلاً شبيهة بتلك التي سلكتها المدرسة الموصلية وهي معها في ارتباط محكم ولكن تقدمها كان ممتازاً بدقة اشكال الاواني وتعديلات محدودة في النقش . وفي بداية عهد الاحياء الوطني للفن الفارسي الذي يصادف تاريخه قيام الدولة الصفوية في مستهل القرن السادس عشر ، وصلت هذه التغييرات كامل تطورها باسلوب مستحدث جديد ، فيه لعب التكفيت دوراً قادراً على خطوط أو كتابات في وسط ارضية مغطاة بزخارف لعساليج واماليد بنائية دقيقة . ومثال لهذا الطراز يظهر في (الشكل ٩) وهو غطاء طاس وقعها (محمد الكردي) الاستاذ الفارسي المشهور الذي زاول عمله في البندقية في السنوات الاولى للقرن السادس عشر .

ان التكفيت بالذهب والفضة بالشكل الذي استعمله الصناع المسلمون في القرون الوسطى كان الى حد ما يقابل صناعة الميناء المعدنية التي يقوم بها صناع اوربيون معاصرون كان عملهم المعروف بـ champleve وهو عبارة عن حفر النقوش واملائها بالدائن الزجاجية الملونة في عدة اشياء اعتاد المسلمون أن يملأوها بذوب المعادن الثمينة بالطريقة نفسها كانت تمارس على وجه التحقيق في الشرق وان الامثلة الاسلامية القاطعة عليها نادرة . وقد ذكرت قائمة المقريزي عن صفائح ذهبية مكفتة بالميناء الملونة اثناء وصفه كنوز الفاطميين . وثم قرص معدني عليه زخارف نباتية وكتابة بالمينا على طريقة

cloisonne[10] . استخلص من ركام خرائب الفسطاط وهو الآن محفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة ويظهر انه يعود الى هذه الفترة ايضاً . ولكن اهم نموذج معروف للمينا الاسلامية المنزلة بالمعدن ، هو جفنة نحاسية في متحف (فرديناندیوم) بمدينة انزبروك . على اسلوب champleve مزينة بترصيعة في الوسط تحتوي على صورة صعود الاسكندر ويحيط بها رصيعات أخرى ممتلئة بوحوش الأساطير على أرضية حفلت بالنخيل وبأناس قائمين . ومع انها بيزنطية الطراز ، ففيها كتابة تدل على انها عملت لأمير ارتقي[11] من بلاد ما بين النهرين حكم في حوالي أواسط القرن الثاني عشر .

ومن النماذج القليلة التي وصلتنا يبدو أن المينا لم تلق تفضيلاً لدى صياغة المسلمين ومعدنيهم . وفي مجيء القرن الخامس عشر فقط ، وجد في اسبانيا سيف حفل بزخارف المينا حيث عاد هذا الفن الى الظهور عند الاسلام ، ومن هذه النماذج قطع المينا التي عملت فيما بعد للاباطرة المغول في الهند التي ربما كانت انعكاساً للموضة الاجنبية أكثر مما هي تطورات محلية .

وفي صنعة مينا من نوع آخر وهو طلاء الخزف بالمينا الملونة — كان المسلمون في القديم أساتذة خبراء ، وقد انتعشت وارتقت صناعة الخزف الوطنية أثناء الحكم الاسلامي في مصر والشرق الادنى وسلكت سبيل التفنن والاتقان والزخرف . وهي الصنعة التي كانت منذ العصور الغابرة تتأرجح بين الانتعاش والخمول . فالقاشاني الذي كان يوصف على أوجه الجدران بسطحه اللامع الازرق المخضر يرجع تاريخه الى أقدم زمن في مصر . وقد استعملت أشباه هذه القطع ذات

---

١٠) ان اسلوبي الـ (champleve و cloisonne) في التكفيت هما اثنان من أصل خمسة اساليب للتكفيت المسمى cnamel الاول وهو عبارة عن حفر الصورة المطلوبة على المعدن مع ابقاء اسلاك وخطوط رفيعة من المعدن نفسه بين الحفر لاظهار القسمات وحدود النقوش ومن ثم املاء المحفورة بالمادة . اما الاسلوب الثاني فهو ان يحفر المكان المطلوب زخرفته وتنزل المادة اللينة مع خطوط القسمات في المعدن نفسه كاسلاك رفيعة وتقوم المادة الملونة بدور تثبيتها ولصقها .

١١) مؤسس هذه الدويلة (ارتق بن كسب) السلجوقي عرف ملوكها في التاريخ باسم ملوك ماردين . او ملوك حصن كيفا نشأت حوالي ١١٠٨م وقضي عليها سنة ١٤٠٨م .

الالوان المتعددة بتفنن وإبداع في بناء قصر داريوس في سوسة سنة ٥٠٠ ق. م.[١٢] . في هذه الأصقاع كان الفن قد أدرج طيات النسيان حتى الفتح العربي حيث أخذت صناعة الأواني الخزفية بالتأثير الاسلامي تبدو للوجود بطراز واتجاه جديد وبزخارف ونقوش مستحدثة .

إن أول تاريخ لصنعة الخزف الاسلامي لم يكتب بعد . ومع أنّ عدة قطع وهمية قد استُخرجت من أطباق الثرى مؤخراً ، فتاريخ صنعها ومصدرها شيء تخميني على الاكثر . من الواضح بان هنالك موضات مختلفة قد انتشرت بسرعة في شتى أرجاء العالم الاسلامي من مراكز تقع في بلاد فارس وما بين النهرين وسوريا ومصر ، لكن من المتعذّر البت برأي حاسم في الموضع الذي نبغ هذا الطرز على وجه الدقة . لقد انتشرت الانواع المشهورة منها بدرجة أن قطعاً متشابهة بالصنع والتصميم وُجدت في عدة أماكن قديمة ، في بقاع تفصلها عن الاخرى الاخرى مسافات شاسعة . وقد يصلح نموذج أو اثنان ليبيّنا درجة صناعة الخزف الاسلامية.

نجد في (شكل ١٠) صحفة خزفية صقيلة عُثر عليها في سوسة[١٣] يزيّنها رأس نبتة الخشخاش بلون الكوبلت الازرق على أرضيّة بيضاء وتعزى الى القرن التاسع . وقد عُثر على قطع شبيهة بها في خرائب أحد قصور سامراء بناه أحد أبناء الرشيد سنة ٨٣٦ م وهجر بعد ذلك بخمسين سنة . هذه الصحفة انما هي مثال سابق لأسلوب التلوين الأزرق والابيض الشائع الآن في فن الفخار الغربي ، وهو طرز جاء اوربا الحديثة من الصين في الأزمان الاخيرة .

كان أمراء بني العباس في القرن التاسع يستوردون سلعاً صينية ، ولقد عُثر في سامرا على أوعية وصيني (بورسلين) مصنوع في وقت حكم أسرة تانك[١٤] للصين مع قطع واضحة

١٢) يقصد دارا او داريوس الاول ٥٢١ - ٤٨٥ ق.م الذي عرف في التاريخ بحملته الفاشلة على بلاد الاغريق .

١٣) سوسة او السوس هي اقدم العواصم الفارسية تقع في القسم الجنوبي من ايران على مقربة من مصب نهر دجلة في شط العرب .

١٤) حكمت اسرة تانك *T'ang* من سنة ٦١٨ ب.م حتى ٩٠٨م الصين وكان عميدها الامبراطور الشهير في تاريخ الصين باسم (كوارتسو) .

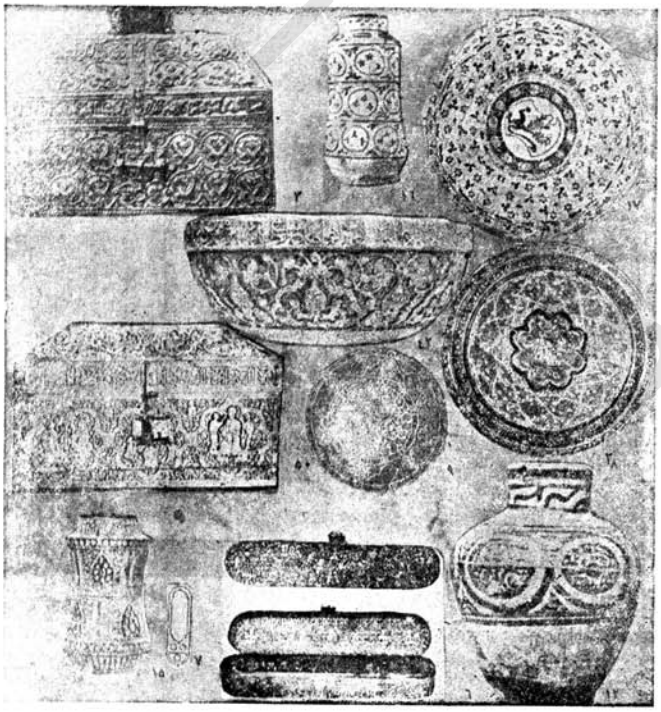

٣- صندوق خشبي مصفح برقائق الفضة ـ قرطبة القرن ١٠ (كاتدرائية جيرونا تصوير آركسيف ماس) .

٦- مقلمة من النحاس مكفتة بالفضة والذهب ـ مدرسة الموصل مؤرخة ١٢٨١ (المتحف البريطاني) .

٧- رسم تخطيطي للمقلمة .

٨آ- صينية نحاس مكفتة بالفضة من صناعة البندقية القرن ١٥ (متحف فكتوريا والبرت) .

٩- غطاء طاس مكفت بالفضة صنع البندقية بيد استاذ فارسي اوائل القرن ١٦ (المتحف البريطاني) .

١٢- جرة خزفية ذات بريق معدني استخلصت من ركام الفسطاط . العهد الفاطمي القرن١١ (متحف اللوفر ـ تصوير دائرة الفوتوغراف بباريس).

١٥- اناء أدوية مطلي بالوان متعددة من مصنوعات سكان أباد بايران قرن ١٣ ـ ١٤ (متحف فكتوريا والبرت)

١٦- برنية خزفية للادوية منقوشة باللون الازرق الغامق من مصنوعات فايزا حوالى منتصف القرن ١٥ (متحف فكتوريا والبرت) .

١٧- طبق خزفي ذو بريق معدني أزرق وأصفر ـ بلنسية القرن ١٥ (متحف فكتوريا والبرت) .

٤٢- حوض فسقية مرمري مؤرخ ١٢٧٧ـ٧٨م (متحف فكتوريا والبرت).

٥٠- علبة عاجية محفورة النقوش قرطبة سنة ١٠٠٥ (كاتدرائية باميلونا ـ تصوير آركسيف ماس)

التقليد لها عُملت محلياً. إن الشكل الطبيعي المرسوم على الصحفة يعود الى هذا التقليد الاجنبي ولكنَّ اللون الأزرق الجميل الذي رُسمت به انما هو لون من الانتاج المحلي ، لون كان أحياناً يُصدَّر الى الصين حيث عُرف ثمَّ باسم (الازرق المحمدي) . وكان جد ضروري للصين لتصدير الخزفيات الزرقاء والبيضاء ، حتى انه عندما كان يقف التوريد لسبب ما ، يقف الانتاج في الصين أيضاً . وهكذا فمع ان الغرب يعزو الازرق والابيض الصيني الى الشرق الاقصى ، فإنَّ الازرق المذكور كان يُقرن بالاسلام هناك . إنَّ الفخّارين المسلمين استعملوه بنجاح لا مزيد عليه في عمل خزفيات بمدينة كوتاهية (آسيا الصغرى) في القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

في الوقت الذي كان الفخّارون المسلمون يتصون بكل احتفاء كل الآراء التقدمية لفنهم ، فإنا نجدهم محافظين على أصول فنهم العظيم بإتقانهم أخذ نماذجهم من الخارج وصبّها في قوالبهم الخاصة بأساليب توضحها أمثلة رائعة عديدة . فثمَّ غطاء جرة يمثلها (الشكل ١١) هو قطعة مما يدعى بخزف (كبري) وهو نوع من الخزف يُظنُّ أنه من مصنوعات عبدة النار الذين بقوا في بعض جهات من بلاد فارس متمسكين للغاية بدينهم القديم بعد الفتح العربي بزمن طويل تجد فيها النقش خشناً ، لكنها ظاهرة التعبير بالحفر في طبقة طين بيضاء رقيقة غطّت السطح ، بحيث ينفذ الحفر الى القرميدة الحمراء تحتها ، ثم غطيَ الكل بعد ذلك بمادة لامعة شفافة صفراء tinted yellow وخضراء وقرمزية او ممراء قاتمة وألوان تدفع في بعض المواضع كفما اتفق بشكل يذكر بالاسلوب الصيني المعاصر من سيادة الاتجاهات الساسانية أمثال رسوم الصيادين الراكبين ، والغول ، والزخرف النباتي المأثور عن الفرس . نسب الخزف (الكبري) أولاً الى مفتتح التاريخ الاسلامي . ولكن لما كان قد عُثر على نماذج مطرزة بالكتابة الكوفية السائدة في القرن الحادي عشر والثاني عشر فإن أغلب هذا النوع يبدأ تاريخه من هذه الفترة . إن طريقة حفر الرسوم المعروفة باسم (كرافيتو graffito) كانت شائعة الاستعمال في الصين ولكن ليس من الضروري أن تكون قد نشأت هناك حيث انها ظهرت في الفترة السابقة على ظهور الاسلام . استعملت هذه الطريقة في القرن الخامس عشر بنجاح عظيم استعملها

الفخارون الطليان الذين ربما استمدوها من الجهات الاسلامية ، إذ أنهم استحصلوا على آراء ومفاهيم فنية ناضجة منها كانت مفيدة لهم جداً في إحياء فن صناعة الخزف في عهد الرينساس .

حقق المسلمون نصرهم العظيم في كل ما يُدعى « بالخزف اللامع Lustred Pottery» في هـذا كان المصنوع يُطلى أولاً بملح معدني على سطح صقيل ويثبت هـذا الملح على السطح بتدخينه على النار بحيث يكسبه بريقاً معدنياً تختلف ألوانه باختلاف المطلب ، فهو بين النحاسي الاحمر البراق وبين الاصفر المائل للخضرة . وفي بعض الاحيان ينعكس عنه مزيج براق من شتى الالوان . اكتشفت قطع في الشرق الادنى وشمالي افريقيا واسبانيا تعود الى القرن العاشر يتضح — من وسعة انتشارها هذا — كم كانت قيمة الخزف عظيمة في بلاد المسلمين كافة. لكنها أبقت موطنها الاصلي محل شك وحدس . وسواء ظهرت أول الامر في مصر أو فارس فتلك مسألة فيها نظر انقسم عندها الباحثون الى فريقين . إن الصحفة الكبيرة في (شكل ١٢) قد استخلصت من ركام الفسطاط ، ويرجح انها فاطمية العهد تعود للقرن الحادي عشر. والشكل (١٣) هو طبق مطلي بالمعدن الباهت البراق فيه صورة تنين ورسوم نباتية وتقليد للحروف الكوفية ، وجد هـذا في أطلال (الري) وهي مدينة فارسية عتيقة خرّبها المغول سنة ١٢٢٠م .

كانت مدينة الري مركزاً عظيماً لصناعة الخزف حيث ظهرت فيها أساليب وأشكال ذات طابع خاص . وأطلالها منجم لنماذج رائعة . والى هذه المدينة تنسب على وجه التحقيق بعض الاوعية والاطباق ذات ألوان غامقة — كالازرق ، والاخضر ، والاحمر القاتم ، والارجواني تزينها هنا وهناك ورقة نباتية مذهبة على أرضيات بيضاء — مع اشكال آدمية ونقوش اعتيادية تمتاز بدقة الصنعة وتشبه شبهاً تاماً الرسوم التي تحتويها مخطوطات معاصرة بحيث يبدو وكأن الفنانين قد تأثروا بها . إن الكأس في (شكل ١٤) المزين برسم أبي الهول وبموسيقين جالسين منقوشة بشكل تفصل الصور بعضها عن بعض بخطوط منحنية على هيئة حرف (S) انما هو المقياس الأمثل للخزف ذي المينا وهي التسمية التي غلبت عليه ، انه أعلى ما وصل اليه الفن

في الري عندما اجتاحها المغول .

ويمثل الاناء في (شكل ١٥) المطلي بلون الفيروزج ، والازرق الغامق ، والاسود نموذجاً من الخزف من مصنوعات سلطان (آباد) بايران خلال القرن الثالث عشر . وقد عرف اناء بهذا الشكل عند الطليان باسم (الباريلو Albarello) وهو مصطلح ربما كان مشتقاً من اللفظة العربية (البرنية) أي وعاء الدواء . والاسم يفصح عن الغاية التي كانت تستعمل هذه الاوعية لها في الشرق وفي ايطاليا فيما بعد . كان يوجد في دكاكين العقاقير الايطالية في القرن الخامس عشر عدد كبير من هذه الاوعية مملوءة بالادوية والمعلبات المستوردة من الشرق. هذه التجارة جلبت الى الغرب النماذج الايطالية لزجاجات الادوية كما لا تزال تأتينا أباريق الزنجبيل الصينية . وفي (شكل ١٦) يرى تقليد ايطالي لنموذج شرقي : برنية خزفية ذات لون أسود رمادي منقوشة بالازرق الغامق من مصنوعات فايزا Faenza في حوالى منتصف القرن الخامس عشر .

حصل الطليان على أوعية الادوية البراقة ، من فلنسية مركز انتاج هذا الخزف الاسلامي في الغرب حيث كانت تصنع أشكال من أبدع ما وجد في العالم أحياناً بناء على طلبات وتوصيات تجار أجانب كانت شعاراتهم تنقش عليها . في (شكل ١٧) يظهر طبق مطلي بالاصفر والازرق البراق صنع في فلنسية في القرن الخامس عشر لأحد أفراد أسرة (دگلي اگلي Degli Agli) من فلورنسا ، وقد نقش عليه شعارها . إن الخزف الاسباني البرّاق أثار غيرة ايطاليا بنجاح حتى أن الفخارين المحليين عرفوا كيف يضيئون نماذج عهد الرينساس المأثورة بنور لا ينطفئ وباسلوب يناقض تماماً التقليد المتبع قبلاً . وفي گبيو Gubbio وهي مركز مشهور حيث كان يعمل الصانع الاعظم « جيورجيو أندريولي Giorgio Anyreoli » بقيت خزفياته ذلك البريق الذهبي والاحمر نسيج وحدها سواء في ايطاليا أم الشرق .

في مفتتح القرن السادس عشر أخذ نظام الفن الخزفي القديم يعتوره التغيير ، فمن بين الضروب الجديدة التي انتجاها ، ضربان متحالفان تحالفاً وثيقاً نبغا ببطء في آسيا الصغرى وسوريا

وازدهرا بروعة لا تدانيها روعة . كانت تُعمل من الفخار وتغطى بقشرة بيضاء صقيلة وتنقش باللون المعدني الأبرق تحف بمناظر وصور خضراء ، وزرقاء وحمراء غامقة مظللة بالأسود ، وكثيراً ما كانت مصانع آسيا الصغرى تضيف لوناً آخر أحمر يشبه لون الطماطا . وبما أنه كان أبرز ما استخدمت صناعة هذا النوع من الخزف لاكساء الحيطان ، كان يصب مربعات وينقش بنماذج هندسية أو أشكال متكررة ، أو أجزاء كبيرة كاملة بنفسها متفرقة لو اجتمعت معاً لكونت صورة زخرفية كبيرة متقنة كاملة بنفسها ، وفي القسطنطية وبروسة ، وغيرها من المدن الكبيرة في الامبراطورية العثمانية ، عدة أبنية تبرق حيطانها بهذه النقوش الزاهية .

وفيما يلي ثلاثة أمثلة اختيرت لتكون نماذج لكسي الحيطان ذي النقوش الرتيبة . في النموذج الاول (شكل ١٨) جعل المصمم في وسط كل بلاطة شكلاً اهليلجياً حاد النهايتين صار يكرر ربع هذا الرسم في كل زاوية ، فبجمع هذه البلاطات الى بعضها ظهرت شرائط بيضاء تمتد متعامدة من قمة الفراغ الذي تزينه حتى قاعدته . وعلى العكس من هذا التصميم نجد النموذج الثاني (شكل ١٩) فهو شكل طبيعي بحت ؛ قوامه سيقان متموجة ، متوازية تحمل على وجه المناوبة أوراق عنب وعناقيد عنب ، ثم أزهار اللوز . ولكن هذين المنحيين احدهما هندسي والآخر طبيعي تجدهما مختمعين في النموذج الثالث (شكل ٢٠) الذي أضيف اليه نقش شبكي لأوراق الاقنثا acenthus الدقيقة تتخللها زهرات هذا النبات . إن نقشاً على هذا المنوال البسيط المؤدي بالاخير الى زخارف معقدة تتجلى فيها عبقرية بارعة في حسن التأليف والنظم بين الرسوم المختلفة بعضها عن بعض انما هو الطابع المميز لهذه المدرسة ؛ ومنها نرى كيف أن المصممين المسلمين كانوا يبتدعون الآراء الزخرفية ابتداعاً . إن اللوح الجميل في (شكل ٢١) يتجلى فيه النوع الثاني من الزخرفة الخزفية ، وهي قطعة كبيرة جداً كاملة النقش والزخرف ، مثال رائع للصناعة الدمشقية بالالوان الازرق ، والاخضر ، الارجواني ، التي لا تعكس بريقاً ، وهذا ما يميز السلعة السورية منها عن التركية .

احتذت الخزفيات التركية والسورية الحذو الفني نفسه الذي استخدمتاه في صناعة

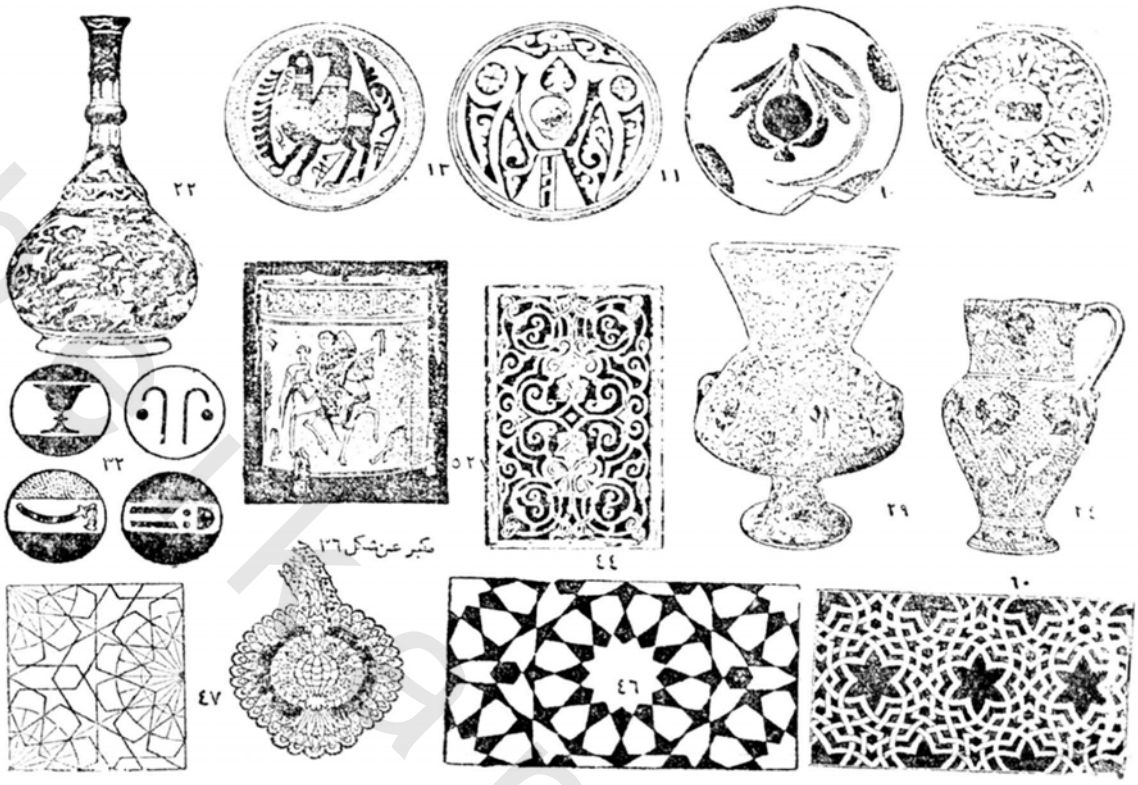

٨– رسم تفصيلي من جفنة نحاسية مكفتة بالفضة مصر القرن ١٣ – المتحف البريطاني .

١٠– صحفة خزفية من (سوسة) القرن ٩ (متحف اللوفر) .

١١– غطاء جرة خزفي ذو زخارف منقوشة ومحفورة ايران ـ القرن ١١ (متحف متروبوليتان ـ نيويورك) .

١٣– طبق مطلي بالمعدن العراق ، ايران ـ القرن ١٠ متحف اللوفر .

٢٢– قمقم من الخزف الحافل بالنقوش ، آسيا الصغرى ، القرن ١٦ (المتحف البريطاني) .

٢٤– ابريق من الخزف المزخرف . دمشق ، القرن ١٦ (متحف شمولى ـ اكسفورد) .

٢٩– مسرجة منقوشة بالمينا . سورية ـ القرن ١٤ (دار الآثار العربية ـ القاهرة) .

٣٢– شعارات اسلامية اربعة (سيف ، كأس ، صوالج واكر ، تخطيط مقلمة) .

٣٦–(مكبر) عن بذلة القداس وهو النسيج الحريري ـ ايطاليا القرن ١٦ (المتحف الاهلي ـ فلورنسا) (انظر رسم ٣٦) .

٤٤– تقعيف خشبي محفور . مصر القرن ١٠ او ١١ (دار الآثار العربية بالقاهرة) .

٤٦– نموذج هندسي اسلامي .

٤٧– الرسم الهندسي الاساسى الذي اجتزي. منه شكل ٤٦ السابق . من رسم لميرزا اكبر ـ ايران اوائل القرن ١٩ .

٥٢– علبة عاجية زخرفها عربية صقلية القرن ١٣ (مجموعة خاصة ـ باريس) .

الكاشان ، واتخذت الزخارف نفسها في الصحاف الجميلة ، والجفان ، والكاسات ، والآنية المختلفة الانواع . إن القمقم الرفيع الذي يُرى في (شكل ٢٢) المزّين بخليط عجيب من الغول والطيور والوحوش ، لونها أبيض على أرضية خضراء تفاحي ، انما هو أصدق مثال لشكل متمايز نجد فيه مسحة من العناصر الغابرة . فالظلال الحمراء التي تزنق مجموعة الالوان هي ذات أصل تركي. ولم يكن الاحمر يظهر دائماً في القطع المعمولة في آسيا الصغرى ، على أنه لم يكن يوجد في القطع السورية قط .

ان أعظم ما يسترعي الاعجاب من العناصر الزخرفية المستعملة في هذا النوع من الفخار هو بدون شك الاشكال الزهرية ، كالتي ظهرت محتشدة باوح دمشقي (شكل ٢٣) حيث تجد زهر الخزامى ، والورد ، والنرجس hycinths ، والسوسن irises ، وزهر اللوز تبدر من وعائين بديعين بحشود رائعة ، وتصوير متقن . كان الزهر يُرسم دائماً باتقان عجيب وبأحساس التأنق بحيث أن دقة تفهُّم رساميه للطبيعة لن يتردى في أي وقت الى صور جامدة. كانت بلاد فارس البلاد التي أخذ المصممون عنها العناصر الزهرية وتعلموا كيف يرسمونها رسماً جميلاً فاتناً ولدينا في (شكل ٢٤) قطعة من الشغل الدمشقي الجميل تجد فيها تأثير الاسلوب الفارسي وهي ابريق مزخرف بالخزامى والورد على أرضية زرقاء مرقطة ، يُعدّ برسمه الدقيق وألوانه الحيّة ، نسيج وحده بين التحف .

ومن بلاد فارس حصل الغرب — عن مسارب تركية وسورية في أغلب الاحيان — على عدة نبتات أزهار شاع زرعها في حدائقنا الآن . هذه الازهار لم تكن معروفة لدى أوربا الى زمن بعيد إلاّ من الخزفيات والفخاريات المستوردة من الشرق الاسلامي . كان أول من جلب زهر الخزامى الى الغرب هو السفير الامبراطوري الى القسطنطينية بوزبك Busbecqu في حوالى منتصف القرن السادس عشر .

وفي سوريا حيث كان يوجد أحسن المواد الخام الصالحة للزجاج التي استُغلت منذ الزمن القديم ، تقدم المسلمون بمنحى جديد مبتكر في زخرفة الزجاج تُرى ظاهرة في ما لا

يُحصى من القوارير والكؤوس والصراحيّات وغيرها من الآنية المنقوشة برسوم الاشخاص والزخارف الهندسية بالمينا الملوّنة ، والمحلاة في أغلب الاحيان بالذهب. إن بعض النماذج المغذاة بطرق تذكّرنا بانواع معينة من الخزف الفارسي والعراقي ، يُظنّ لأسباب فنيّة أنها أقدم تاريخاً من كل ما لدينا ؛ ربما كانت من صنع أساتذة عراقيين هاجروا الى سورية في غضون غارة المغول الاولى وأسسوا صناعتهم هناك حيث ازدهرت بشكل لا نظير له خلال القرن الرابع عشر حتى حاق بها التلف عندما اجتاح تيمورلنك سورية سنة ١٤٥١.

ان الكأس في (شكل ٢٥) منقوشة بشريطين زخرفيين أفقيين وبينهما امير جالس على عرش بحاجبين كلٌّ على جانب ، انما هو مثال للموضة السائدة في آخر القرن الثالث عشر ، يشعُّ منه سناء المينا الحمراء والبيضاء والتذهيب . لا بدَّ وان هذه الكأس قد جاءت اوروبا بعد ان تمَّ صنعها مباشرة ، لانها استعملت كأساً كنسياً بعد تنزيل قاعدة عريضة وساق ممشوقة من الفضة المذهبة لها ، مزخرفة زخرفة ثقيلة بالحفر المسمى roponsse على طراز القرن الرابع عشر الفرنسي ، مما يدل على انها كانت ذات قيمة عظيمة . ومن وثائق ذلك الزمن يبدو ان الزجاج السوري كان ذا شأن واي شأن في اوربا النصرانية اثناء هذه الفترة . ونجد في قائمة تحف الملك شارل الخامس الفرنسي سنة ١٣٩٧ ، ثبتين بهذا النوع من الآنية الزجاجية بوصف واضح جداً :

« ثلاثة كؤوس من زجاج منقوشة من الخارج بصور على الاسلوب الدمشقي » .

« سلطانية مسطحة من زجاج منقوشة على الاسلوب الدمشقي[١٥] ».

وثم كأس دمشقية اخرى في المتحف البريطاني لابد وانها صُنعت لنصراني بصورة خاصة ، لانها تُظهر صورة العذراء والطفل والرسولين بطرس وبولص مع كتابات لاتينية . في القرن الخامس عشر حوّل الزجّاجون البندقيون الذين اشتهر امرهم في كل اوروبا منذ

١٥) وهذا نص العبارتين بالفرنسية القديمة :

Trois potz de voirre ouvre par dehors a ymages a facon de Damos .
Ung bassis plat de voirre paint a la fason de Damas .

القرن الثالث عشر – كل اهتمامهم الى الاساليب الشرقية ، وتمكنوا من امتلاك ناصية نقش المينا بشكل لم يعد معه وقفاً على المسلمين . أخذ هذا الفن ينتشر من البندقية الى مراكز اوروبية اخرى ويبرز بمبتكرات جديدة . فقوارير الكحول الزاهية الالوان ، التي شاعت في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، انما هي أنسالٌ شوهاء الابداع والدقة الاسلامية في القرون الوسطى .

ان تقليدهم النماذج الشرقية ، وإنْ لم يخلُ من طرافة سواء في جمال الشكل أو دقة النقش ، فلا يمكن أن تضاهي بالأصل قط . ومن أمثال هذه القطع ذات الأعناق الطويلة الكأس المبيّن في الشكل (٢٧) والطأس الدقيق الصنع في الشكل (٢٨) اللذين ينهضان انموذجاً صادقاً لكؤوس المائدة الاسلامية ، فالكأس مزيّنة بجامات وكتابات ، ومزخرفة بالنقوش المكفتة على شكل شرائط أفقية ، وعليها اسم أمير من خاصّة الكامل سيف الدين شعبان أحد سلاطين المماليك في مصر عام ١٣٤٥م . أما السلطانية ، فشكلها شبيه بالنموذج السابق وهي مكفتة بالاخضر والازرق والاحمر والابيض وموّهة بما. الذهب في مواضع. هذه التحفة الجميلة ، ذات شكل غير مألوف ، ولا اسم عليها خلا عبارة « عزٌّ مولانا السلطان ».

إنأروع ما تفتّقت عنه قرائح الزجّاجين السوريين هي المصابيح الزجاجية ، او بالأحرى أوعية المسارج والمصابيح حيث كانت توضع في أوساطها مسارج ثابتة بأسلاك تتصل بحافاتها وهي معلقة بثلاث سلاسل او اكثر إما من الفضة او الصّفر ، تتدلى هذه السلاسل من عرى صغيرة على الجوانب . كانت هذه المصابيح تنير عتمة عدة مساجد عظيمة بضوء يشبه ما يشعّ من اللآلئ . هذه الاوعية مزدانة عموماً بنقوش شريطية حافلة بالجامات والكتابات التي تتخللها أغصان وأشكال نباتات. وترى سطوح بعضها قد حفلت بالازهار والرياحين كالحرير الديباج.

هنالك مسرجة (شكل ٢٩) تمثل هذا المنحى، ترى فيها درعاً عليه شعار الواهب الذي أوقفها على مسجد لا يُعرف اسمه .

كثيراً ما يأمر نبلاء المسلمين – متبعين بذلك السنة القديمة – الى نقش رسوم شعاراتهم

على ممتلكاتهم . إن استخدام هـذه الرسوم كانت ذات تأثير على تطور نقش الشعارات في اوروبا الغربية فأصبح علماً مستقلاً منظماً له قواعده ومصطلحاته الغريبة الخاصة في أبان الحروب الصليبية ، ومنها المصطلح الدال على الازرق (أزور azure) فهو مشتق من الكلمة الفارسية التي تطلق على الحجر الازرق المعروف باللازَورد Lapis Lazuli. هنالك صلات أخرى بين صفات الشعارات الغربية والشعارات الشرقية ، كصورة النسر ذي الرأسين الغريبة التي كان أول ظهورها في آثار الحثيين[١٦] . فأصبحت شعار سلاطين بني سلجوق في أوائل القرن الثاني عشر واقتبسه أباطرة الدولة الرومانية المقدسة في القرن الرابع عشر واتخذوه لهم شعاراً .

كانت الشعارات الاسلامية تنقش على دروع إما مستديرة كما في المصباح (شكل ٣٠) وإما مدببة النهاية كما في الشعار المنقوش على القارورة في (شكل ٣١) . فضلاً عن هـذا فإنَّ الطيور الرمزية والوحوش كالنسر الشائع جداً والاسد الذي اتخذه الظاهر بيبرس سلطان المماليك شعاراً . كان ثم نماذج عديدة واخرى ذات أشكال مختلفة لبعض كبار رجال الحاشية كحامل الكأس ورئيس الصوالجة ، وبعض القادة العسكريين ووزراء الحرب ، هذه الشعارات التي يحملونها بحكم وظائفهم. في الشكل (٣٢) ترى بعض هذه النماذج جُمعت معاً . وانك لواجد شبهاً واضحاً بينها وبين كأس القربان والصوالج . ولكن معنى الرسم الاخير من المجموعة ظلَّ مدة طويلة لغزاً محيراً . لقد ظُنَّ حيناً انه الاثر الوحيد الباقي من الكتابة المصرية الهيروغليفية القديمة في الفن الاسلامي . أما الآن ، فقد استقرَّ الرأي بانهما رسمان تخطيطيان لمقلمة تُظهر التجاويف الداخلية كما في الشكل (٧) .

إن الدرع المدبب الرأس على الزجاجة الطويلة يظهر كيف أن هذه البدعة الخصوصية (النسر) تكون مصحوبة بالشارة الوظيفية . (الرُنوك) الاسلامية ذات ألوان زاهية دائماً اذا كانت مواد النقش وألوانه تسمح بذلك ، لان ألوان النبيل هي جزء مهم من شعاره .

---

١٦) ازدهرت الامبراطورية الحثية في آسيا الصغرى ، في حوالي منتصف الالف الثاني قبل المسيح .

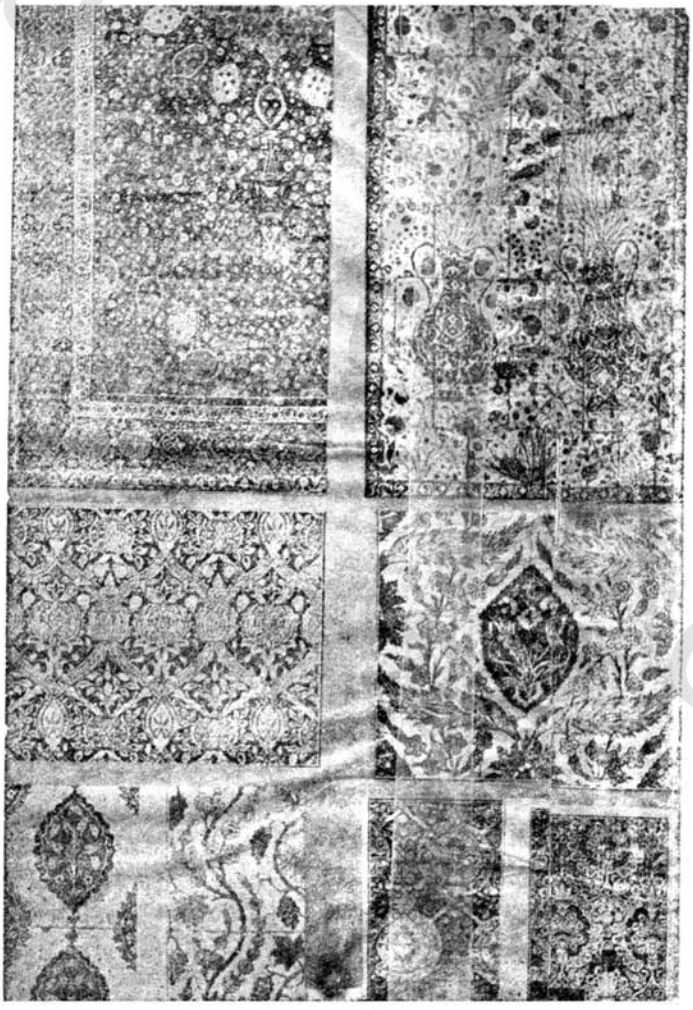

٢١ و ٢٣

٤١

٤٠

١٨

٢٠ ١٩ ٣٨ ٣٩

١٨ و ١٩ و ٢٠ – ألواح من القاشاني المنقوش بالوان عديدة من آسيا الصغرى القرن ١٥ (متحف الفنون الزخرفية – باريس) .

٢١ و ٢٣ – لوح من تربيعات القاشاني المنقوش بزخارف نباتية. دمشق في القرن ١٦ (متحف الفنون الزخرفية – باريس).

٣٨ – نسيج حريري من مصنوعات آسيا الصغرى القرن ١٦ (متحف الفنون الزخرفية – باريس) .

٣٩ – قطيفة حريرية ايطالية القرن ١٦ (متحف فكتوريا والبرت) .

٤٠ – قطيفة من الحرير من نسج وليم موريس ١٨٨٤ (متحف فكتوريا والبرت) .

٤١ – سجادة نافرة الخيوط من جامع أردبيل ، فارسية مؤرخة ١٥٤٠ (متحف فكتوريا والبرت) .

إن الافتنان في صنع الاقمشة الفاخرة بايران وسوريا ومصر — وهـو الفن الذي سننتقل الى البحث فيه الآن — كان قد وصل شأواً بعيداً في ميدان الاتقان والتقدم عندما استولى العرب على البلاد . ففي البلاد المتاخمة للامبراطورية البيزنطية كانت ثمّ مراكز نسيج مهمة تنتج أقمشة حريرية ذات أصناف عجيبة ممتازة تتحد بأشكالها ونماذجها مع عدة عناصر ساسانية أخـذها الصناع المسيحيون عندما شرعوا يبارون مهارة جيرانهم . مع ان الاكتساء بالحرير كان قـد حرّمه الرسول[١٧] ، فإن المسلمين لم يقتصروا على تشجيع المصانع الحريرية التي كانت موجودة بل صاروا يُنشئون مصانع اخرى جديدة أينما حلُّوا . ان اهتمامهم ورغبتهم في هذا الترف المحرّم بدرجة من عدم الاستحياء . ومن الشدة التي لا يمكن حدُّها بحيث انهـم حصلوا على مركز قيادي في هذه الصناعة بسرعة خاطفة سيطروا بها سيطرة تامة على تجارة الحرير في العالم الوسيط . يدل على هذا أسماء أقمشة ومنسوجات عديدة عرفتها العصور الوسيطة ، والمصطلحات التجارية التي ظلّ بعضها حياً في مجال الاستعمال حتى يومنا هذا . هذه المصطلحات تعيّن لنا الاماكن النائية التي كانت ترد منها مواد معينة يوصفها البلاد المنتجة لها ، أو باعتبارها الاسواق التي تستبضّع منها لتوزّع الى أنحاء العالم . وعليه فالقماش المعروف في وقت (شوسر) باسم (فوستيان Fustian) مصدره مدينة (الفسطاط) اول عاصمة اسلامية في مصر . أما المنسوجات التي ما زالت تسمى (دمسكس damasks) فقد جاء اسمها من (دمشق) وهي المركز التجاري العظيم الذي عزا اليه الغرب عدة أشياء تصنع فيه . و(الموسلين Muslin) ، هـو mussolina الذي كان يستورده التجار الطليان من الموصل . وحرّف الطليان لفظة بغداد الى (بلداكو Baldacco) وأطلقوه على المنسوجات الحريرية الثمينة التي كانت تجلب آنذاك ، وكذلك اطلقوا على المظلة الحريرية التي كانت ترفع فوق المذبح في عدة كنائس ، اسم (البلداجينو baldachimo) . وعُرفت في أزمنة متأخرة الثياب الواردة من غرناطة باسم (كرنادين grenadines) في أسـواق أوربا

١٧) قال الرسول : « هذان محرمان على ذكور أمتي » مشيرا الى الحرير والذهب .

حيث كانت السيدات يشترين كذلك القماش الايراني المسمى بالتافتة ويسمينه taffeta .

إن حيّ العتّابية في بغداد ، حيث كان يسكن نسل عتّاب ، ابن حفيد أحد صحابة الرسول ، اشتهر في القرن الثاني عشر بنسيج خاص قُلد في اسپانيا وعرف هناك باسم الحرير (الأتابي) . وعرفته فرنسا وايطاليا باسم (تابيس tabis) واشتهر أمره باسمه التجاري هذا خلال اوربا كلها .

في يوم ١٣ تشرين الاول سنة ١٦٦١ المصادف يوم الاحد (يوم الرب) ، ارتدى مستر پيبايس [١٨] ، سترته الحريرية العتابية بشرائطها المذهبة غير مدرك اصول هذه الكلمة لعريقة . وفي سنة ١٧٨٦ حضرت الآنسة بيرني حفلة ميلاد ملكية في وندسور مرتدية فستاناً من العتّابي الليلاكي ، وهو صبغة معروفة في بلاد فارس باسم (الليلق) . وقد انتقل الى الغرب مع الشجيرة المزهرة المسماة بهذا الاسم . هذه الحرائر الجميلة المبللة بالماء ، بطلت موضتها الآن لكن « عتابياً » بُنّياً وأصفر ، ما زال (يلبسه) صديقنا القطّ المعروف باسم « القطّ العتابي tabby cat [١٩] » !

ومع وجود قطعة من الحرير في برلين تحمل الاسم الخيالي للخليفة هارون الرشيد فالاقمشة الحريرية المنسوبة الى بغداد قليلة جداً . وثمّ قطعة محفوظة في كنيسة القديس ايزيدور في مدينة بون (شكل ٣٣) فيها كتابة تدلُّ دلالة قاطعة بانها صُنعت في بغداد ، صنعها استاذ اسمه أبو نصر [٢٠] » الاسم الذي يظهر في خطّ متقطع مشوّه في المحل المخصص لوضع اسم الصانع . مثل هذا النموذج النسيج الاسلامي الاول الشائع في حوالى نهاية القرن العاشر بألوانه المؤلفة

---

١٨) صموئيل پيپاس ١٦٣٣ - ١٧٠٣ *Samuel Pepys* . مرتب انكليزي وكاتب مذكرات . مذكراته الشهيرة عثر عليها بين مخلفاته في مكتبه سنة ١٨١٩ . وتحوي على تفاصيل دقيقة جدا لحالة لندنا في ذلك العهد المسمى عهد الاستقرار .

١٩) انظر جي. لوسترانج . «بغداد في اثناء الخلافة العباسية» اكسفورد ١٩٠٠ . (المؤلف)

٢٠) توهم المؤلف في قراءة النص فهو ابو بكر وليس ابا نصر كما هو واضح من الرسم مكبرا .

من الاحمر والاصفر والاسود والابيض ، وبرسومه من مختلف الوحوش والطيور والزخارف النباتية التي ورثت عما غبر من الفنون ، كلها رُسمت داخل سطوح دائرية وحواليها . كان ثمّ عنصر دائم الوجود هو صورة الفيل ؛ ربما مصدره الهند . ظهر هذا الحيوان في منسوجات ايرانية يعود تاريخها الى ما قبل هذا الزمن ببعض الشيء . اكتشف قطعة منها قبيل بضع سنوات في كنيسة احدى القرى قرب كاليه . وهي احدى التحف الثمينة التي يعتزّ بها اللوفر . كما وجدت هذه الصورة أيضاً على أقمشة بيزنطية مقلدة عن المنسوجات الفارسية ، منها القطعة الحريرية الفاخرة التي بقيت في قبر الملك شارلمان بآخن .

في اوروبا زاد الطلب على الاقمشة الحريرية الفاخرة زيادة سريعة بتقدم التجارة مع الشرق وأخذت الشفوف والحرائر الرقيقة الآتية من البلاد الاسلامية تجيء بكميات بلغت من الوفرة الى الدرجة التي رأى الاقتصاد الاوروبي في هذه الصناعة الرائجة مصدر ثراء لا يستهان به ، فأنشئت معامل نسيج في مختلف المراكز التجارية ، وبدأت تزاحم مزاحمة جدية المعامل الشرقية والاسپانية . ان المحل الذي استقى منه الصناع الطليان الأول أسرار الصنعة وأخذوا عنها النماذج والاشكال ، هو بالدرجة الاولى جزيرة صقلية حيث كان الفاتحون المسلمون قد أسسوا في القصر الملكي بپالرمو معمل نسيج مشهور بقي مزدهراً حتى عادت الجزيرة الى الحكم المسيحي ايام النورمان . في غضون احتلال النورمان للجزيرة أخذت المدرسة الصقلية تشدّ أزرها بالاحتكاك مع الاساليب الشائعة البيزنطية ، وصلت اليها عندما أُسر عدد من الحيّاك اليونانيين في الخلجان الايجية سنة ١١٤٧ واستُخدموا في مصنع البلاط . ما جاء القرن الثالث عشر حتى كان نسجُ الحرير ، الصناعة الرئيسية في عدة مدن ايطالية غنية ، حيث كانت الاقمشة التي يصعب جداً تمييزها من الاقمشة الصقلية التي حاكتها ، تنتج وتصدر بكميات كبيرة .

في القرن الرابع عشر عكست الحرائر الايطالية آثاراً جديدة ، كانت هي نفسها تؤثر في الفن الاسلامي . يرى في النسيج الحريري الازرق والابيض الموشى بالذهب (شكل ٣٤) فضلاً عن الاسود ، وشجيرات النخيل والزخارف النباتية والكتابة العربية وغيرها من

العناصر الشرقية الاخرى المألوفة في الصنعة الايطالية لذلك الزمن، بعض الطيور ذات الطابع الصيني . إن فضل ظهورها في اوروبا يُعزى بالدرجة الكبرى الى الحوادث التي أدت الى حصول تغييرات عظيمة في الشرق الاقصى . في سنة ١٢٨٠ ، غزت الصين قبائل المغول البدوية بقيادة (قوبلاي خان) شقيق هولاكو الذي قوّض صرح الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ وأقاموا هناك أسرة (يُوانْ) التي حكمت حتى سنة ١٣٦٧ ، وكان من نتيجة هذه الفتوح أن خضعت مساحة شاسعة من الارض الآسيوية ، تمتد من بلاد فارس حتى المحيط الهادي لمدة قرن من الزمن الى حكم أفراد من الاسرة المغولية الملكية نفسها . ظروف أدت الى تبادل وتداخل عظيم في أساليب مختلف الفنون الآسيوية الشرقية والغربية . في الصين برزت جالية اسلامية مهابة الجانب من المستعمرات التي زُرعت هناك خلال حكم أسرة (تانك) تتخاطب باللغة العربية، شأن الاسلام حيثما انتشر . كان من بين هذه الجالية عدة صناع ، حيّاك متفننون ، أصدروا في مراكز مجهولة أقمشة كان لها قيمتها في جميع البلاد الاسلامية أنتجوها بمهارة التقاليد المتوارثة عن البلاد التي عاشوا فيها . كانت أقمشتهم الجميلة مرغوبة من اخوانهم في الغرب ، ومؤثرة في كل مكان على تطور أساليب النسج والحياكة الاسلامية ، ومن ثمّ على حياكة اوربا الغربية . لقد وصلت الينا بعض النماذج النفيسة جداً من المنسوجات الصينية في القرون الوسيطة ؛ أشهرها وأنفسها قطعة محفوظة في (الدانزغ) يبدو انها عملت خصيصاً لسلطان المماليك الناصر محمد بن قلاوون الذي حيك اسمه عليها . يُرى في (الشكل ٣٥) قطعة حريرية موشاة بالذهب صينية الاصل ذات نقوش مؤلفة من عدة صور للعنقاء وشجيرات النخيل . والكتابة العربية على هيئة أشرطة بين خطوط من الزخارف الهندسية المتكررة . وهي شكل ربما اشتقّ منه نقش الطير في الشكل الظاهر فوقه .

لم يقتصر استخدام الحرير الشرقي للحلل الكنسية على القرون الوسطى ، بل تعداه الى العصور التي عقبتها . فبذلة القداس في (الشكل ٣٦) فصّلت من قماش فارسي من مصنوعات أواخر القرن السادس عشر وبداية السابع عشر ، بنقوش لا تليق قط بخدمة الغرض الذي

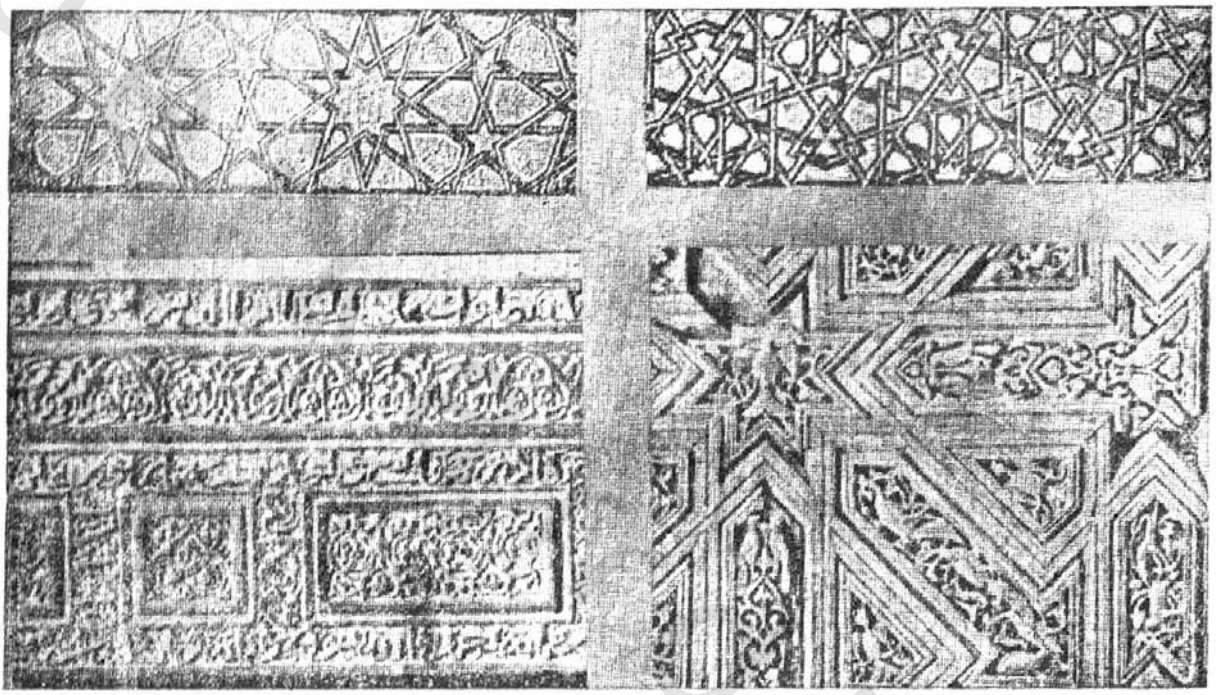

٤٤- حفر وتطعيم خشبي من ضريح في القـاهرة مؤرخ ١٢١٦م (متحف فكتوريا والبرت) .

٤٥- سقف من الخشب المحفور والمطعم القرن ١١ (المتحف الاهلي - پالرمو)

٤٨- باب ذو صفاقين فيه تطعيم عاجي - القاهرة القرن ١٥ (متحف فكتويا والبرت) .

فُصّلت لأجله. لا ولا أن يُتسامح بالظهور فيه في المسجد . فقوام النقش بصورة رئيسية صف من الشباب الواقفين مرتدين ثياب القصر ، قابضين على كؤوس وقوارير خمر. صُوّروا واقفين وسط سيقان نباتية رفيعة متسلقة تحمل أوراقاً وأزهاراً ، كالنموذج الذي اتخذاه الفخّارون الاتراك الذين كانوا آنذاك يقلدونها تقليداً دقيقاً . وفي الفراغات كان يوجد صور طيور حيّة مرسومة وفق الخطوط والاساليب ذات الاصول الصينية . إن النموذج يعود الى مجموعة شبيهة بالنماذج الزاهية التي شاعت موضتها خلال فترة الحكم الصفوي . وثمّ نماذج رائعة ، قد تحتشد فيها التصاوير البشرية ، مظهرة بعض مواقف من وقائع غرامية تاريخية ، مثل مقابلة (خسرو وشيرين) أو المأساة الغرامية الشهيرة لليلى ومجنون . وأحياناً ترصّعها مناظر طبيعية رائعة النقش دقيقته ، من أشجار مزهرة ، وشجيرات يجوس فيها كل أنواع الحيوانات المفترسة والأليفة كلها رُسمت بألوان وروح ساحرة رائعة .

ان النموذج النقشي الموجود على الشريط الحريري المستخدم لتزيين بذلة القداس يقوم مثلاً على مجموعة رائعة من نماذج المنسوجات ظهرت في الفترة التي نشط الخياك الاتراك والطليان ونجحوا في تقليد منسوجات بعضهم بعضاً ، حتى كان يتعذّر على الخبراء في أحيان كثيرة أن يُفرّقوا بين المنسوجات ذات الاصل الاوروبي من المنسوجات التي صدرت من الشرق . ومع أن هذه القطعة متأخرة العهد أوربية الشكل ، فنقوشها تركية من الانواع التي برزت في آسيا الصغرى في فترة ما من القرن الخامس عشر . وقوام هذه النقوش بأبسط مظهر لها شرائط خالية من النقش أو شرائط مزخرفة، تمتدّ عمودياً بانحناءات متضادة وتتحد في مسافات فتغطي القطعة بما يشبه الشبكة . في بعض الامثلة توجد زخارف متقنة هندسية أُطلقت بين خيوط الشبكة كما في نقوش البذلة الكنسية. بينما تبدأ من نماذج مشابهة اخرى — من الشرائط عندما تتلاقى . هذا النموذج الاخير أُلحق في نسيج حريري فاخر كما في (الشكل ٣٧) بزخرفه موشاة بالذهب ، حُدّدت حواشيها وخُطّطت باللون الازرق الكوبلتي على أرضية قرمزية . وما بين الفراغات التي تخلفت بعد الزخرفة الاصلية ، نقشت شبكة ثانوية ، يبدّر منها زهر

الورد ، والزنبق ، والقرنفل ، والنرجس .

ومن براعم الزهر التي هي العنصر الرئيسي في هذا النقش ، أخذ الطليان عناصر الزهر الموضحة في (الشكل ٣٨) واستعملوا أشباهها التامة في قماش المخمل الذي يعود تاريخه الى أواخر القرن الخامس عشر كما يُرى في (الشكل ٣٩) . وفي القرن السادس عشر أخذ الحياك الاتراك والاوربيون — وكل فريق يسبق منافسه بالمناوبة على مرور الزمن — يخرجون عدة أشكال معقدة على الاسلوب الشبكي والبرعمي مكسبين النسيج المخملي الفاخر الذي كان موضة تلك الحقبة من الزمن — الطابع الخاص به الذي أصبح طابعهم لا ينازعهم فيه أحد . من هذه النماذج ألف وليم موريس[٢١] زخرفة تلك القطيفة النفيسة الموشاة بالذهب التي تألفت فيها ألوان الازرق ، والبرتقالي ، والابيض ، والذهبي (شكل ٤٠) . وهذه هي المحاولة الوحيدة منه لاحياء عهد تلك المنسوجات الانيقة .

أما السجاد الذي هو الآن من ألزم البضائع العالمية ، فقد ورد الى اوربا من الشرق كحاجة شرقية كمالية للسراة والاغنياء الذين أحاوه في باديء الامر محل القيميات التي يصح اكتنازها لا كشيء معد للاستعمال . إن السجاد في الشرق هو من قبيل التحف النفيسة بنوعيه الناعم الملمس Tapestry والكث ذي الخيوط الناقرة المقصوصة من السطح بشكل يبدو معه شبيهاً بالقطيفة المخملية ؛ فقد كان يُستعمل كأبسطة للنوم او زينة للجدران فضلاً عن استخدامه فرشاً على الارض . ولقد عُلم من صور السجاد الشرقي الظاهرة في لوحات مشاهير الرسامين الايطاليين أن هذه البضاعة وردت اوربا قبيل القرن الرابع عشر وما لبثت بعدها بقرنين ان أصبحت مادة تجارية مألوفة في الاسواق . ولقد سجل التاريخ ان الكردينال ولزي[٢٢]

---

٢١) *William Morris* (١٨٣٤ – ١٨٩٦) أديب وشاعر ومفتن وزخرفي انكليزي مازالت بعض قطع الاثاث والزخارف والمنسوجات التي ابتدعها تحمل اسمه وتنسب اليه .

٢٢) *Thomas Wolsey* (١٤٦٥ – ١٥٣٠) وزير الملك هنري السابع وهنري الثامن ومن كبار الدبلوماتيين الانكليز .

استطاع سنة ١٥٢١ بفضل المعونة القيمة التي أسداها اليه السفير البندقي أن يحصل على ستين سجادة شرقية لقصره في (هامبتن كورت) ، ربما كانت أمثلة مشابهة لِما شوهد في لوحات هولبين[٢٣] مما يمكن مضاهاتها بسجاجيد لا زالت باقية حتى يومنا هذا مما صُنع في آسيا الصغرى آنذاك . وفي دار (بوتون) بـ (نورثامبتنشاير) توجد ثلاث سجاجيد نافرة الخيوط صُنعت خصيصاً للسر ادورد مونتاگو مع شعار آله وتاريخ ١٥٨٤ حيك على حاشيتها . كانت كالسجاجيد المعروفة آنذاك – كما هي معروفة الآن باسم السجاجيد التركية – مزدانة بزخارف هندسية ملونة بالازرق مع تفاصيل ودقائق صفراء فوق أرضية حمراء .

وفي القرن السادس عشر رفع صناع فارس فن حياكة السجاجيد الى مراقي لم يصلها من قبل ، فأنتجوا باعجوبة من أعاجيب العبقرية ، أنماطاً لا تضاهيها أنماط اخرى في سحرها وجمالها . وفي متحف (فكتوريا – البرت) نجد الآن واحدة من هذه الخرائد العجيبة جُلبت من (أردبيل) حيث كانت مفروشة لعدة قرون في مسجد (شيخ صفي) الجدّ الاعلى لشاهات الصفويين . وفي الشكل (٤١) جزء من هذه القطعة التي هي أدق ما حاكته اليد ، تتألف من ثلاثين مليون عقدة خيط دقيقة ، لكل بوصة مربعة ٣٨٠ عقدة ، وفي الوسط جامة مسننة الحافة تحيط بها طغراءات بيضية مدببة النهاية وكلها مزدانة بزخارف ذات ألوان تأخذ بمجامع القلوب . كان ربع النقش الوسطي يتكرر في كل زاوية من زوايا السجادة المستطيلة الشكل ذات الارضية الشديدة الزرقة المغطاة بأزهار زاهية اللون ، خارجة من فروع ملتوية يقوم في وسطها مصباحان كأنهما معلقان في الفضاء ، يمثلان شكلاً آخر من المراكز الثانوية في السجادة . أما الحافة او الاطار فهو عبارة عن هوامش مستقيمة الخطوط رفيعته ، في داخلها دوائر مقرنصة او أشكال اهليلجية مفصصة ومدببة محتشدة الزخارف كالارضية ذات اللون الانجاصي التي رُسمت تحتها وفي حافة أحد الاضلاع حيك بيت شعر (لحافظ) وتحته نُقشت العبارة التالية بالفارسية :

---

٢٣) *Hans Holbein* (١٤٩٧ – ١٥٤٣) ويسمى بالاصغر تفريقاً له عن سميه الاكبر . رسام الماني عظيم . له لوحات شهيرة منها اللوحة المعروفة بـ (رقص الموتى) .

« عمل عبد العتبة الشريفة مقصود الكاشاني في سنة ٩٤٦ هـ »

ومع وجود سجاجيد أقدم من هذه السجادة ، فقد ظلّت مدة طويلة تبذّ في العراقة والقدم جميع السجاجيد الاخرى ذات التاريخ ، وفي هذا يجب أن نسلّم بسمو مصدر محلي آخر لسجادة ايرانية نفيسة ، وهو متحف (پولدي پيزولي Museo Poldi-Pezzoli) بميلانو . ذُكر ان حائكها هو غياث الدين جامي سنة ١٥٢١ .

تعلم الفنانون الاوربيون حياكة السجاد ذي الخيوط النافرة من المسلمين معتمدين على خفة اليد الشرقية الطابع وبعدها بأزمنة متأخرة ، على وسائط آلية بحتة . وقد اعتدنا أن نجد في السجاد والبسط المصنوعة بالآلة — المنتشر عملها في سائر أنحاء العالم الآن — أنماطاً مأخوذة من الاصول الاسلامية ، لكنها نزوة من نزوات الموضة لا بقية من بقايا الانماط التقليدية الغابرة . إن السلف الأقدم للسجاد الحديث قد تخلد بجدارة واستحقاق بسبب نسجه المخملي أكثر مما هو بسبب أنماطه وزخارفه .

عندما ننتقل من الزخارف التي تكسو السطوح المستوية ، الى النقوش النافرة ، نجد أن الحفارين والمصممين المسلمين قد اتبعوا الاساليب والانماط التي حكمت فروعاً أخرى من هذه الفنون الدقيقة . إن التفنن في الاسلوب ، ذلك الذي تعوّدناه في صناعة الحفر الاوروبية حيث ان أساليبه وأنماطه التقليدية كادت تكون مجهولة تماماً في البلاد الاسلامية — لا تجد لها أي أثر في فني الحفر والصياغة الاسلاميتين ، فهنا تجد ترديداً لأنماط ونقوش زخرفية شبيهة او مطابقة تماماً لتلك التي استُخدمت في الحياكة والتكفيت والرسم بصورة عامة . أنماط كهذه كانت تُستخدم لغايات تزيينية بعيد كل البعد عن الاستعمال الاوروبي . فكانت زخرفة لتزيين الصفحة الاولى من مخطوطة مذهبة ، تصلح في الوقت نفسه ان تكون رسماً لقماش حريري ، لا بل يكون مناسباً للحفر على المرمر في ظاهر قباب الابنية او على حيطان المساجد . إن حوض الفسقية المرمري في (شكل ٤٢) يرجع تاريخه الى (١٢٧٧ — ٧٨م) المحرَّر باسم « محمد الثاني » سلطان حما — عمّ أبي الفداء المؤرخ ، يُظهر كيف اختار النحات خطاً من النقش مشهوراً في

صناعات عدة . إن زخرفه هو منوال متكرر يمتد الى ما لا نهاية ؛ إما على الجانب كحدّ وكإفريز . وإما يمتدّ أفقياً او عمودياً بزخرفة تغطي سائر القطعة . وثمّ زخارف مشابهة عديدة حُفرت في افريز طويل على هوامش ضريح شيخ توفى سنة ١٢١٦م . تبدو في (الشكل ٤٣) إن جانباً واحداً من هذا الضريح النادر محفوظ في (ساوث كنكستن) أما الباقي ففي القاهرة. كان التقحيف في القطع المحفورة خلال العهد الفاطمي عميقاً جـداً الى درجة ظُنّ انه تثقيب لا حفرٌ كما في الاطار المحفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة (شكل ٤٤) . إن الحفر في السقف الخشبي (شكل ٤٥) وإنْ تمّ في صقلية ، لكنه فاطمي الطراز . ومع حسن الأثر الذي تخلّفه هذه الحشيات المحفورة حفراً عميقاً . ففيها زخارف لشتيت من الطيور والوحوش تجوس بين الاوراق النباتية ، فضلًا عن صور آدمية ، كثيراً ما تجدها في القطع الفاطمية المصنوعة للبلاط ، او للتجميل الدنيوي حيث ظهرت صورة الآدمي بحرية وجرأة .

هذا السقف يتبع اسلوب البناء الخاص الذي اتخذه النجارون المسلمون ، وهـو اسلوب جاءت به اعتبارات عملية وزخرفية في الوقت نفسه . ان الاحوال المناخيـة جعلت الخشب ذا قابلية عظيمة للتقلص والاعوجاج . وقد أدّت ندرة الخشب المناسب ، الى تصغير تلك الحشيات الى أقـل فضوة ممكنة والى زيادة مقابلة في الأطر التي تشدّ إزر القطعة الخشبية بعضه الى بعض .

إن تنويع النقش ومتانة الصنع في هذه القطع الخشبية ، أوصل النجارين المسلمين الى طريقة فذّة عجيبة في تحشيد وتصفيف هذه الحشيات الخشبية والتأليف فيما بينها بشكل زخرفي استلطفه المسلمون ووقع في أنفسهم أجمل وقع ، فأولعوا به وعملوا زخارف من عـدة مضلعات منبثقة من أشغال نجمية . وهو طرز في الزخرفة ربما كان من أبرز وأعظم ما ساهم بـه الفنّ الاسلامي في ميدان فن الزخرف العالمي . ولقد وجد هذا الفن مجال بروزه الاعظم في الاعمال الخشبية وهو المجال الذي لعب دوراً هاماً في تطوّر ذلك الاسلوب ، لكن هذه النقوش كانت مما استخدمه أساتذة يشتغلون في غير هذا الفرع من الزخرف . فقد لقي هذا النوع من التصاميم

احتفاءً كبيراً من جميع المحافل الاسلامية ، واذا كان قد تطرّق اليه الانحلال والفساد في الازمان الاخيرة فأض مجرد مناظر هندسية رتيبة مملة ، فإن أشكالها البسيطة الاولى ظلّت دائماً واسطة فعّالة الأثر لتقبل النظام التلويني الذي برزت فيه العبقرية الاسلامية أيّما بروز .

قدّمنا نموذجاً لهذا الاسلوب في (شكل ٤٦) وهو تأليف بارع لنجوم ذات اثني عشر رأساً دُفنت وسط مضلّعات سداسية . هذا الرسم اجتزئ من الرسم (٤٧) المستوحى من احدى ملاحظات (ميرزا أكبر) مهندس شاه ايران في مفتتح القرن التاسع عشر . وكثير من هذه الرسوم محفوظة في متحف (فكتوريا والبرت) . نجد في الرسم الاصلي خطوطاً ودوائر مطموسة خفيفة رُسمت بآلات هندسية رفيعة الطرف فوق الورق . وبعد القياسات الضرورية عمد مهندسها الى إجراء قلم الحبر الغامق فوق الاشكال التي انتوى ابرازها والمتكوّنة من تلاقي تلك الخطوط الهندسية . هذه القاعدة التي اتبعها ، هي قاعدة مدرسية ربما نهضت برهاناً على تقليد قديم في تلك الصناعة ، مظهرة كيف أن المصممين الشرقيين كانوا يشرعون بتنظيم تصميم قد ينجز بطرق مختلفة كما شهدت بذلك أدبيات كثيرة بحثت في موضوع هذه النماذج[٣٤] .

في الباب ذي الصفاقين المبيّن في شكل (٤٨) الذي يرجع عمله الى القرن الرابع عشر او الخامس عشر تجد المضلعات بدرجة من الصغر بحيث صار في الوسع استخدام العاج فيها بدلاً من الخشب وبذلك كسب الباب جمالاً بديعاً لا نظير له . انك لتجد في أحد الصفاقين تلك المضلعات وقد حُفرت بأشكال زخرفية نباتية حفراً عمودياً نافراً . وترى الصفاق الآخر قد حُفّت على نظام هندسي . ربما كان كلاهما أثرين متخلفين من منابر شبيهة زخارفه بزخارف

---

٣٤) حلل ام . جي . برجوان *M. J. Bourjoin* في كتابه « تشابك الزخارف *Letrait des entrelacs* (ط . باريس ١٩٢٥) نحواً من مائتين من هذه الاشكال . انظر الدكتور اى اج *Dr. E. H. Hankin* « في مخططات رسوم هندسية في الفن العربي» (ط كالكتا ١٨٧٩) وفيه شرح ببراعة فائقة بعض أمثلة معقدة جداً من هذه الاشكال . (المؤلف)

ذلك المنبر المحفوظ في متحف (فكتوريا والبرت) الذي أقامه في جامع القاهرة سلطان المماليك المدعو (قايتباي) ١٤٦٨ – ١٤٩٥ . فهدم الجامع في القرن التاسع عشر بسبب شق شارع جديد .

صنع المسلمون عدة حاجات جميلة كلها او أكثر أجزائها من العاج وهي المادة التي كانوا يُجماونها بزخارف محفورة او مكفتة او بنقوش بحتة . وقد تمركزت في القرن العاشر مدرسة لحفر العاج في قرطبة، وأخذت تشتغل على الاسلوب الذي أفصح عن تجربة سابقة ناضجة. ومن بين النماذج الميسورة ، علبة اسطوانية (شكل ٤٩) من كاتدرائية زامورا Zamora محفوظة الآن في متحف الآثار بمدريد ، يحيط بغطائها المعبب كتابة تنص بأنها عملت سنة ٩٦٤ للخليفة (الحكم الثاني) هدية منه لزوجته ام الامير عبد الرحمن . إن أروع مثال للمجموعة التي تشتمل على عدة حاجات متشابهة عُملت في قرطبة خلال تلك الفترة من الزمن تقريباً . تجدها مغطاة تماماً بعسالج النخيل ، وبأشكال الطواويس والطيور وما شاكل من الحيوانات . وهنالك تحف أخرى معروضة الآن في دور عاديات لندن وباريس وغيرهما ، تختلف في نقشها عن هذه العلبة ولكنها شبيهة بها من حيث الشكل والصنعة . فقد حفرت بدوائر مفصصة مشتبكة تتضمن صوراً آدمية كما هو مرسوم على العلبة العاجية المستطيلة في الشكل (٥٠) . هذه القطعة هي من عمل عدة أساتذة أمكن قراءة اسمين من أسمائهم المحفورة على الحافات وهما « خيرٌ » و « عُبيدة » . وقد تمّ صنعها سنة ١٠٠٥م لأحد موظفي البلاط ، ثبت اسمه وألقابه بصورة واضحة فوق الغطاء .

وثمّ انموذج آخر للصناعة العاجية مبيّن في الشكل (٥١) ، علبة دائرية الشكل ذات نقوش هندسية مبصومة في جسمها وفي غطائها المستوي . انها لتقوم مثلاً على مجموعة من النماذج يُظن انها صُنعت بالقاهرة في القرن الرابع عشر . وهنالك عدة صناديق عاجية اسطوانية ، وطولانية ، عارية عن النقش ملونة بألوان مختلفة او مموّهة بالذهب فيها دوائر مملوءة بالاشكال الآدمية وبالطيور والوحوش والازهار والشجر مرسومة على شكل عقد على اسلوب يُذكرنا

بالمخطوطات المذهبة . هذه العلب يرجع تاريخها الى القرن الثالث عشر . وقد وُصفت وصفاً غامضاً بكونها (علب صقلية – عربية) . وثمّ نموذج آخر لها ، عليه صور قانص راكب جواداً وخلفه فهد أليف كما يلاحظ في الشكل (٥٢) .

كانت العلب العاجية المنقوشة والمحفورة ، والمنقورة تثقيباً ، التي تُستعمل لوضع الحلى والعطور والحلوى وما شاكل ذلك كثيراً تُصنع بمثابة هدايا – كما تدلُّ الكتابات المحفورة عليها – وأقدمها هي أنفسها وأعلاها كعباً تعود الى بداية الفن الاسلامي . وصلنا كثير من هذه التحف في أكمل حالة وأتمّها . ويبدو من بقايا الالوان الاصلية التي ما زال يبدو على ظاهرها أن نقوشها المحفورة كانت ملونة ومذهبة أيام كانت جديدة . وما زال بعضها محافظاً على مقابضه ومفصلاته المعدنية ، وهي بحدّ ذاتها أمثلة طريفة لفرع صغير من فنون الصناعة المعدنية .

كمثال أخير للمهارة الاسلامية في فن الحفر ، ابريق البلّور الحجري الذي هو من جملة ما تعتزُّ بحفظه كنيسة (سان مارك) في البندقية (شكل ٥٣) ، هذا الاثر النادر مهم من الوجهة التاريخية ، إذ تجد اسم (العزيز) الخليفة الفاطمي الثاني في مصر قد كُتب عليه . وربما كان ثمّ احتمال كبير من انه من جملة الاباريق البلورية التي ذكرها (المقريزي) في قائمة الكنوز المشتتة سنة ١٠٦٧م . حيث كانت تلك الاباريق تحمل اسم الخليفة . قد يقوم هذا النموذج بصنعته الدقيقة وشكله الأنيق تذكاراً رائعاً لفترة من أزهى فترات الفن الاسلامي.

ومما يُستعمل في الحياة اليومية ويدين بشيء من مادته وفنه وصنعته الى الاسلام – كتبنا باعتبارها أوسع الحاجات انتشاراً. وربما بدا لأول وهلة أن احتمال ارتباطها بالشرق بعيد. إن الطرق الحديثة لتجليد الكتب وانتاجها قد استفادت الكثير جداً من صناعة الاسلام ومهارته في القرون الوسطى . ولنذكر هنا انه لم يُبدأ في نشر المؤلفات الاسلامية بأساليب آلية الاّ في العصر الحديث ، إما بالطباعة المعروفة واما بالطبع الحجري . والطريقة الاخيرة كانت المفضّلة ، اذ انها صانت بأمانة كليّة خطوط النساخين وهم أشرف طبقة من الصناع في

سائر العصور الاسلامية . لكن ، مع أن اوروبا قد أتقنت فن الطباعة ووصلت به حد الكمال قبل وصوله الاقطار الاسلامية ، فنحن مدينون للشرق بمادة كانت العامل الاكبر ، إن لم يكن الأوحد ، في ارتقاء فن الطباعة وبلوغه مرتبة الكمال . لقد عرف الاسلامُ الورقَ — وهو اختراع صيني قديم — عند استيلائهم على سمرقند ٧٠٤م وتعلموا انتاجه من الصناع الصينيين وانتشر استعماله في الغرب بفضل الاسلام . وثمّ مقدار كبير من المخطوطات العربية المكتوبة على الورق يعود تاريخها الى القرن التاسع ، لكنها لم تأتِ اوروبا المسيحية حتى القرن الثاني عشر . وأول المصانع الورقية التي أُنشئت في اوربا ، أسسها المسلمون في اسپانيا وصقلية ومنها امتدت الصناعة الى ايطاليا .

عندما أصبح انتاج الكتب في القرن الخامس عشر من جملة البضائع التجارية بفضل الطرق الآلية التي تمّ اتباعها ، أصبح الورق مادة جوهرية في انتاج الكتب بالطرق الآلية التي لولاها ما استطاع فن الطباعة تحقيق تقدمه الراهن . وعلى كل حال فالناشر الحديث ليس مديناً للمسلمين بالورق وحده ، ففي غضون القرن الخامس عشر عندما كانت البندقية منهمكة في نشر الثقافة الاسلامية ، وموضة السفنية في اوربا ، اتخذت صنعة تجليد الكتب في ايطاليا مظهراً شرقياً لا شائبة فيه . في هذه الفترة اتخذت بعض الكتب المجلدة مظهراً يشبه مظهر التجليد الاسلامي شبهاً غريباً . فشفة الغلاف التي كانت تُطوى لحماية حوافّ أوراق الكتاب ما زالت موجودة حتى الآن في دفاتر الحساب الجاري التي يستعملها الصرّافون الآن . وهي تُذكرنا بأصلها الشرقي .

وثم بدعة أخرى استُلهمت من الصناعة الاسلامية وهي طريقة جديدة في تزيين غلاف الكتاب الجلدي . كثيراً ما كان مجلدو الكتب في القرون الوسيطة يزيّنون أغلفة الكتب بزخارف مبصومة بصماً عليها بوساطة كعوب معدنية ساخنة ، وهي طريقة أصبحت ذات شأن عظيم وانتشار واسع بفضل اتقان الزخرف والتوصل الى طرق فعّالة بتكبير حجم الكعوب الكاسبة والتفنن في نقشها واللجوء الى ترسيم غلاف الكتاب وحوافيه بنقوش رتيبة متكررة

على ان الزخارف التي تُرسم بطريقة (الكنس الأعمى Blind Tooling) كما تسمى في انكلترا ، كان زخرفها يتمُّ بمجرّد اخراج رسوم نافرة ، حتى بدأ الصناع الشرقيون يزيّنون هذه الاشكال المطبوعة بمل. منخفضاتها بماء الذهب وهي طريقة أدخلها الى اوربا مجلدو الكتب المسلمون الذين استقرّوا في البندقية . وبنهاية القرن الخامس عشر ، استعيض عن هذه الطريقة بأخرى جديدة : كان الذهب يُكبس على هذه المنخفضات مرة أخرى بآلات محماة على صفيحة ذهب وبذلك يبقى التذهيب ثابتاً غير قابل للزوال . ويبدو ان هذا التحوّل الجديد في الصنعة ، قرطبيُّ المصدر. في القرن السادس عشر أصبح هذا الاسلوب عام الاستعمال عند مجلدي الاسلام والمسيحيين على حدٍ سواء ، مع أن الطريقة الشرقية الاولى باستعمال الذهب في التمويه لم تندثر اندثاراً كلياً .

ترى النماذج التي تخصّ بها الاستعمال الشرقي للذهب في المجلدات الرائعة التي يعود تاريخ عملها الى القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الذي قدمنا زخرفته الباطنية في (الشكل ٥٤) ألا انه أعجوبة في الوضوح والدقة أُخرج بعد بصمات عديدة قامت بها يد حاذقة صبورة لا تعرف الكلل وبآلات ساذجة قليلة ! ويظهر شكل (٥٥) عدة نماذج زخرفية استعملها المجلدون الشرقيون ، قواعد ترجع الى ما قبل القرن السابع عشر (وهو تاريخ صنع النموذج) بأحقاب مديدة . في الغلاف الجلدي الاحمر هذا ، زخرف وسطي مبصوم ومموّه بالذهب وتحته وفوقه وعلى أركانه الاربعة قُرنيات أنيقة منخفضة عن سطح الغلاف ومزدانة بزخارف تشبه تعريشات الدانتيل ، وهي مصنوعة من جلد ابيض دقيق أُلصق على الارضية السوداء . وثم منظر طبيعي من أشجار وطيور وحيوانات — بينها تنين من الشرق الاقصى — منقوش بالذهب على الارضية المستوية . في الغلاف البندقي من أعمال القرن السادس عشر (شكل ٥٦) ، زخارف منخفضة متشابهة ونقوش ملوّنة هي تقليد واضح للأنماط الفارسية .

ترى في الجلد المصري (شكل ٥٨) رسماً بيضوي الهيأة مدبب الرأسين رُبعه مرسوم في كل زاوية من زواياه الاربع . والغلاف الفارسي عادة يزدان برسوم على المنوال نفسه وهو

اسلوب احتذاه كثير من الصناع كما رأينا سابقاً . وثم نموذج مشابه برسوم منقوشة في المركز والزوايا ، اسلامية الاصول وزخارف هندسية ، شرقية الطراز رُسمت بالذهب على غلاف بندقي تاريخه يعود الى ١٥٤٦ كما يشاهد في الشكل (٥٨) . وفي الشكل (٥٩) وهو نموذج المانى متأخر التاريخ يبدو الاسلوب نفسه ظاهر الاتباع وإن كانت التفاصيل قد انتابها تحوير وفقاً لمتطلبات الموضة الاوربية المعاصرة .

من هذه الأغلفة الاربعة يمكننا أن نقتفي ببعض تعسُّر ، تطور الاساليب الفنية التي ظهرت اصولها في بلاد اسلامية ، ثم شقّت طريقها الى دكاكين اوربا جالبة معها أساليب وأنماطاً وعناصر زخرفية أصبحت بعد قليل من التعديل ، مندمجة اندماجاً كلياً في الصنعة الحديثة إن كبس الذهب وبصم الكتابات أصبح الآن عملاً شائعاً في أنحاء العالم يتم فوق أغلفة الكتب الناعمة بأساليب أوصلها الصناع المسلمون درجة الكمال . ثم بدأت فى القرن التاسع عشر الصناعة الآلية في انتاج أغلفة الكتب تحلُّ محل الصناعة اليدوية القديمة ، الصناعة التى لم تستطع التحرر من احتذاء الاساليب القديمة ، والاقتباس من أنماطها الزخرفية القديمة التي ترجع الى أصول اسلامية بحتة . إن الرسوم الزاهية المعرّقة الشبيهة بالمرمر التي توضع في الكتب بين الغلاف وجسم الكتاب ، او تستعمل كأغلفة ورقية او حواف الكتب المجلدة في دكاكين اوربا في خلال القرن الثامن عشر ، إنما استُمدَّت رأساً من المعين الشرقي . وثم أمثلة دقيقة لهذه النماذج فى أشرطة ورقية كانت تُلصق على حواشي الرسوم الاسلامية والرقاع الخطية المصنوعة في القرن السادس عشر للهواة والجماعين الذين كان ذوقهم الرفيع يتطلب اطارات جميلة أنيقة لتحلية كنوزهم ومجموعاتهم . كان الورق المعرَّق معروفاً في انكلترا منذ وقت (فرنسيس بيكن) ، فهو يخبرنا « بان الاتراك كان عندهم فن جميل لتعريق الورق بما يشبه عروق المرمر بطريقة نجهلها ، تتم بأخذهم ألواناً زيتية والقائها في الماء تباعاً (قطرة قطرة) ثم يحركون الماء تحريكاً هيناً ثم يغمسون الورق السميك بعض الشيء فيه فتبدو عليه العروق والتموجات كما في نسيج الكاملت chamolet » .

ان تجليد الكتب في الغرب كان يستخدم حتى نهاية القرن السادس عشر ، هذه الاوراق المعرّقة المجاوبة من الشرق. ولكن ما مرّ قرن واحد من الزمن حتى بدأ المجلدون الاوربيون يصنعونه بأنفسهم . إن الورق المعرّق المصنوع باليد ، نادر الاستعمال في أيامنا هذه ، ولكن ما زال تقليد له يُستعمل في مختلف الغايات بصورة محدودة .

×××

بقيت اوربا اكثر من ألف سنة تنظر الى الفن الاسلامي كاعجوبة ، لانه كان بالدرجة الاولى مرتبطاً ارتباطاً محكماً بالاراضي التي طمحت المسيحية ان تسترثها . لكن مصدر الإعجاب أصبح بالاخير متأتياً من جمال الفن بذاته . وان عدة تحف نفيسة من تحف هذا الفن مدينة لبقائها في حالة سليمة جيدة الى تقوى الناس في القرون الوسطى. فقد بقيت آمنة مطمئنة عدة قرون في حرز الكنائس ، حيث أصبحت العلب التي استُخدمت فيما غير لحفظ حلى الخليفة ، احرازاً وصناديق لمختلف الذخائر المقدسة . ومن يدري ؟ فربما جيء بتلك الذخائر من الاراضي المقدسة ، ملفوفة بقطعة من الحرير الفاخر اقتُطعت من حلة اسلامية شريفة . وجدت الرهبة والهيبة التي تواكب التفكير في مثل هذه الاشياء معاني متفقة مع التهاويل الغريبة والكتابات المبهمة المنقوشة عليها التي ظُنّ أحياناً أنها طلاسم او كلمات من سليمان الحكيم ، او أنها أشياء جاءت من وقته ، وما ذلك إلا لان علم آثار القرون الوسطى ليس شيئاً إنْ لم يكن محض خيال ورواية . وفي القرن الماضي فقط اجترأ البحث الرصين البارد على إلقاء بذور الشك فيما اكتنف هذه الكنوز النفيسة من خزعبلات وأوهام جوفاء . بخصوص رجوع بعضها الى هارون الرشيد وشارلمان ، او إشتهار بعضها بأنها مما جلبه معه القديس لويس التاسع من الشرق .

وسواء عُرضت أمثال هذه الاشياء تحت ألوان زائفة أم لا ، فيكفينا منها نفاستها الحقة . لقد أصبحت هذه الفرائد التي يقدرها كل خبير حقّ قدرها — مصدر إلهام ووحي لاولئك الذين أوقفوا حياتهم على فنون ، كانت مهملة في الغرب .

بدأ التماسّ بين المسيحيين والمسلمين من أوقات سبقت الحروب الصليبية بأزمان طويلة.

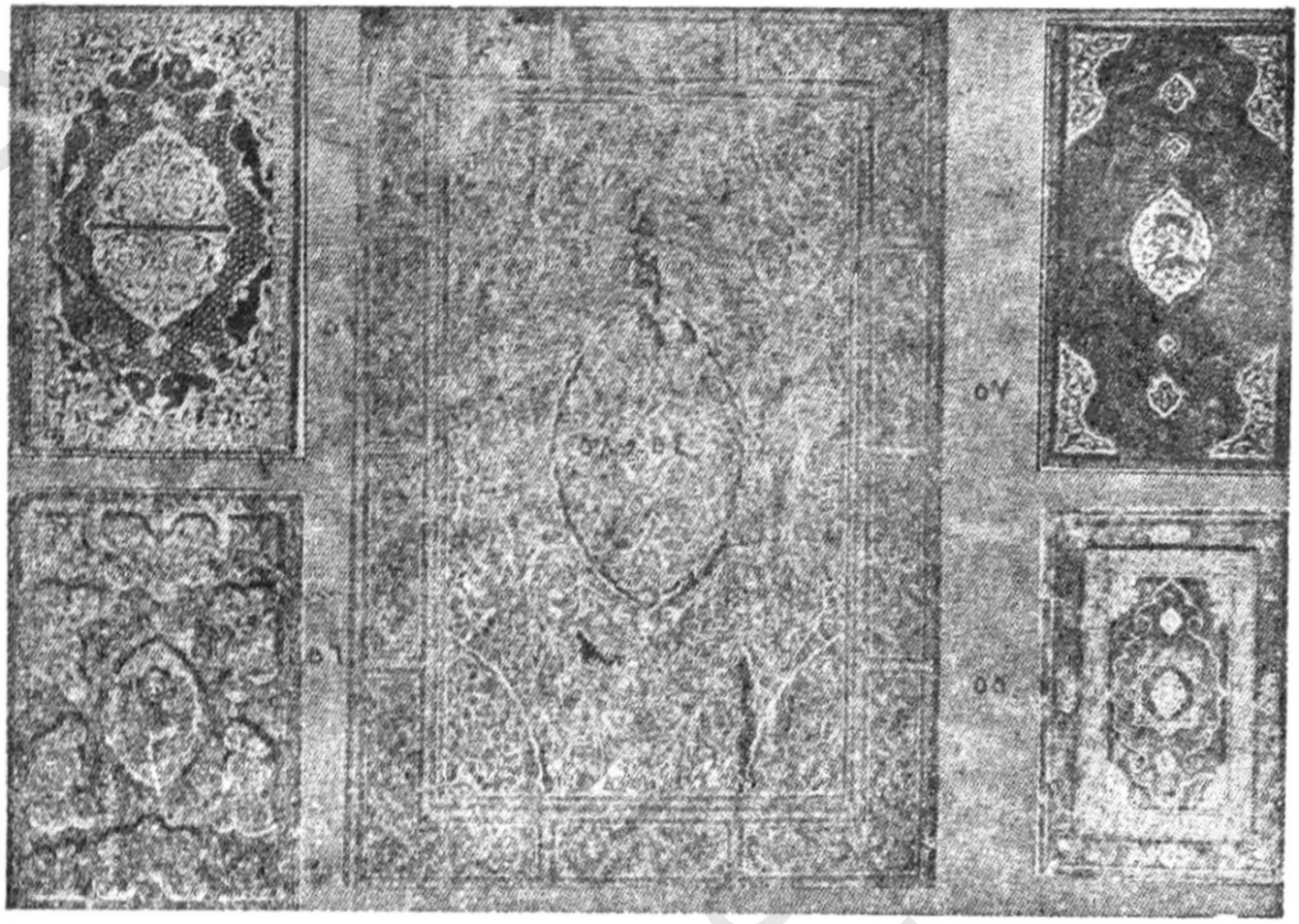

٥٤ - جلد كتاب القاهرة في أواخر القرن ١٤ او أوائل القرن ١٥
(متحف فكتوريا والبرت) .

٥٥ - جلد كتاب فارسي يعود الى القرن ١٧ .

٥٦ - 〃 〃 بندقي القرن ١٦ .

٥٨ - 〃 〃 〃 مؤرخ ١٥٤٦م.

٥٩ - 〃 〃 المانى مؤرخ حوالى ١٥٨٣م .

في اسبانيا ركّز الاسلام نفسه على تخوم اوربا الغربية ، ومارس من البداية نفوذاً عميقاً على الثقافة المسيحية. وفي صقلية عاش الدينان في صعيد واحد. بينما كان شمالي افريقيا كله محكوماً من المسلمين وكانت سفنه تمخر عباب البحر الابيض المتوسط من نهاية الى نهاية .

وكانت الحروب الصليبية فاتحة عهد جديد . فأصبح الصيت الرفيع شبه الخرافي الذي كان يُشار به الى العرب، حقيقة واقعة أمام المسيحية الحائرة المتعجبة. وما لبثت حملات المتطوعين المتقاطرة بين أرجاء اوربا أن وجدت نفسها فجأة وهي على تماس مباشر بالنظام الاجتماعي الذي كان يضيق من كل جهة بحدود تجاربهم وعقلياتهم المحدودة. كانت ردود الفعل الناجمة من من هذا الاتصال واضحة في كل ضرب من ضروب نشاط الحياة . وفاق نجاحه في النواحي الفنية نجاحه في النواحي الاخرى بما لا يمكن قياسه . وثبت التجار اللاتين بمرور الزمن صلات تجارية بالمرافئ السورية ، فأصبحت التجارة مع الشرق منتظمة في قواعد ثابتة دائمة . وأخذت تصل الاسواق الاوربية كل أنواع المصنوعات الاسلامية النادرة . تلك الصادرات أخذت تسد حاجات لم يكن من قبل يدركها او يفطن الى ضرورتها مستعملوها الجدد ، وأثارت روح المحاكاة وفتحت اينما حلّت اتجاهات للتطور بصورة مباشرة او بطرق ملتوية قدّر لها ان تؤتي ثمارها الناضجة فيما بعد .

في خلال الفترة الحرجة حيث كان الغرب يجاهد للتخلص من أوضاع القرون الوسطى ، ظهرت قوى متكتلة بدافع الحماسة الدينية دخلت دوراً آخر من أدوار النشاط المتمركز بكليته في اعمال التجارة . وفي القرن الخامس عشر تجد الصناع الاوربيين قد استفزهم النجاح الاسلامي في فنون الصناعات التحافية المزجاة التي اصبحت شيئاً جوهرياً لجلال عصر الرينسانس يتوجهون الى الشرق وقد انتابهم اهتمام مجدّد. فأخذوا بدافع دراسة أعمق الاساليب الاسلامية يصلحون ويوسعون اساليبهم الفنية الخاصة ، وبعملهم هذا لم يعودوا يكتفون باقتباس عناصر زخرفية كهذه التي جاءت عفواً ، بل بدأوا يستكشفون بدقة ونظر حديد — قوانين الزخارف الاسلامية ويقتبسونها بروح جديدة ، في آثار اوربية بحتة الصبغة .

ولم تقتصر ممارسة النماذج الشرقية على صغار الصناع ، بل تعدّتها الى شخصيات فنية كبيرة امثال (ليوناردو دافنشي) . فالشكل (٦٠) مقتبس من مخطط تمهيدي وُجد بين مسودات هذا الرسام ، يبرهن على مدى اهتمامه بمثل هذه الدراسات .

هذا التجديد لم يكن دائماً نتيجة للملاحظة المباشرة . فقد برزت في مستهل القرن السادس عشر قاعدة جديدة ذات طابع تعليمي ، وقابلية للانتشار وهي (كتب النماذج) : النتاج المباشر لآلة الطباعة . فعن طريق مجموعات كهذه ، اصبحت البدع التخطيطية لمشاهير المصممين على الاسلوب الحديث ، معروفة لاولئك الذين صعب عليهم ان يتحرّوا عنها من اصولها ومصادرها الاولى . ومن أهم (كتب النماذج) هذه ، المجلّد النادر الذي عمله «فرنشسكو دي پلكرينو Francesco di Pellegrino[٢٥] الذي اقتبس نماذجه على الاغلب من الانماط الاسلامية . هذا المجلد ومجلدات اخرى معاصرة له (كالكتب التي عملها بيتر فلوتنر Peter Flotner ، وفرجيل سولس Vergil Solis ومارتينس بتروس Martinus Petrus وغيرهم) انما كانت خطوة تمهيدية للوصول الى نماذج (هولبين) الذي استطاع برسومه لصاغة الفضة ، وغيرهم من الصناع أن يحول بمهارة وعبقرية ، بالاهتمام الإلهام الاسلامي الى انماط اوربية خالصة كانت نسيج وحدها .

أخذت المشاريع الصناعية الهولندية والانكليزية فى القرن السابع عشر والثامن عشر تجني ثمار مغامرات (فاسكو دي گاما) في جزر الهند ، فطغى سيل جديد من التجارة مطرد الإتساع من الشرق مباشرةً وأثرّ في صناعات ذات صلة وثقى بالحياة اليومية بحيث ازداد عليها الطلب فنظمت بطرق شبيهة بتنظيم التطورات الصناعية الحديثة . وقد جاءت من آسيا المسلمة

٢٥) رسام فلورنسي ونحاة اشتغل في (فونتبلو) للملك فرانسوا الاول وهو معروف في فرنسا باسم « *Froncesque pellegrin* » كتابه « زهرة علم الزخارف» وهو نماذج من المدبج على الطرز الايطالي . *Le Fleur de la science de Pourtraicture : Patrons de Broderie , Facon arbique et ytalique* يعود تاريخه الى ١٥٣٠ . نشرت طبعة فوتو غرافية له مع مقدمة بقلم غاستون ميكون *Gaston Migeon* في باريس سنة ١٩٠٨ . (المؤلف)

الى اوربا حاجات عديدة كانت تبدو لأول وهلة تافهة ، لا أهمية لها لكنها اصبحت ضروريات. ولم يقتصر التكالب عليها في اوربا ، بل أصبحت لازمة للعالم المتمدين بأسره. وجاء في ركاب شحنات المنسوجات القطنية و « الجيت Chintzs » المطبوع بزخارف ملونة زاهية ، موضات جديدة في المنسوجات تطوّر الى ما يسمى بـ Persiennes المنسوب الى باريس ، مانحاً سيدات عصر الملكة الانكليزية حنة[٢٦] اقمشة جميلة لثيابهن ، وجالباً بالاخير الثروة لمدينة (مانجستر). وورد الشال (Shawl) الجديد — كما يدل عليه اسمه — من ايران ، ووصلت أشكال جديدة لأوعية مما يُستعمل للشاي والقهوة ، ربما محاكيةً أباريق المغول التي اقتبسها من الهند المغامرون الغربيون من طلاب الحظ والثروة في الشرق . هذه الاوعية مازالت مألوفة على موائد الفطور ذات الطراز الفكتوري بعد أن طرأ على شكلها شيء من التحوير .

من ظهور الاسلام ؛ وتقوى الغرب وثقافته وتجاربه بل وفضوله ، كلها تجد شيئاً يلائم ذوقها في نتاج عبقرية الاسلام . ولكن أسرار ميزاتها الفنية وجمالها لم يكشف إلا للصفوة من عباقرة الصناع كاوديريكوس من روما Odericus الذي رسم سنة ١٢٨٦ النماذج الاسلامية على بلاط من الرخام المكفت في افريز من أفاريز هيكل كاندرائية (وستمنستر آبي) . وكوليم موريس الذي حاك نماذج اخرى من قطيفة سنة ١٨٨٤ مع مجموعة اخرى من الفنانين قبلها او بعدها او معاصرة لها . اولئك الذين توفر لديهم الوقت بين فترة واخرى ليمدوا الفن العربي بصيب ، هو عندنا اشبه بمرتب لمدى الحياة ، منه بميراث .

أي. إج. كريستي

الفن الاسلامي وأثره على التصوير في اوربا

ليس ثم أدلة تثبت وصول صور اسلامية الى اوربا قبل القرن السابع عشر ، والمظنون

---

٢٦) الملكة حنة ستيوارت ملكة انكلترا ١٧٠٢ - ١٧١٤ .

ان رامبراندت[٢٧] هو اول رسام في الغرب اهتمّ اهتماماً جدياً بالفن الاسلامي وذلك برسمه عدة نسخ لصور أفراد الاسرة المالكة بدلهي وصلت هولندا من الشرق الاقصى[٢٨] .

ونحن نستبعد وجود أي أثر مباشر لفن التصوير مصدره العالم الاسلامي — على أي فنان من فناني اوربا . ونستبعد وجود أكثر من دليل على تأثير من الشرق الاسلامي في أي نهضة كبرى لفن التصوير باوربا . من المستحيل مثلاً أن نتأثر في الاسلام أي اتجاه جديد في فن التصوير شبيه بما بانَ على التصوير الايطالي خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر نتيجةً للاهتمام المجدد بالفن الكلاسيّ . لذا فكل التأثير الاسلامي الذي يمكن استكناهه يكاد يكون سطحياً . لكنه شرع يبدو فى اوربا اول ما أخذ المسلمون يسيطرون على مياه البحر الابيض المتوسط . فمن المنسوجات الشرقية اقتبست صور عدة حيوانات ، كما يظهر ذلك من مخطوط (سفر الرؤيا) لـ (بيتس Boatus)[٢٩] المحفوظ في المكتبة الوطنية[٣٠] وفى مخطوطات عديدة اخرى خاصة ، تلك التي تُنسب الى مدرسة ليموج limoges[٣١] في مفتتح العصور الوسطى ولكن تأثير تماس مباشر للعالم المسيحي بالثقافة الاسلامية وتصدير بعض البضائع من نتاج الفن الشرقي لم تخلف أثراً قوياً فى فن التصوير كما خلفته في فنون النحت ، والعمارة ، وشغل المعدن. إن أبرز التأثير ظهر فى اقتباس الاتجاهات الشرقية فى شؤون الزخرف. وهذا على الاغلب ثانوي المكانة . ومع ان انتباه الفنانين العربيين الى هذه الأنماط الزخرفية تمّ بفضل الحرائر الاسلامية المستوردة وغيرها من المصنوعات فانها لم تكن قاصرة على ما أنتجه المسلمون بالأصل بل شمل كذلك كل ما اقتبسوه هم من أسلافهم . ومن هذا التراث الفني المستمد من الماضي ، توجد

---

٢٧) *Rambrandt* (١٦٠٦ - ١٦٦٩) مصور هولندي شهير برع في المناظر التاريخية .

٢٨) انظر : *F. Sarra* : *Jahrbuch des Kgl. Preussischen Kunst Sammlungen*. «الكتاب السنوى للمجموعة البروسية الملكية الفنية» لسنة ١٩٠٤ ، ص ١٤٣ . (المؤلف)

٢٩) المخطوط رقم ٨٨٧٨ . جي ابرسول *J. Ebersolt* (الشرق واوربا) ص ٩٩ طبع باريس ١٩٢٨ .

٣٠) *Beatus* : ٧٣٠ - ٧٩٨ راهب فالكفادى : مؤرخ وجغرافى تقدمت ترجمته . وكتابه هذا الفه سنة ٧٧٦ .

٣١) مدينة فرنسية اشتهرت بالتحافيات الصناعية الدقيقة والمنسوجات .

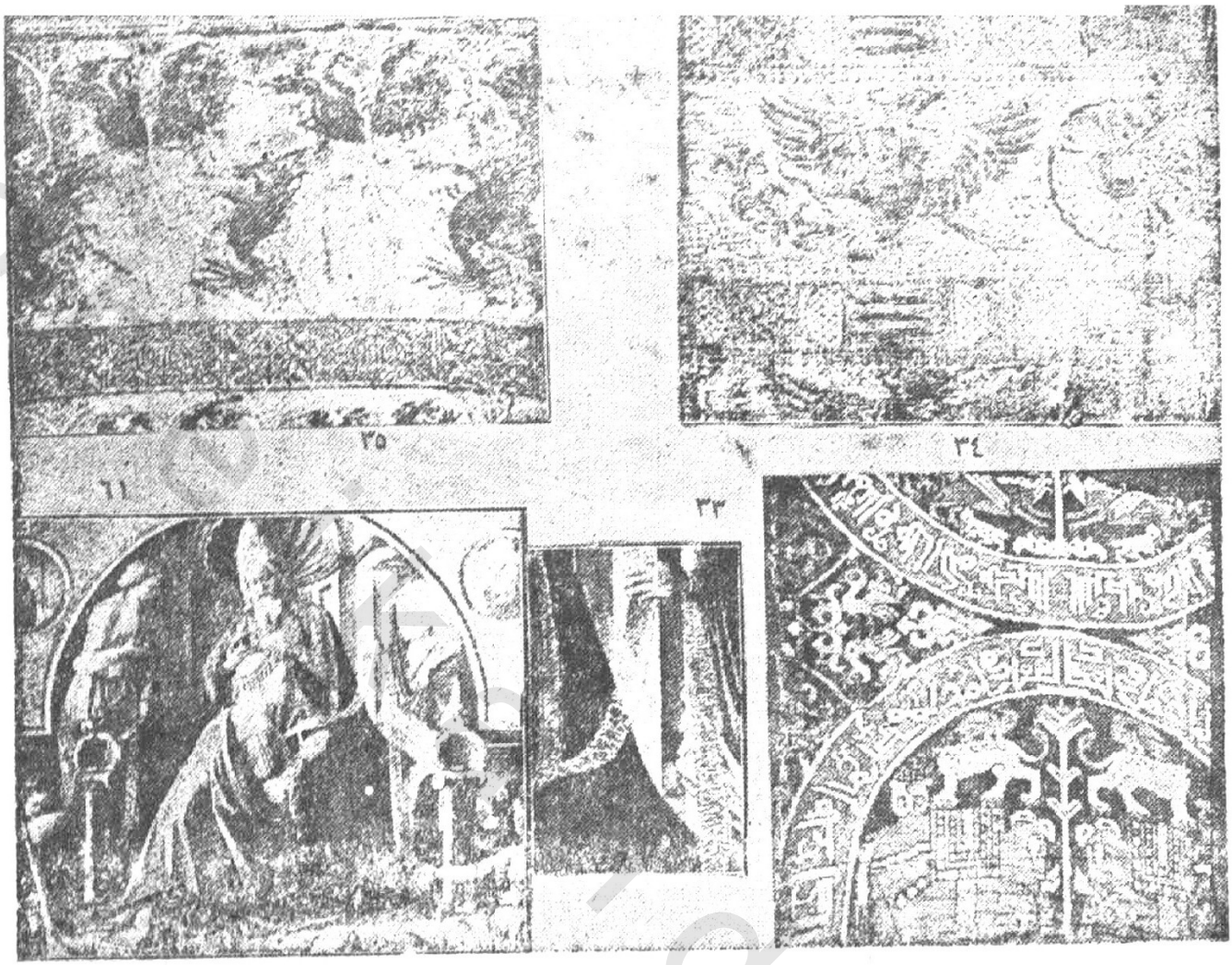

٣٣- نسيج حريري ، بغدادي في أواخر القرن ١٠ وأوائل القرن ١١ (كلية سان ايزيدور- ليون) التصوير لأركسيف ماس .

٣٤- نسيج حريري صيني يعود للقرن ١٣ (متحف فكتوريا والبرت) .

٣٥- نسيج حريري ايطالي يعود للقرن ١٤ (متحف فكتوريا والبرت) .

٦١- استعمال الاحرف العربية لغايات زخرفية .

المنظر الرئيسي مأخوذ من صورة تتويج العذراء (اوفيزي - فلورنسا) للرسام فراليبو ليبي . وبجانبه صورة مكبرة لجزء منه ترى فيه أحرف عربية في الوشاح الذي تحمله الملائكة .

عدة نماذج متوارثة ذات عراقة وقدم ، كالشجرة الكلدانية المقدسة التي انحدرت عن طريق الفن الساساني الى العهد الاسلامي . شجرة الحياة هذه بشكلها الاصيل البدائي كانت على الاغلب قائمة بين وحشين متقابلين . وكثيراً ما حذف الفنانون المسيحيون المركز من الرسم أي الشجرة . ومن بين الاشكال الغابرة الاخرى لما قبل الاسلام حيوانان أحدهما يفترس الآخر ، وحيوانان برأسين وجسم واحد ، وكلها ظهرت في النحت أكثر مما ظهرت في التصوير ، فذلك يعني انها على الاغلب مستنسخة من أشباه لها منقورة على تيجان أعمدة . او من صور منقورة نافرة في الكنائس[٣٢] . أما عن وجود فنانين مسلمين اشتغلوا لعملاء مسيحيين في القارة الاوربية خلال الازمان الاولى من القرون الوسطى ، كالذين زخرفوا بيعة بالاتينا Palatina في بالرمو لملك صقلية روجر الثاني (١١٠١ - ١١٥٤) ، فالظاهر ألا شاهد لدينا على ذلك[٣٣] .

وفي خلال الحروب الصليبية حصل تماس اكثر مع مسلمي الشرق مما أدى الى تسهيل استيراد الحاجات ذات الطابع الزخرفي الاسلامي المتمايز. وفي بلاد مراكز الارتباط التجاري مع الشرق كجنوة وبيزة والبندقية ، دخلت هذا النموذج في التصوير واستتبع ذلك أن ظهر الاهتمام بالعالم الشرقي ، ذلك الاهتمام الذي استعر اواره كثيراً بالفضول والافتتان ، بما حالف المألوف بدا ذلك في اول نتاج لمدرسة رسم في مدينة سينا Siena وأصبح ثابتاً مستقراً في الفن التوسكاني . أخذت الرؤوس المعتمرة بالعمائم ، والسحنات الشرقية ، تبدو في صور ايطالية قبل النصف الثاني من القرن الرابع عشر . هذه الشخوص الأجنبية كانت تحتل مكانة ثانوية في رسم المنظر المقدس. ولم يلمس وجود التأثير الشرقي بصورة خاصة إلا في التوابع لا الاصول

---

٣٢) نظمت بذلك قائمة طويلة . انظر اندريه ميشيل «تاريخ الفن: مجلد ١ القسم ٢ صحيفة ٨٨٣ وما بعدها . (باريس ١٩٠٥) » . وانظر أ . مارينان « تاريخ الفن الفرنسي » وانظر لويس كوراجو « الفصل الرابع : تأثير الشرق على اقاليم ايطاليا الشمالية والوسطى (باريس ١٨٩٩) » .

٣٣) انظر با فلوفسكي *L. Pavlovsky* (زخارف سقف كنيسة بالاتينا) . (مجلة الفنون البيزنطية المجلد الثاني ١٨٩٣) .

كمحاكاة الفارسي من السجاد وغيره ، وإكساء الاشخاص في الصورة حتى الرئيسيين منهم — ثياباً شرقية ، واقتباس الحيوانات الأجنبية كالفهود والقردةوالببغاوات ، كذلك في تفاصيل المناظر الطبيعية أيضاً فمن الممكن ملاحظة دقائق صغيرة في الاشجار وأوراق النباتات تبدو تقليداً محكماً للأنماط الشرقية .

ظهر اقتباس شرقي الطابع فيالتهافت الكثير على الحروف العربية باستخدامها لغايات زخرفية . وهذا أحد أوائل الامثلة لتأثير الفن الاسلامي المباشر على الصناع المسيحيين الذي استرعى انتباه الباحثين الاوربيين . ومنذ أن نشر ادريين دي لونكبيرير Adrien de Longperier مقالته في «استخدام الاحرف العربية في الزخارف عند شعوب اوربا المسيحية» في المجلة الاركيولوجية سنة ١٨٤٦ Revue archeologique . ومنذ ذلك الحين ، وعدد من القرائن آخذ بالتجمع . إن أنفس مجموعة من تلك القرائن يمكن استخلاصها من مقالات السيد أ. ج. كريستي في مجلة برلنكتن مجلد ٩٠–٩١ والموسومة : « تطور الزخرفة من الكتابات العربية» . استعمال زخرفي كهذا للأحرف العربية ظهر في لوحات ايطالية قبل عصر جيوتو[٣٤] ، مثال ذلك الكتف الأيمن لصورة المسيح في قيامة لعازر بكنيسة أرينا . إن فرا انجليكو ، وفرا لبّوفليبي[٣٥] (شكل ٦١) كانا مغرمين بصورة خاصة بهذا النوع من الزخرفة واستعملوه حتى في تزيين أكمام العذراء مريم وحاشية ثوبها — جاهلين تمام الجهل كما يدلُّ ظاهر الحال ، اصول تلك الاشكال . إن مصادر فكرتها عن هذه الكتابة يجب ان نلتمسها في عدة قطع من الحرير وغيرها من المنسوجات التي جُلبت الى اوربا من الشرق . او في المصابيح

---

٣٤) *Ambrogio Giotto* ١٢٦٦ – ١٣٣٦ رسام ايطالي ونحات ومعمار نبغ في فلورنسا .

٣٥) *Fra Angelico* (١٣٨٧ – ١٤٥٥) رسام فلورنسي شهير كان راهباً دومينكياً برز في رسم الصور المرمرية ومن اعظمها ما خلدته ريشته في كنيسة سان ماركو بالبندقية .

٣٦) *Fle Philippi Sippo* (١٤٠٦ – ١٤٦٩) رسام ايطالي ولد في فلورنسا ، اعظم اعماله مجموعة من الصور الحائطية في مصلى كاتدرائية براتوا تمثل شيئاً من حياة يوحنا المعمذان والقديس السطيفان .

او غيرها من الأواني الصفرية .

السر توماس ارنولد

المصادر :

سر توماس أرنولد : التصوير في الاسلام : دراسة مكانة فن التصوير في الحضارة الاسلامية (اكسفورد ١٩٢٨).

obeikandl.com

obeikandl.com

فن العمارة

ARCHITECTURE

بقلم

مارتن . اس . بريكز MARTIN. S. BRIGGS

من المستشرقين المتخصصين في فن العمارة العربيـــة . واستاذ في اكسفورد . صاحب كتاب « فن العمارة الاسلامية في مصر وفلسطين » طبعه باكسفورد سنة ١٩٢٤ . وله جمـلة مقالات واستشراقية في هذا الباب .

obeikandl.com

ربما يستطيع الجيل الآتي بعدنا ان يحدد بشيء من الثقة مقدار تراث العالم الاسلامي الذي خلّفه في فن العمارة. ولكن شكاً كثيراً يحوم حول عدة مسائل مهمة في العمارة الاسلامية نظراً الى وضعية البحوث العلمية الراهنة . بحيث لا يستطيع ان يزعم لنفسه قوة الحجة ، وتحدي النقيض إلا المتحمس الغيور . ولسوء الحظ إن أكثر الابحاث الاخيرة التي كان المفروض فيها ان تلقي ضوءاً على نقاط هي محل أخذ ورد ، قدمت لنا على شكل محاورات جدلية. هذه المحاورات لم تهتم بطبيعة العمارة الاسلامية في فترة نضوجها ولا بمدى تأثيرها على تقدم فن العمارة في عالمنا العربي. بل كانت تدور حول اصولها وأبنيتها الاولى. ومما يكسب لهذه البحوث مقامها المباشر في موضوع تراثها للجنس البشري لاننا لا نستطيع ان ندرك ادراكاً وافياً ما ورثنا من الاسلام إلا بقيام بعض الادلة المثبتة أن للاسلام الحق في هذا الوصف . وبكلمة اخرى فلقد قيل أن أشياء كثيرة من العمارة الاسلامية اختلس من شعوب غير اسلامية حتى ان بعض الباحثين لا يرون في المسلمين اكثر من مستعيرين لأشكال معمارية ، وليس لديهم فن معماري خاص يستحق تسميته بهذا . وللوصول الى نتيجة في هذه النقطة الجوهرية ، من الضروري أولاً ان نحاول دراسة الخطوط الاساسية ، للعمارة الاسلامية والسمات التي تدمغها بصورة عامة .

إن العرب الذين اكتسحوا في غضون نصف قرن كروبعة صحراوية — بلاداً تمتد من الحجاز الى أعمدة هرقل غرباً ، والى حدود الهند شرقاً فتحوا بلاداً كانت المدنية قد وصلتها . وقد بسطت سيطرتهم على رقعة من الارض أوسع من رقعة الامبراطورية الرومانية في أعظم فترة من سلطانها . واحتضنت عدة شعوب ، كان فنها المعماري يختلف عن روما . وأحياناً أعرق من روما وأقدم .

ومهما كانت طبيعة الموقف الذي يقفه المرء في الجدال العنيف بين اولئك الذين يعتقدون

ان عمارة القرون الوسطى الغربية هي رومانية الاصل بالدرجة الاولى ، وبين اولئك الذين يعزون كل شيء الى ايران وأرمينيا . فمن المناسب ان نبدّد هذا الغموض بقولنا إن مدرسة الرأي الأخير هي مدار اهتمامنا الجدي . لقد أوضحت سلسلة المستكشفات الخطيرة في أرمينيا وبلاد ما بين النهرين وتركستان وفصّلت لنا بشكل منفر عدائي ، مع ذلك فقد أضعفت من ثقتنا بوجهة النظر التي تعزي كل شيء الى روما . وربما جاءت وجهة النظر هذه من تعضيد الكنيسة — قروناً عديدة — للفكرة القائلة بان أبنيتنا الرومانسكية والقوطية برزت من رماد روما الامبراطورية وبقاياها . او ربما كان انسانيو الرينسانس المتحذلقون ، هم الملومون لسوء فهمنا هذا . ولكن مهما كان السبب فلا منجى لنا من التطلع الى الشرق بضمير منصف حيادي ؛ مبتدئين بالتخلص من عادة النظر الى (الشرق) كوحدة قائمة بذاتها . لا يكاد أحد يشك شكاً جدّياً في مقدار ما ندين به لروما . لكن الوقت حان لاعادة النظر في التزاماتنا تجاهها كمّاً وكيفاً .

من البلاد التي أخضعها الفاتحون العرب ، سورية وقسم من أرمينيا ، والجزء المأهول من افريقيا الشمالية بضمنه مصر . هذا كله انتزع من يد الامبراطورية الرومانية الشرقية . ثم استولوا على اسپانيا من يد (الفيزغوط) وقد كانت في السابق اقلياً رومانياً . أما الاراضي التي تمتدُّ من بلاد مابين النهرين حتى تركستان وأفغانستان فهي ما عُرف قبلاً بالمملكة الساسانية التي حكمها كورش الثاني . انتشرت المسيحية في كل هذه الاصقاع المترامية حتى الحدود الشرقية لأرمينية وسورية . وهناك كاتدرائية يرجع تاريخها الى القرن السادس — في أقصى حدود اليمن غرب صنعاء جنوب شبه جزيرة العرب[1] . وهكذا وجد الفاتحون بنائين وصناع مهرة في كل بلد من البلاد التي أخضعوها رهن اشارة منهم . كما وجدوا عدداً هائلاً من الابنية التي استعملوها كما استعملها الفيزغوط والاقباط المسيحيون من قبلهم ، كمصادر تمدهم بحجر البناء ومواده لبناء عمارات جديدة . لقد ابتني كثير من القروض على هذه الحقيقة التي لا

١) (بي) و (اي) وشو « اسبانيا العربية » لندن ١٩١٢ ص ١٢٢ . (المؤلف)

يمكن تكرارها . لكن ما على المرء إلا أن يذكر أيضاً ان العرب وجدوا أساتذة محليين في البلاد الشرقية الخاضعة لحكمهم . كان طرز بنائهم يختلف تمام الاختلاف عن الطراز الروماني اولئك الاساتذة الذين على حدّ زعم الباحثين – علّموا المعمارين البيزنطيين كل ما جعل العمارة البيزنطية تختلف عن عمارة روما .

لا حاجة ثم تستدعي مناقشة الرأي الشائع الوجيه القائل بان الفاتحين العرب الاولين ، عدموا الذوق والمهارة المعمارية ، كانت طبيعة الامور تقتضي ذلك . ففتوحات كالتي أنجزها العرب لم تكن ممكنة إلا لأمة مجندة ألهبتها الحماسة الدينية ، لا تملك وقتاً لغير الجهاد والصلاة. فضلاً عن ذلك كله فانهم لم يكونوا حضراً ، بل بدواً . حتى انهم – عندما تركوا الجهاد للنهوض باعباء الحكم – لم يروا مفراً من الاعتماد في فنون العمارة ، على صناع محليين او (وهذا مهم) على صناع جيء بهم من مختلف الامصار المفتوحة. وهكذا فقد علم بان البنائين الارمن استُخدموا في اسپانيا فضلاً عن مصر . وربما استُخدموا في بناء كنيسة جرميني دي بري Germigny des Pres في فرنسا إبان القرن التاسع . وهي كنيسة تجد في بنائها مسحة اسلامية غلابة[٢]. ولكن مع احتمال جهل العرب في أمور الهندسة المعمارية في أوائل عهد الفتوح فان الحقيقة الساطعة عن فن العمارة الاسلامية هي انها بقيت نسيج وحدها في كل البلاد وكل العصور التي مرّ بها الاسلام ، مع بقاء اصولها معقدة غاية التعقيد . هنالك شيء يميزها عن أعمال جميع المدارس المعمارية المحلية التي كانت أداة فنية لخلقها .

وربما كان الدين الاسلامي هو العامل الذي حوّر بين مجموعة أساليب البناء المختلفة وربط فيما بينها مُخرجاً اسلوباً ذا نمط واحد متمايز . ذلك ان الابنية التي شادها العرب في أوائل سنوات حكمهم كانت مساجد وقصوراً بالدرجة الاولى. وأهم أثر معماري للعصور التي تلتها ظلّ أيضاً لايعدو المساجد والابنية الدينية كالمدارس والتكايا التي لم يخلُ احدها من مسجد . فالمسجد هو البناية الاسلامية الرئيسة والأصيلة، تختلف الى درجة ما من ناحية الشكل باختلاف أمكنة

٢) شتريزكوسكي « فن عمارة الكنيسة المسيحية » (اكسفورد ١٩٢٣) ص ٦٤ .

بنائها . على انها متحدة دائماً بتخطيطها العام . إن الحج السنوي الى مكة من جميع أنحاء العالم الاسلامي قد أثر بدون شك في تثبيت هندسة المسجد شكلاً ، حيث كان يتحتم على الحجاج وهم في رحلتهم الطويلة ، أن يؤدّوا صلاتهم في مسجد المدينة التي يمرون بها . فاذا كان الحاج بنّاء او مهندساً معمارياً فسرعان ما يدرس تصميم المسجد .

يُعتبر مسجد المدينة البسيط الذي بناه الرسول سنة ٦٢٢ الطراز المحتذى للمساجد الاخرى. فهو عبارة عن مساحة مربعة تحيطها جدران مبنية بالآجر والحجر . الاّ الجزء الذي يؤم فيه الرسول المصلين — ربما ركنه الشمالي — فقد كان مسقفاً . وربما كانت السقوف تصنع من جريد النخل المغطاة بطبقة من الطين ، وتستقر على دعامات من جذوع النخيل . وكان المصلون يركعون مقتبلين جهة الشمال . وهي ناحية اورشليم المدينة المقدسة . وكانت هذه (القبلة) تُحدَّد بطريقة ما . وفي سنة ٦٢٤ غيّرت قبلة المصلين هذه من اورشليم الى مكة أعني غيرت (بالنسبة الى المدينة) من الشمال الى الجنوب . في بناية بدائية كهذه ، لم يكن ثم ضرورة تدعو الى استعارة فنون معمارية من أي مصدر ، إذ لم يكن ليتطلب الامر شيئاً من ذلك . والمسجد الثاني الذي بني في الكوفة سنا ٦٣٩ كان سقفه يرتكز على أساطين رخامية جيء بها من قصور ملوك الحيرة الفرس السابقين ، وكان هذا المسجد مربع الشكل لكنه محاط بخندق بدلاً من جدار . وبنى عمرو بن العاص مسجداً آخر أصغر منه في الفسطاط (القاهرة سنة ٦٤٢م) مربع الشكل أيضاً ، وقيل انه كان خالياً من فناء مكشوف (صحن) وانه يحتوي على شيء جديد هو منصّة مرتفعة (منبر) . وبعدها بسنوات قللة وُجدت (المقصورة) وهي حجاب فاصل او شباك من خشب يحجب الامام عن الجماعة . وقيل ان المنابر ظهرت في نهاية هذا القرن . وظهر المحراب (لتعيين القبلة) بعدها بقليل (شكل ١) . وهكذا تكونت — في ظرف ثمانين او تسعين سنة من بناء أول مسجد في المدينة ، كل الميزات الرئيسية لمسجد الصلاة (الجامع) اما الليوانات (جمع ليوان وهو تحريف الايوان) فكانت من الامور التفصيلية التي اضيفت فيما بعد . وهي أورقة او أطواق تحيط بالصحن لغرض الاحتماء فيها ولتسهيل (الوضوء).

تشمل قائمة الملاحق والتفاصيل هذه ، ألزم ما يحتاجه مصلو الجامع في أي عصر من العصور .

لم يبق بناء واحد من الابنية التي ألمعنا اليها آنفاً محافظاً على شكله الاول . حتى على تصميمه الهندسي الذي ضاع تماماً بفعل الاصلاحات والترميمات المستمرة . لكن التصميم هو كل ما يهمنا هنا . حيث أن اول مسجد لايصح إطلاق صفة (ببناء) عليه ، وهو ليس عملاً معمارياً على وجه التأكيد كما نفهمه . وعلى أية حال فالسيد فان برجم[٣] يرى ان التصميمات الاصلية حتى لهذه المساجد البدائية مقتبسة من الكنيسة المسيحية الاولى : فالصحن قد اقتُبس من القاعة الكبرى Atrium[٤] والجزء الرئيسي للايوان من المصلى الكنسي ، والمقصور من الحاجز القائم بين المصلين والمذبح ، والمنارة من برج الكنيسة[٥] والمحراب من صدر المذبح . ولكن مثل هذه الرابطة لا تكاد تستدعيها ضرورة او مناسبة اذ لم توضع مسألة فن العمارة على بساط البحث إلا بعد أن أخذ العرب يحولون هذا المأوى والقاعة الساذجة المخصصة للعبادة الى فن عمارة.

ان الانتقال من الضرورة المجردة الى محاولات للتسامي والطموح كان سريعاً جداً — بشكل يُدهش له المرء حين يتأمل الترمُّت الذي صحب الدين الاسلامي . وصرامة حياة الجهاد التي كان يحياها العدد العظيم من المسلمين . فأعيد بناء مسجد محمد في المدينة بعد عشرين سنة من وفاته ، باقامة جدران وأساطين من الحجر المنحوت ، وبني في السنين الاخيرة من القرن السابع قرب المسجد الساذج الذي شاده الخليفة عمر في اورشليم بعد فتح العرب المدينة سنة ٦٣٩ — مسجداً رائعاً ، هو المسجد المشهور بقبة الصخرة . بناية ذات مساحة كبيرة ، وطابع فخم ، وزخارف بديعة . عند هذه النقطة لايسعنا إلا النفوذ الى قلب كل الجدل الحاد الذي مازال مستعر الاوار حول أصل فن العمارة الاسلامية . أن قبة الصخرة بناء رائع من الحجر ، هو بمثابة (مشهد) حيث يطوف الحجاج بالصخرة وهي المكان الذي يعتقد ان محمداً (ص) قد

---

٣) *Van Perchem* : دائرة المعارف الاسلامية : ماده العمارة . (المؤلف)

٤) القاعة التي يدخل اليها من الباب وهي الغرفة الكبرى في البيت الروماني .

٥) هذه النظرية منبوذة الآن . (المؤلف)

عرج منه الى السماء. فضلاً عن ذلك فقد بقي هذا المسجد فريداً في بابه ، ولم تبدر محاولة خلال أربعة قرون على الاقل – للعزوف عن مسجد الصلاة المربع ، بصحنه المفتوح . ولذلك فلقد قيل من دون تبصر او فطنة بان مسجد (قبة الصخرة) ما هو إلا تقليد للعمارة الرومانية او البيزنطية ، نقل نقلاً عن أمثاله من الابنية الوثنية والمسيحية . نقله المعماريون المسيحيون. لذلك كان بناءً هندسياً غريباً ، بعيداً عن مجرى الفن العربي الرئيسي .

هنالك نصيب من الحقيقة ، بل من الاصابة الوجيهة في هذه الفكرة . ولكن علينا ألاّ نحملها اكثر مما تستأهل من التقدير . في شرح تفاصيل هذا الطرز الجديد من البناء ، أعني القبة المجنحة aisled rotunda ، كانت غاية معينة واحدة تواكب التفكير العربي ، وهي الرغبة في تمجيد وحماية صخرة اورشليم المقدسة العتيقة التي سبقت فحظيت بالتقديس من اليهود والمسلمين على حد سواء. بل كان يحدوهم كذلك الشوق الى إقامة بناء ينافس بل يفوق الكنيسة المسيحية الشهيرة القريبة منه والمعروفة باسم كنيسة (القبر الأقدس) وجعل (المشهد) الجديد في وسط هضبة صخرية عظيمة عُرفت بالحرم الشريف على قدَمة كبيرة الجرم . او ما يُدعى بـ poduim (على محاذاة المحور الوسطي لها يقوم المسجد المعروف بالمسجد الاقصى وهو بناء بسيط تاريخه شديد الغموض والتعقيد لا مجال للخوض فيه هنا) . أظهر العرب رجاحة واصابة فكر في اتخاذ القبة – وبكلمة أدق القبة الدائرية annular rotunda – شكلاً رئيسياً لأماكن عبادتهم. صحيح ان الرومان والبيزنطيين قبلهم استخدموها لهذا الغرض ، أي لتكون الجزء الارفع والأشد إحكاماً من البناء الذي صُمم ليحمي ضريحاً او أي مكان شريف ، ولكن هؤلاء لم يكونوا بناة القبة الوحيدين على وجه البسيطة ، فستريجوسكي بطل الدفاع عن التأثير الايراني يرى ان القبة الشرقية أصلها من آسيا الصغرى او أبعد منها الى الشرق . عبرت من أرمينيا الى بيزنطية ومنها الى البلقان وروسيا تحت رعاية الكنيسة اليونانية[٦] وعليه وإن كان

٦) انظر : ي. ستريجوسكي *Strzygowski* المرجع السالف ذكره ص ٢٧ .

العرب هنا قد استعملوا (قبة) للمرة الاولى فقد استعملوا طرزاً لم يكن مسيحياً خالصاً او حتى رومانياً بحتاً . وربما نُسخ نسخاً من قبة كنيسة القيامة الشهيرة المصاقبة لها والمساوية لها في المساحة. مما لا شك فيه انه وجد كنائس مقببة في سوريا وأرمينيا قبل نهاية القرن السابع بزمن طويل . وقد وجدت كنائس على طرز قبة الصخرة أعني قبة مجنحة مثمنة الجوانب . أما سائر البناء. فالجدران مبنية بالحجر الأصم. اما البوائك الخاصة بالاقواس الداخلية وفتحات النوافذ فنصف دائرية وكل الاساطين التي استخدمت في سلسلة البوائك انما هي أساطين أثرية أُخذت من أبنية مسيحية او وثنية قديمة ولذلك تجد ان كلا الاساطين نفسها وهاماتها من طراز غير موحد. وعند بدء نقطة تقوس القوس ترى جذوعاً خشبية رابطة ربما كان الغرض من استخدامها هو لمقاومة هزات الزلازل التي كثيراً ما تحدث فى تلك البلاد او ربما لان البنائين كانوا يخافون الاعتماد على التقويس وحده . احتياطات شبيهة بهذا كانت تتخذ ايضاً في الابنية البيزنطية . والقبة نفسها مضاعفة، مصنوعة من الخشب لاغير ومغطاة من الخارج بالرصاص أما من الداخل فمغطاة بالجبس المزخرف والملوّن . ولكنه ليس البناء الاصلي . فأغلب شغل الموازييك (الفسيفساء) هو أصلي . ولكن أغلب النقوش والزخارف الباقية حتى الآن هي من تاريخ متأخر . ولذلك فنحن نجد من طراز (قبة الصخرة) اسلوب استعمال القبة، واستعمال الأقواس نصف الدائرية والعوارض الخشبية الرابطة . وربما الفسيفساء . مما لا ينكر أن القوس نصف الدائرية لم تكن بدعة عربية قط . أما أصل العوارض الخشبية الرابطة فمشكوك فيه. وأول استخدام للفسيفساء كان قبل مجيء الاسلام . بعد مسجد قبة الصخرة يأتي المسجد الجامع بدمشق حسب التسلسل التاريخي (شكل ٢) بني في السنوات الاولى من القرن الثامن . والايوان الرئيسي فيه هو جناح تخم بأبواب او أستار مشبكة في الاقواس التي تفصله عن الصحن . إن البدع الجديدة في هذا الجامع عديدة . فالايوان الرئيسي يتألف من ثلاثة ممات يقطعها جناح مركزي تعلو وسطه قبة . وفي نهاية الجناح أعني فى وسط الجدار الجنوبي من الايوان الاكبر يُرى محراب ، لتعيين قبلة مكة . ان الاقواس التي تحيط بالباحة محمولة على دعائم وعلى أساطين . هذه الاقواس هي

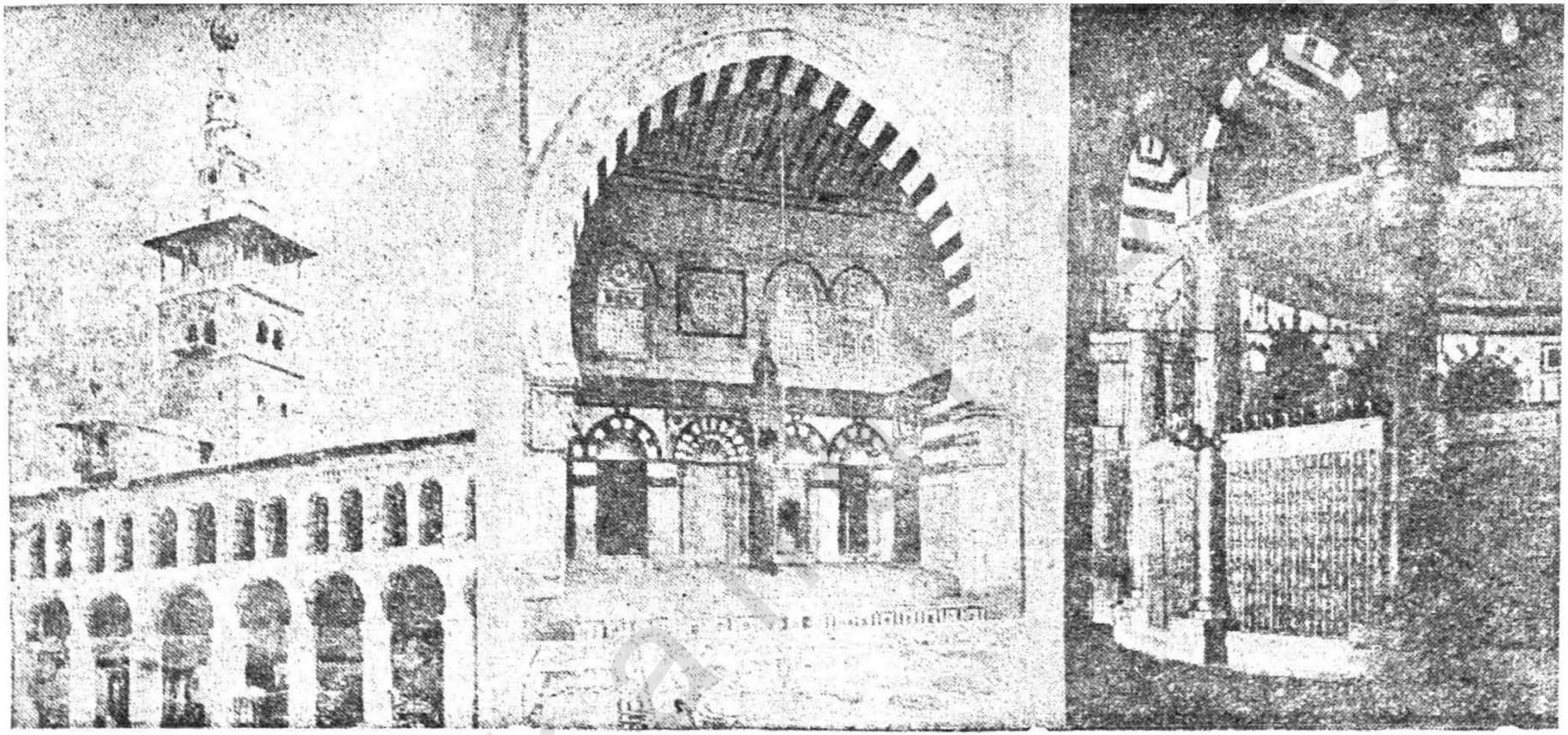

(شكل ٢)

داخل قبة الصخرة

اورشليم

(شكل ١)

داخل جامع قاتيباي ـ القاهرة

(يرى المنبر المرتفع نافراً في الوسط

وعن يمينه ـ يسار الصورة ـ المحراب)

(شكل ٣)

المسجد الجامع

دمشق

obeikan.com

من طرز (حدوة الفرس) التي قُدّر لها أن تصبح من أهم مميزات فن العمارة الاسلامي في الغرب لعلة غير معروفة. قد تكون حدوة الفرس ، هذه ، إما دائرية او مدببة الوسط ولكن تقوسها على أية حالة ، كان مستمراً الى ما تحت خط نصف القطر . وقد استُعمل في دمشق تقويس حدوة الفرس الدائري . وفوق الاقواس الرئيسية يوجد — على مدار الصحن ، صف من النوافذ ذات الرؤوس نصف الدائرية : نافذتان في كل تقويسة ، بقي واحد من الابراج الرومانية الاربعة التي كانت في يوم ما تنتصب في زوايا (الهيكل Temenos) مخططة حدوده والتي استخدمها العرب بمثابة منائر. هذا البرج الباقي يقع في الزاوية الجنوبية الغربية. أما المنائر الثلاثة الاخرى فقد بُنيت في وقت متأخر . زيّنت داخلية البناء بزخارف ونقوش من الرخام والفسيفساء . ويظهر ان الزجاج الملوّن كان يكسو نوافذه . إن التصميم غير الاعتيادي لهذا المسجد ربما عاد بأثيره الى أساليب عمارة الكنائس السورية التي حُوّلت الى مساجد. وربما ظهر اقتباس الرواق والقبة في وسط المحراب ، شاهداً على الرغبة في إظهار أهمية (القبلة) التي مثلها (المحراب) للمرة الثالثة في هذا الجامع أيضاً[٧] والمحراب نفسه ربما كان فكرة مبتدعة أصيلة في هذه الاقسام من المعمورة حيث تكاثر أوجاع الدين الى درجة عظيمة يحتمل أن يكون سبب بناء المحراب بشكل تجويف مقوّس في الجدار ، لتمكين الأعمى من التعرّف اليه عندما يدبُّ متلمساً سبيله بمحونة الجدار كما أخبرني بذلك شيخ في مناسبة من المناسبات[٨] أو ربما استعيرت من حنية ما وراء المذبح المسيحي. وجدت القوس الشبيهة بحدوة الفرس في أبنية ماقبل الاسلام محفورة في الصخور . ولكن ظهورها في دمشق كان من أوائل المناسبات التي استخدمت لأداء وظيفة معمارية حقيقية . إن الغرض من المنارة هو واضح جداً : بُنيت لكي تكون مكاناً مشرفاً للمؤذن الذي يدعو المؤمنين الى الصلاة — هذه الدعوة ابتُدعت لغرض مقصود وهو مقابلة عادة

---

٧) اول محراب محفور كان في المدينة والثاني بالفسطاط « القاهرة » . (المؤلف)

٨) من رأي أحد الفضلاء وفيه وجاهة : قد يكون سبب وجود المحراب اقتصادا في فسحة المسجد بحيث يشغل الامام صفاً كاملا من المصلين لولا وجوده .

المسيحيين في دعوة المصلين بدق الصنج الخشبي (قبل ايجاد النواقيس) او استعمال اليهود للنفير. ويبدو أن أول استخدام يرجع لهذا الغرض كان فى دمشق .

إن أقدم منارة بقيت قائمة حتى الآن، هي منارة المسجد الجامع في القيروان قرب تونس فقد أثر عنها أنها بنيت في زمن خلافة هشام بن الحكم (٧٢٤ – ٧٤٣م) وهي عبارة عن برج ضخم هائل مربع يضيق قليلاً كلما ارتفع فى الجوّ. وهامة هذا البرج متوجة بشرفات يعلوها طابقان أحدهما بني في وقت متأخر . وانه ولو صحّ أن كانت البروج المربعة الاربعة في مسجد دمشق هي اولى المآذن المستخدمة لهذا الغرض . فلا يبدو ثم حاجة الى أن ينسب بناء بسيط كل البساطة كبناء مسجد القيروان الى سورية او الى أي محل آخر بوصفه محل المنشأ . ان المنارة متطلّبة لغرض ديني ، عولج بأبسط الطرق وأكثرها صراحة . وفيما خلا ذلك فمسجد القيروان ذو طابع عمومي . كثيراً ما تعاورته يد التغيير . لكنه بقي على الشكل الرئيسي الذي تمّ باعادة بنائه فى نهاية القرن التاسع . ومسجد الزيتونة في تونس المبني سنة ٧٣٢م انما هو مثال طريف آخر قديم للمساجد الجامعة ببوائك ذات أقواس ارتفاعها غير لطيف تتركّز على أساطين أثرية . وفوق هامات الاعمدة توجد أفلاق خشبية او تكعيبة abacus يصل بعضها ببعض دعائم خشبية ؛ البدعة التي كانت عاملاً في تشويه الكثير من الابنية الاسلامية الاولى .

بدأت عمارة المسجد الجامع بقرطبة – اسپانيا ، سنة ٧٨٦ وبقيت مستمرة (شكل ٣). وما جاء القرن العاشر حتى كانت مساحة هذا المسجد أكثر من ضعف مساحته زمن البدء ببنائه. على أن شكله الاصلي يمكن التثبت منه غبّ مدارسة دقيقة لهيكل بنائه الحالي . فهو مسجد جامع ذو رواق عميق ، يحتوي على أحد عشر جناحاً منفصل واحدها عن الآخر ببوائك تحتوي كل واحدة على عشرين عموداً . هذه الاعمدة أخذت كما أخذت أعمدة من قبلها حسبما أوردناه – من أبنية رومانية قديمة . إن سعة الرواق العظيمة جعلت من المناسب ان يكون سقفه كثير الارتفاع ، أعلى بكثير – في الحقيقة – من أطوال الاعمدة الميسورة . فأقيمت فوقها أقواس حدوة الحصان المعتادة وفى أعلاها بُني صفٌّ ثانٍ من الاقواس فى مستوى أرفع من الصف الاول.

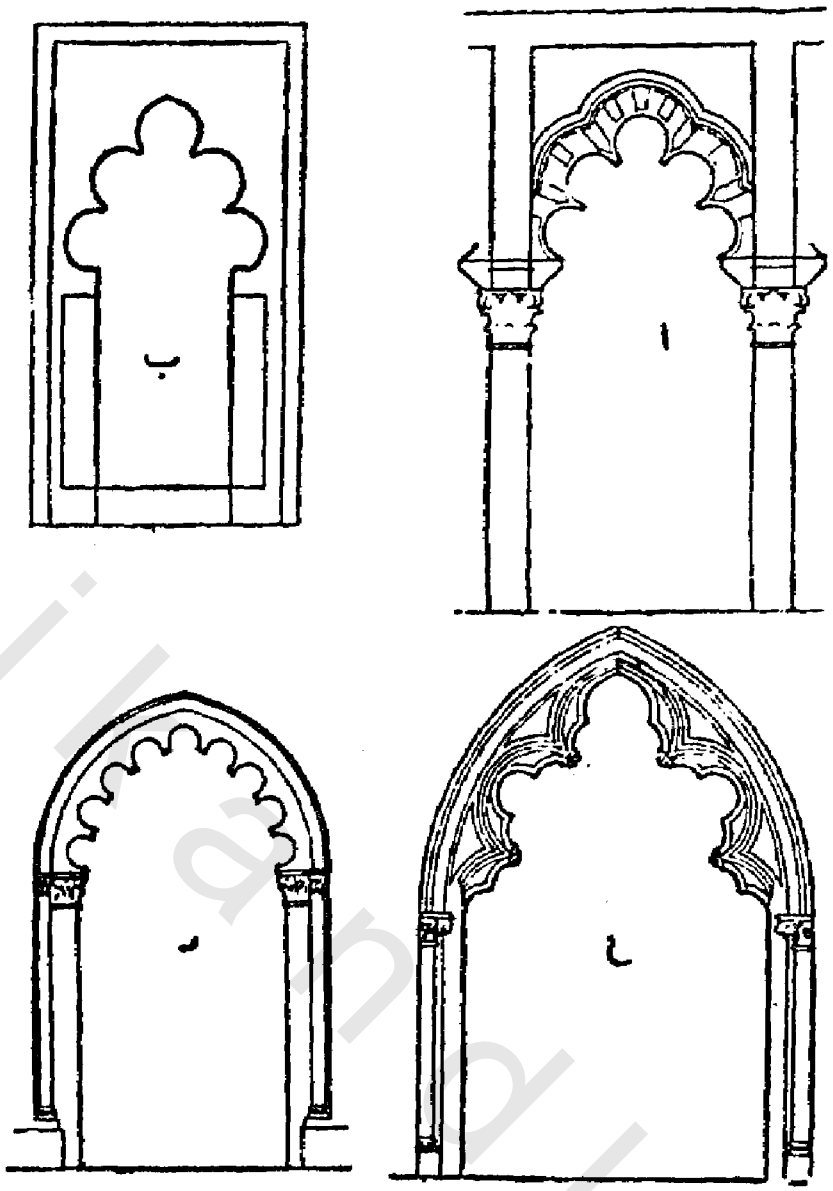

(شكل ٤)

نماذج كوى وعقادات مقرنصة للمقارنة

آ ـ بقرطبة : في رواق المسجد الجامع (٩٦١-٩٧٦م) .

بـ ـ بسامراء : في رواق المسجد الجامع (٨٤٦-٨٥٢م)، ومدخل الرواق في كاتدرائية ولز وسالزبري القرن ١٣ يشبهه الى حد كبير .

جـ ـ في كنيسة كلى Cley بنورفولك القرن ١٤ .

دـ ـ بكنيسة لاسوتيرين la Souterraine (فرنسا) حوالى سنة ١٢٠٠ م .

فتألف من كل ذلك منظر شديد التعقيد غير متناسق يخلف في النفس أثراً بعيداً عن البهجة كل البعد . لذلك فاننا نجد الاعمدة الاثرية الجاهزة هي التي أملت على البوائك شكلها هذا في القيروان وفي قرطبة حيث ساعد على إدخال دعائم اللبن الحجر او الاساطين الاكثر ارتفاعاً التي صُنعت خصيصاً للبناء نفسه واعان المعمار على الاستغناء عن تلكم الوسائل الساذجة التي تقذى لها العين . ولقد كان مسجد قرطبة كله محاطاً بجدار عالٍ مدعوماً بأساطين وبيوائك على مدار صحنه .

علينا الآن أن نتعقب خطواتنا الاولى الى بلاد ما بين النهرين حيث كان ثم عدة مساجد مبنية باللبن على الاسلوب المعتاد في البلاد . تقوم هذه المساجد بمثابة همزة وصل بين مسجد المدينة ومسجد ابن طولون في القاهرة . من أمثال هذه المساجد (المتوسطة) نذكر مساجد الاُخيضر[٩] ، والرقة[١٠] ، وأبي دُلَف[١١] ، وسامراء[١٢] . والاثنان الاولان يرجعان حسبما قيل — الى القرن الثامن الميلادي ، أما الآخران فيعودان الى أواسط القرن التاسع وكلها تحمل طابع العمارة الساسانية ، وفي كلها تصميم المسجد الجامع .

إن المسجد في قصر الأخيضر الذي وصفته المرحومة (ن. اي. بل)[١٣] وصفاً متقناً في رسالتها عنه ، هو ذو أهمية جوهرية لنا لان المرء يجد فيه جرثومة الاقواس الحادة الذي أصبح

---

٩) انظر نشرة دار الاثار القديمة في العراق عن قصر الاخضير — ط ١٩٣٧ .

١٠) الرقة مدينة تقع قرب ديار بكر ومسجدها هو المسجد الذى بني في قصر هارون الرشيد نفسه .

١١) يبعد نحو من « ١٥ » كيلومترا عن سامراء الحالية . ويستدل من هيئته وشكله ومن بعض الاسانيد انه من عمل الخليفة العباسي « المتوكل » .

١٢) يستدل من الاحجار انه من ابنية المتوكل بناه بعد ان ضاق مسجد المعتصم بالناس فهدم وبنى على انقاضه . ابتدأ به سنة ٢٣٤هـ = ٨٤٩م وانتهى منه بعد ثلاث سنوات .

١٣) كروترود . اي . بل « قصر الاخضير ومسجده « ط اكسفورد ١٩١٤ » . (المؤلف) دبلوماسية شهيرة انكليزية ورحالة (١٨٦٨ - ١٩٢٦) عرفت بدورها الفاصل في تكوين دولة العراق الحالية .

فيما بعد أهم طابع لفن العمارة القوطية في الغرب . والقوس الساساني المأثور هو نصف دائري . ولكن قد يصادف المرء في بعض الاحيان أمثلة متباعدة قديمة للأقواس المدببة . ومن المحتمل ان الاقواس الشبيهة بحدوة الفرس قد استُعملت في بلاد العراق قبل هذا الزمن . وثم عدد منها في كنائس سوريا (مثال ذلك كنيسة نصر بن وردان حوالى سنة ٥٦٤م)[١٤] كما يوجد فعلاً مثال هيلّني في شويزي[١٥] بايطاليا . في الاخيضر كانت الاقواس مدببة بيضية مرتفعة بعض الشيء كما في قصر المشتى ، ولكن في باب بغداد ومسجد الرّقة . ومسجد أبي دلف قرب سامراء . اتخذ القوس المحنّاء كان فيما بعد الطابع الذي يدمغ الفن الاسلامي ، وفي نهاية القرن الثامن ، حلّ محل كل أشكال الاقواس في سائر انحاء العراق . وقد تجد القوس المدبب الأقدم من هذا بكثير في الهند أحياناً ، منحوتاً على الصخر الأصم . وهكذا كانت الاقواس بالاصل منحوتة على الصخر مطلقاً ، لا مبنية .

والمسجد الجامع بسامراء ذو سعة هائلة وأهمية تاريخية جليلة . يتألف من صحن ذي رواق طويل من جهة مكة ومن أورقة جانبية طويلة بعس الشيء على مدار الجوانب الثلاثة الباقية من الصحن . وفي الجدار الخارجي العظيم أبراج اسطوانية الشكل في كل زاوية من زواياه الاربع . وبينها من الخارج أيضاً أبراج نصف دائرية . وفي الجدار الجنوبي أي من الجهة القبلية ، صف من الكوى ذات رؤوس مقرنصة multifoil . ربما كان هذا الشكل غير الاعتيادي الذي نجده ايضاً في قرطبة — منبته الهند البوذية . كما ألمع اليه هافل[١٦] ، وإلاّ

---

١٤) يقع بين سلمية وحماة في الشام واول من وصفه هو « مورغان » في المجلة الاثرية الالمانية . يتألف هذا القصر من ثلاثة ابنية ويقرب طرز عمارته من المباني الملكية في القسطنطينية على عهد جستينان ٥٢٧ - ٥٦٥ م . ويرجحون ان مهندسه ايزدور . واهم ما فيه كنيسته الكبيرة التي حفر على بلاطات منها تاريخ ٥٦١ و ٥٦٤ م وليس ثم سبب معروف لتسمية الموقع بابن وردان .

١٥) *Chiusi* مدينة ايطالية من اقليم « سينا » بتوسكاني شهيرة بآثارها الاتروسكانية .

١٦) *E. B. Havell* « العمارة الهندية » الطبعة الثانية - لندن ١٩٢٧ ، ص ٨٥ - ٨٦ . (المؤلف)

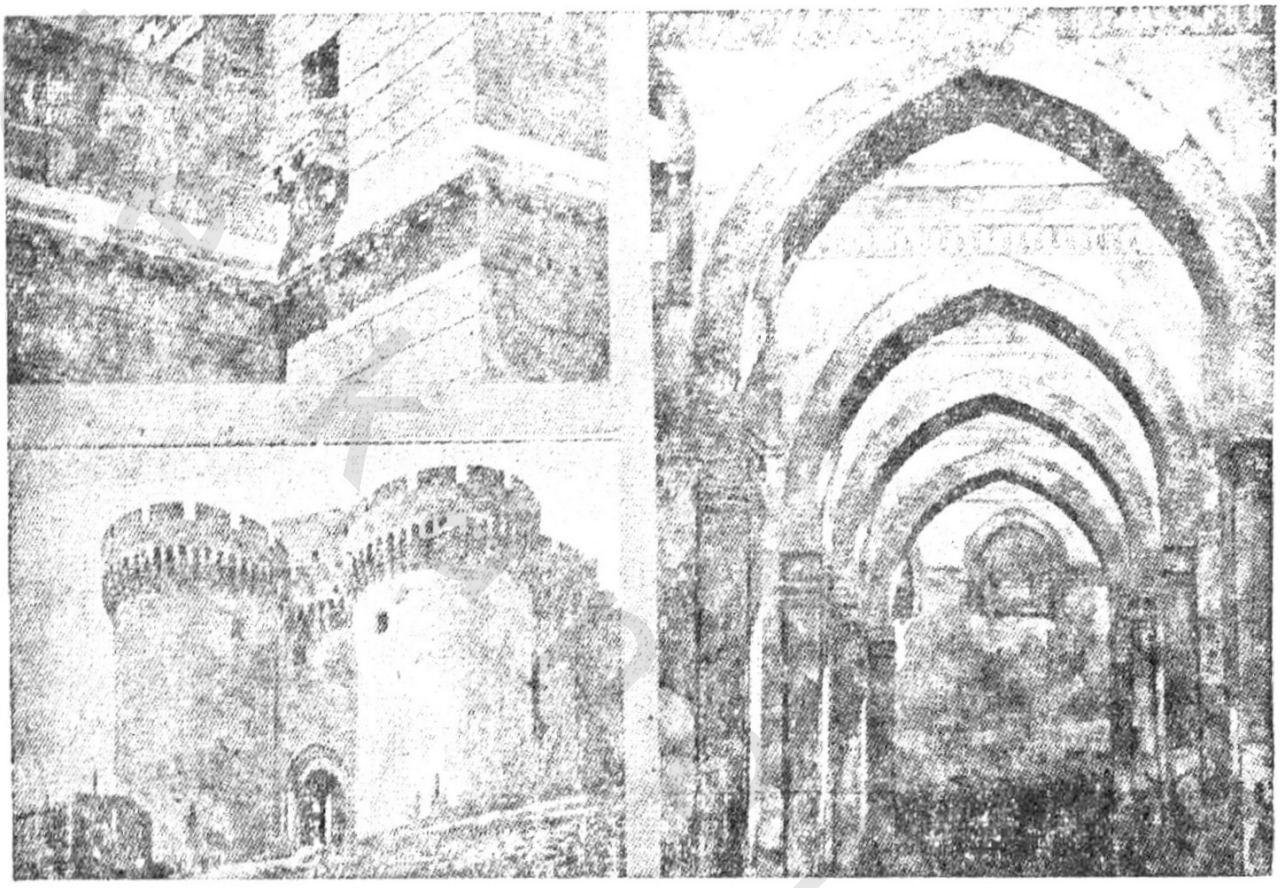

٥ – جامع ابن طولون في القاهرة – أحد الاروقة .

٦ – باب النصر فى القاهرة (١٠٨٧م) .

٧ – مدخل قلعة فيلونوف لوز آفينون Villeneuve les – Avignon – القرن ١٤ .

وجب علينا ان نعزو وجوده في الفن العربي بكل ما طرأ عليه من تنوع وتغيير – الى الاسلام (شكل ٤) . وأهم من كل هذا هو الاستعاضة بدعامات الآجر لحمل الاروقة عن استخدام الاساطين الاثرية التي سبق ان ساهمت في بناء مسجد قرطبة وغيره من الامكنة . هذه الدعامات مثمنة الاضلع ، تقف على قاعدة مربعة . وفي كل دعامة منها أربعة أعمدة رخامية مستديرة او مثمنة الشكل تربط فيما بينها دُسَر dowels معدنية ، وهاماتها ناقوسية الشكل . وهنا ثمّ لدينا نمط آخر انتقل الى العمارة الغربية . أما المنارتان الحزونيتان الغريبتا الشكل : اولاهما ملوية سامراء ، وثانيتها منارة جامع ابن طولون (المبنية فيما بعد) فلم تثمر هندستها شيئاً في مجالات التقدم العماري . وبقيتا عقيمتين .

وصف جامع ابن طولون الذي بدئ ببنائه في ٨٧٦م ، عدة كتاب بتفصيل وإسهاب . ولكن أهميته في تاريخ فن العمارة الاسلامية قد تناقصت الى حدٍّ ما ، منذ أدركنا ان بعض مظاهره الهامة قد وجدت في بنايات عراقية أقدم منه تاريخاً . هذا المسجد عظيم المساحة يكاد يكون مربع الشكل ، ذو صحن تكتنفه من جميع جهاته أروقة ذات اقواس (شكل ٥) اما الرواق الاكبر (الايوان) ، فهو أطول بكثير من الأروقة الاخرى ، وتوجد خارج الجدران الرئيسية باحة مكشوفة تسمى (زيادة) . وهي طارئ جديد على العمارة لم نره من قبل في المساجد . الجدران الخارجية ضخمة جداً تتوجها شرفات مزخرفة قد تُعتبر – كما سيظهر فيما بعد – النموذج الاصلي للاسوار القوطية ذات الشرفات والكوى (وجدت شرفات من عدة اشكال عند الآشوريين قبل القرن الثامن ق.م. ووجدت ايضاً في مصر قبل ذلك بزمن أبعد) . وكان يوجد تحت الشرفات صف من الشبابيك ذات الاقواس المدببة مملوءة بالمخرمات الجصية او ما يسمى بـ (claire – voies) ، تتعاقب بين كوى ذات هامات مقرنصة أو مدببة وتتألف البوائك من اعمدة قرميدية ضخمة مع دعائم ثانوية مساعدة في الزوايا وفوقها اقواس مدببة ليس فيها إلا الحناء محسوس شبيه بجدوة الفرس عند بداية التقويس ولهذا كان كل البناء حتى سطح السقف الخشبي ، مبنياً بالآجر المغطى بطبقة جصية عاطلة او مزخرفة . وقد يقال بلا

مبالغة ان هذا المسجد هو عراقي الطراز، من كل الوجوه، وانه مقتبس من نماذج له في سامراء وبغداد، عرفها بانيه احمد بن طولون ايام شبابه . وبجانب هذه الملامح التي نوهنا بها آنفاً، ظهرت بدع اخرى منها الكتابات الكوفية المحفورة على الخشب (وهو تكييف بارع في استخدام أحرف الكتابة لأغراض زخرفية)، والنقوش الملونة على كل سطح منه بادٍ للعيان، وفي الاغلب على سطوح الجص الابيض . كما نجدها كذلك فوق عوارض السقف الخشبية . هنالك أيضاً محراب ظاهر الزخرفة اعتورته يد التغيير، وفوّارة في وسط الصحن (لم تكن ضمن البناء الاصلي الذي علته قبة خشبية)، ومسارج ضخمة تتدلى من السقف .

إن عدد المساجد الاسلامية الذي انحدر الينا من الفترة المحصورة بين نهايتي القرن التاسع والثاني عشر، لم يكن كثيراً . ففي غضون هذه الحقبة اقيمت عدة بنايات عسكرية . ومن المسلم به ان الصليبيين اقتبسوا بعض الآراء المعمارية من قلاع سوريا ومصر حيث بلغ فن العمارة في سوريا وارمينيا شأواً بعيداً من السمو قبل هذا العهد بعدة قرون . واستعمال الاوربيين للمشربية[١٧] مثلاً جاء من هذا المصدر .

في مؤلف لمستر كرزول عن قلعة القاهرة[١٨]، ملحق، اتى فيه الى شرح اصل المشربية . فقال : هنالك ستة او سبعة امثلة متخلفة لها في سورية من اصل عشرة، كانت في الواقع مراحيض حجرية نافرة، من طراز بقي شائعاً حتى زمن متأخر . والحق انه يوجد مثيلات

---

١٧) ان ما يسمى بـ *Machicolation* هو ابراز عوارض او دعامات ذات مسافات متقاربة من الجدار لتحمل شرفات بارزة خارج البناء . وبين كل زوج من الدعامات فتحة « تسمى بالفرنسية *machicoulis* » تتقفل عن طريق باب قلاب، ومنه تفوق السهام ويصب الزيت المغلي او الماء الفاتر او غير ذلك من الحمم على رؤوس ضاربي الحصار الذين يحاولون لغم الجدران من اصولها . حلت هذه المشربيات محل المقصورات الخشبية المعروفة بـ *hourdes* (*hoarding*) او *breteches* (*brattices*) والمستعملة للاغراض نفسها، (المؤلف) . نقول : مازالت هذه المشربيات مسيطرة على فن لبناء الدور المطلة على الشوارع محلياً وتسميها العامة « الكوشك » بتسكين الشين .

١٨) ظهر في نشرة المعهد الاركيولوجي الشرقي الفرنسي مجلد ٢٣ القاهرة ١٩٢٤ . (المؤلف)

لها الى الآن فى رصيف ميناء گوري Gorey[19] بجرسي . أما الثلاثة الباقية من العشرة فربما كانت تُستخدم لتفويق السهام من فوق. يعود تاريخ أقدمها الى منتصف القرن السادس للمسيح أي قبل الاسلام . ومنذ أزاح مستر كرزول الستار عن حقيقة هذه المظاهر ، اكتُشف انموذج اسلامي لها في قصر (الحَير) قرب الرُصافة في سوريا يرجع تاريخها الى ٧٢٩م. وهنالك مثالان آخران يقومان فوق باب القصر (١٠٨٧) الذي هو باب من أبواب القاهرة بناه معارون أرمن، من الواضح انهما مشربيتان وضعتا للدفاع عن المدخل (شكل ٦) تاريخهما يسبق أقدم ما عُرف منها في اوربا بمائة سنة. كما في شاتوگيار chateau gaillard (١١٨٤) وشاتيون chatillon (١١٨٦) ونورويج norwich (١١٨٧) ووِنچستر winchester (١١٩٣) ولذلك كان واضحاً أن الصليبيين اقتبسوا هذه الفكرة من العرب ، وليس العكس . وهكذا أصبحت المشربيات المقامة فوق صفوف من الدعامات؛ من المظاهر الأنيقة فى القلاع الفرنسية والانكليزية في القرن الرابع عشر (شكل ٧). وثَمَّ ظاهرة أخرى في هندسة البناء العسكرية اقتُبست من مصر وسوريا وهي مدخل القلعة الملتوي او المدخل ذو الزاوية القائمة خلال مدخل في الجدران وبهذه الطريقة لا يتمكن العدو الذي يصل باب القلعة من الرؤية والرمي باتجاه المدافعين في الباحة الداخلية . مدخل من هذا الطراز لايبدو انه كان معروفاً في الفنون العسكرية الرومانية او البيزنطية ، فقد كان لديهم عدة مداخل دفاعية متوالية مقامة على خطٍ واحدٍ . منفصلة بعضها عن بعض بفراغ يُعرف باسم پروپوگناكلوم propugnaculum . هذه المداخل الملتوية استُعملت اول مرة ، بأبعد ما عُرف — في مدينة بغداد المدوَّرة (القرن الثامن) ثم في قلعة صلاح الدين بالقاهرة (بديءَ بها سنة ١١٧٦) . وبلغت شأوها الأقصى في مثال بديع لها هو قلعة حلب ، وليس في انكلترا مثيل لهذه المداخل إلا فى النادر القليل وإن كان يوجد مثال حسن لها فى بوماريس Beaumaris . أما في فرنسا فهو أكثر شيوعاً. مثال ذلك في كركسون

١٩) جزيرة فى القنال الانكليزي ، كبيرة الحجم سكانها نورمان وفرنسيون ، تقع في اقصى الجنوب الشرقي .

Carcassonne ، ولكن هذين القطرين كانا يفضلان مدخلاً مائلاً لقلاع أكثر تحصيناً واتقاناً . مثال ذلك بيرّيفون Perrefonds وكونوي Conway .

ليس في الهند بنايات اسلامية ذات أهمية قبل أن يُشرَع ببناء دلهي القديمة في مستهل القرن الثالث عشر . كما لا يوجد شيء منها في تركية الآسيوية حيث بدئ بتشييد جملة من الأبنية السلجوقية في (تونية) خلال تلك الفترة نفسها . أما في اسپانيا وشمالي افريقيا فأهم ما تخلّف — باستثناء الابنية العسكرية — هو العمارة المتأخرة في المسجد الجامع بقرطبة الذي أُحدثت فيه أبنية اضافية كثيرة في النصف الثاني من القرن العاشر . والمنارة البديعة باشبيلية (برج جيرالدا ١١٧٢—١١٩٥ وفي الرباط (١١٧٨—١١٨٤) ، وكلتاهما مزدان ببوائك نافرة شبيهة ، وموطئة للتشبيك القوطي في القسم الأعلى من النوافذ (شكل ٨) . هذان البناءان مهمان من حيث الطابع الغريب الذي يكتنفهما . ترى فيهما قباباً غريبة الشكل والصنع . لكن لم يكن لهما أي تأثير بيّن على العمارة خارج اسپانيا . وفي صقلية بُنيت كنيسة بالاتينا سنة ١١٣٢ ، وكنيسة مارتورنا Martorna سنة ١١٣٦ ولازيزا (العزيزة : La Ziza) سنة ١١٥٤ ولاكيوبا (القبة La cuba) ١١٨٠ . هذه التواريخ المقبولة من الباحثين كلها تخرج عن حدود الهيمنة الاسلامية على الجزيرة التي انتهت ١٠٦٠م بالنسبة الى پالرمو و ١٠٩٠م بالنسبة الى صقلية كلها . ولكن حتى لو كان النورمان بُنّاتها ، ففيها ما لا يُحصى من معالم الفن العربي الخالصة التي توجد في أراضي ايطاليا الاصيلة بأمالفي Amalfi وسالرنو Salerno . والأبنية الرئيسة في ايران خلال هذه الفترة هي (مسجد الجمعة في أصفهان) والجامع الكبير في الموصل ١١٤٥—١١٩١م[٢٠] وكلاهما مسجدان جامعان واسعان ، انتاب الاول منهما كثير من التغيير. كانت المساجد الايرانية تُشاد بالآجر وتزخرف بنقوش جصيّة بارزة ، وبتربيعات قاشانية ، وهذا الاسلوب الاخير اتبع فيما بعد حتى في البلاد التي استعملت الحجر في البناء ، كسورية ومصر. وكانت المآذن بصورة عامة تُشاد زوجاً زوجاً متخذة شكلاً اسطوانياً ، يستدق قليلاً من اعلى ،

٢٠) توهم المؤلف ان الموصل تقع في ايران وان جامعها الكبير من نتاج الفن الايراني فتعجب ملاحظة ذلك

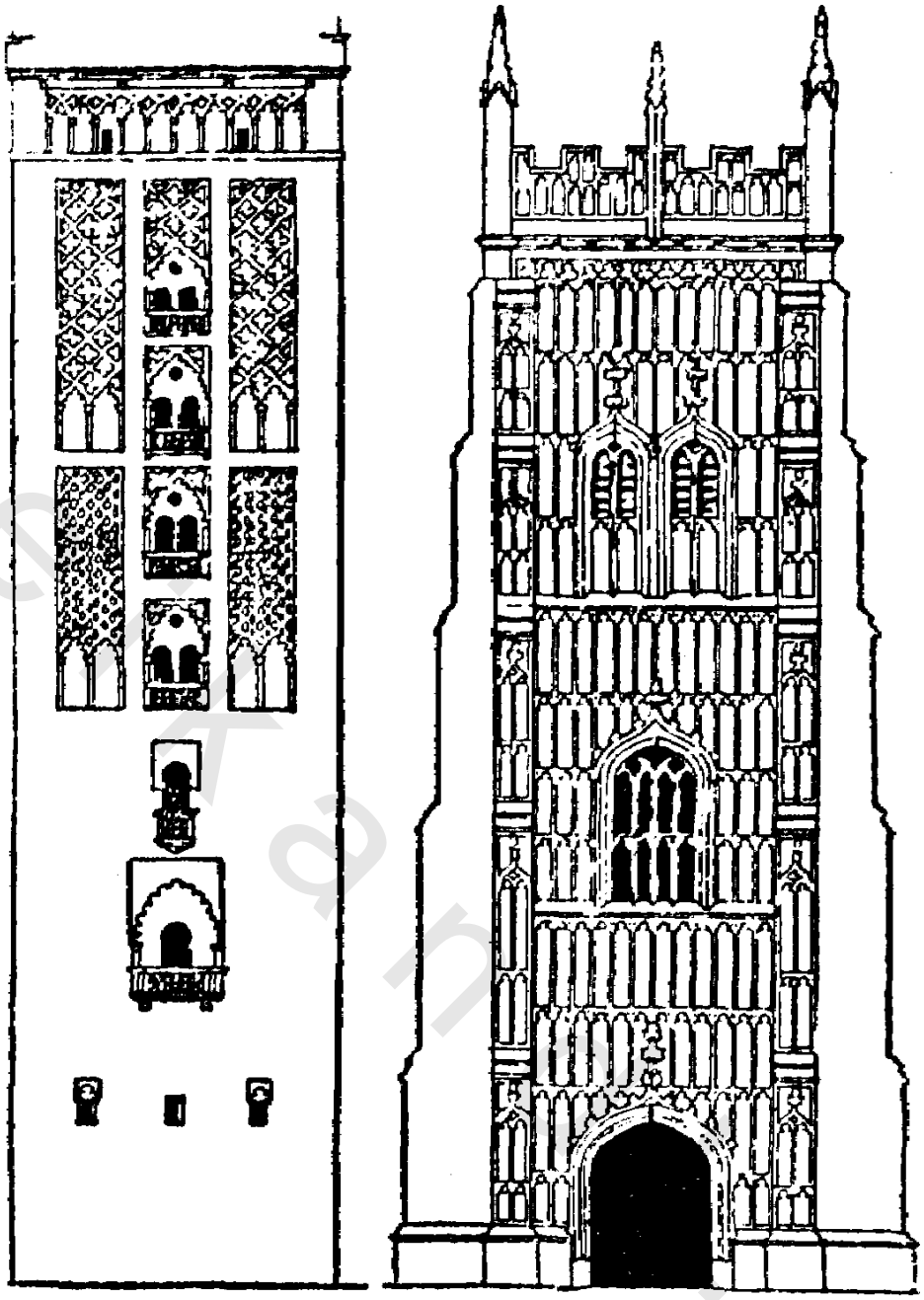

ب

أ

(شكل ٨)

نموذجان للمقارنة بين برجين مزخرفين

(دون مراعاة لمقياس)

أ ـ برج الناقوس فى ايفرشام (١٥٣٣) .

ب ـ منارة جيرالدا باشبيلية ١١٧٢ ـ ١١٩٥ م

(رفعت الشرفة منها واضيفت اليها قمة جديدة)

وسطحها مغطى ببلاطات برّاقة ملوّنة. ولقد قسا مسيو سالادان M. Saladin قسوة عظيمة في تشبيهها بداخن المعامل، ومن المؤكد انها لا تُقارن في الأناقة والروعة بالمآذن القاهرية. وجبت ايران أيضاً متحمسة بالزخرف الشبيه بالستالاكتيت[٢١] الذي أتينا الى شرحه في العبارة الآتية :

ان الامثلة الرئيسة المدرسة السورية – المصرية كلها توجد في القاهرة وهي مساجد جامعة واسعة كالأزهر (٩٧٠) ومسجد الحَكَم (٩٩٠–١٠١٢) والمسجد الجامع الصغير الاقمر (١١٢٥) والمشهد الصغير المهم : الجيوشي (١٠٨٥). بُنيت البوائك في الازهر والأقمر على أساطين أثرية . وفي مسجد الحكَم أُقيمت فوق دعائم قرميدية . ولم يُستعمل الحجر في المسجد أول الامر في القاهرة العربية . وإن كان حجر المرمر الممتاز متوفراً بكميات كبيرة في تلول المقطم المجاورة . ومن الواضح أن القاهرة اعتمدت اعتماداً كلياً على التقاليد العمارية العراقية حتى هذا الزمن . ان مسجد (الجيوشي) هو أول مثال للمشهد . هذا المثال تطوّر فيما بعد الى أبنية فخمة رائعة بقبة فوق ضريح منشئه. وبمحراب في جداره الجنوبي. والصحن صغير وبينه وبين القبة ممر معقود . وفيه مئذنة مربعة على ثلاث طبقات هامتها مرتفعة كالقباب التي يراها المرء في كنائس صقلية. إن لتطوّر القبة اكبر أهمية في تاريخ العمارة الاسلامية لكن لم يكن لديها أثر ظاهر على تراث الاسلام في البنايات الغربية الاوربية فعلينا ان نضرب عنها صفحاً في هذا المجال القاصر. وللسبب نفسه لا جدوى لنا من البحث في أصل هذه الظاهرة الفريدة (الستالاكتيت) التي تبعت المسلمين الى كل مكان وصلوه وأصبحت طابعاً لقاعات بناياتهم من الهند حتى اسبانيا . ويحتمل ان تكون عراقية الأصل وإن كان أقدم ما وُجد منها هو مئذنة مسجد (الجيوشي). والظاهرة الثانية هي شرفة المسجد الاقمر التي استُعملت كزخرف. وثَم ايضاً فجوات محفورة على أمثال قشور الاصداف، من المؤكد انها نموذج لفجوات الصدف المألوفة من عهد الرينسانس . وثَم ايضاً حزام من زخرف الكتابة الكوفية يحيط بأعلى جزء من الواجهة. وظهرت قرينة اخرى في المساجد القاهرية خلال هذه الفترة، ألا وهي الشرفات

٢١) *Stalactite* : هي الرواسب الكلسية المتدلية من سقوف الكهوف والمغاور بشكل الجليد المتحجر.

الشبيهة بسنّ المنشار التي ربما اقتُبست أيضاً من العراق . ويحتمل ان هذا الاسلوب فن استهوى مهندسي قصر الدوج وغيره من قصور البندقية فاقتبسوها من هذا المصدر .

من القرن الثالث عشر فصاعداً ، وكثير من الأبنية الاسلامية قد بُني وبقي قائماً في كل أقطاره ، وهنا علينا أن نضيف الى قائمته الهند وتركيا ، ونخرج منها صقلية . واستأثرت اسبانيا بقصرين شهيرين على درجة عظيمة من الأهمية هما قصر الحمراء Alhambra والكازار Alcazar جديران بالذكر هنا نظراً الزخارف المحتشدة فيهما والتي لا تشوّه جمالهما في الوقت نفسه . أما البنايات المغربية الاخر التي بُنيت في زمن متأخر فلا يمكن أن تُعد من الصنف الاول . وفي القاهرة أبدع مجموعة من المساجد والأضرحة بنيت حتى سنة ١٥١٧ ، وهو زمن استيلاء الاتراك عليها . وبعدها غلب اسلوب البناء العثماني على المساجد القليلة التي بُنيت . وفي بلاد الأناضول بمدينتي قرنية وبروسة مجموعة من النماذج المعمارية الطريفة حقاً تعود الى الفترة المنحصرة ١٢٠٠ — ١٤٥٣ . أي بصيرورة القسطنطينية عاصمة للاتراك . وبعد هذا التاريخ أخذ المعماريون العثمانيون يقتبسون من الفن البيزنطي والارمني بلا حساب وإن كان ما يشيدونه بعيداً كل البعد عن مسقط رأس هذين الفنين ؛ في القاهرة او دمشق مثلاً . إن لبلاد ايران والهند وتركستان ثروة لا تنضب من الأبنية الاسلامية المتأخرة . وفي الهند استمرت معالم الفن الاسلامي موجودة الى الآن . وعلى أية حال فثم ميزات وتأثيرات محلية قوية جداً تفصل بين تراث المدارس الخمس الرئيسة للعمارة العربية وهي : السورية المصرية ، والاسبانية الغربية ، والفارسية ، والعثمانية ، والهندية . هذه الميزات وإن عادت بعض الشيء الى طبيعة المواد الانشائية الميسورة محلياً ، فانها تنسب غالباً الى التقاليد الوطنية في فن العمارة .

شهدت القرون الوسطى تنوعاً وتطوراً عظيمين في تصميم المساجد . واستمرت بعض الأقطار على بناء المسجد الجامع ، وشاعت موضة المساجد المقببة . وفي القرن الثاني عشر وجدت المدرسة (مسجد مصلب الشكل للتدريس) التي يجب ألاّ ننسى ضمّها الى القائمة . قُدّر للقبة ان تصبح الميزة المفضلة الكبرى للعمارة الاسلامية . كان شكلها في القاهرة مرتفعاً

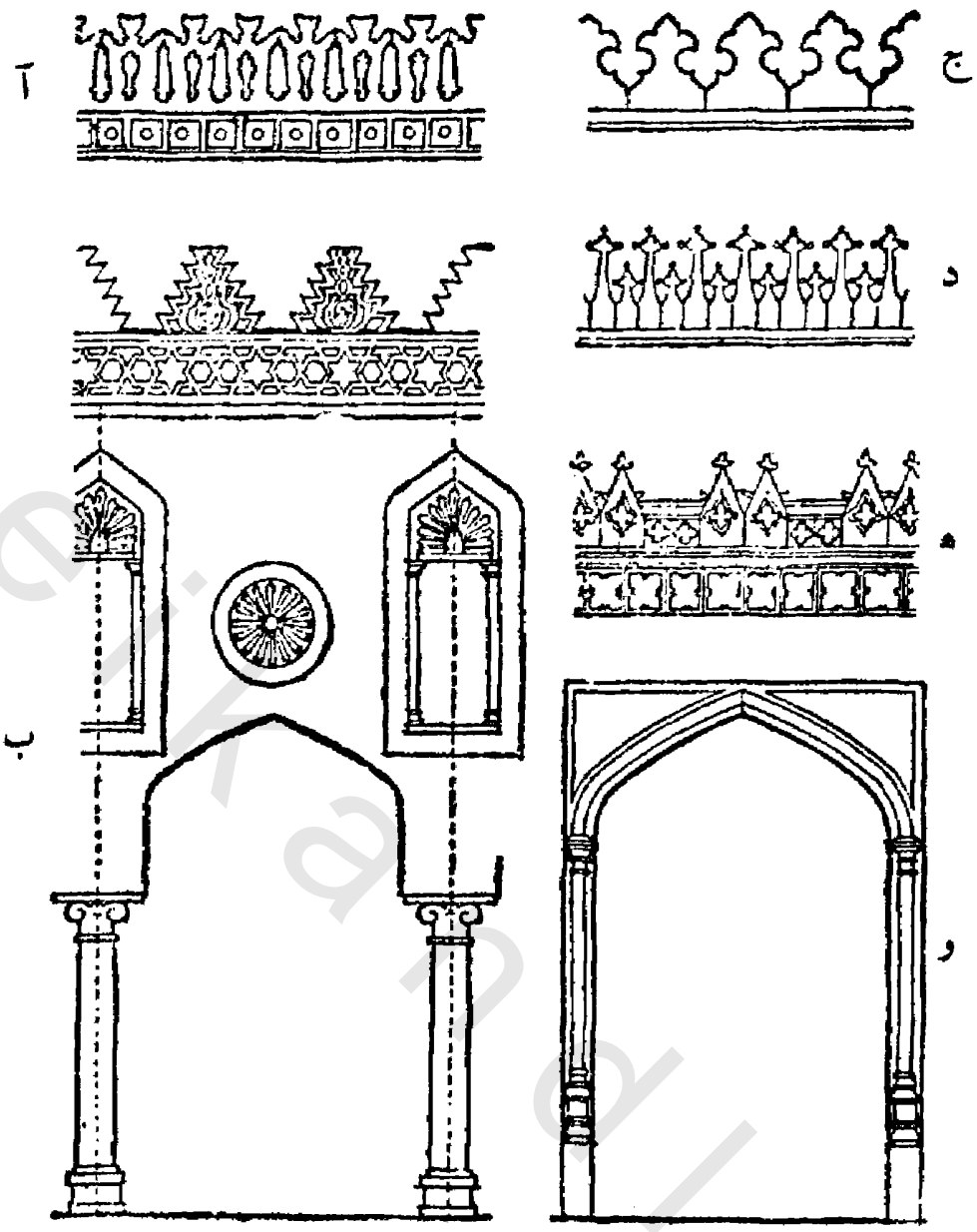

(شكل ٩)

نماذج أقواس وشرفات

آ ـ في جامع بن طولون بالقاهرة ٨٦٨م

ب ـ قوس فارسي في جامع الازهر بالقاهرة ٩٧٠م.

ج ـ في جامع زين الدين يوسف بالقاهرة ١٢٩٨م .

د ـ في قصر كادورو Ca'd'oro بالبندقية ١٤٣١.

ه ـ في كنيسة كرومر Cromer بنورفولك القرن١٥ .

و ـ قوس تيودوري في بهو كنيسة المسيح باكسفورد القرن١٦

في العادة . أما في ايران وتركستان فقد أعطيت الأفضلية للقباب البصلية المنحرفة، بينما اتخذت قباب مساجد القسطنطينية شكل القباب البيزنطية المنخفضة . وكانت قباب مصر الحجرية في القرن الخامس عشر مزدانة بزخارف مخرمة من الخارج ، أما في ايران فقد كان يُعمد الى تغطيتها بتربيعات من القاشاني اللامع الملوّن . والى تركيزها على عواميد ستالاكتيتية استُعملت هذه العواميد بالواقع — في كل مكان ، وغالباً بافراط يفوق الحد . كانت أحياناً تتدلى من السقف كما تتدلى ركائز pendents أقبيتنا الانكليزية ذات الشكل المروحي . ولكن في الوقت الذي لم يكن للقبة الاسلامية كبير تأثير على قباب الرينسانس في الغرب فيبدو محتملاً ان المآذن الاسلامية الموجودة بأبدع نماذج لها وخاصة القاهرية التي تعود الى القرنين الرابع عشر والخامس عشر منها قد أثرت على معالم فن الرينسانس المعماري في برج الناقوس campanili للكنيسة الايطالية . وقد أخذ عنها رن[٢٢] مسلاته الرائعة التي زيّنت مدينة لندن . من المؤكد ان المعمارين المسلمين في هذا العصر ، بدأوا يدركون امكانية حسن التأليف بين وضع القبة والمنارة معاً . مثلما عمل رن تماماً فيما بعد ، باستعماله القبة والأبراج في صعيد واحد وتأليف حسن بكنيسة القديس بولص . ولم يشع بناء المئذنة الفارسية الاسطوانية ذات الشكل الجهم ، ولا المئذنة التركية الشبيهة بالقلم ، خارج موطن الأصل .

بتقدم فن العمارة العربي ، ارتفعت أسهم الأقواس الشبيهة بحدوة الفرس المدببة منها وغير المدببة. وقد كثر استعمال الاقواس نصف الدائرية والعادية المدببة او ذات المركزين ، وما يُدعى بالقوس الايراني الذي ينتهي التقويس فيه بصيرورته خطين مستقيمين عند النهايتين استُعمل بكثرة في موطنه وغير موطنه. وهو شبيه بعض الشبه بقوسنا التيودوري (شكل ٩) وعمّ استعمال الاقواس ذات الحنايا المتعددة ، او الاقواس المقرنصة كأقواس عميا ، وبوائك لغرض زخرفة الاسطح. وكانت الشرفات تعمل بشكل زخرفة نباتية او على نمط سنّ المنشار

---

٢٢) *Wren* — بركرستوفر ١٦٣٢-١٧٢٣) من ألمع المهندسين المعماريين الانكليز بنى كثيرا من البنايات العامة والكنائس في لندن خاصة وفي مقدمتها كنيسة سانت بول وميخائيل ومازال أغلب عماراته قائماً حتى الان .

في مل. فتحات النوافذ بشبابيك او مخرمات على الحجر او الجص ، يزينها زجاج ملوّن تلويناً ساذجاً خشناً ، ربما ظهر قبل استعمال الزجاج الملوّن في بلدان الغرب .

ولما كانت الصورة الآدمية محرمة من الفقهاء فقد سدّ مسدها أحزمة الكتابات الزخرفية جصيةً كانت أم محفورة على الحجر او الخشب والواردة بالتعاقب مع نقوش هندسية سطحية . أما الحفر البارز كثيراً ، فنادراً ما وجد في الابنية المصرية الاسلامية ، وإن وجد في الهند أحياناً . في هذا الحفر تستعمل نماذج هندسيةسطحية في غاية الدقة ، وبدون تقيّد ، هذا الحفر يكاد يكون حزاً لقلة عمقه . ولو ابتعدنا شرقاً وخاصة في ايرانوتركستان حيث كان الآجر مادة البناء المعتادة ، لوجدنا ان بلاط القاشاني اللامع قد استُعمل في مجالات كثيرة ببراعة وتفنن. فأشكاله المؤلفة من أنماط هندسية ، ومقتبسة ، ظلّت رائجة الاستعمال لأزمنة متأخرة حتى استُبدلت بقاشاني ذي أشكال تقرب من مظاهر الطبيعة كهيئات ضروب النبات والزهر ويدل تعبير « الارابسك arabesque » الذي يُطلق على الحفر الزخرفي ذي البروز القليل الرائج استعماله في انكلترا العهد الاليزابي وما بعده — يدلّ بأننا مدينون لعرب القرون الوسطى بشيء[٢٣] . وثمّ شكل آخر من الزخارف شاع استعماله في القاهرة ، ولم يشع كثيراً في غيرها وهو تعقيب رصف الحجر الابيض ، بالحجر القاتم صفوفاً أفقية فوق صفوف . إن أصل هذا الافتنان قد يُعزى الى روما او بيزنطة حيث كانوا يتبعون هذا الاسلوب التعقيبي Lacing Course برصف الآجرات على مسافات في الجدران الحجرية. ولكن الموضوع ما برح يكتنفه الشك. لذلك فواجهات المباني الرخامية المخططة في « بيزا ، وجنوه ، وسينا ، وفلورنسا » وغيرها من المدن الايطالية قد تكون على أكثر احتمال من تراث القاهرة التي ارتبطت معها بوشائج تجارية في القرون الوسطى ، وترى أبنية ملوّنة بهذا الاسلوب في لوباي Le Puy[٢٤] باوفيرن

---

٢٣) في كل هذه النقاط : انظر الفصل العاشر « طبيعة الزخرفة العربية » من كتابي « العمارة الاسلامية » وما بعد الفصل ايضا (اكسفورد ١٩٢٤) . (المؤلف)

٢٤) مقاطعة تقع في اقليم اوفيرن وهو في وسط فرنسا .

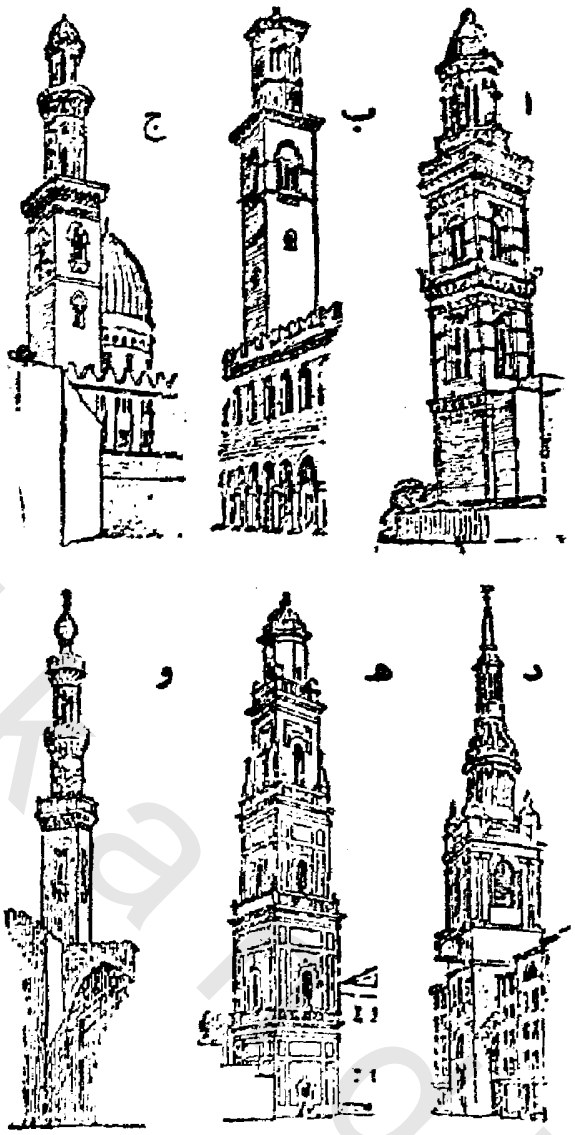

نماذج من المآذن والابراج

(دون مراعاة للمقياس)

آ ـ في قبة سپوليتو Duome Spoleto – ايطاليا ١٣٩٧.

ب ـ في توري دل كومينو Torre del Comuno ، ١١٧٢
وقبة الجرس Belfry ١٣٧٢ .

ج ـ في مدرسة سنجر الجولى ـ القاهرة ١٣٠٣ ـ ١٣٠٤ .

د ـ في كنيسة سانت ماري لوباو St. Mary le - Bow
بلندن من هندسة (رن) ١٦٧١ - ١٦٨٣ .

هـ ـ في قبة ليكي Duome Lecce – جنوبي ايطاليا
١٦٦١ - ١٦٨٢ .

و ـ في ضريح السلطان برقوق بجوار القاهرة ١٤٠٠ ـ ١٤١٠

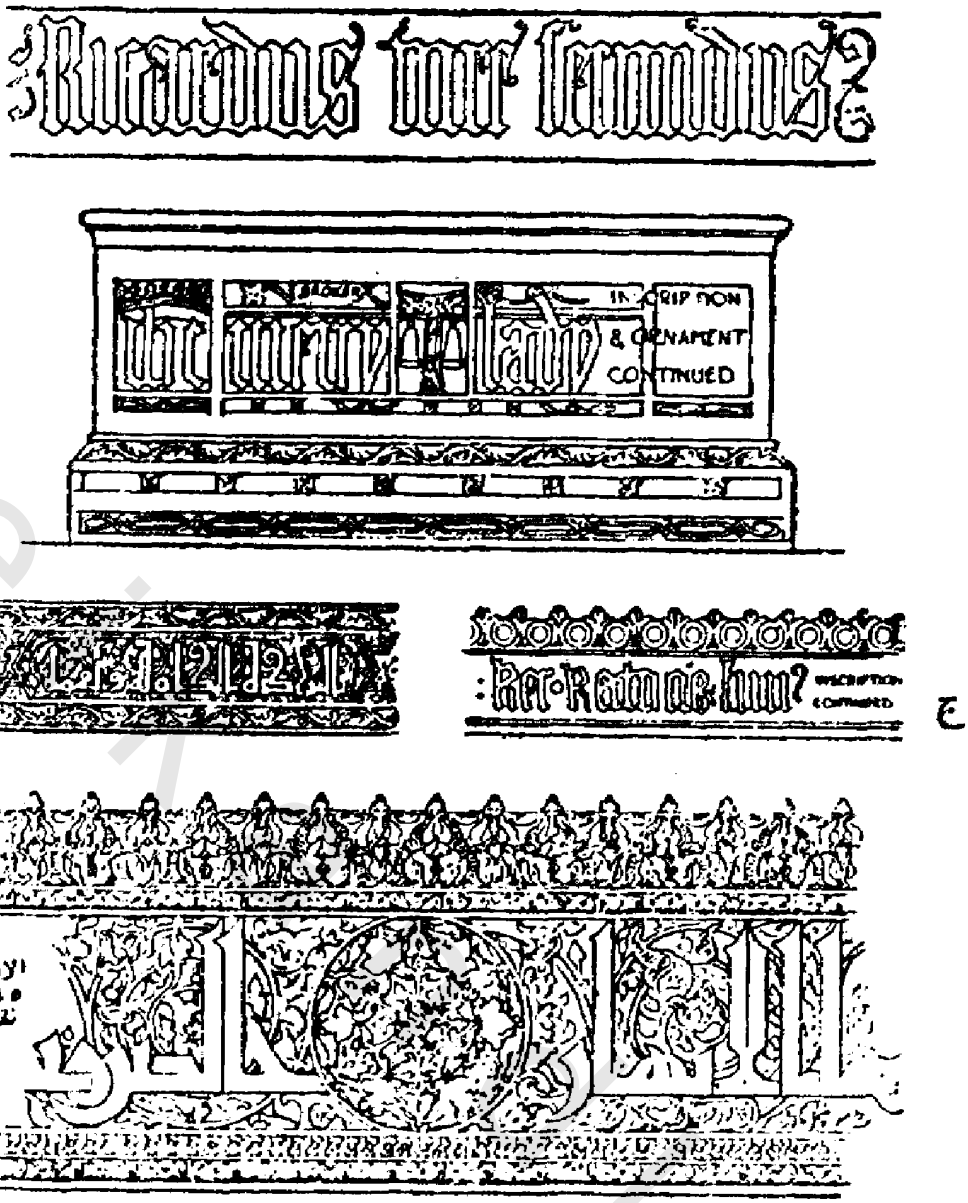

(شكل ١٠)

نماذج من الكتابات الكوفية والقوطية

آ ـ في جامع السلطان حسن بالقاهـرة ١٣٥٦ ـ ١٣٦٣
مصنوعة من الجص .

ب ـ محفوظ فى دار الآثار العربية بالقاهرة القرن ١٢ .

ج ـ في كنيسة ساوث اكر South Acre بنورفـولك
حوالى سنة ١٥٥٠ .

د ـ في ضريح (فيش ليك ـ يوركشاير) ١٥٠٥ .

هـ ـ قبر رتشارد الثاني . وستمنستر ١٣٩٩ .

Auvergne . وأقرب من ذلك كنيسة القديس بطرس بنورثامبتن في بلدنا انكلترا.

وبتلخيص كل النقاط التي وردت في هذا المبحث ، يتضح لنا أن دَين الاسلام المتراكم على العالم الغربي في فن العمارة هو دَين كبير . ففي ميدان الهندسة العسكرية وحده ، نجد أن الصليبيين الذين خلّفوا لنا عدة كنائس وقلاع رائعة في الاراضي المقدسة قد تعلموا هم أنفسهم شيئاً من فن التحكيم من خصومهم العرب الذين استفادوا بدورهم من عبقرية البنائين الارمن .

وإذا أخرجنا من حسابنا ما ندين به الى أبنية ما قبل الاسلام الحجرية الارمنية والسورية وأبنية الآجر الايرانية ، تلك الابنية التي يزداد ميل الباحثين الى ان تقليدها فضل بداية اسلوب تسقيف القرون الوسطى عندنا -- فلنا أن نعزو بكل إنصاف اختراع القوس المدبب الى البناء الاسلامي في سورية وغيرها . إن الاقواس الأوكية Ogee[٢٥] على وجه التأكيد ، والتيودورية على أغلب الاحتمال قد وردتا من أصل واحد أيضا . كذلك استعمال الزخرف السائب cusp[٢٦] والاقواس والمقرنصات المزخرفة على هذا النمط ، فكلها جاءت من الاصل نفسه . كما يحتمل صدور الزخارف المخططة المحفورة على السطوح منه أيضاً او ربما استعمال زخرف التشبيك في النوافذ . أما زخرفة الصفائح فربما اقتُبس من التخريم الهندسي على الحجر او الجص وقد كثر وجودها في المساجد الاولى او ربما كان أصلها أبعد من ذلك ، أي أبنية كسوريا والعراق لما قبل الاسلام . إن اختراع الزجاج الملوّن يُعزى أحياناً الى الشرق ولكن هذه النسبة لم تتأيد حتى الآن . أما استعمال الاعمدة المندغمة عند زاوية الاساطين وهي ظاهرة ذات أهمية كبرى في تاريخ التسقيف القوطي فانها بدعة عربية لا يرقى الشك اليها من بدع القرن الثامن والتاسع . جاءت الزخارف المحفورة او النافرة الى القاهرة من العراق ، ثم انتقلت منها الى ايطاليا لتصير بعدها من معالم فن العمارة القوطية البارزة ، وان الكتابات المحفورة التي كانت تقوم بمثابة زخارف في أنماط قوطية لزمن متأخر ، لها شبيهها في جامع ابن طولون بالقاهرة (القرن التاسع)

---

٢٥) وهي عبارة عن طاقات مضلعة ذات تقعيفين على حافاتها احدهما فوق الاخر وتدعى بالفرنسية ogive .

٢٦) وهو الزخرف المتدلي من نقطة التقاء نهايتي قوسين وغالباً ما يتخذ شكلا نباتياً .

لكن الكتابة بالأحرف الكوفية امتدت الى فرنسا خلال فترة احتلال المسلمين أقاليمها الجنوبية[٢٧] . وثم أمثلة نادرة جداً من الزخارف في انكلترا يُعتقد انها تأثرت بالاساليب العربية (شكل ١٠) وقد يمكن ان يكون مصدر الواجهات المخططة ، القاهرة . وربما جاء منها أيضاً شكل أبراج النواقيس campanili لعهد الرينسانس ، والحنايا الخشبية الشبيهة بقشور الصدف . إن المشربيات العربية الخشبية التي كانت تُستعمل لاخفاء جناح الحريم من الدار او كستار في المسجد، نسخها الانكليز فجعلوا منها أسيجة وحواجز من القضبان المعدنية المتشابكة. ومن المحقق ان السطح المزخرف بنقوش قليلة النتوء على طريقة الارابسك arabesque او على النموذج (الديابرى)[٢٨] واستعمال النقوش الهندية للزينة هو جزء من دَيننا للشعوب الاسلامية التي كانت أيضاً مصدراً او وسطاً ناقلاً لكثير من معرفتنا في العلوم الهندسية .

كل هذه النقاط التي تطرقنا اليها ، انما هي مظاهر عامة ، لكن الاتصال الوثيق بين الشرق والغرب إبان الحروب الصليبية ، ثم الاتصال الاكثر وداً من هذا خلال القرون الوسطى فيما بعد ، لابدّ وأنه خلّف آثاراً اخرى في فن العمارة ، أخطأته عين الملاحظة في هذا البحث السريع . في اسبانيا ، بقيت التقاليد المغربية في امور الزخرف — حتى آخر زمن من عهد الرينسانس وساعدت على إبراز الكثير من عجائب وطرائف العمارة الاسبانية القوطية. وأخيراً ربما كان حرياً بنا القول ان تطور الابنية الاسلامية ما زال مستمراً في كثير من البلاد النائية التي ظلّ فيها مزدهراً أكثر من الف سنة .

مارتن . إس . بريكز

---

٢٧) مثال ذلك الابواب الخشبية التي حفرها استاذ الحفر النصراني (كوفريدوس *Gaufredus*) في بيعة صغيرة من مشتملات كاتدرائية *le puy* ، وباب آخر محفور في كنيسة لافو شيلاك *Le Voute Chilhac*. وثم احزمة من الزخارف على رف كنيسة وستمنستر ابي وعلى شبابيك قديمة ملونة الزجاج يعزوها الاستاذ ليثابي *Prof. Lethaby* الى الاصل نفسه ، انظر أ. اج. كريستي « تطور الزخرفة من الكتابة العربية » مجلة برلنكتن مجلد ٤٠ - ٤١ سنة ١٩٢٢ . (المؤلف)

٢٨) انظر جزء « الجغرافية » .

الفهرست

الجزء الاول

مقدمة	المترجم	آ
تمهيد للمؤلفين	الاستاذ الفريد گيوم	د
القانون والمجتمع	الاستاذ دافيد دي سانتلاّنا	١
الملاحق		٣٢
الموسيقي	الدكتور إج. جي. فارمر	٣٩
الملاحق		٦٧
الجغرافية والتجارة	الاستاذ جي. إج. گرامرز	٨٧
الملاحق		١٢٠
التصوف	الاستاذ ارينولد آلن نيكلسن	١٢٧
الملاحق	المترجم	١٦٢
العلم والطب	الدكتور ماكس مايرهوف	١٦٧
الملاحق	المترجم	٢٢١
الرياضيات	البارون كارّا دفو	٢٢٧
الملاحق	المترجم	٢٥٦

obeikandl.com

﴿ الجـزء الثاني ﴾

الحروب الصليبية	الاستاذ ارنست بارکر	٢٥٧
اسپانيا والبرتغال	جي. بي. ترند	٣٠٣
الأدب	الاستاذ أي. بي. گب	٣٥٣
الفلسفة وعلم الكلام	الاستاذ الفريد كيوم	٣٩١
الفنون الزخرفية وأثرها في الصناعة الاوروبية	أي. إج. كريستي	٤٣٧
الفن الاسلامي وأثره على التصوير فى اوربا	السر توماس ارنولد	٤٨١
فن العمارة	مارتن. إس. بريكز	٤٨٧

ملاحظات الى القارئ الكريم

١ – بذلتُ جهدي لتلافي الأغاليط المطبعية عبثاً . فقد وقعت عدة أغلاط ، لا أنكر ان لي ذنباً فيها ، فضلاً عن الطابع . فأرجو أن يصححها القاري أثناء مطالعته .

٢ – إن الحواشي غير المذيلة بكلمة (المؤلف) تعني انها من تعليقنا .